دراسات تاريخية سودانية

معالم تاريخ سودان وادى النيل
(من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادى)

بقلم
الشاطر بصيلى عبد الجليل
أمين مكتبة معهد الدراسات السودانية
كلية الآداب - جامعة القاهرة
(سابقاً مؤرخة وزارة السودان)

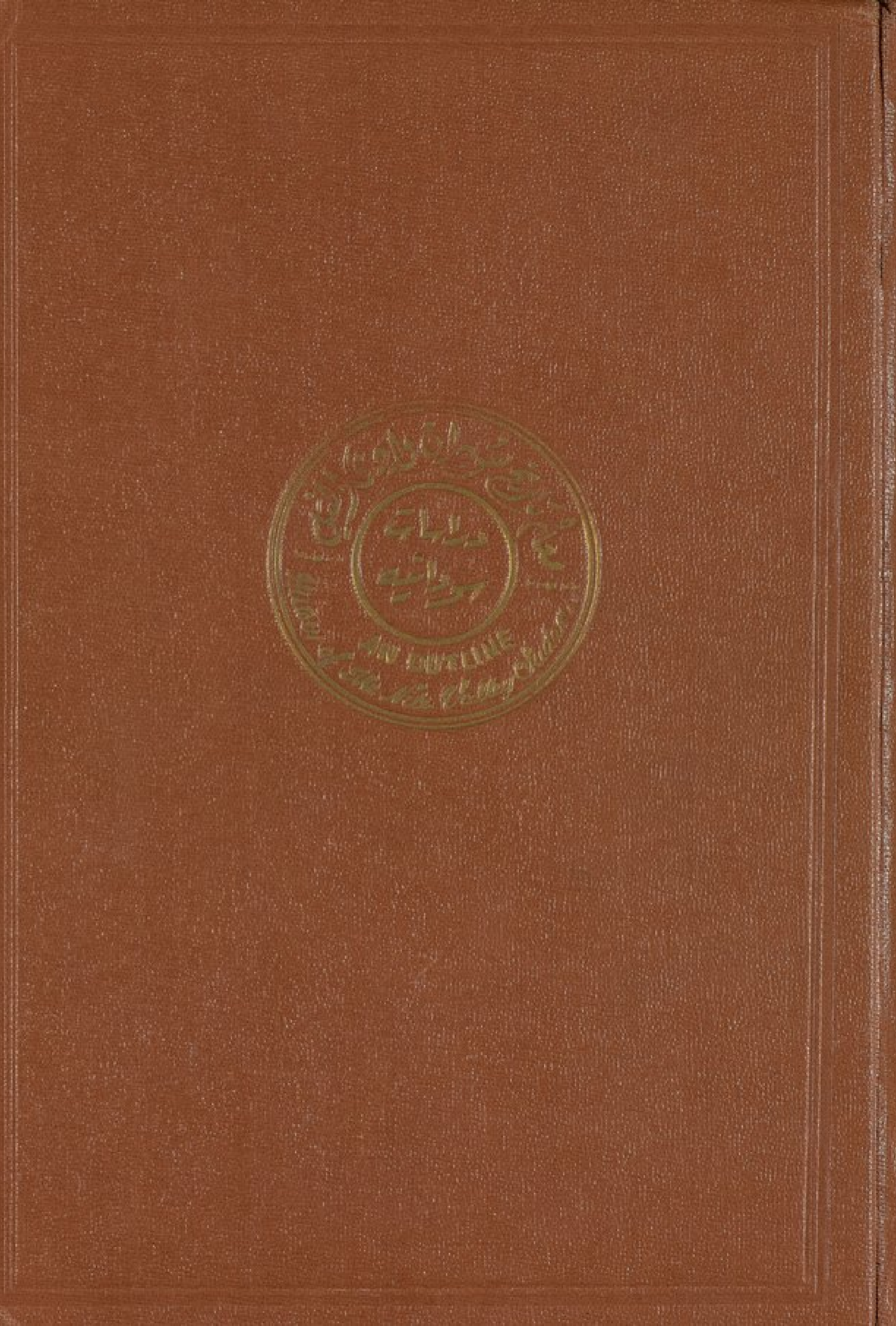
الطبعة الأولى

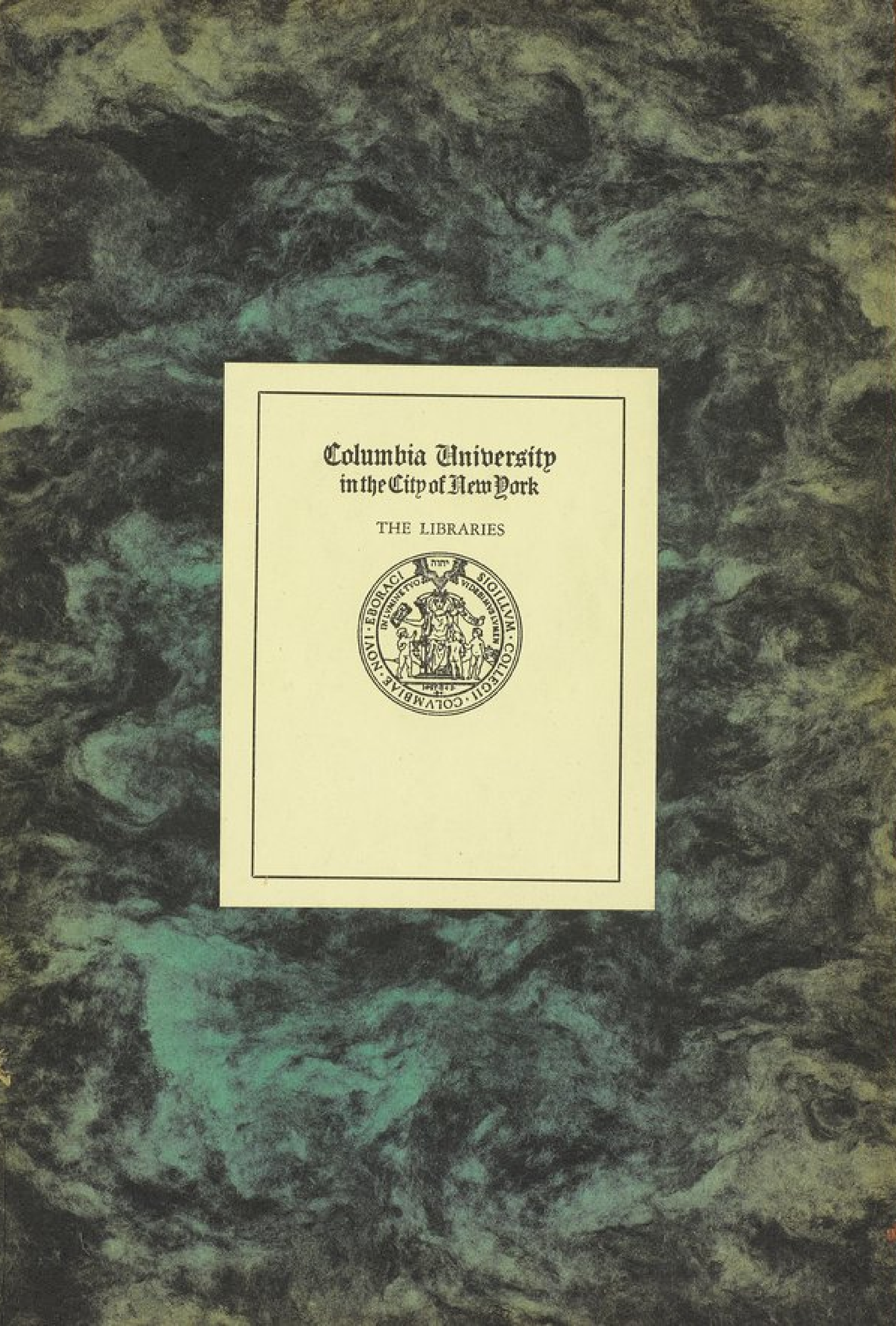
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

القاهرة
١٩٥٥

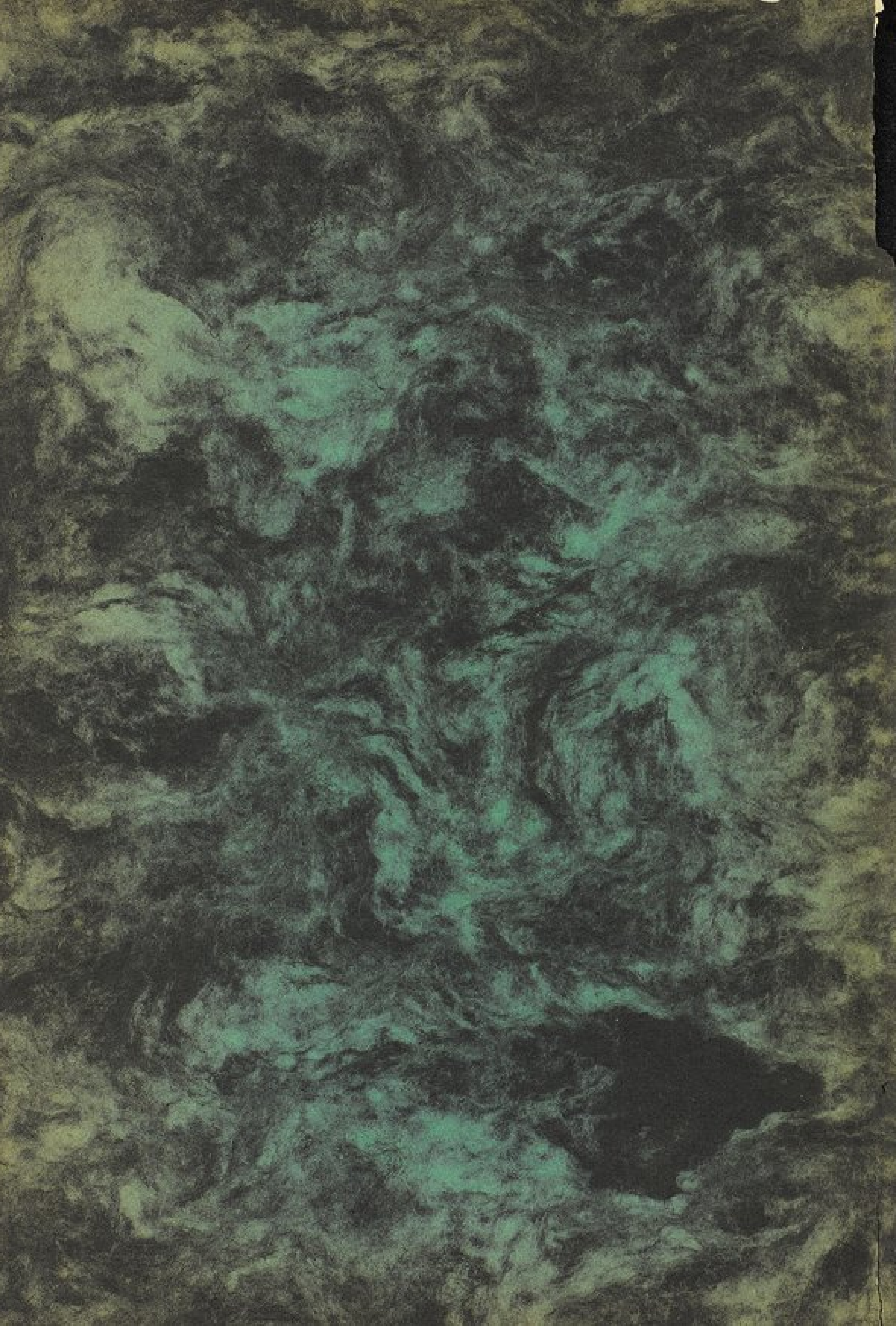
مطبعة أبو فاضل

Dr.Binibrahim Archive




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



دراسات تاريخية سودانية

معالم تاريخ سودان وادى النيل

(من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادى)

بقلم

الشاطر بصيلى عبد الجليل

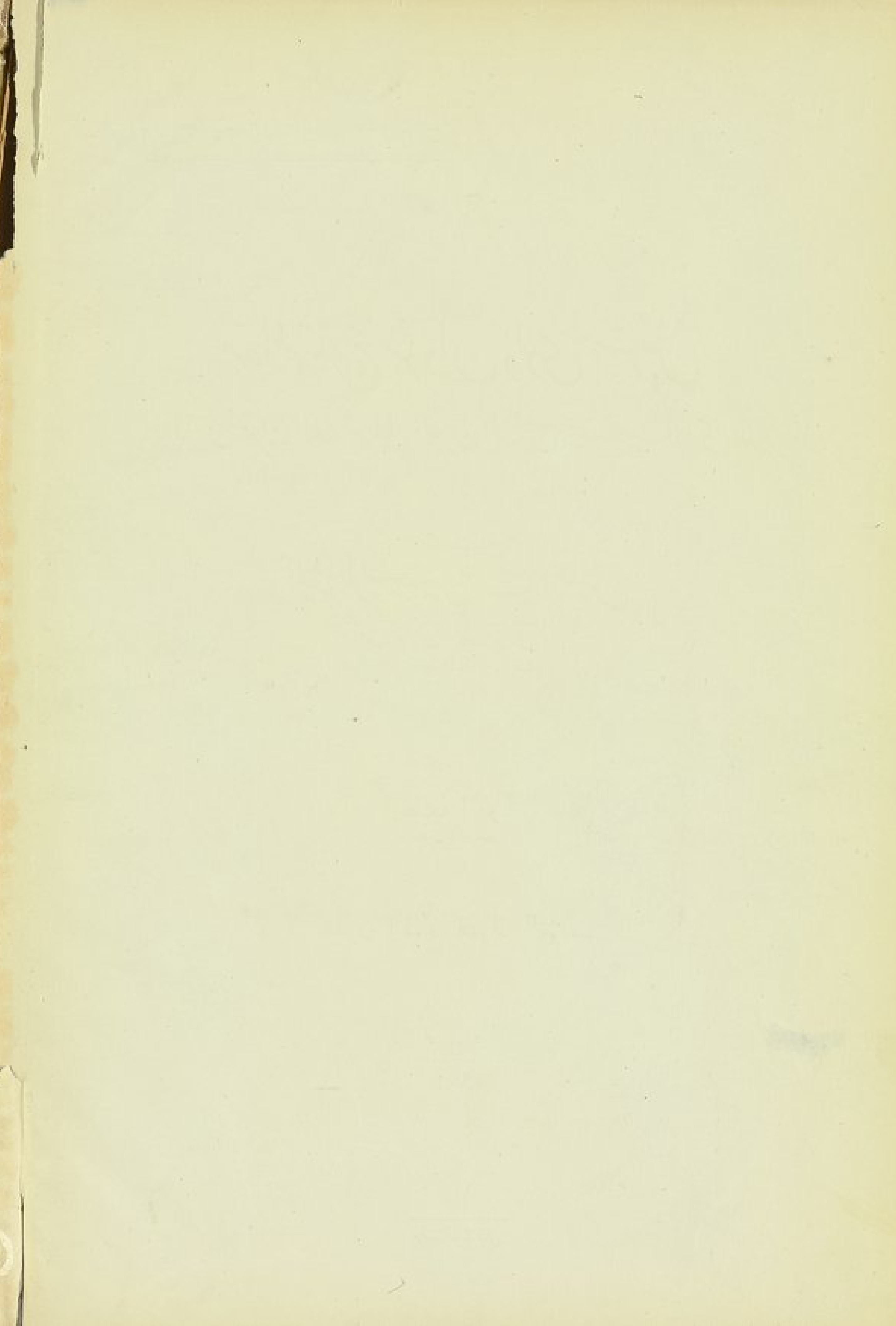
أمين مكتبة معهد الدراسات السودانية
كلية الآداب - جامعة القاهرة
(سابقاً بخدمة إدارة السودان)

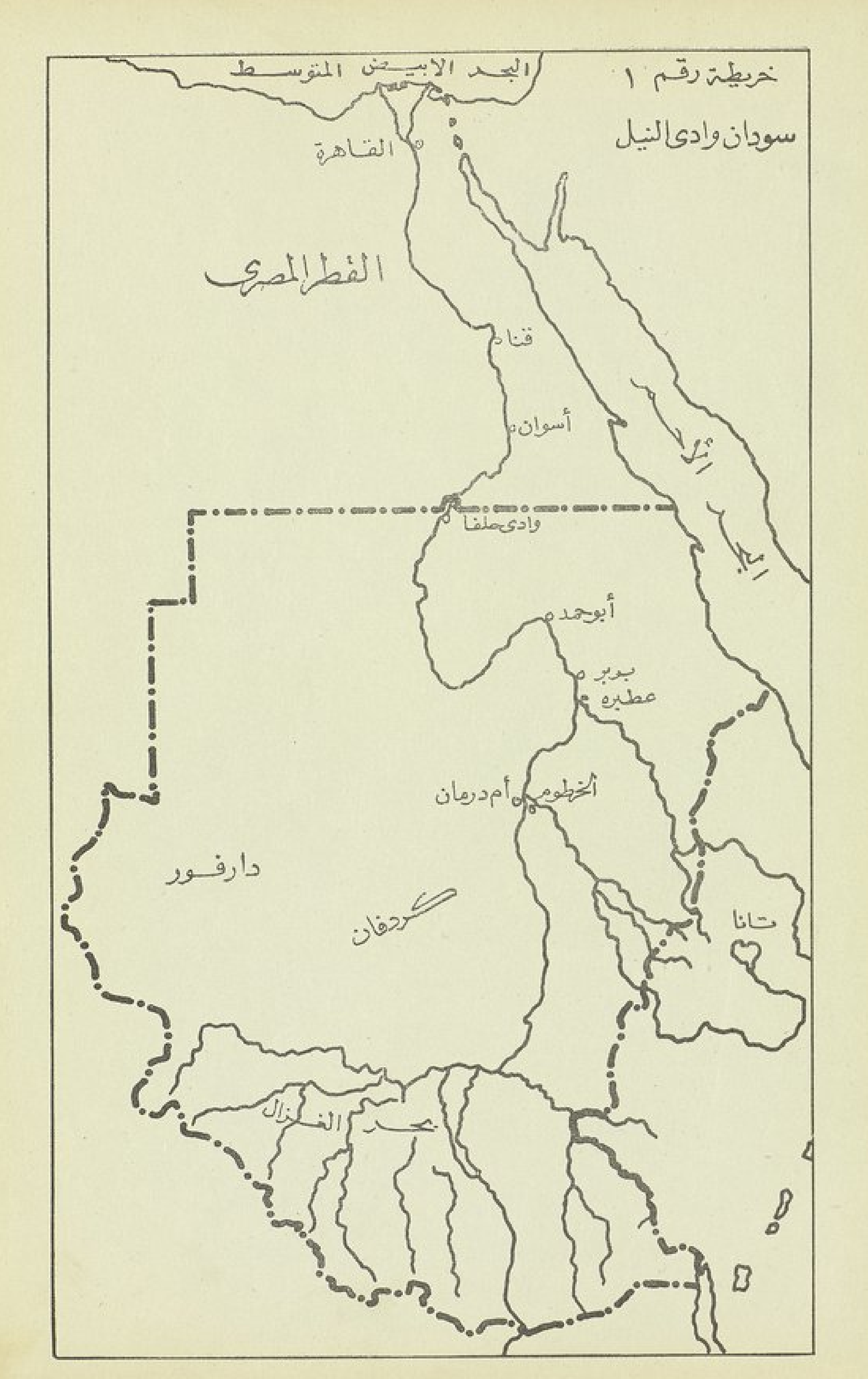
الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

القاهرة
١٩٥٥

مطبعة أبو فاضل




خريطة رقم ١
سودان وادى النيل
البحر الابيض المتوسط
القاهرة
القطر المصرى
قنا
أسوان
وادى حلفا
أبوحمد
بربر
عطبره
الخرطوم
أم درمان
دارفور
كردفان
تانا
بحر الغزال

962.4
B96

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للسيد الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال

هذه الكلمة ليست على سبيل التقديم . فلصاحب الكتاب — الأستاذ الشاطر بصيلى — من المكانة فى عالم البحوث التاريخية السودانية ما يغنيه عن أى تقديم . ولكننى أحببت أن أظهر ما تركته قراءة هذا الكتاب قبل طبعه فى نفسى من أثر . فحرصت على أن أضع فى أوله هذه الكلمة .

وقد اتجه الأستاذ بصيلى قبل قدومه لمصر بسنين الى العمل المخلص الصادق فى تحقيق الكثير من مسائل التاريخ السودانى فى مختلف العصور . ونعم ما فعل . فالبحوث السودانية فى موقفها الراهن أكثر حاجة للتحقيق العلمى ونشر الوثائق التاريخية منها لأى نوع آخر من العمل العلمى . وأكثر عصور التاريخ السودانى حاجة للجهد هو بالضبط العصر ما بين القرون الخامس عشر والتاسع عشر أو ما يصح أن يسمى عصر الامارات والرياسات العربية الأفريقية .

ولقد ظفرت العصور السابقة لتلك الفترة والعصور اللاحقة بها بعناية العلماء من أثريين وجغرافيين واثنوغرافيين فكشفت تلك العناية عن حياة الجماعات كشفاً كان من شأنه أن يلقى عليها ضوءاً وأن يقدم من متفرق احداثها رواية تاريخية متصلة الحقائق . ولكن الحال تختلف إذا انتقلنا للعصر الذى أشرنا اليه . ومن ثم فقد أسدى الأستاذ الشاطر بصيلى بكتابه هذا للدارسين يدا تذكر فتشكر .

وطريقة الأستاذ الشاطر بصيلى تقوم على أن يورد فى المسألة شتى الآراء . ثم يعطى لكل رأى ماله وما عليه ويخلص من هذا الى الرأى الذى يرى . فهو اذن لا يورد شيئا بلا دليل . وهو اذن لا يفرض على القارىء شيئاً بعينه . بل هو يتيح له الا يقبل شيئاً إلا بعد اقتناع . على أن المؤلف

كان حريصاً فى نفس الوقت على أن يكمل التحقيق بالرواية المتصلة فجاء الكتاب كتاباً بالمعنى الحقيق .

وان كان لى أن أرجو لنفسى ولغيرى من الدارسين تكملة يتولاها الأستاذ الشاطر بصيلى فهى أن يعالج على النحو الذى نحا دراسة الأمارات العربية الأفريقية فى غير سودان وادى النيل . وهذا لأنى أعتقد أن الدراسة المقارنة لتلك الأمارات تعين كثيراً على فهم تكوينها وأنظمتها وثقافتها . على أن تكمل الدراسة المقارنة ببيان اتصال تلك الامارات بالعالم حولها وخصوصاً بمنابعها الغربية والأفريقية . وأدعو الله فى الختام أن يمكن الأستاذ الشاطر بصيلى من المضى فيما هو فيه من خدمة العلم وأن يلق من قومه فى شطرى الوادى ماهو خليق به من التشجيع والعون .

محمد شفيق غربال

معهد الدراسات السودانية

يوليه سنة ١٩٥٥

تعـــريف

لقد أتاحت لى السنوات الثلاث والثلاثون التى أمضيتها فى سلك الادارة المدنية فى السودان فرصة الانتقال بين ربوعه المختلفة ، والتعرف على مظاهر الحياة فى صورتها الواقعية ، وكان من نصيبى أيضاً أن عاصرت مراحل تطور المجتمع فى الفترة من نهاية الحرب الكبرى الأولى الى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأخيرة ، وقد وجهت اهتمامى منذ اللحظة الأولى التى دخلت فيها البلاد الى دراسة تاريخه كما جاء فى مختلف المراجع المطبوعة وتابعت قراءة ما جاء فى الدوريات والنشرات وفى الصحف ، وقارنت بين ما ورد فى هذه المطبوعات وبين ماتجمع لدى من روايات ووثائق خطية يحتفظ بها أهل البلد فوجدت ان الحاجة قوية ، وبخاصة بعد اضطراد التقدم فى مظاهر الحياة اليومية الى تحقيق ما كتب عن تاريخ البلد ، وتفسير ما جاء فى الكتب على ضوء حياة المجتمع ، ولهذا أتجه تفكيرى منذ سنوات خلت الى محاولة سد هذه الثغرة ، وقد بدأت هذه المحاولة بكتابة جذاذات بما جاء فى المطبوعات المختلفة ، ويوميات ومذكرات بما فى المخطوطات المحلية ، وتصوير البعض ، وتفصيلات الأحاديث التى دارت مع الأهلين بصدد تاريخهم ، وقد وجدت من جميع من تحدثت إليهم أصدق المعونة والوفاء وبين هؤلاء الكثير من العلماء والفقهاء وأهل المعرفة ، وقد تجمعت لدى من العناصر ما ساعد على كتابة دراسة عن السلطة السنارية وأصول أسرتها ، التى شكلت موضوع جدل أكاديمى بين الباحثين من الأجانب ، وقد تم اعداد هذه الدراسة فعلا قبيل الحرب الأخيرة الا ان ظروفها القاسية قد حالت دون نشرها بعد أن وصلت الى المطبعة فعلا .

وحاولت بعد عودتى من السودان فى عام ١٩٥١ م اعداد البحث لنشره فى فى صورته التى تم عليها من قبل ، وعندما بدأت فى اتخاذ الخطوات اللازمة لذلك ، وجدت أن تطور الاحداث فى السودان تتطلب بادىء ذى بدء دراسة تاريخية تحليلية لمختلف مراحل تطور المجتمع فى جنوب الوادى ، وما تركته تلك التطورات من انطباعات وانعكاسات ، لتعاون على تفسير مظاهر الحياة وتقريبها الى الأذهان فى صورة أقرب الى الواقع ، وأن يتبع ذلك القيام بدراسات تفصيلية فى مختلف نواحى النشاط ، لذا استقر الرأى على المطلب الاول لشدة الحاجة اليه فى بناء السودان الجديد ، وقد توفرت على كتابته فى العامين الماضيين ، خلال فترات الفراغ المحدودة

وانى لا أدعى أن الموضوع قد استكمل بحثه بل حاولت مخلصاً أن أبرز الصورة التى تجمعت لدى عناصرها عن الفترة من تاريخ السودان فى القرن التاسع الى القرن التاسع عشر الميلادى، وقد تكون هذه الحقبة من الزمن طويلة وليس من اليسير معالجة معالمها فى كتاب محدود الحجم، لكننا اذا أخذنا بعين الاعتبار الفارق النسبي بين حياة الفرد العادى التى لاتتجاوز عملياً الاربعين عاما وبين حياة الأمم التى قد تتجاوز فى مرحلتها الحضارية مايقرب من الثمانية قرون نجد ان الفترة التى ضمها الكتاب - عشرة قرون تقريباً - ليست بالكبيرة نسبيا، وان ضرورة استكمال البحث تقتضى الرجوع الى مصادر مظاهر الحياة فى الماضى البعيد والقريب! فالحياة بالنسبة للمجتمع فى حيويتها تتفاعل ظواهرها المتتابعة الحلقات، وليس من السهل الوصول الى نتائج إيجابية دون ربطها بعضها بالبعض وتحليلها والتعرف على سلوكها وما تركته من أثر فى تكوين حالة حضارية تمثل الكم من هذه الظواهر، وقد تستنفذ كل ظاهرة منها عدداً من السنين يتفاوت فى عدده بين العشرة والعشرين عاما متمشية فى ذلك مع تطور العلاقات مع الدول المعاصرة. فالاحداث الكبرى فى جنوب الوادى (السودان) كنشأة السلطنة السنارية وانهيارها، وامتداد الادارة المصرية، والثورة المهدية لم تكن كل منها الانتاج تفاعل فى ظواهر اجتماعية ترجع فى مصادرها الى أقدم العصور.

وكما أوضحنا من قبل فاننا قد بذلنا جهد المجتهد المتواضع لاخراج هذه الدراسة على الصورة التى تمكن من مواصلة البحث والتحقيق لسد ما قد يكون فاتنا ونرجو أن يتقبلها القارىء بالروح التى أملتها، وبالمساهمة فى متابعة الدراسات ولا يسعنى إذ أتحمل مسئولية مافى الكتاب إلا أن أتقدم بوافر الشكر والثناء عرفانا بالجميل الذى أسداه السادة الأساتذة واخوانى الكثيرين من تشجيع وعون كان له أثره فى إتمام البحث ونشره، ومما لا شك فيه ان هذا التشجيع وهذا العون موجه فى الحقيقة وواقع الأمر الى السودان، كما يصور مدى الاهتمام بدراساته وتقدم المعرفة الخاصة به لكى يتسنى تشييد أسسه ومقوماته على قواعد سليمة، وأخص بالذكر السادة الاستاذ الكبير محمد شفيق غربال الذى تفضل بتقديم البحث، ودكتور محمد عوض محمد، دكتور سليم حسن، دكتور سليمان حزين، دكتور محمد متولى، محمد احمد حسونه، و ا. ج. اركل، ودكتور محمد محمود الصياد، والاستاذ صالح خليل وريتشارد هل، ودكتور جورجي صبحى، والأستاذ عبد الفتاح حسن والأستاذ عبد الفتاح ابراهيم والأستاذ احمد عبد السلام كفافى، ودكتور محمد أحمد أنيس

دكتور عبد المجيد عابدين والسيد ابراهيم رياض المحامى والسادة عبد العزيز اسماعيل واحمد عيسى وبدر الديب ، لاهتمامهم بالبحث وتشجيعهم على اتمامه ودكتور محمد فؤاد شكرى لتوجيهاته ونصائحه التى كان لها أطيب الأثر فى اعداد البحث ودكتور حسن عثمان للتشجيع والعون وكذا فضيلة الشيخ يوسف بقوى ، والسادة محمد كامل ودكتور فردريك سايزاك ، محمد المعتصم سيد ، ومحمد عبد الرحيم ، وسيد مدنى يحي ، وحاج الشيخ عمر دفع الله ، وأحمد محمد صالح الزاهد ، عبد الغنى سعودى ، صلاح الدين الشامى وعمر محمد علي ومحمد احمد الجابرى ،والآنسة ماريون لا بورده ، واحمد محمد سلامه ، وعبد الرحمن الفيصل الشاطر ، ويوسف الآمين أحيمر ، والمهندس المرحوم طه صالح والمرحوم الأستاذ محمد صلاح الدين الباقر ، والى جميع من تفضلوا باسداء المعونة .

كما أقدم جزيل الشكر على المعونة الصادقة التى قدمها السيد أنيس أبو فاضل صاحب مطبعة أبو فاضل ، وللسادة أعضاء أسرة مطبعته .

وأعتذر للقارىء الكريم عما قد يكون فى الكتاب من أخطاء مطبعية لم أنتبه اليها عند مراجعتى الأصول .

الشاطر بصيلى عبد الجليل

مقـــدمة

يجتاز السودان اليوم مرحلة دقيقة فاصلة من مراحل حياته ويضطرب حاضره بوراثات عميقة غائرة فى تاريخه قرونا طويلة ، وهى نتاج دورات متتابعة من الاستقرار حيناً والقلق والمكائد والفتن حيناً آخر . ومن الأصول العريضة التى تبنى عليها النهضة السودانية الحديثة ، معرفة تاريخ السودان ، ودراسته دراسة موضوعية تطورية فى شتى نواحى النشاط الانسانى ، وهذه الدراسة تساعدنا كثيراً على تفسير الحاضر ، فاذا ما اجتمعت بين أيدينا ، معرفة ماضينا وحاضرنا ، سهل علينا أن نضع الخطوط الرئيسية لإرساء قواعد سليمة لمستقبل السودان ، دون أن نتعجل الأحداث أو ننحرف عن القصد أو نيأس من العلاج ، الذى قد يقتضى جهود أجيال متتابعة يعمل كل منها على إتمام عمل سابقه . ولابد إذن من جهود علمية مضنية ، يقوم بأعبائها نفر من أبناء الوادى ، يهبون أنفسهم للحق ، فيتتبعون مظاهر المرض ثم ينفذون إلى أسبابه .

وللسودان مركز خطير فى أرض العروبة والاسلام ، فهو موطن لعدد كبير من القبائل ، التى ترجع بأصولها إلى مهد الدعوة الاسلامية ، وهو معبر للهجرات الدينية والتجارية ، بين أقصى أركان القارة الأفريقية ، وبلاد الشرق بعامة وأرض الحجاز بخاصة . وقد اختلطت القبائل التى هبطت أرض السودان واندمجت بدرجات متفاوتة ولا تتم دراسة تاريخه إلا إذا رجعنا إلى تطورات الأحداث فى الأقطار المجاورة التى كان لها أثر فعال فى السودان .

وللسودان أيضاً منزلته فى الاقتصاد الافريقى ، بحكم مركزه كمعبر قلب القارة الافريقية ، التى يحاول الاستعمار الأوربى أن يقيم فيها امبراطوريته الثالثة ، ويود الاستعمار أن يجعل من السودان دويلات تتربص لبعضها الدوائر . ولاشك فى أن مستقبل أفريقيا وثيق الاتصال بمستقبل السودان ، وقدرته على الافادة من امكانياته الضخمة ، وتحريره لاقتصاده القومى، من التيارات التى انحرفت به إلى أهداف جانبية ، ولا يتم لنا ذلك إلا إذا استطعنا توجيه المشاعر القومية ، فى عمل دائم نحو هدف يعمل الجميع للوصول إلى تحقيقه . فى طريق تحقيق هذا الهدف تذوب الفوارق ،

وتحل محلها روابط تزداد تماسكا وقوة من يوم إلى يوم ، ومن جيل إلى جيل فى ظل حياة ، متكاملة الأركان واضحة المعانى سليمة الوسائل .

والكتاب الذى نقدم له ، يعطينا صورة للمعالم الرئيسية لتاريخ السودان الشمالى من بدء ظهور الدعوة الاسلامية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، وما كان للمجتمع من أثر فى الهجرات ونشأة الدويلات العربية الاسلامية ، وتطور نظمها من إقطاعية مطلقة إلى إقطاعيات قبلية ، ثم قيام الحلف السنارى ، فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ، الذى قام على أساس « الجمهورية التجارية » ثم أخذت تتسرب إلى ذلك النظام تقاليد وعقائد موروثة ، لم يكن من السهل على المجتمع التخلى عنها ، لأكثر من سبب . كما اهتم الكتاب ببيان أثر الدعوة الاسلامية ، فى السودان وصراع المجتمع الخفى ، وهو الصراع الذى نشب بين الحضارتين المحلية والتى جاءت بها الدعوة الاسلامية .

وبينما نجد أن الذى كتب عن السودان ، فى مختلف نواحى نشاطه ، كثير وكثير جداً لايحصره العد ، فان المصادر الأولية لتاريخ السودان الاسلامى بالذات قليلة جداً ، وما وجد منها تتضارب رواياته ، ولهذا اختلط الأمر على بعض الكتاب ، فوقع منهم من وقع فى خطأ مقصود أو غير مقصود ، بسبب غموض العبارات الواردة فى تلك الروايات ، الأمر الذى جعل أولئك الكتاب ، يحاولون تفسيرها فى الصور التى بنيت عليها دارساتهم ، وبرزت فى كتابتهم . وبالاضافة الى ذلك حاول هؤلاء الكتاب اعتبار التطورات المحلية كوحدة قائمة بذاتها والحقيقة كما أوضحناها فى البحث أن الأحداث المحلية كانت نتاج تفاعل مشتركة عناصره منها ماهو محلى وما هو من الأقطار المجاورة بخاصة مصر وأتيوبيا . ولذلك فقد جعلنا المنهج الذى التزمناه فى معالجة موضوع هذا الكتاب ، يقوم أساساً على تصوير المجتمع وتحليله من الناحيتين الموضوعية والتصورية ، لأن هذين العنصرين مرتبطان ارتباطاً يساعد على تفسير صحيح للأحداث الواقعية . واعتمدنا فى هذه الدراسة كثيراً على روايات ووثائق محلية ، ننشرها لأول مرة وقد أمدتنا بمعلومات تلقى ضوءاً على الكثير من التطورات والتنظيمات الخاصة بجهاز الحكم . كما أن هذه الوثائق قد ساعدت على تحقيق أصل البيت السنارى وهو الأمر الذى اختلفت فيه الآراء ، وبقى مشكلة معلقة كما ذكر كروفورد فى كتابه « مملكة الفونج السنارية[1] » بل اقترح كروفورد فى كتابه ،

---

(١) كروفورد ص ١٤٣ ـ ١٥٥

اجراء بحوث اركبو لوجية فى منطقة الفونج ، للوصول الى حل لهذه المشكلة ، ولكننا استطعنا بفضل ما وصل الينا من روايات من شرق السودان ووثائق خطية ممهورة بختم أحد السلاطين ، أن تقيم الحجة على أن هذه الأسرة قد انتقلت من جنوب غرب ارتيريا ، وهى المنطقة التى يبدو أنها قد مارست الحكم فيها الفترة من الزمن وقد ساعدنا على التحقق من الفترة السابقة لانتقالهم الى حوض النيل الأزرق ، ما كتبه الرحالة داود روبينى ، وما كشف عنه روسينى من آثار « مقابر الفونج » الكثيرة المنتشرة في منطقة حوض بركة والمناطق المجاورة .

وكشفت الروايات والوثائق ، التى اعتمدنا عليها عن وجود بعض سلاطين ، تولوا الحكم فى سنار ، ولم ترد اسماؤهم فى المخطوطات المتداولة .

وكثيراً ما اعتمدنا على التقاليد والعادات المتبعة فى اختيار السلاطين وتنصيبهم ولاية الملك . وما يتبع فى ولاية المشائخ للمشيخة والمانجلية ، وبمقارنة ذلك بتقاليد الأقطار المجاورة يتبين فى وضوح التيارات ، التى اثرت فى تقاليد السلطنة ، والتى هى نتاج الطابع الدينى ، المتغلغل في بناء المجتمع السودانى الذى احتفظ بذلك الطابع ، فى صور تكيفت بالظروف القائمة من وثنية ومسيحية واسلامية ، وما زالت بعض اثارها ملموسة حتى اليوم .

وينتهى موضوع البحث بالكتاب الثالث الخاص بأمتداد الادارة المصرية الى السودان ، وظروف ذلك الامتداد ، وما أدخله من تعديلات على نظم الحكم ، وما كان لذلك من أثر فى حياة المجتمع المحلى ، ولم يكن من السهل على المجتمع أن يتخلى عن تقاليده وعاداته الموروثة ، الأمر الذى جعل الادارة المصرية تصطدم بتلك التقاليد ، وتدخل معها فى صراع خفى ، وكانت هذه أولى تجاربها القاسية ، وقد حاولت مصر ارساء قواعد الحكم ، بما يتمشى مع حالة البلاد الواقعية ، وذلك بالمراسيم التى أصدرها سعيد باشا خلال زيارته للسودان فى ١٨٥٧م ، وكانت هذه المراسيم نتاج ما اكتسبته مصر خلال ما يقرب من الاربعين عاما الأولى ، من امتداد الادارة المصرية ، غير أن الوقت الذى صدرت فيه تلك المراسيم قد جاء متأخراً ، حيث اشتد الضغط الأوروبى على مصر فى مسألة ابطال الرقيق ، وكان من نتيجته الاستعانة بالأوروبيين الذين اسندت اليهم مناصب ذات مسئولية من الدرجة الأولى فى إدارة البلاد ، وقد عمل هؤلاء على تقويض الجهاز الادارى وافساده بادخال عناصر ضعيفة . واخذت بعد ذلك الاحداث فى مصر تتطور فى

سرعة فائقة ، واشتد التنكيل فى السودان على يد الأوروبيين لتنفيذ أبطال الرقيق ، بوسائل عنيفة وصارمة ، أحدثت فجوة عميقة الغور فى المجتمع السودانى ، تعطلت معها أسس الاقتصاد القومى ، التى أسهم فيها الرقيق بنصيب وافر .

وقامت فى مصر ثورة عرابى التى استغلها دهاقنة تمرسوا بتمزيق الشعوب وتحطيم قيمها واتلاف نفوسها وعقائدها ، فجاءت الجيوش البريطانية الى مصر ، لفشل الحركة الوطنية ومساندة الخديو ، وهى فى الحقيقة وواقع الأمر تستخدم الطرفين المتخاصمين لمصلحتها للسيطرة على وادى النيل .

وفى السودان أخذت الدعوة المهدية ، مظهرها السافر وحاول عبد القادر باشا حلمى معالجة الموقف ، بالطريقة التى تتناسب مع الوضع المحلى ، ولم تمهله السيطرة البريطانية من اتمام خطته ، فكان استدعاؤه وتعيين هكس تنفيذاً للنصيحة البريطانية ، كما كشفت عن ذلك الوثائق ، وسيطر هكس بدوره على الموقف فى السودان ووجهه لخدمة مصلحة بلاده ، لتهيئة الفرص المناسبة للانفراد بالسودان ، وابعاد الادارة المصرية ، وبدأ الصراع بين الدول الاستعمارية ، وقد تعرضنا فى هذا البحث لمختلف المراحل والوسائل التى تذرعت بها تلك الدول للتدخل فى حوض النيل ، والتى برزت فى صورة معاهدات واتفاقات ، وهدفنا من هذا العرض المتتابع ، ربط الحلقات بعضها ببعض للوصول الى نتائج ، واضحة المعالم تبين لنا الاهداف ، التى رسمتها الدول الاستعمارية .

ومما لاشك فيه أن صاحب الرسالة المهدية ، كان يهدف ، أولا وقبل كل شىء ، الى الدعوة الى اصلاح ماقد كان فى نظره مغايراً للطريق القويم ، إلا أن سرعة تطور الاحداث ، فى الداخل وملابساتها فى الخارج ، قد انتقلت بالدعوة التى بدأت كظاهرة اجتماعية تجاوبت مع الشعب ، فتشكلت بالمظهر الدينى العنيف ، مخالفة فى ذلك ماعهدناه ، فى مثيلاتها فى الفترة التى سبقت امتداد الادارة المصرية الى جنوب الوادى ، وهذه الظاهرة بعيدة العمق متأثرة بحالة المجتمع ، وتتطلب هذه الظاهرة دراسة أكثر توسعاً وعمقا وذلك بمقارنتها مع الحركات الدينية المماثلة التى قامت فى شمال أفريقيا وفى الجزيرة العربية وغيرها ، وذلك فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وقد تميزت الدعوة المهدية السودانية بطابعها المحلى الخاص . وسوف يكون لهذه الدراسة خطرها فى توضيح مواضع الضعف ، التى أفاد منها المستعمرون ، فى صورة او اخرى للوصول الى اهدافهم .

وتنتهى دراسة هذا الكتاب ، بعرض تطور الصراع الاستعمارى بين الدول الكبرى ، وانتقال ميدانه الى حوض النيل الأعلى وأتيوبيا ، وذلك فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى .

ولا يفوتنا أن نذكر أننا لم نتعرض فى صورة تفصيلية ، لهجرات القبائل وترحالها من دار الى أخرى ، بل اكتفينا بدراسة عامة تتناسب مع موضوع الكتاب ، وأملنا كبير فى أن يتوفر نفر من أبناء الوادى ، للاهتمام بهذه المسألة اهتماما اقليميا لغويا وتتصل جهودهم ، حتى يتضح الماضى الذى به نستطيع فهم الحاضر وبناء المستقبل . ونرجو أن يعنى الباحثون بدراسة المرأة السودانية ، وان تحظى بالعناية اللائقة بالدور الذى لعبته فى حياة المجتمع ، فقد اسهمت بنصيب وافر فى النشاط اليومى الخاص والعام ، وكانت مصدر قوة محركة خطيرة لها نفوذها وسيطرتها ، الأمر الذى تميزت به عن اخواتها فى الكثير من دار الاسلام .

ولاشك فى أن أبناء الوادى اقدر على فهم مشاكله على وجهها الصحيح ، والله الموفق الى طريق السداد .

ا . ب . ع

مذشية البكرى

القاهرة فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٥٤

فصـــول البحث

الملاحق :

فهرست الخرائط :

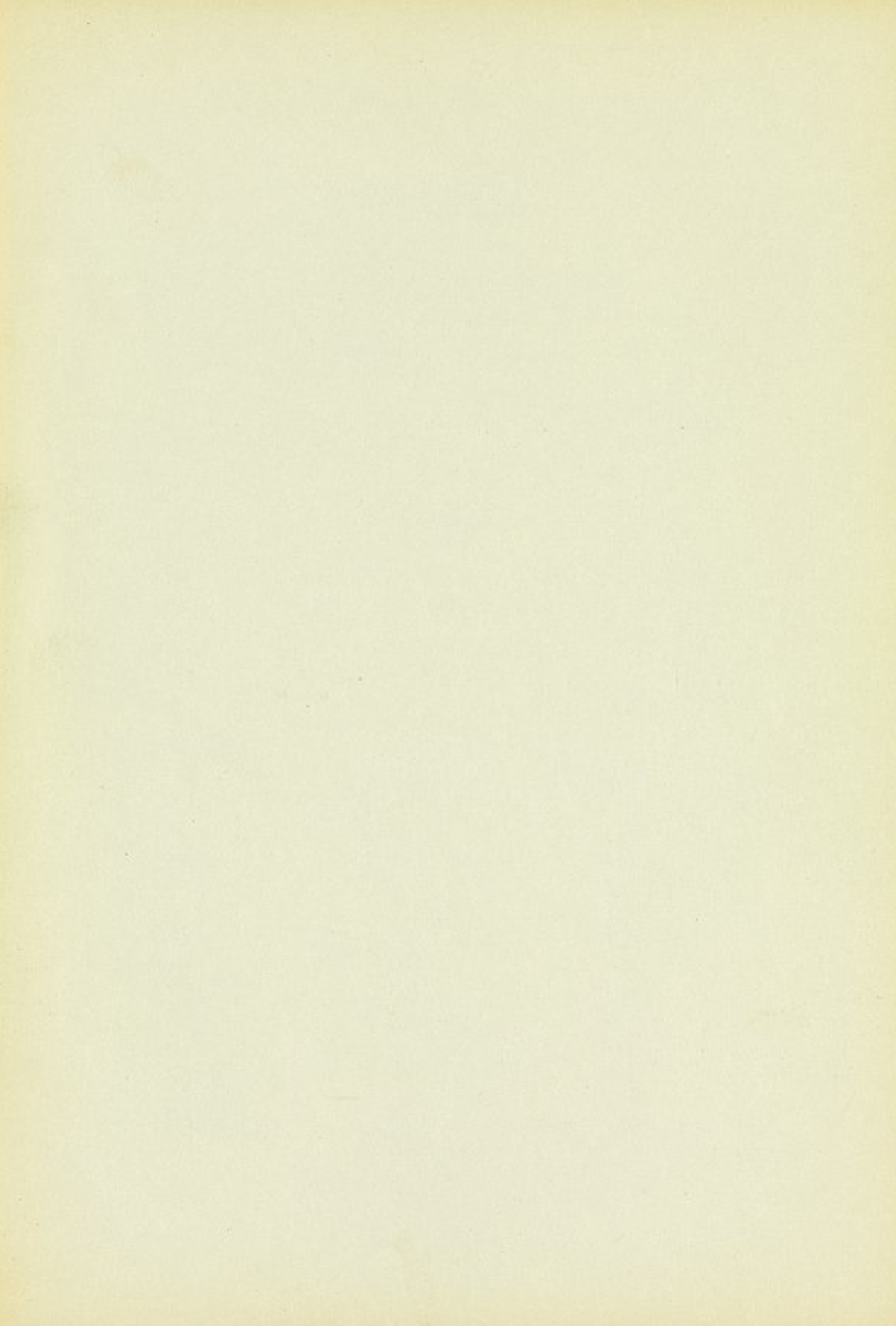
فهرست الصور :

فهرست الوثائق المصورة :

« تصويب »

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٥	٤	تطو	تطور
١٦	٢٥	فوات	قوات
١٨	٢٧	نيقارلس	نيكولس
٢٤	١٠	درافور	دارفور
٢٥	٢	هذف	هذا
	١١	اريجى	اربجى
	١٤	الوادى	الرأى
	٢٦		يضاف الى هامش ٦٢ (انظر الملحق الثالث)
٢٩	١٩		تضاف « ٧٩ » فى آخر السطر
٤٠	٢٦	خريطه نمرة ٥	خريطة نمرة ١
٤٦	٨	شممون	شمعون
	١١	تاريخ العر	تاريخ العرب
٤٧	٢٥	كرئيس	كرنبس
٥٦	١٠	حنكه	حركه
٨٥		هامش « ٣٣ » ملحقين نمرة ٧و٨	ملحقين ٤ و ٧
٨٧	٢١	الذهبية	المذهبية
١١١	٢	الوعي	الرعي
١١٢	١٩	سجاته	سجادته
١١٦	٥	الرب	الغرب
	١٧	تقلب	تلقب
١٧٢	١٤	جورج سنيتزر	ادوارد شنيتزر
٢٢٣	١٤	ارتباط	ارتباط



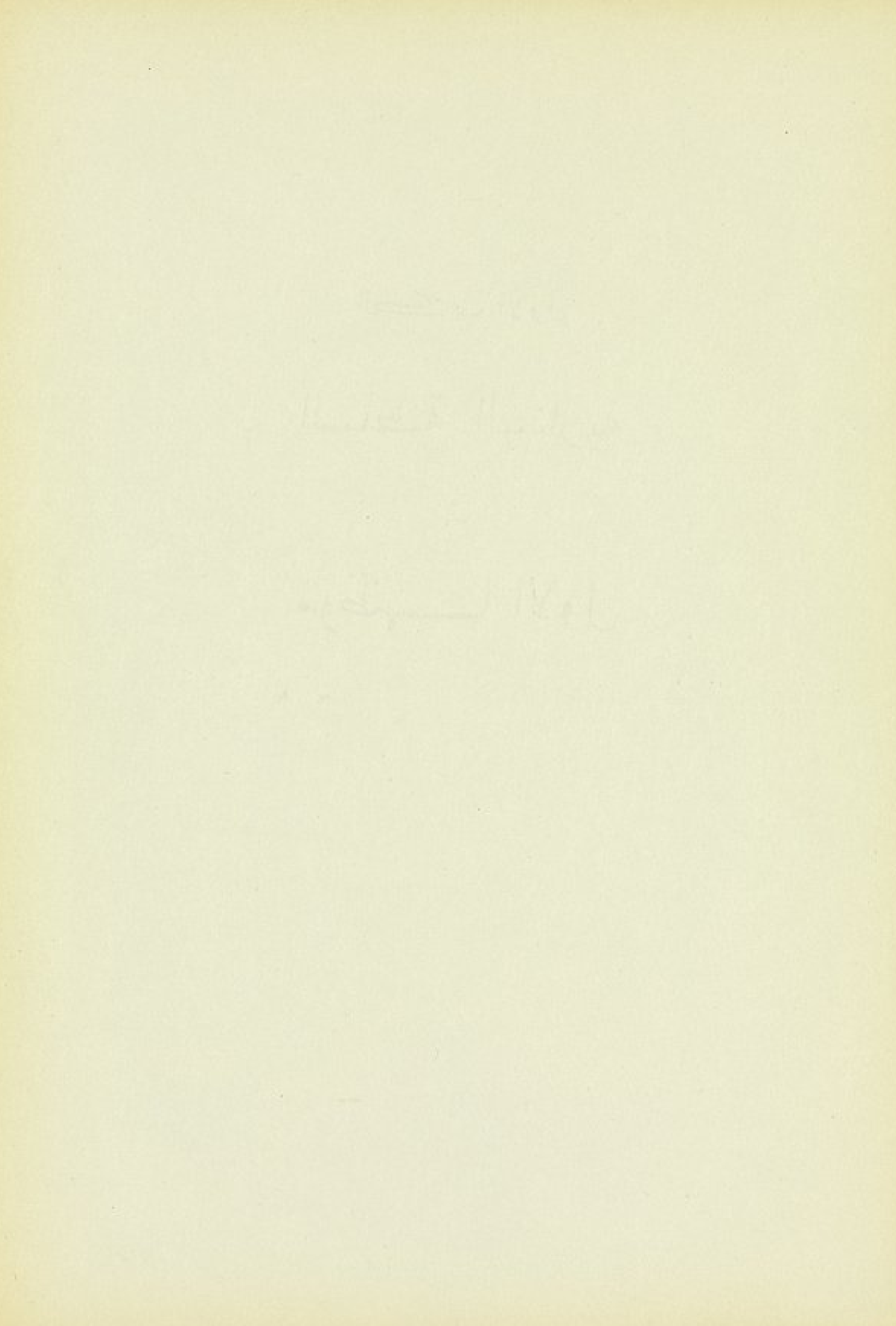


الكتاب الأول

السلطنة السنارية

فى

موطنهـــا الاول



تمهيد

١ — الوضع الاقليمى :

بلاد السودان [١] ، أو « سودان وادى النيل » على وجه التحقيق والتحديد ، يحتل فى حدوده الادارية مايقرب من ألف ألف من الأميال المربعة ، وهو فى ذلك يعادل مجموع مساحة ثمان دول أوربية هى : السويد ، النرويج ، الدانمرك ، الجزر البريطانية ، إيطاليا ، اسبانيا ، فرنسا والبرتغال . وتبلغ المسافة بين أبعد نقطتين بين حدوده ما يقرب من الأربعمائة والألف من الأميال طولا ، وما يقرب من المائتين والألف من الأميال عرضاً . وتبدأ حدوده الجنوبية من شمال خط الاستواء ، وتنتهى فى الشمال عند منطقة وادى حلفا . وتقع على حدوده الجنوبية ، أوغندا والكنغو البلجيكى ، وشرقاً أتيوبيا والأرتيريا ، والبحر الأحمر . وغربا أفريقيا الاستوائية الفرنسية وليبيا . وشمالا القطر المصرى ، الذى يكون الشطر الشمالى لوادى النيل . ويجرى النهر مخترقا مناطق متباينة . وكان من نتيجة هذا التباين تكوين مجموعات من السكان ، خضعت كل منها وتكيفت حياتها بما تتطلبه البيئة الخاصة بكل منها . وينقسم السودان بين أهله إلى قطاعات ، لكل منها مميزاتها الخاصة وهذه القطاعات هى : —

(١) « دار صباح » (مشرق الشمس) وتشمل البحر الأحمر ومنطقة البطانة وتنتهى جنوبا عند حوض نهر الوهد والدندر .

(٢) « الصعيد » وتشمل المنطقة الواقعة جنوب شرق الخرطوم (حوض النيل الأزرق) والجزء الشرقى من النيل الأبيض شمالى كوستى .

(٣) « الجنوب » ويشمل البلاد الواقعة جنوبى بلدة كوستى على النيل الأبيض ويكون القسم الأول من هذه المنطقة ، وهو « كوستى حتى الملكال » على طول النيل الأبيض ـ الممر أو المدخل إلى الجنوب الرئيسى ، الذى يشمل حوض بحر الغزال والروافد التى تصب فى مجرى النيل فى تلك المنطقة .

(٤) « دار غرب » (مغرب الشمس) وتشمل ثلاث مناطق ، أولاها

---

(١) هذا الاسم يشمل أصلا البلاد من ساحل البحر الأحمر وأتيوبيا شرقا حتى المحيط الأطلسى غربا . وعرف به القسم المكون لجنوب وادي النيل فى الفترة الحديثة كما عرف السودان الغربى بالسودان الفرنسى . وكلمة السودان التى يقصد بها بلاد السودان كلمة غير واضحة الحدود .

« كردفان » وثانيتها « دارفور » وثالثها جبال تقلى والداير وغيرها من مجموعة جبال النوبا ، وتعرف محلياً بالجبال .

(٥) « السافل » وتشمل جميع المناطق الممتدة على جانبي النيل شمال الخرطوم إلى وادى حلفا .

وتسكن هذه المناطق مجموعات من القبائل والبطون عرفت مواطنها باسم القبيلة الكبرى صاحبة النفوذ والتفوق مثل دار الشايقية ، دار المحس ، دار الميرفاب ، دار جعل [٢] ، الدشا (البجه) الشكرية ، وغير ذلك مما سنتعرض له تفصيلا فى موضعه من هذه الدراسة .

* * *

وإذا رجعنا إلى خريطة عامة عليها أفريقيا ،شمال خط الاستواء ومعها ذلك الجزء من آسيا غربى صحراء غوبى والخليج الفارسى وحوض الدجلة والفرات كذا حوض البحر الأبيض المتوسط ، فانه يتبين لنا حوض النيل فى شطريه الشمالى والجنوبى (مصر والسودان) ويربض عن يمينه حوض البحر الأحمر . الأمر الذى ازدادت معه أهمية حوض وادى النيل من الناحية الاستراتيجية العامة. فوادى النيل حلقة متصلة بموارد المياه ومواطن الخصب فى القارة الافريقية . ويربط البحر الأحمر بين المحيط الهندى والبحر الأبيض المتوسط ، الذى يخرج إلى المحيط الأطلسى ، وبعبارة أخرى فأن حوض النيل يحتل مركزاً يلتقى عنده الشرق والغرب ، فى تجارته كأنه مفتاح القارة الافريقية . وكان طبيعياً أن تربط بين شطرى الوادى مصلحة مشتركة لذات حوض النيل ، وهما الحارسان على هذا المدخل الطبيعى ، وإذا رجعنا إلى هجرات المجموعات البشرية ، فى داخلية المنطقة بين صحراء غوبى والمحيط الأطلسى شمالى خط الاستواء ومنها من دخل أفريقيا ، أو خرج منها سواء كان ذلك عن طريق القرن الأفريقى (بوغاز باب المندب وما حواليه) ، أو عبر البحر الأحمر ، أو عن طريق برزخ السويس ، فاننا نجد الكثير من المجموعات ، التى تكونت منها الهجرات ، قد حطت رحالها فى حوض وادى النيل ، وفيه بقيت لفترات من الزمن تفاوت أجلها بالقدر الذى كانت تمليه الظروف المحلية ، ولا نريد ونحن فى هذا المقام أن نتعرض

(٢) الجمليون — الذين تقول نسبتهم انهم ينتمون إلى ابراهيم الجعل — فقد تكون هنالك جماعات تنتسب إلى هذا العباسى وهذا لايغير من الحقيقة الواقعة شيئاً ومى ان هذه المنطقة تسكنها جماعات تنتمى إلى أكثر من مجموعة ليس بينها رباط مع « ابراهيم الجعل » المقصود من نسبتهم شجرة الأنساب التى تحتفظ بها القبيلة .

إلى تفصيلات تلك الهجرات ، وما إلى ذلك من امتداد الحضارة والمدنية ، وفتح أسواق جديدة . وهذه المسألة الخاصة ، تتطلب بحثاً يقوم به اخصائى وحتى بعد تقدم المواصلات فى افريقيا ، وفتح شواطئها المختلفة للتجارة الأوروبية ، فان وادى النيل ما زالت له أهميته وخطورته الاستراتيجية فى أفريقيا، فهو اليوم ملتقى المواصلات المختلفة والمستودع الذى تدخل عن طريقه المؤن والعتاد ، فى حالة الحرب التى تشمل منطقة البحر الأبيض المتوسط .

٢ - تعريف أقليمى :

١ - الأقليم :

عرفت بلاد السودان قديماً بأرض كوش ، وقد ورد هذا الاسم فى قراءات متعددة فى ألواح تل العمارنة ، (التى كتبت فى القرن السابع عشر قبل الميلاد) فقد ورد هذا الاسم فى تلك الألواح كاشو (Kasho) كاشا (Kasha) كاشا (Kashsha) كاسى (Kasi) كاشى (Kashshi) ، [٣] وقد وردت فى لوحة الملك عيزانه « نجاشى اتيوبيا ، كسو (Kasu) وفى اللغة المروية « ق س » أو « ق ص » ، وهذه أقرب فى نطقها إلى قصى وقد كتبت هذه الكلمة فى صور أخرى منها ، كرسا (Kersa) ، كرسى (Kersi) ، كرتينا الخ الخ [٤] . وقد حاول الكتاب القدامى ربط هذه الكلمة ب « كوش » من أحفاد نوح عليه السلام . وليست هذه إلا محاولة خاطئة ، لأنها تقوم على توزيع سكان الأرض بالنسبة إلى أبناء وأحفاد سيدنا نوح ، ولا يستند هذا التوزيع إلى أساس علمى . وإذا رجعنا إلى التوراة [٥] ، نجد ان كوش التى وردت فيه ، قد اقترنت مع « صور » فى موضع ، ودلت فى مواضع أخرى على مناطق بعيدة كل البعد عن المنطقة جنوبى الشلال الأول ، فهنالك منطقة كيش [٦] فى العراق وعرفت بهذا الاسم فى صورة أو أخرى ، متأثرة باللهجات المحلية جماعات سكنت بابل

---

(٣) بدج ٣ ، جزء أول ، ص - ٣ هومل ص ٥٧٠

(٤) بورخارد ص ٥٠١ ، ابن حوقل ، ٥٧

(٥) كوش الابن الأول لوالده حام - التكوين ، الاصحاح العاشر آية ٦ ، أشعيا اصحاح عشرون ، آية ٤ وما بعدها . مزامير ، المزمور السابع والثمانون آية ٤

(٦) جواد على ، أول ، ص ٣٠٦ وما بعدها - قام فيلد بدراسة هذه المنطقة وكتب عنها أيضاً كيرس .

كما عرفت بها جماعات فى اليمن قيس ،ومن الصعوبة بمكان تحديد العلاقات والصلات، التى تربط بين هذه المجموعات ، التى قامت فى أجزاء متباعدة فى آسيا وأفريقيا ، وتحقيق هذه المسألة يتطلب دراسة منظمة .

وقد كان الكتاب من العرب ، أكثر تدقيقاً من الأغريق فى تحديد المنطقة جنوبى الشلال الأول ، وتعريف مناطقها بأسمائها القريبة من الصحة ، ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام ان كوش أو « كاسو » ألخ التى عرفت بها البلاد جنوبى الشلال الأول لم يكن إلا اسم القبيلة الأكثر قوة وعدداً والمعروف ان هذه القبيلة قد سكنت حوض النيل الأزرق وقبيلة « ديجون » [7] فى حوض نهر العطبرة ـ وقبيلة المقرة (الماكورة) قد سكنت منطقة دنقله ، وقبيلة نوب (النوبه) ، فى المنطقة بين الشلالين الأول والثانى ، وقد شاركت هذه القبائل فى مواطنها بعض الجماعات الصغيرة التى بلغ بعضها مرتبة من القوة والكثرة العددية ، الأمر الذى جعل تفوقه وانتزاع التسمية للدار التى يقطنونها، كما ان بعض هذه المجموعات الصغيرة،قد اختفى بامتصاصه فى البيئة المحلية الغالبة ، أو بالهجرة تحت ضغط الظروف المحلية .

* * *

٢ — السكان :

وقد استطاعت هذه القبائل،بعد هجرتها من شمال الوادى دفع السكان القدامى[8] تدريجياً نحو الجنوب ، حتى شملت منطقة نفوذهم رقعة من الأرض من الشلال الأول ، حتى حوض النيل الأزرق ، ومن هنالك أخذت فى الانتشار ، فى شكل مروحة شرقا وغربا وجنوبا وشمال شرق نحو اتيوبيا والبحر الأحمر . وحملت معها أسس الحضارة المصرية ، وتأثرت هذه القبائل بعض الشىء بالبيئة المحلية ، وذلك بدخول عادات وتقاليد محلية ـ انطبعت بالطابع الفرعونى .

وقامت فى البلاد أكثر من زعامة ، فى حدود المناطق الأقليمية التي يتكون منها الجزء الأوسط من حوض وادى النيل (السودان) ، وسيطرت على هذه الزعامات أسره اتخذت مدينة « نوب تا » عاصمة لها . وفى عهد هذه الأسرة هاجرت إلى

---

(٧) مكميكل تاريخ العرب فى السودان ص ١٧١ جزء أول .

(٨) أركل نبذة عن تاريخ السودان .

الجنوب جنود ابسماتيك [٩] . البالغ عددهم حوالى الربع مليون ، وقد أقطعوا منطقة النيل الأزرق . وانتقل الحكم من نوب تا ، الى « مرو » فى القرن الرابع قبل الميلاد، بسبب امتداد النفوذ الرومانى إلى مصر ومنها إلى شاطىء البحر الأحمر جنوبى سواكن للسيطرة على طرق القوافل والتجارة مع الشرق . واستمر الحكم فى « مرو » حتى هجوم عيزانا ملك أثيوبيا ، على حوض نهر العطبرة وتخريب مملكة «مرو» فى منتصف القرن الرابع الميلادى ، وقامت بعد ذلك مملكة علوة [١٠] ، وقوامها من المصريين أحفاد جنود ابسماتيك .

وانتقلت البلاد من الوثنية المسيحية ، فى صورة ما ، واحتفظت زعامتها بالطابع التجارى ، الذى تميزت به طوال الأحقاب الماضية ، واستمرت هذه الزعامة تنتقل من جيل إلى جيل ، حتى الحكم السنارى ، ولا يفوتنا أن نذكر ان هذه الزعامة التجارية ، قد قامت فى مختلف أطوارها فى زاوية معينة . وهى نقل التجارة عن طريق الحصول على عمولة الوسيط ، أو الحصول على رسوم حماية التجارة فى طرق القوافل الخ الخ . ولم تعن هذه الزعامات ، فى وقت من الأوقات بقيام صناعات محلية ، أو غلات للتصدير على صورة كبيرة ـ وبقيت المسيحية يتجاذبها المذهبان الملكانى واليعقوبى حتى ظهور رسالة الاسلام فى وادى النيل ، وعند ذلك أخذت الاحوال فى التطور التدريجى كما سنبينه فيما بعد .

٣ — الاسلام ووادى النيل الاوسط :

جاء الاسلام إلى الجزء الأوسط ، من حوض وادى النيل (السودان) ، عن طريق مدخلين هامين أولها وفق الترتيب التاريخى ، أثيوبيا ، وثانيهما شمال الوادى (مصر) . وجاءت عن طريق أثيوبيا جماعات قليلة العدد ، بينما عبرت مصر إلى السودان مجموعات متلاحقة فى اعداد وفيرة ، كما سنتعرض له فيما بعد . جاء الاسلام فى السنوات القليلة التى تلت وصول الهجرات الاسلامية إلى أثيوبيا فى عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما تبع ذلك من هجرات أخرى بسبب حروب الردة ، وغير ذلك من الدوافع . كما أن العرب قد دفعهم هجوم القراصنة فى البحر الأحمر على تجارتهم وعلى الموانىء العربية ، إلى احتلال بعض المناطق الاستراتيجية على الجانب

---

(٩) الشاطر بصيلى « النفوذ اليونانى فى حوض النيل الأزرق ... الخ
(١٠) المصدر آنف الذكر

الغربى للبحر الأحمر ، لحماية المصالح التجارية ، من عدوان سكان الجانب الافريقى[١١] ومن هـــذه المحطات وغيرها ، التى امتدت على طول الشاطىء الافريقى ، حتى بحر الزنج[١٢] ، أخذت الجماعات الاسلامية فى التغلغل داخل البلاد ، فى الهضبة الاتيوبية وحوض وادى النيل الأوسط ، كما تمكنوا[١٣] من إنشاء ولايات اسلامية فى نطاق الوطن الاتيوبى[١٤] .

وفى الوقت الذى أخذت فيـــه الجماعات الاسلامية ، فى الانتشار على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ، الذى عرفه العرب منذ أقدم العصور كان المسلمون قد دخلوا شمال الوادى (مصر) ، وأخذوا فى العمل على امتداد نفوذهم نحو البلاد ، جنوبى الشلال الأول ، ومن الملاحظ أن تلك البلاد ، لم تكن فى اعتبار المسلمين أرض جهاد ، بوصفها من بلاد الحبشة ، التى وجدت فيها أولى الهجرات الاسلامية ، خير رعاية من النجاشى[١٥] وبهذا السبب تأثر مسلك المسلمين فى تلك المنطقة الشرقية من السودان ، وكان لذلك المسلك طابعه السلبى المترامى الاتجاهات ، والذى انتهى إلى

---

(١١) قام القراصنة من أهل الجانب الافريقى للبحر الأحمر بهجوم على ميناء جدة وخربوهـــا وكان ذلك فى عام ٧٠٢ م وخشى المسلمون أن تمتد يد القراصنة إلى الداخل فتصل إلى الأماكن المقدسة . لذلك عمدوا إلى احتلال مجموعة جزائر دهلك (تتكون هذه المجموعة من جزائر كثيرة وأهم المسكون منهـا دهل، حرات ، كبارى، دركه ، ديقاريخ ، نوره، نقره ، ويطلق اسم دهلك على جميع الجزر .

(١٢) أنشأ العرب محطاتهم على الساحل الغربي للبحر الأحمر فى سواكن ، باضع ، أوناسى ، دهلك ، زيلع ، بربره ، مقديشو ، مرخه ، براوه ، ممبـا ـ عزانيـا (زنزبار) وقد تبادلت عيذاب مع سواكن المركز التجارى .

(١٣) عثر بعض الانــكليز فى عام ١٩٠٥م على قبر لعربي فى « رودسيا » وعليـه مادل على على اسم صاحبه « سلام المتوفى فى عام ٩٥ هجرية (٧٠٤م) كما وجدت آثار عربية فى مختلف البقاع الافريقية (الرواد لفؤاد صروف ص ٨٧) .

(١٤) إنشاء المسلمون سبعة ولايات إســلامية فى أثيوبيـا وهى أوفات ـ دوادو ـ اربينى ـ أو عربينى أصلها أربين ـ حديه ـ سرخه ـ أو سركى ـ بلى ـ دارا (أنظر الخريطة نمرة ٣) .

(١٥) أصحمة النجاشى كما جاء فى الرواية العربية بينما نجد أن الروايات الأثيوبية وغيرهـا قد التزمت الصمت عن هذه الواقعة . وقبر هذا النجاشى موجود بين قريتى حوزين واطبى . وقد زاره الامام احمد القرين فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى . وقد قام مؤخراً بتجديد بناء الضريح الحاج (ازماج محمد عبـده من أهالى عدوه كما ورد فى كتاب أثيوبيا ـ عمر محمد على ص ١٤٢ ـ طبع القاهرة ١٩٥٤

قيام الولايات الاسلامية فى أتيوبيا . وتمكن المسلمون من السيطرة على مرافق التجارة ، بين داخلية البلاد الأتيوبية وحوض وادى النيل الأوسط وما وراء ذلك من البلدان الافريقية من جهة ، وبين الشرق الأقصى من جهة أخرى .

ويجمل بنا أن نتعرض بعض الشيء إلى مجريات الحوادث فى البلاد الأتيوبية ، خلال الفترة التى سبقت قيام البيت السنارى فى حوض النيل الأزرق ، وذلك لنتمكن من تتبع التطورات وأثرها ، فى حوض النيل الأوسط . ومما لاشك فيه أن «أتيوبيا» عنصر له خطره ، فى دراسة المنطقة الشمالية الشرقية لأفريقيا بسبب موقعها على القرن الافريقى ، وساحل البحر الأحمر ، ومنها يخرج النيل الأزرق وروافد النيل الأخرى ومن شاطئها المطل على البحر الأحمر والزنج ، أخذ النشاط العربى الاسلامى فى الازدياد ، حتى تم للمسلمين عزل أتيوبيا عزلا تاما عن العالم الخارجى بخاصة بعد استيلائهم على ميناء زولا [16] ثغر أكسوم ، ومخرج أتيوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر فانقطعت علاقات أتيوبيا مع البلدان الأجنبية ، حتى قال جبن « لقد رقدت أتيوبيا فى سبات عميق زهاء الألف عام ، نسوا فيها العالم الذى نساهم [17] . وقد سببت هذه العزلة تدهور حالة البلاد الداخلية ، وقامت ولايات متطاحنة فيما بينها ، لتولى الزعامة كما ضعفت العلاقات الدينية مع الكنيسة المصرية . وقد مكنت هذه الحالة المتدهورة من قيام جماعة من الفلاشة [18] بثورة فى أواخر القرن العاشر الميلادى ، انتقل معها زمام الحكم إلى أميرة يهودية ، اسمها استر أو اسات ، وقد حاربت هذه الملكة الديانة المسيحية ، وخربت الكنائس . وقد استنجد النجاشى بملك النوبة جرجس ، دون جدوى . ونقل مؤرخ عربى ماجاء فى كتاب النجاشى لملك النوبة ، حيث يقول « هو امراه ملكه على بنى الهموية ثارت عليه ، وعلى ثورته ، وسبت منها خلق كثير ، وأحرقت مدن كثيرة ، وأخربت البيع ، وطردته من مكان إلى مكان ، بنى الحوية دين الهوية الهموية ، ملكه على دين اليهودية ، أزال أمر الأمراء ، التى قامت عليهم (هوان) . وكان اسم الملك فى ذلك الزمان ، لا لماسه ابن شنو [19] ، وهو تفسيرها أسد واسم امرته مسقل كيرى الذى تفسيره عظيم هو الصليب [20] ..

---

(١٦) تقع « زولا » أو « أدولس » فى منتصف الجانب الغربى من خليج « أرفلى » وهو القسم الجنوبى من خليج « أنسلى » الذي تقع عليه مصوع وفيه مجموعة جزائر دهلك .

(١٧) جبون . الفصل السابع عشر .

(١٨) الفلاشة يطلق على اليهود . القاطنين فى أتيوبيا وهم من اليمن .

(١٩) شنو صحتها شنبو معناها أسد .

(٢٠) جويدى فى المجلة الأسيوية الايطالية ص١٨١/١٦٤ ، بدج ٣ ، جزء أول ص٢١٤

وحكمت أسرة هذه المملكة حتى عام ١١٣٧ م حيث انتقل الحكم إلى البيت الذى عرف بالزغوى . وقد ارتد الكثيرون عن مسيحيتهم إلى اليهودية والوثنية وذلك لأن المسيحية لم تكن قد رسخت كعقيدة يؤمنون بها . وبينما كان البيت الأول (أسرة المملكة أستر) . على دين الموسوية - يضطهد المسيحيين ويتعقبهم فان البيت الزغوى قد أحسن معاملة المسيحيين . وقد استطاع المسلمون فى الفترة التى قضاها هذان البيتان فى الحكم ، من التوسع فى بسط نفوذهم الاقتصادى ، وامتداد رسالتهم إلى جزيرة « مرو[٢١] » ، ويعتقد أن البيت الزغوى قد دان بالمسيحية ، وهـذا أمر مشكوك فيه ، لأن بطارقة الكنيسة الأرثوذكسية لم يتعاونوا مع هذا البيت ، عند اعتلائه الحكم وأظهروا معارضتهم[٢٢] ، الأمر الذى جعل بعض ملوك هذه الأسرة يحاولون بدعاياتهم صرف الأهالى عن الكنيسة التى يرأسها المطران القبطى ، والاتجاه إلى الكنائس التى بنوها تحت رعايتهم . وذلك لتحطيم مقاومة المطران ، غير أن هذا الاتجاه فى الواقع قد ساعد على توسيع شقة الخلاف ، التى أضعفت من نفوذ البيت الزغوى ، لأن السكان وهم من البدائيين المغرقين فى البداوة ، يصعب جداً ان لم يكن من المستحيل صرفهم عن معتقدهم على هذه الصورة . وتبع ذلك أن سلطة الملوك لم يكن معترفا بها إلا فى مناطق محدودة ، واشتد التوتر والتذمر ، لفصل الكنيسة عن الدولة مما مهد لانتقال الحكم إلى البيت السليمانى .

٤ — تطور العلاقات بين البيت السليمانى والمسلمين :

لقد كان من أثر استعادة هذا البيت للحكم ، فى أعقاب الأسرة الزغوية ، تبدل فى العلاقات ، الأمر الذى أخذ مظاهر وألوان متباينة ، من الاضطهاد والعدوان ، والنجاشى كان فى خشية من قيام المسلمين بتدبير ، لإقصاء أسرته عن الحكم وإرجاع البيت الزغوى ، الذى حكم البلاد زهاء أربعة قرون . وقد وجد النجاشى أن المسلمين يسيطرون سيطرة كاملة على التجارة ، بين موانىء البحر الأحمر وداخلية البـلاد الأفريقية بعامة ، وحوض النيل وأتيوبيا بخاصة . وكانت الموانىء واقعـة فى أيدى المسلمين . الأمر الذى جعل موارد أتيوبيا وعلاقاتها مع خارج البلاد ، فى قبضـة

وما بعدها — روسينى ، جزء أول ص ٢٨٥/٢٨٦ — بدج ٢ ، جزء أول ص ٢٣٣/٢٣٤

(٢١) بدج ٣ ، ماجزء أول ، ص ٢٨٤

(٢٢) يحتمل أن تكون معارضة الكنيسة الأرثوذكسية لخلافات مذهبية كما يحتمل أن يكون هذا البيت قد حاول أن يحيى تقاليده الموروثة فى ظل الكنيسة المسيحية .

المسلمين وكانت من نتائج ذلك ، اختفاء المدن الأثيوبية التى كانت مزدهرة بالتجارة فى الماضى ، ومنها مدينة « اكسوم » التى فقدت أهميتها بامتداد النشاط العربى على ساحل البحر الأحمر . وأصيبت البلاد بأزمات اقتصادية ، بسبب ماحدث من جدب وقحط تولدت عنه المجاعات . وخلقت هذه المشاكل المتاعب للبيت السلمانى الذى رأى العمل على الحد من نشاط المسلمين، ومن سيطرتهم على مرافق التجارة ، وطرق القوافل ، وأول خطوة قام بها النجاشى ،كانت محاولته عقد اتفاقات مع الولايات الاسلامية ، فى الوطن الأثيوبى ، يعترف فيها المسلمون بالسيادة المطلقة للنجاشى ، مقابل ضم بعض المناطق إلى هذه الولايات . وقد كان من نتائج هذا العرض أن أضعف من حدة الحركة ، التى أراد القيام بها رجل من رجال الدين يدعى « محمد أبو عبد الله » الذى تراءى له أنه مبعوث العناية الالهية المكلف بفتح بلاد أثيوبيا . وقد جمع حوله الكثير من الرجال من قبائل الجاله والصومال ، وأعدهم للجهاد . وكانت هذه الجماعات من الجاله والصومال ، من المجموعات البدائية المغرقة فى البداوة ، التى جعلت إفادتهم من تعاليم الدين وتنظيماته للمجتمع غير ذات أثر . فقد كان الأمر بالعكس ، فانهم استطاعوا أن يكيفوا التعاليم الدينية ، بما يتمشى مع عاداتهم وتقاليدهم القبلية ، وكان من الهين إثارة أمثال هؤلاء وحشدهم ، فى عراك يجدون فيه إشباعاً لروحهم القبلية ، وكسباً ماديا مما سينالهم من الغنائم ، واستطاعت هذه المجموعات أن تخلق من الزعامة الدينية قوى منافسة للسلاطين الذين كان هدفهم من الحكم ، هو المصلحة التجارية فقط ، ولم تكن هنالك روابط تجمع بين سلاطين الولايات الاسلامية التى قامت فى الوطن الاثيوبى . وتسبب عن ذلك تغلب النجاشى على الولايات الواحدة تلو الاخرى وإخضاعها لسلطانه .

استمرت الحروب الداخلية ، بين المسلمين والاثيوبيين ، حتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وقد بدأها أول ملك من البيت السلمانى « يكون أملاك » (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) وخلفه يقبه صهيون (١٢٨٥ - ١٢٩٤) ، الذى شن حربا عدوانية سافرة ضد المسلمين . وقد حاول النجاشى إخفاء أهدافه السياسية وذلك باستغلال الأزمات ، التى كانت تحدث بينه ومصر بسبب المطران المصرى فى كرسى أثيوبيا [٢٣] ، أو بسبب ما كان يبلغه من اضطهاد سلطان مصر الأقباط . وقد يتبادر

---

(٢٣) حاول النجاشى « يكون أملاك » أول ملك فى البيت السلمانى بعد الأسرة = ×

إلى الذهن أن أسبابا دينية ، هى التى دفعت إلى هذا العدوان من جانب النجاشى على الولايات الإسلامية ، وهذا غير صحيح على الأقل فى مراحل الصراع الأولى ، التى استمرت أكثر من قرنين . والتى دفع إليها التنافس الاقتصادى ، الذى كان فى قبضة العرب ، الأمر الذى جعل أتيوبيا تعانى الضيق .

انتهز النجاشى عامده صهيون (١٣١٤ - ١٣٤٤ م)(٢٤) اضطهاد السلطان الناصر محمد قلاوون للقبط ، بأن أرسل بعثة إلى مصر لوقف الاضطهاد ، مهدداً باتخاذ إجراءات مماثلة مع مسلمى أتيوبيا ، وتحويل مجرى مياه النيل ، لاهلاك سكان وادى النيل ، ودفعت هذه التطورات حق الدين سلطان أوفات إلى الاستعداد للاغارة على النجاشى،وقد انتهت هذه الحركة بانتصار الأتيوبين وجعل ولايتى أوفات وفاتجار سلطنة واحدة ، تدين بالسيادة الأتيوبية وتولى أمرها السلطان خيرالدين اخ « حق الدين » الذى وقع فى الأسر - وطلب سلطان أوفات من سلطان مصر الناصر محمد ليتدخل لإصلاح ذات البين ولتسوية مشاكلهم مع النجاشى .

وبينما كانت الحرب تستعر تارة وتخمد تارة أخرى بين المسلمين والمسيحيين فى أتيوبيا ، كان خان المغول أرغون بن أبغا ، الذى كان ينزع إلى النصرانية ، قد أرسل الوفود إلى البابا ، مستنهضاً الهمم للاشتراك فى حملة صليبية ، لاخراج المسلمين واحتلال القطر المصرى ، وكان ذلك بعد فشل الحملة الصليبية السادسة على مصر وإخراج الصليبين من الشام . غير ان البابا لم يستجب لرغبة الخان ، لانهماكه فى مشاكله الأوروبية ، وعند ذلك وجه أرغون رسله إلى الملك فيليب الجميل ملك فرنسا ، للقيام بالدعوة لتنفيذ هذه الخطة ، والتى كان ضمن مشروعاتها مهاجمة مصر عن طريق بحر القلزم ، وذلك بارسال أسطوله من الخليج الفارسى ، وأن تدبر حملة ثانية لغزو مصر أيضاً عن طريق البر ، وكان لزاما أن تتحد أتيوبيا مع الفرنجة ، لتكون أرضها قاعدة لتلك التجهيزات،وقد حدث فعلا أن أرسل النجاشى«ودام أرعد»

— الزغوية (عام ١٢٧٥ م) اقناع السلطان ركن الدين بيبرس عن طريق وساطة سلطان اليمن لتعيين مطران للكنيسه الأتيوبية فى الكرسى الذى بقى شاغراً منذ سنة ١٢٥٠ م (مفضل ص ٢١٣/٢١٩) وقد عمل هذا النجاشى على الأخذ بسياسة التذرع بخلق المبررات للعدوان على المسلمين ومن ذلك قيامه بتعزيز حدوده مع أوفات (أنظر مقال روسينى عن البيت الزغوى من مجلة R.R.A.L. عدده مجلد ٤ ص ٤١٤) وكان أن رفض السلطان بيبرس أن يستمع لطلب هذا النجاشى بشأن المطران .

(٢٤) أرسل مسلمو « أوفات » بعثه إلى سلطان مصر الناصر محمد وذلك فى الفترة بين سنة ١٢٣٢ وسنة ١٢٣٨ وكان على رأس هذه البعثة عبد الله الزيلعي (أنظر العمرى ص٢-٢)

(١٢٩٩ - ١٣١٤ م) رسله إلى البابا كلمنت الخامس . وحاول المبشر جوردان كاتنالا مبشر بمباى ، أحياء الفكرة فى عام ١٣٢٤م، إلا أن الشقاق بين ملوك أوروبا والباباوات جعل التفكير فى هذا الموضوع أمراً مستحيلا . غير أن الفكرة لم تمت ، وبقيت معلقة تتأثر بمجريات الظروف (٢٥) ، فى الوطن الأثيوبى كنتيجة للصراع بين المسلمين والنجاشى ، وقد وصل ذلك العراك نقطة التحول عندما انهزمت جيوش النجاشى ، التى أرسلها لغزو عدال فى ١٤٧٣ / ١٤٧٤ م . وحاول السلطان محمد ابن أظهر الدين ، الذى حكم ولاية عدال فى الفترة ١٤٨٨ / ١٥١٨ م ،أن يجنح إلى السلم مع الولايات المسيحية غير ان جهوده قد ذهبت أدراج الرياح بسبب الغزوات التى قام بها أمير هرر (٢٦) . وكانت العادة ان لكل أمير السلطة التى تخوله شن الحرب والصلح وان الجنود فى الأمارات التى تضمها الولاية تابعون للأمير وليس للسلطان من الأمر شيئاً غير الحصول على حصته من الضرائب (٢٧) ، وهذا هو نفس النظام اتبعته السلطنة السنارية .

وحاولت الملكة هيلانة ، التى تولت وصاية ابنها الملك « لبنـا دنقل » (١٥٠٨ - ١٥٤٠)، ان توطد العلاقات مع « عدال » لفتح طرق التجارة،وأرسلت لذلك البعوث إلى البلدان التى يهمها الأمر ، ومنها مصر غير أن هذه المساعى من جانب الملكة هيلانة (٢٨) قد فشلت ، ولهذا اتجهت نحو الدول المسيحية بارسال مبعوثها متى الأرمنى إلى ملك البرتغال (٢٩) ، للتعاون على طرد المسلمين والأتراك الذين بدأ خطرهم فى الزيادة وبخاصة بعد فتح القسطنطينية ، والتوسع بضم غربى آسيا ومصر

---

(٢٥) ذكر ابن تغرى لبردي فى كتابه النجوم الزاهرة « عن الحملة المصرية » على جزيرة قبرص (فى ١٤٢٥/١٤٢٦ م) وفى سياق حديثه أشار إلى « الحاج نور الدين على » الذى كان رسول النجاشى إلى الفرنجه .

(٢٦) الفارز فى كتابه ص ٣٠٥ - ٣١٠

(٢٧) فتوح الحبشة ص ١٢

(٢٨) أمبراطورة أثيوبيا وإحدى الزوجات الأربع للنجاشى - مريم وهى ابنة الجراد أبون - سلطان مقاطعة دوارو الاسلامية وقد تنصرت وتزوجها النجاشى المذكور ، وقد فرض هذه العادة النجاشى زرأ يعقوب (الذى حكم من ١٤٣٤ إلى١٤٦٨م) عندما تغلب على ولاية حدية الاسلامية

(٢٩) المقريزى « الالمام بأخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام » (مطبعة التأليف القاهرة ١٨٩٥م) حيث يقول فى ص ٥ (. . . ثم كتب إلى ملوك الأفرنج يحثهم على ملاقاته لازالة المسلمين . . .) .

والسيطرة على شرق البحر الابيض المتوسط وشمال البحر الاحمر ، وطلبت أتيوبيا تقسيم مناطق النفوذ فى البحر الأحمر للعمل المشترك ضد المسلمين والاتراك كما يأتى :-

ملك فرنسا = يحتفظ بقوة عسكرية فى سواكن .

ملك أسبانيا = يحتل زيلع .

ملك البرتغال = يتخذ مع مصوع قاعدة لقواته .

وأن تعمل هذه الجيوش ومعها قوات أتيوبيا . على غزو جزيرة العرب مهد الاسلام ، وطرد الأتراك والمسلمين من مصر وغيرها .

وأخذت العلاقات بين المسلمين والنجاشى فى الفترة التالية فى التطور السريع نحو مرحلة فاصلة ، وبخاصة بعد دخول عناصر أجنبية لنصرة أتيوبيا فى صراعها مع المسلمين ، الأمر الذى صبغ الحرب ، بالصبغة الدينية ، وما كان لها أن تتخذ هذه الصبغة ، لولا تدخل الدول المسيحية الأوروبية ، وعجز سلاطين الولايات الإسلامية عن تسوية مشاكلهم مع النجاشى ، ويرجع ذلك العجز إلى فقدانهم السيطرة الكاملة على ولايتهم لضعف جهاز الحكم ، الذى استأثر بجانب كبير منه رجال الدين ، وصارت مقاليد الأمور الفعلية تنتقل من هذا الجانب إلى ذاك وهكذا دواليك ، حتى يطغى الأقوى ويجرف الجانب الثانى ، وكان طبيعياً أن يكون الأقوى هو جانب رجل الدين لما له من سلطان روحى ، فى بيئة حديثة عهد بالاسلام ، ومغرقة فى البداوة كما سبق أن أوضحنا ، وهذه هى الحالة وما وصلت اليه فى المناطق الاسلامية ، وهذا أيضاً هو ما دفع الملكة هيلانة المسلمة أصلا - أن تفقد الأمل فى قيام حسن جوار ومودة بين المسلمين والمسيحيين فى أتيوبيا ولذلك لجأت إلى طلب المعاونة مع الفرنج .

وأخذت الأمور فى التطور السريع ، فى القرن السادس عشر ، وكان لتدخل البرتغال نصيبه ، فى تبدل الموقف ورجحان كفة المسيحية فى أتيوبيا ، واستشهاد الامام احمد القرين (٣٠) ، وانتقل الصراع من الوطن الأتيوبى ، إلى حوض البحر الأحمر بامتداد السيطرة العثمانية ، وبخاصة بعد نزول قطع بحرية عثمانية فى مياه ذلك البحر فى عام ١٥٣٨ م . كما أثارت مطامع البرتغال فى الوطن الأثيوبى ، مشاعر أهله (٣١) فطردوهم

---

(٣٠) الامام احمد بن ابراهيم الغازى وكنيته « القرين » أى الأشول بدأ حياته فى عراك مع السلطان أبو بكر واستولى على الملك وقاد حملة الجهاد فى أثيوبيا حتى استشهد فى عام ١٥٤٣ م أنظر تفصيلات حروبه . فى كتاب عرب فقيه « فتوح الحبشة » نشرة رينيه باسيه فى جزءين .

(٣١) لودلفس - ص ٣٦٦/٣٥٠

من البلاد ، بعد أن تعقبوهم بالتعذيب والتقتيل،وطلب النجاشي من باشوات سواكن ومصوع المساعدة ، في منع هؤلاء الفرنجة من دخول الأراضي الاثيوبية .

٥ — تطور الصراع وأثره في السودان

أوضحنا مراحل العلاقات ، بين المسلمين والمسيحيين ، في الوطن الاثيوبي ، وتطور تلك العلاقات ، في الفترة التي سبقت المرحلة الفاصلة ، التي انتهت بهزيمة المسلمين بعد مقتل الامام احمد القرين ، في السنوات العشر الأخيرة في النصف الأول من القرن السادس عشر . ونجده لزاما علينا أن نذكر في شيء من الأسهاب بعض التفصيلات ليتمكن القارىء ، من تكوين فكرة عن التيارات ، التي مهدت لما حدث في السودان ، من تطو في نظام الحكم .

فقد كان للصراع الذي وقع بين الفريقين المتحاربين في أتيوبيا، أثره في المجموعات العربية ، التي نزلت في حوض وادي النيل الأوسط (السودان) . فقد اتخذت كل مجموعة منهما رقعة من الأرض ، للتوطن بها وذلك بعد أن قام هؤلاء بكشف البلاد [٣٢] ، للتعرف على مدى صلاحيتها لقبول النازحين ، الذين حافظ بعضهم على حياته البدوية ، ونزل البعض الآخر على ضفاف النيل ،وهنالك اختلط بالسكان المحليين ، وكونت كل قبيلة دارها الخاصة بها ، وخضعت للبيئة الأقليمية ، التي دفعت مظاهرها الطبيعية، إلى قيام وحدات أقليمية وحدت بينها مصالح اقتصادية مشتركة، ولو انه لم يكن لتلك المصالح المشتركة من أثر في توجيه حياة المجتمع ، فانها لم تحد من الصراع الخفي بين النازحين والسكان الأصليين ، وهكذا بقيت الحياة غير مستقرة ، حتى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن الذي تلاه . ففي تلك الفترة أخذ الصراع في أتيوبيا ، بنصيبه في إدخال نظم جديدة على حياة المجتمع في مختلف المشيخات في السودان . وقد كان لمجريات الأحوال في شمال أتيوبيا في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، أثرها المباشر في قيام سلطان في سنار ، والجمع بين المشيخات في وحدة ، تزعمها البيت السناري ، في سيادة رمزية حددتها المصلحة التجارية ـ ولم يربط بين تلك المشيخات وبين السكان ولاء ، على الطراز الذي كان في الاقطاع الغربي .

---

(٣٢) مخطوطة الشيخ أبو دلق ـ الملحق الأول .

أما الامام احمد بن ابراهيم الغازى ، (المكنى بالقرين أى الأشول) ، فقد بدأ حياته الأولى ، فى المنطقة الواقعة بين قلديسى وهرر ، وتزوج من ابنة الامام محفوظ أمير زيلع ، وكانت العداوة قائمة بين القرين والسلطان أبو بكر ، بسبب قبل الاخير للجراد أبون فى زيلع . لذلك نجد ان القرين ، قد أمضى سنواته الأولى فى محاربة السلطان أبو بكر ، حتى تغلب عليه وقتله ، وأقام عمر دين سلطانا بدلا من أخيه أبو بكر ، الذى قتل ، وبعد هذا النصر ، وجد ان فى قدرته أن يمتنع عن دفع الجزية للنجاشى ، الذى أرسل حملة بقيادة حاكم بالى فى ١٥٢٧ م ، لاخضاع القرين الذى انتصر على هذه الحملة ، بعدها أن كبدها هزيمة منكرة . وأسرع القرين إلى إعلان « الجهاد » ، وبخاصة وان الأحوال فى حوض البحر الأحمر ، قد أخذت فى التطور بسبب المنافسة بين الأتراك والبرتغاليين ، على السيادة على طرق التجارة البحرية بين البحر الأحمر والخليج الفارسى ـ والتف الاتباع من الصومال وغيرهم ، حول القرين الذى اكتسح الجيوش الاتيوبية ، الواحدة تلو الآخر وصار النجاشى « لبنا دنقل » طريداً ، يتنقل من جبل إلى جبل . وأخذت الرقعة التى يحكمها المسلمون ، فى الازدياد شمالا حتى عام ١٥٤١ م ، عندما وصلت المساعدة البرتغالية التى طلبتها الملكة هيلانة وكان وصول هذه الامدادات مفاجأة للمسلمين ، لم يستعدوا لها ، كما أن أخبار هذه الحملة ، قد أوقدت حماس الأتيوبيين ، الذين اشتدت عزيمتهم . وكانت الموقعة الأولى بين الامام وأعدائه ، فى المنطقة الواقعة بين أميا آلاجى وبحيرة الشانجى ، وذلك فى عام ١٥٤٢ م ، وقد جرح فى هذه الموقعة القرين ونجا من الأسر . وأرسل القرين إلى الباشا التركى ، فى زبيد طالباً منه نجدة من الجنود والأسلحة ، وقد أرسل اليه الباشا تسعمائة من حملة البنادق وعشر مدافع ، وقد مكنت هذه النجدة من أحراز انتصار على البرتغاليين ، ومقتل زعيمهم خريستوفو دى جاما ، وتشريد رجاله ، الأمر الذى حمل القرين على الاعتقاد ، بأن الحال قد استتب له ،فأعاد النجدة التركية بعد أن وصلت قواته حتى شمال بحيرة تانا ، حيث أقام معسكر قيادته . واشتبك بعد ذلك مع النجاشى قلاوديوس وحلفائه من البرتغال ، وانتصر عليهم فى نهاية عام ١٥٤٢ م ، وتفرقت قوات القرين فى أوائل عام ١٥٤٣م ، ويبدو ان من أسباب تفرق الجنود ، وغالبيتهم من أهل صحارى الصومال والدناقل، أزدياد المقاومة السلبية من الأهالى ، فى المنطقة شمالى بحيرة تانا .

وقد جاء فى الجزء الأول ، من كتاب تحفة الزمان (٣٣) الذى دوّن فيه مؤلفه التفصيلات عن حروب المسلمين فى أتيوبيا قبل استشهاد الامام ، ما يدل على اتساع رقعة الصراع ، « ان الامام أحمد الغرين قد خرج من بق مدر (٣٤) إلى مزجه (٣٥)، فى رمضان سنة واحدة وأربعين وتسعمائة هجرية (١٥٣٥ ميلادية) ، ومنها إلى أرض سمين، (٣٦) ومن ثم إلى وقره (٣٧)، ثم إلى بلاد الدنبيا (٣٨) ، التى يقول عنها انها « بندر الذهب ، عليها بلدان كثيرة بلاد النوبة ، التى يخرج منها الذهب ، فرتب فيها، واتخذها مسكناً ، وأصلحها جميعاً ... وأعطى ثغر تاكه (٣٩) ، وهو بلاد الهمج (٤٠)

---

(٣٣) تحفة الزمان لمؤلفه شهاب الدين ابن الشيخ احمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان من جيزان . المعروف بعرب فقيه وقد نشر الجزء الأول من هذا الكتاب وعلق عليه فى ترجمة فرنسية رينيه باسيه . ومما يؤسف له أن الجزء الثانى من هذا الكتاب مازال مفقوداً ويظن أن نسخة منه موجودة فى مكتبة أمام اليمن .

أنظر أيضاً كتاب الاسلام فى الحبشة لترمنجهام ومقال شيرولى ص ١٠١/٣٩

(٣٤) بق مدر Begameder - Midra أنظر الخريطة ٤ .

(٣٥) مزجه Mazaga وتنطق الجيم كالجيم التى ينطق بها أهل القاهرة .

(٣٦) سمين Samen بلاد عسيرة ذات حصون مانعة وجبال شامخة لم يكن للخيل فيها من سبيل ولم يكن فى بلاد أتيوبيا أعسر منها (فتوح الحبشة ص ٢٤١) راجع الخريطة نمرة ٤ .

(٣٧) وقره Wagora أنظر الخريطة نمرة ٤ .

(٣٨) بلاد الدنبيا . المنطقة المجاورة لبحيرة تانا التى تعرف أيضاً باسم تانا أو دمبيه .

(٣٩) ثغر تاكه هى كسلا ، المقصود من ثغر أنها البلد التى تقع مباشرة قبل ولاية أخرى أى عند مدخلها .

(٤٠) ورد ذكر « الهمج » فى أكثر من موضع فى كتاب «فتوح الحبشة» ، عن اشتراكهم فى الحروب فى جانب المشركين ، ونجد هنا تحديداً واضحاً عن دار « الهمج » ، التى أعطى ثغرها للوزير عباس ، ونجد أن جماعة عرفت باسم « الهمج » قد لعبت دورها الهام فى تاريخ السلطنة السنارية ، عندما تمكن الشيخ محمد أبو الكيلك ، وهو من الهمج ، من انتزاع الحكم من سلاطين سنار » فى حوالى عام ١٧٦٢ ميلادية ، وانفرد هذا الشيخ وخلفاؤه من أقربائه ، من بعده بمنصب الوزارة ، وبتصريف شئون السلطنة ، حتى السنوات القليلة التى سبقت امتداد الحكم المصرى وكانت كلمتهم هى العليا يعزلون السلاطين ويولونهم دون عقب، وهنالك أيضاً فلول تعرف «بالهمج» فى « دار فنج » (للمنطقة جنوبى سنار على النيل الأزرق) (أنظر سلجمان ص ٤١٥ و ٤١٦ و ٤٢٠) وهذه الفلول أخذت طريقها نحو الاختفاء كوحدة اجتماعية بسبب غلبة المؤثرات المحليه وتوجد فى المنطقه شمالى وجنوبى مدينة « بربر » بيوت من « الهامق » فما هى إذن العلاقات التى تربط أولا « همج » ثغر التاكه الذين شملت دارهم مواطن الحمران بالقرب من كسلا (التاكه القديمه) وثانياً همج الوزارة السنارية والفلول التى نزحت جنوبا نحو دارفنج حيث اختلطت بالأهلين المحليين وثالثاً « هامق » منطقه بربر . لقد كانت هذه المشكله موضع دراسه خاصه لسنوات عديدة خرجت منها بأن « همج » الوزارة السنارية هم « همج » كتاب فتوح الحبشه وهم بطن من قبيلة =

للوزير عباس [٤١] واستراحت المسلمين [٤٢] . ومن هذا يتضح لنا أن مسرح القتال قد شمل الجزء الشمالى لبلاد اتيوبيا ، جنوبى الرقعة التى قامت فيها ولايات إسلامية ،

= الحمران (بفتح الحاء والميم) وينطق البعض هذه الكلمه بضم الحاء وسكون الميم وقد تميز أفرادها بالشجاعه وركوب المخاطر وسعه الحيلة وهذه الصفات هى التى مكنت الشيخ محمد أبو الكيلك من الوزارة بعد انتصاره فى كردفان فى السنوات الأولى من منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وهى التى مكنت « رابح فضل الله » وهو من الهمق من إنشاء مملكته فى السودان الغربى بعد تركه سليمان الزبير الذى لم يستمع لنصحه وقد حارب رابح الفرنسيين حتى خر صريعاً مستشهداً فى حرب الاستعمار الأوروبيه . نزحت هذه الجماعه من الهامق في أعقاب انتقال السلطان السنارى إلى حوض النيل الأزرق ويحتمل أن تكون الدوافع التى عملت على انتقال البيت السناري هى التى أثرت بدورها فى هجرة «الهمج» حيث أن موطنهما الأول واحد ولايعلم على وجه التحقيق الطريق الذى سلكته هذه الجماعه فى أفواجها المتلاحقه ، سكن بعضهم فى سنار واشترك في معترك الحياة ومكنتهم صفاتهم الخاصه من الوصول إلى الوزارة ، ذهب البعض نحو« دارفنج » لسبب أو آخر واختلطوا بالسكان المحليين وكانوا بلاشك قلة تمثل طبقه حاكمه فقدت طابعها الخاص بمرور الزمن وكان للأم المحليه أثرها القوى فى هذا التحول بعد زوال الحكم ، أما تلك البيوت التى نجدها اليوم فى منطقه بربر (وخاصة فى بلدة العبيدية) فقد انصرفوا عن حياتهم الأولى وانخرطوا فى حياة المجتمع الجديد إلى حد كبير - واحتفظوا بقدر من صفاتهم المميزة التى ورثوها عن أجدادهم الأوائل بسبب الأم التى نجدها فى هذه المنطقه من القبيلة نفسها .

ومسألة أخرى لاتقل أهميه عن موضوع العلاقات التى ربطت بين « الهمج » الذين نزلوا فى مختلف الأماكن - وهذه هى كلمه « همج » التى عرفت بها مجموعات التاكه وسنار ودار فنج ومنطقه بربر وينطق الاسم فى المنطقه الأخيرة « هامق » وقد تبين أن الاسم كما ينطق به فى منطقه بربر هو الصحيح ونجد أن الاختلاف بين الكلمتين قد حصل فى الحرف الأخير حيث كتب الجيم بدل القاف الصعيدية وإذا رجعنا إلى الكلمات التى جاءت فى (عرب فقيه) وحرف الجيم جزء منهـا نجد أن المؤلف قد استعمل هذا الحرف فعلا لتصوير صوت القاف التى ينطق أهلها القاف الصعيدية فى صورة « جيم » أهل القاهرة وقد عمل هـذا الرسم الخاطىء على خلق كثير من المحـاولات لارجاعها إلى مصدر يتفق مع كلمة « همج » ومن ذلك ان القوم قد استعبدوا «الهمج» وهكذا لعب الخطأ في التصوير الصوتى دوره الهام .

وذكر « نيقارلس » في كتابه الشايقيه ص ٧ ان مجموعة من البشارين تسكن في الصحراء شرق أرقو وتعرف باسم (Hamok) ومما قدمنا نجدان هذه الصلة بين الهامق وبين البشارين ترجع إلى انهم من شرق الوادى .

(٤١) حاول الوزير عباس بعد استشهاد الامام احمد القرين أن يوحد بين الولايات الاسلامية دوارو وفاتجار وبلى لمحاربة النجاشى الذى انتصر عليه فى عام ١٥٤٥ ميلادية (أنظر كونزلمان ص ٢٣ — ٢٥ من المقدمة) .

(٤٢) فتوح الحبشة ص ٢٤٤

سيطرت على طرق القوافل بين الساحل وداخلية البلاد الاتيوبية وسودان وادى النيل وكان لزاما أن يفكر جماعة من أصحاب المصالح الاقتصادية ، سواء كانوا أسرة حاكمة، أو من كبار المشتغلين بالقوافل ، فى الهجرة من مواطن القتال إلى ملجأ يجدون فيه أمناً ، ورعاية لمصالحهم ، لذلك لم يكن بد من الانتقال إلى حوض النيل ، بعد أن اشتد القتال بين الاتيوبيين من المسلمين والمسيحيين ، كما اشتد التطاحن بين القبائل فى الشمال من أتيوبيا . ولم يتعرض الامام للولايات الاسلامية ، التى قامت فى أقصى الشمال والشمال الغربى من أتيوبيا ، بل تركها وشأنها واهتم بتوسيع فتوحاته ، التى وصلت حتى منطقة بحيرة تانا . وكانت فى أقصى الشمال مملكة البلى أو البلو ، وقد هبطت عليها مجموعة من الحباب ، واجتاحت المنطقة بين خور أنسبا والبحر الأحمر ، واشتبكوا مع البلى ، وحدوا من سيطرتهم ، وكان ذلك فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى . وحدث فى نهاية العشرين عاما الأولى من ذلك القرن ، ان امتد نفوذ الأتراك إلى سواكن ، بعد احتلالهم لمصر فى عام ١٥١٧م . ودخول الكشاف من قبل العثمانيين إلى منطقة النوبة السفلى والمحس . أما ما كان من أمر المنطقة الشمالية الغربية لأتيوبيا ، فتذكر الروايات المتواتره بين سكان شرق السودان أن قتالا قد حدث بين الفونج ، وبين قوة مشتركة من البلى والارتيقة ، وذلك فى السنوات العشر الأولى من القرن السادس عشر الميلادى[٤٣] . وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة البلى ، والارتيقة ، ويشير التقرير الذى نشره روسينى ، عن حفرياته فى خور بركة ، ان حربا قد حصلت فى تلك المنطقة ، بين الفونج والقبائل ، وأصيب الفونج فيها بهزيمة منكرة فروا بسببها ، إلى حوض النيل الأزرق . ويبدو أن هذه الحرب قد وقعت بعد زيارة داود روبينى ، الذى زار المنطقة فى أوائل عام ١٥٢٢ ميلادية ، فقد وصل هذا الرحالة ميناء سواكن فى ديسمبر سنة ١٥٢١ ميلادية ، وغادرها بعد شهرين من إقامته فيها ، وسافر مع قافلة تجارية كبيرة إلى أرض كوش . وقد سلكت هذه القافلة الطريق الساحلى ، حتى منطقة مصوع ، ومنها نحو الغرب إلى منطقة « لملم » ، مخترقة حوض التكازى ويذكر روبينى أنه قد قابل السلطان عميرة ، فى عاصمته فى تلك المنطقة والتى تقع بالقرب امن منبع نهر النيل (رافد التكازى) ، ويقول أن سيطرة عميرة قد شملت البلدان ، الواقعة على نيل مصر[٤٤] ، وهذا يعنى أن سلطان عميره قد امتد

(٤٣) بول ص ٧٦ / ٧٧

(٤٤) رحلة روبينى فى : ـ (١) أدلر (٢) جرايتز (٣) برفلت (٤) نيوباور (٥) مللسن ـ مدونات المجلد السادس عشر .

على البلاد النوبية ، التى شملت حوض النيل الأوسط ، حتى حدود المحس شمالا ، وهذه المنطقة لم يتدخل فى أمرها الإمام أحمد القرين، وجاء فى كتاب «فتوح الحبشة» «. . . ودخل أشراف إلى عند الامام من عند الدنيبا ، أربعون فارساً ، كلهم أشراف مع شيخهم شرف الدين بن على ، والشريف عبد الرحمن ، وتقبلهم الامام وأعطاهم أرض أطراف بلدان إلى طرف بلاد النوبة ، واصطلحت جميع الدنيبا إلى بلاد النوبة [٤٥] » وقد أعطى الامام ، كما سبق أن أشرنا ، ثغر تاكة ـ ثغر الهمج (الهمق) إلى الوزير عباس ، ولايعلم على وجه التحقيق ، موقع هذا الثغر ، الذى أعطاه الامام للوزير عباس ، ويبدو أنه على الحدود الاتيوبية الشمالية الغربية ، على المدخل إلى منطقة التاكة (كسلا) ، كما لا تعلم العلاقة بين هؤلاء الأشراف ، الذين وفدوا على الامام فى الدنيبا ، ومما لاشك فيه أن دار هؤلاء الأشراف كانت قائمة فى الرقعة الواقعة بعد حدود الدنيبا مباشرة ـ من ناحية التاكة أو الارتريا ، التى لم تكن خاضعة للسلطان السنارى . كما أننا لانعلم على وجه التحديد العلاقة بين هؤلاء الأشراف والسلطان السنارى الذى كان فى كرسى الحكم فى سنار ، وهو السلطان عبد القادر ابن السلطان عميرة [٤٦] .

٦ — الوطن الاول للأسرة السنارية :

ونجده لزاماً علينا ، أن نحاول التعرف على التطورات ، التى حدثت فى القسم الشمالى والشمال الغربى لاتيوبيا ، وماكان لها من أثر فى السودان ، ومدى ارتباط ذلك بالسلطنة ، التى قامت فى سنار ، فى القرن السادس عشر الميلادى . ونجد من الضرورى أن نرجع إلى ماقبل ذلك التاريخ . فقد تعرضت هذه المناطق لموجات ، من الهجرات القبلية المتباينة ، وكان من نتيجة الاصطراع القبلى ، دخول تعديلات كثيرة ، على الأوضاع الاقليمية ، فمدن اختفت وأخرى نشأت . وقامت مدن على أنقاض غيرها ، بأسماء جديدة أو مصحفة عن القديم، لذلك نجده من العسير أن نصل فى يسر ، إلى تحديد مواقع المدن ، التى ورد ذكرها فى المصادر التاريخية ، والروايات

---

(٤٥) فتوح الحبشة ص ٢٤٦ / ٢٤٧

(٤٦) اتفقت الروايات على انه قد حكم عشرة أعوام بعد وفاة والده السلطان عميرة، عدابروس الذى قال أنه حكم ثمان سنوات ،وهنالك رواية تقول ان أخيه نايل قد تولى الحكم بعد وفاة والده وهذه ضعيفة .

عن الفترات المتعاقبة . ومما يضاعف الصعوبات ، أن ماجاء فى المصادر وغيرها ، قد نقل عن أفواه رجال القوافل ، من غير أهل البلاد ولهؤلاء لهجاتهم الخاصة ، وأثرها ظاهر بصفة خاصة ، فى حرفى الجيم والقاف ، ومثال ذلك كلمة « الهمق » وقافها تنطق كالجيم القاهرية أو القاف الصعيدية ، فالكاتب نقلها فى أقرب حرف ، وهو الجيم فى لهجته المحلية(٤٧) .

وقد كان الجزء الشمالى ، من أتيوبيا موضع اهتمام المسلمين ، نسبة لموقعه الاستراتيجى ، على طرق القوافل ، بين البحر الأحمر ، وداخلية البلاد الاتيوبية ، وحوض النيل . فقد ذكر اليعقوبى ، فى كتابه عن هذه المنطقة ، التى عرفها باسم مملكة البجة (٤٨) ، وهم بين النيل والبحر ، ولهم عدة ممالك ، فى كل بلد ملك منفرد ، فأول مملكة البجة من حد أسوان ، وهى آخر عمل المسلمين ، من التيمن بين الشرق والغرب إلى حد بركات(٤٩) ، وهم الجنس الذى يقال لهم نقيس ، ومدينة المملكة يقال لها هجر(٥٠) ، ولهم قبائل وبطون ، كما تكون للعرب ، فمنهم الحدرات وحجاب(٥١) والعمائر(٥٢) ، وكرفر(٥٣) ، ومناسه(٥٤) ، ورسفه(٥٥) ، وغربريعه(٥٦) ، والزنافج . وفى بلادهم المعادن ، من التبر الجوهر ، والزمرد ، وهم مسالمون ، والمسلمون يعملون فى بلادهم فى المعادن .

والمملكة الثانية من البجه ، مملكة يقال لها « بقلين » ، كثيرة المدن واسعة ، يضارعون فى دينهم المجوس الثنويه : يسمون الله عز وجل الزبحير الأعلى ، ويسمون الشيطان « صحح حراقة(٥٧) » ، وهم الذين ينتفون لحاهم ، ويقلعون ثناياهم ، ويختتنون وبلادهم بلاد مطر .

ثم المملكة الثالثة ، يقال لها بازين ، وهم يتاخمون علوة من النوبة ، ويتاخمون

---

(٤٧) أنظر هامش ٤٠

(٤٨) تاريخ اليعقوبى (احمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (٨٧٢ م تقريباً) ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٤٩) خور بركة .

(٥٠) أنظر الخريطة نمرة ٣ .

(٥١) الحدارب والحباب .

(٥٢) الأم مرأر (٥٣) غير معروفة (٥٤) منسه . ما زالت موجودة (٥٥) و (٥٦) غير معروفة . (٥٧) يقول روسينى فى كتابه تاريخ أتيوبيا ص ٢٧٢ وما بعدها ما يفيد بأن هذه الكلمة تجريه .

بقلين من البجه ، ويحاربون هؤلاء ، وزرعهم الذى يأكلونه (دخن) ، وهو طعامهم واللبن .

والمملكة الرابعة يقال لها جارين ، ولهم ملك خطير ، ومملكة مابين بلد يقال له باضع ، وهو على ساحل البحر الأعظم ، إلى حد بركات ، من مملكة بقلين إلى موضع يقال له الدجاج ، وهم قوم يقلعون ثناياهم .

المملكة الخامسة ــ قطعة من باضع إلى فيكون :

المملكة السادسة ــ مملكة النجاشى .

وجاء فى موضع آخر من كتاب اليعقوبى ، ان « هجر » عاصمة البجه الحدارب ، وتقع على مسيرة خمسة وعشرين يوما من بلدة العلاقى ، (على النيل جنوبى الشلال الأول) ، ويضيف اليعقوبى أنها كانت محطة ، يتخلف إليها التجار من المسلمين .

وقد ورد اسم مدينة « هجر » فى « عقد الأمان » ، الذى أعطاه عبد الله ابن الجهم إلى كنون بن عبد العزيز عظيم البجه فى عام ٢١٦هـ (٨٣١م) ، والذى احتفظ فيه بشروط ، منها « وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها ، من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد مابين دهلك وباضع ، ملكا للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله [٥٨] . . . » ومن هذه الشروط ــ فيما عدا مايختص بمعاملة المسلمين والذميين وحق الاقامة ــ ما جاء بخصوص المساجد ، حيث قال « وعلى أن لاتهدموا شيئاً من المساجد ، التى ابتناه المسلمين بصنجه [٥٩] ، وهجر ، وبسائر بلادكم طولا وعرضاً ، فان فعلتم شيئاً من ذلك ، فلا عهد لكم ولاذمة » .

---

(٥٨) المقريزى ــ ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٥٩) يقول مونريت دى فيلارد ص ١٠٢ ان صنجه هذه هى سنكات ، التى تقع حاليـا على خط السكة الحديد بين بورتسودان والعطبرة وكانت فيما مضى محطة لها أهميتها على مفـترق طرق القوافل من مختلف المناطق وتقع فى قلب القطاع الذى شرط الأمير ملكيته للخليفة بمقضى عقـد الأمان . ويحتمل أن يكون لاختلاف اللهجات أثره فى التصحيف الذى أصاب الصـاد والجيم الذين تحولا الى سين وكاف . ويحتمل كثيراً أن الاسم « صنجه » قد قصد به المكان الخرب « سنجه ديب » الموجود شمال شرق كسلا . وهذه الكلمة تتكون من « سنجه » أو « صنجه » التى هى اسم لاحدى بطون قبيـلة الدجون التى كانت تسكن حوض العطبرة و « ديب » محـرفة عن الـكلمة النوبية القديمة « دف » أى « المهجور » أو « الخرب » ولا نعلم بالضبط أى المكانين قد سبق الآخر ويتوقف تحقيق ذلك على القيام بدراسة اركيولوجية =

ومما جاء فى كتاب اليعقوبى ، عن ممالك الخمس ، والذى كتبه بعد ٧٨٢ ميلادية ، أى بعد حوالى أكثر من أربعين عاما من الأمان آنف الذكر . يبدو أن مملكة نقيس فى حدودها ، التى أوضحها اليعقوبى ، هى التى قامت فى القطاع ، الذى اشترط الأمير ملكيته . وتدخل فيه مناجم المعادن كما تشقه الطرق التجارية مع ساحل البحر الارتيرى عند باضع ، وفى هذا تمهيد لسيطرة العرب على التجارة ، إلى داخلية حوض وادى النيل، وبالتالى امتداد نفوذهم غربا ، إلى حوض النيل الأعلى، وجنوبا نحو بلاد أتيوبيا.

ذكر المقريزى أن « هجر » يسكنها رئيس ، يرجع إليه جميع رؤسائهم (البجه) إلى حكمه ، وهى أقصى جزيرة البجه[٦٠] ، وقد حاول روسينى[٦١] أن يربط هذا الاسم مع أباى نجران ، ويقول متسنجر أنها على خط عرض ١٦ر٣٧ ، وتعرف باسم « هجر » وبها كنيسة قديمة مخربة ، تعرف باسم آخر نجران . (Agre Nejiran) ، وأنها واقعة على طريق الحجاج ، من أتيوبيا ، إلى بيت المقدس . وإذا رجعنا إلى ماذكره اليعقوبى ، إن هذه البلدة تقع على مسيرة خمسة وعشرين يوما من العلاقى ، وأن التجار من المسلمين يتخلفون إليها ، وإلى قول المقريزى أن « بلدة هجر تقع فى أقصى جزيرة البجه » ، فلا يسعنا والحالة هذه ، إلا أن نرفض التفسيرين ، اللذين تقدم بهما روسينى ومتسنجر وغيرهما .

أولا — لأن أقصى جزيرة البجة لايكون إلا فى موضع نحر الغرب ، من جزيرة دهلك (مصوع) .

ثانياً — أن مسيرة الخمسة والعشرين يوما من العلاقى ، توصلنا إلى وادى التكازى - ستيت ، وفى هذا تأييد لما كتبه روبينى فى رحلته .

ثالثاً — لم تكن للتجار من المسلمين من مصلحة ، إلا أن يذهبوا إلى بلد له قيمته الاقتصادية . وكل هذه مجتمعة تحدد اقليم (الملم) ، وتشير إلى بلدة أم حجار (« أوم هجر » فى اللهجة المحلية) ، وقد عرفت هذه البلدة قبل وبعد زيارة روبينى ، وذلك لمركزها التجارى وسيطرته ، على طرق القوافل ، بين داخلية البلاد الاتيوبية وحوض النيل ، وبين موانى البحر الارتيرى . وهذا الموقع على الرافد تكازى - ستيت ، قد أكسب البلدة موقعاً فى أقصى الجزيرة البجة ، ومركزاً تجاريا للقوافل .

---

(٦٠) المقريزى ص ٢٦٨

(٦١) روسينى — مقال ص ٦٢٥

وتميز هذا الموقع الأقليمى بقيامه على المدخل بين حوض النيل وأتيوبيا ، الأمر الذى جعل القوافل تتخذه منفذاً لها ، بين تلك البلاد وساحل البحر الأرتيرى ، فى مختلف موانيه من مصوع وباضع وسواكن ... الخ . كما اتخذته الهجرات المختلفة ، معبراً لها نحو مهاجرها .

* * *

٧ — ويهمنا بعد أن أوضحنا ما كانت عليه المنطقة الشمالية الغربية لأتيوبيا من أهمية إقليمية ، أن ننتقل إلى عرض الآراء المختلفة ، عن أصل السلطنة السنارية، فان هذه الآراء تقول أن هذه الأسرة ترجع إلى : —

(١) انهم من قبيلة الشلك ، التى كانت تسكن على شاطىء النيل الأبيض جنوبى الليس (بالقرب من الكوه) .

(٢) إنهم من الغرب - من درافور فى رأى ومن برنو فى رأى آخر .

(٣) انهم قد جاؤا من الحبشة .

وقبل أن نناقش هذه الآراء ، يجمل بنا أن نوضح بقدر مالدينا من معلومات عن الفونج ، وهل هم البيت ، أم الشعب الذى حكمته هذه الأسرة .

اختلفت الآراء حول مصدر كلمة (فنج) أو (فونج) التى أطلقت على سلطنة سنار ، فالبعض يقول أنها ترجع إلى كلمة بون (Bwon) ، فى لغة الشالك ، والبعض الآخر يقول أنها من كلمة فون (Fon) ، فى لغة النوير ورأى ثالث يردها إلى كلمة بونج (Bunj) ، وهذه قريبة من كلمة فونجى (Foni) ، وجميع هـــذه الكلمات معناها الغريب ، أما مسألة تناسخ الحروف الباء والفاء وغيرها ، ليحل أحدها محل الآخر ، فأمرله وجوده فى جميع اللغات وبالأخص الباء والفاء فى لغتى النوبة والشلك ،

عرف البيت السنارى بالسلطنة الفنجية ، أو بمعنى آخر آل « فنج » ومترادفاتها ، استعملت للتعريف بطبقة البيت الحاكم ، وتوسع البعض فى استعمال هذه الكلمة حتى شملت ضمنا الشعب ، الذى حكمه البيت السنارى حكما مباشراً ، والواقع أن القول بأن هذا التعريف يشمل الشعب، مسألة لاتتفق مع حقيقة الأمر. فابن سليم الاسوانى الذى زار مملكة علوة فى أواخر القرن العاشر الميلادى ، فى بعثة جوهر الصقلى لأمراء السودان، يقول أن أرض الجزيرة السنارية سكنتها قبيلة عرفت باسم كرتينا ، أوكرسة أو كرما ، أو كاسو ، كما أن اسم القبيلة ، ورد ذكرها مع قبيلة العنج ، بوصف أن

هاتين القبيلتين جزيرة سنار . وذلك فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، عندما زار البلاد رسول السلطان قلاون ، ومن هذه يبدو أن اسم الفنج (Fung) وصل إلى الجزيرة بعد القرن الثالث عشر الميلادى ، وهناك احتمال بأن هذا الاسم قد جاء مع جماعات من البيت الزغوى، بعد سقوط سلطانهم فى الحبشة عام ١٢٨٦ ميلادية وقيام ملوك الحبشة بمطاردتهم واضطهادهم ، وقد تكون لهؤلاء الفنج صلة بالداجو الموجودين فى بلاد الفور ، والذين يقول عنهم بارت (Barth) ، بأنهم حكموا دارفور فى القرن العاشر الهجرى ، ويعتقد بأنهم يختلفون عن الزغاوى ، كما أنه يقول باحتمال أن موطنهم كان فى جبال فازوغلى ، جنوب سنار ، ويقول الداجوعن أنفسهم أنهم فننجا (Fininga) ، فاذا صحت هذه الدعاوى ، فيكون هؤلاء هم الشلك الذين ذكرهم بروس خطأ ، بأنهم حاربوا العرب وانتصروا عليهم فى موقعة بالقرب من أربجى[٦٢] غير أن هذه الرواية أصابها بعض التصحيف كما سنبينه فيما بعد . وبقى اسم الفونج مشتركا بعد ذهاب أهله ، ونجد اسم « فونج فى صورة أو أخرى منتشراً ، فى أكثر من منطقة من بحيرة فكتوريا والكنغو .

الوادى الأول :

ان هذه الأسرة من قبيلة الشلك .

ترجع الشلك فى أصلها، إلى قبيلة لو (Luo) التى يعتقد انها كانت تسكن فى منطقة بحيرة « فكتوريا نيانزا » ، وذلك قبل هجرتها إلى السودان ، ومن الدراسات التى قام القس هفمير الفمسوى ، نجد ان قبيلة « لو » القليلة العدد فى الوقت الحاضر ، والتى تسكن فى منطقة بحر الغزال ، كانت فى الماضى القبيلة الكبرى التى تفرعت منها الشلك وذلك حين قادها ملكها الأول نياكنج (Nyakang) إلى مواطن جديدة ، امتدت فى العصر الحديث إلى شمالى الكوه (على النيل الأبيض) ، وبينما نجد ان القبائل الوثنية الأخرى ، تحتفظ ببعض العادات والتقاليد التى تتفق اتفاقا كلياً مع مثيلاتها فى العهد الفرعونى ، فان أثر ذلك فى قبيلة الشلك ، يدل على ان هجرتها إلى جنوب السودان[٦٣] ، حدثت فى عهد ليس بالبعيد .

يقول الرحالة جيمس بروس[٦٤] الذى زار سنار حوالى عام ١٧٧٢ ميلادية ،

---

(٦٢) بروس جزء رابع ص ٥٤٨ وما بعدها .
(٦٣) يقول وسترمان انهم قد وصلوا الى موطنهم الحالى فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى
(٦٤) سلجمان ص ٤٢٤ .

ان مملكة سنار قامت فجأة ، باستيلاء مؤسس ذلك البيت ، على حوض النيل الأزرق بعد غزوة خاطفة ، وتفصيل ذلك على حد روايته ، ان قبيلة من السود غير معروفة ، كانت تسكن على الجانب الغربي للنيل الأبيض (خط عرض ١٣ شمالا) وانها قامت فى جموع عديدة ، مستخدمة عدداً من القوارب فى هجومها على المدن العربية ، وان ذلك الجيش من الزنج يعرف فى وطنه باسم الشلك . وعند تأسيس ذلك الحكم ، كان الشلك عبدة أوثان ، وسرعان ما اعتنقوا الدين الإسلامى لغرض التجارة مع القاهرة واتخذوا « الفونج » اسما لهم ، وكانت هنالك ثلاث حكومات رئيسية ، فى مملكة سنار ، أولاها « الليس » (٦٥) عاصمة الأقليم ، الذى جاءت منه الشلك ، وتغلبت على ود عجيب شيخ العرب، فى معركة فاصلة ، بالقرب من أربجي ، مما جعل العرب يخضعون لأولئك الغزاة ، ويتصالحون على نصف الماشية ، يعطى للشلك ،ويقبلون تقديم جعل سنوى ، من نصف نتاج ماشيتهم خلال العام . وتعهد ود عجيب ، بالقيام بتأديب القبائل العربية الأخرى البعيدة ، التى تسول نفسها ، بالعصيان والتوقف عن دفع المال للشلك ، وقد دافع عن هذا الرأى كثيرون ، منهم الأستاذ ا . ه . كين (A H. Keane) الذى اعتبر أن الشلك هم اصل الفونج ملوك سنار ، وانهم اختلطوا بالعرب اختلاطاً وثيقاً . ويعارض هذا الرأى ، روميلى جسى باشا ، فى كتابه سبع سنوات فى السودان ، (٦٦) ناعياً على صاحبه وأشياعه بعبارات التقريع والسخرية متسائلا ،كيف تدهور أولئك الشلك من ذلك الملك الشامخ العريض، الذى استمر عدة قرون ناشراً لواءه على أكثر الرقعة التى نعرفها اليوم بالسودان . الشلك فى يومنا هذا ينكرون صلتهم بذلك البيت السنارى . ويقول الشلك انهم قاموا بمحاربة تلك المملكة الاسلامية كلما سنحت لهم الفرص بذلك . ويقول الأستاذ إيفانز برتشارد بأن كلمة فونج أوفونجى لاتخرج عن كونها تعريف لطبقة حاكمة معينة ، حكمت فى دار الفونج ومركزها سنار ـ كما أبدى شكوكه فى أن أحداً ، من علماء الأجناس ، قد كتب رأياً صريحاً يرجع البيت السنارى إلى الشلك (٦٧) ويقول بأن وسترمان له رأى أورده فى كتابه (٦٨) لكنه لم يقل صراحة بأن الفونج من الشلك فى زمن مضى أو

---

(٦٥) الليس شمال الكوه على النيل الأبيض .

(٦٦) جسى ص ١٥١/١٥٢

(٦٧) إيفانس برتشارد مقال ص ١٥٧

(٦٨) وسترمان

حاضر، ولكنه يعتقد بأنه هنالك أدلة على وجود الشلك فى دار الفونج ، فى عدد يجعل من السهل إشتراكهم بنصيب فى تكوين الطبقة الحاكمة [٦٩] .

ذكر وسترمان فى كتابه عن الشلك ، بعض المفردات المتقاربة فى لغة الشلك عن كلمة فونج ويحاول رد اسم « عمارة » [٧٠] السلطان الأول للأسرة فى سنار إلى « عمارو » أو « عماكرا » المستعملة فى لغة الشلك ، كما ذكر أن قول السلاطين بأنهم من الفونج يجعل المرء يظن أن اختيارهم لبنى أمية يرجع إلى تقارب هذا النسب مع جد الشلك « أمرى » (Omoi) Nyakang جد الشلك المباشر [٧١]

وقد أثار موضوع أصل الفونج وصلتهم بالشلك جدلا كبيراً على صفحات مجلة السودان فى رسائل ومدونات ، وقف فيها شناوى ونولدر [٧٢] فى جانب الرأى القائل بأن الفونج لا يمتون بصلة إلى الشلك ، كما دافع آركل [٧٣] عن رأى بروس .

يبدو مما أوضحناه أن جيمس بروس كان ضحية قبوله نظرية « الألوان » فى تمييز الأجناس ومقدار رقيها وانحطاطها حيث يقول « ان ملك سنار يدعى بأنه من القبيلة العربية الشريفة ، وهى بنى أمية ، لكن فصيلة شعره وتقاطيعه المنبسطة السوداء تدلان على أنه من الشن جالا (Shangale) التى اسمها (الشالك) [٧٤] ،وان هذه النظرية هى الآن فى طريق الزوال لاعتمادها على أسس غير مقنعة .

الرأى الثانى :

ان هذه الأسرة جاءت من الغرب .

١ — من دارفور .

٢ — من برنو .

حاول آركل [٧٥] تقديم رأى جديد وحشد لدعمه المعلومات ، التى جمعها خلال المدة التى قضاها فى دارفور والتى جمعها بالمر والتى جاء فيها ما جعل آركل يستخلص أن

(٦٩) يظهر أن نصيبهم كان عن طريق الرقيق

(٧٠) صحته عميره كما جاء فى الوثائق

(٧١) شناوى ونولدر .. مقال ص ٢٤٧ — ٢٥٨ — ٦١ — ٦٦ — ١١١ — ١١٧ ،
(٧٢) فى مدونات الأجزاء الثالث عشر والرابع عشر والسابع عشر على التوالى

(٧٣) آركل مقال المدونات الجزء الخامس عشر ص ٢٠١/٢٥٠

(٧٤) مرى ص ٤١٧/٤١٨ — بروس الجزء السابع ص ٩٠/٩١

(٧٥) آركل . مقال ص ٢٠١/٢٥٠ فى الجزء الخامس عشر من المدونات كذا ص ٨٧/٩٧ من الجزء السابع والعشرين من المدونات

البيت السنارى ، أسسه الملك عثمان الذى طرد من برنوعام ١٤٨٦ م ويبدو مما كتبه آركل في مقاله الذي نشر فى كتاب الزراعة فى السودان انه يتمسك بهذا الرأى باهماله الاشارة إلى الرأى القائل بأن الأسرة السنارية ترجع إلى بيت من قبيلة الشلك كما أهمل الرأى القديم الذى يرد البيت السنارى إلى الفور .

الرأى الثـــالث:

إنها جاءت من الحبشة وينقسم ثلاث آراء فرعية .

١ ـ السلطنة من أصل عربى .

٢ ـ السلطنة من بنى أمية .

٣ ـ السلطنة من هلاله .

ينفرد هذا الرأى بمصادر أساسية وأخرى ثانوية نجدها مبعثرة هنا وهنالك ، وفيها تتوفر الوثائق التى تلق الضوء مؤيدة هجرة السلطان الاول من شمال غرب الحبشة وقيام ملكه فى حوض النيل الأزرق ، كما أن هذه الوثائق توضح العلاقات التى كانت قائمة بين الحبشة وحوض النيل الأزرق . فضلا عن توضيحها دعاوى الأحباش بتملك السهول الواسعة الواقعة بين حوض الدندر والرهد والقاش وجزء من نهر العطبرة بما ذلك سهول القلابات . وتبدو هذه الدعاوى فى شكل مطالب محددة فى حالات قيام حكومات ضعيفة فى الجانب السودانى ـ وأهم المراجع .

١ ـ رحلة داود روبينى الذى زار السلطان عميرة فى عاصمته « لملم » وذلك قبيل انتقاله إلى سنار مباشرة .

٢ ـ ما جاء فى كتاب « تاريخ لاثيوبيـــا لمؤلفه لود لفس (طبع عام ١٦٨٤م طبعة ثانية) .

٣ ـ خطاب من السلطان عجيب .

٤ ـ الروايات المحلية السودانية المتداولة .

٥ ـ مذكرات الضابط الايطالى تلمنتى التى حققها ونشرها روسينى العالم الايطالى .

٦ ـ رحلة أوليا شلبى .

(٧٦)

رحلة داود روبيني

أوضحنا فيما سبق ان هذا الرحالة قد هبط ميناء سواكن في ديسمبر سنة 1521

---

(٧٦) هامش ٤٤

ميلادية ، وغادرها فى قافلة كبيرة تزعمها « أبو كامل » وقد اخترقت هـذه القافلة الطريق الساحلى إلى منطقة مصوع ومنها إلى المنطقة التى أسماها « لملم » والتى قابل فيها السلطان عميرة ، الذى امتد سلطانه على البلاد الواقعة على حوض النيل الأوسط . ويصف هذا الأقليم بأنه بلادا بها مروج وغابات وجبال وصحراوات ويقول انه بعد ترك عاصمة السلطان عميرة فى طريقه إلى سنار ، انه قد عبر انهاراً كثيرة وان أرضها رخوة لدرجة أن الخيل التى كان يستخدمها قد غاصت فيها حتى البطن . وقد جاء ما يؤيده هذه الرواية فى كتاب فتوح الحبشة (٧٧)

وبعد مسيرة ثمانية أيام وصل إلى سنار ، حيث قابل أمين بيت المال المدعو « العبيد » ولا شك في ان هذه الرحلة قد حدثت فى أكتوبر - نوفمبر أو حواليه من عام ١٥٢٢ ميلادية أى بعد انتهاء فصل الأمطار فى الهضبة الحبشية مباشرة .

ب - لودلفس فى كتابه تاريخ حديث لأتيوبيا :

يقول هذا المؤلف « وفى الجنوب مملكة سنار أو الفند (يقصد الفنج) ويحكمها سلطان شديد اليأس وقد كان فيما مضى يدين بالولاء للحبشة . أما اليوم فهو مستقل يسيطر على ذلك الجزء من النوبة القديمة (٧٨) .

جـ - كتاب السلطان محمد بادى عجيب :

جاء فى هذا الكتاب الذى أرسله السلطان إلى بنوامية (كذا فى نصه) الساكنين دار ضنقله (دنقله) استبدلت الدال بالضاد وتنطق القاف كالقاف الصعيدية أو كالجيم القاهرية) وقد بين فى هذه الرسالة نسب الأسرة السنارية وصلتها بالأمويين وقد كان هذا السلطان كما ورد فى رسالته السلطان العاشر من البيت السنارى .

د - الروايات المحلية المتداولة :

١ — تقول مخطوطة تاريخ سنار . . . ابتدأ أمر الفنج كانوا بمحل يعرف بلول بتفخيم اللامين . . . فصل فى ذكر نسب الفنج قيل أنهم البنى أميه لما انتزع منهم الملك وهربتهم البنى العباسى جاء منهم رجلان إلى هـذا المحل (يشير إلى لول) استولدوا النسا وأن الفنج من سلالتهم وقيل أنهم بلى هلاله . . . .) (٨٠) .

(٧٧) فتوح الحبشة ص ٣٠١ — وكروفورد صفحة « ٢٣٩ »
(٧٨) لود لفس ص ٨٧
(٧٩) راجع الملحق الرابع
(٨٠) ملحوظة تاريخ سنار ص ٤/٣ المخطوطة بالمكتبة الأهلية بفينا

٢ ـ تقول الروايات المتداولة فى شرق السودان ، ان الفونج قد أرسلوا قواتهم لقتال البلى والأرتيقة وقد حصلت الموقعة الفاصلة عند أبواب ميناء سواكن فى السنة السادسة من القرن السادس عشر الميلادى وأسفر القتال عن هزيمة البلى والارتيقه . ويبدو أن التطاحن لم تخمد ناره ويشير روسينى أن قتالا قد نشب بين هذه المجموعات وانتهى بهزيمة الفونج وهربهم من شرق السودان [٨١] .

ه ـ مذكرات الضابط الايطالى لويجى تلمنتى :

قام كونتى روسينى بدراسة المذكرات التى كتبها الضابط لويجى تلمنتى والتى شملت ملاحظاته عن المقابر التى وجدها فى طريقه فى خور بركة فى شهر يوليه سنة ١٩٠٢ ميلادية وقد نشر روسينى مقاله الذى جاء فيه :ـ

« مقابر الفنج [٨٢] ـ يجد المرء مقابر عـــديدة على طول وادى الرافد انقريب وخور بركة وبعض هـذه المقابر فى مجموعات متراصة أو متباعدة ـ وهذه هى مقابر الفنج الذين أسسوا مملكة فى سنار فى القرن الخامس عشر الميلادى . وينهى مقاله « بأن مقابر عديدة موجودة فى دورة طه Daura Taha ويذكر أنه قد علم أن الفنج قد هزموا هزيمة منكرة على حد قول الرواة الذين يقولون أن القدين Al Gheden الموجودين الآن فى أرتيريا يمتون بصلة القربى إلى الفنج وأنهم هربوا إلى موطنهم الحالى (سنار) بعد الهزيمة المنكرة [٨٣] .

و ـ رحلة أوليا شلبي [٨٤] :

زار هذا الرحالة العثمانى السودان فى ١٦٧٢ ميلادية وقد سجل فى رحلته أغنية شعبية (دوبيت) سمعها عند السلطان فى سنار وهى فى لغة سكان الجزء الغربى من الأرتيريا . وقد ذكر ترجمة تركية مع النص المحلى ـ وتحتوى هذه الأغنية على غزل وحب وهذه الأغنية جديرة بالتحقيق والدراسة المقارنة فالأدب الشعبي السودانى قد تأثر كثيراً فى مناطقه الشرقية بالأدب الشعبي لقبائل أثيوبيـــا وغيرها عن طريق الهجرات من جنوبى غرب الجزيرة العربية .

---

(٨١) بول ص ٧٦/٧٧

(٨٢) مقال روسينى فى الملحق الثانى

(٨٣) ذكر روسينى فى رسالة خاصة للمؤلف انه قد استقى هذه المعلومات من الأهالى.

(٨٤) أنظر رحلة اوليا شلبي (بالتركية) الجزء العاشر ص ٨٩٦ وقد أعـدت ترجمة عربية للقسم الخاص برحلة السودان والحبشة .

ز - ذكر روسيني في مقاله له (٨٥) ، ان هنالك قصة متواترة تقول انه قد كانت للفنج محلة في ريالاف بالقرب من ريبا الواقعة على وادي أقره (Agra) .

وذكر مقسنجر ، انه قد ورد في سلسلة من انساب قبيلة « منسه » ان الاسم الثالث لأحد بطونها التي تسكن جنوبي الحباب هو فنجاني (Fungiai) وهنالك بلدة تعرف باسم عد فنجاني التي تقع على ثلاثين ميلا من خور أقوردا.

لقد استعرضنا فيما سبق مختلف الآراء عن أصل الأسرة السنارية وما يستند اليه كل رأي من تلك الآراء. ولا شك ان الرأي القائل (٨٦) بأن الموطن الأول للسلطنة قبل انتقالها إلى السودان كان في منطقة لملم في جنوب غربي ارتيريا ونستطيع ان نحدد ان العاصمة قد كانت في « أوم هجر » المعروفة الآن بام حجار وسواء كانت تلك الأسرة من بني أمية أو من البلي فهي عربية الأصل على أي حال . أما الآراء الأخرى فلم تستطع أن نقف مع الرأي الأول .

٨ - هجرة السلطنة الى موطنها الجديد

أوضحنا تطورات الأحوال في المناطق التي قامت فيها الولايات الاسلامية في شمال أتيوبيا، والمدى الذي وصلت إليه العلاقات بين المسلمين والأتيوبين من جهة وبين القبائل الاسلامية وبعضها، فكل هذا قد دفع بالسلطان عميرة إلى الانتقال إلى حوض النيل الأزرق، متخذاً فيه عاصمته الجديدة بعد « لملم » وإقامة علاقات اتحادية مع المشيخات التي كانت قائمة في حوض وادي النيل الأوسط ، محتفظاً لنفسه ببعض مظاهر السلطان الرمزية .

ويرجع اختيار مدينة « سنار » (٨٧) كمقر للحكم ، لأكثر من سبب في مقدمتها

---

(٨٥) مقال روسيني في مجلة الجمعية الاسيوية الايطالية مجلد ٢٢ عام ١٩٠٢ ص ٧٢

(٨٦) محاضرة المؤلف بعنوان « على أطلال مدينة سنار » التي ألقيت بنادي الموظفين بواد مدني - طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ .

(٨٧) مدينة « سنار » على النيل الأزرق (في شرق الجنوب الشرقي للخرطوم) - وهي مدينة عريقة في القدم ويقول البعض ان هذا الاسم يرجع إلى ساحرة اسمها سن النار كانت تسكن في هذه البقعة وان ثوراً من ماشية عميرة كان يتدلى يرعى في تلك الغابة ليلا ويأتي في ليلته فتبعوه في بعض الأيام فرأوا دارها ونهرها فنزلوا من مويه وقطع أشجارها الملك عميرة دونقس (أنظر مخطوطة تاريخ سنار دار الكتب المصرية رقم ١٨ م) وهذا نسج من الخيال الخصب لتعليل مصدر الاسم.عرفت هذه المدينة قديماً باسم (جزيرة الماء أو الأخت) (بصيلي .مقال).=

موقعها الأقليمى الاستراتيجى فى قلب القطاع ، الذى يكون المجال الحيوى الطبيعى لامتداد سيطرة البيت الحاكم قبل تركه لملم بسبب الظروف المتغايرة . ويسيطر موقع هذه المدينة على الطرق النيلية والقوافل الأمر الذى أضفى عليها أهمية كبرى كمركز تلتقى فيه مختلف الطرق التجارية ، حيث يحدث تبادل السلع الواردة من البقاع الأفريقية المختلفة ومن مصر ومن الشرق الأقصى عبر سواكن ومصوع واتيوبيا .

ويجمل بنا قبل أن ننتقل مع السلطنة إلى مركزها الجديد فى حوض النيل الأزرق ، أن نحدد التاريخ الذى هجرت فيه عاصمتها فى منطقة « لملم » وأن نستعرض العوامل التى خلقت الاتحاد بين المشيخات القائمة حينذاك فى بلاد السودان وبين السلطان .

فقيام السلطان فى عاصمته «سنار» لم يكن حادثاً فجائيا كما جاء فى الروايات المحلية[٨٨] بل سبقته عوامل داخلية تولدت من مظاهر حياة المجتمع ، الامر الذى سوف نناقشه فيما بعد . وقد كانت هنالك عوامل خارجية فى مقدمتها امتداد النفوذ العثمانى إلى حوض البحر الأحمر وما تبع ذلك من وصول قطع من الأسطول العثمانى إلى مياه ذلك البحر لتعزيز سلطانها والمحافظة على سلامة موانى جانبي البحر الأحمر (الأسيوى والأفريقى) التى بسط عليها العثمانيون بسيطرتهم ومطاردة البرتغاليين الذين أخذ نشاطهم فى الازدياد لبسط نفوذهم على اتيوبيا ، وقد مكن النفوذ العثمانى فى حوض البحر الأحمر من سيطرة المسلمين سكان الساحل الأفريقى للبحر الأحمر على مرافق التجارة بين الساحل والمناطق الأفريقية الداخلية بما فى ذلك اتيوبيا[٨٩] .

تقول المصادر السودانية التى جمعت من الروايات الشفوية وغيرها وكتبت فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى وفى مقدمتها كتاب الطبقات لود ضف الله وتاريخ مدينة سنار للكاتب الشونة[٩٠] ان السلطان السنارى قد أنشأ

= وهنالك استحالة مادية فى امكانيات منطقة جبل مريا على إيواء جموع من الجنود وغيرهم بسبب قلة الماء وهذا عامل مهم وثانياً أن المنطقة لا تخرج عن كونها جبلية وأرضها الصالحة للزراعة لا تزرع إلا فصل الخريف (بالأمطار) ومما يلفت النظر ان ما جاء بالمخطوطة آنفة الذكر يدل على ان الجنود تجمعت حول الملك عمـيرة في منطقة جرداء دون أن تفطن إلى وجود مجرى النهر حتى دلهـا عليه الثور !! .

(٨٨) تاريخ مدينة سنار مخطوطة فى دار الكتب المصرية ص ١٠

(٨٩) أنظر لود لفس ص ٧٣ / ٧٤

(٩٠) نشر كتاب الطبقات لأول مرة فى عام ١٩٣٠ ميلادية في طبعتين إحداهما علق عليها عليها الشيخ ابراهيم صديق والثانية طبعها داود منديل اما كتاب تاريخ سنار فما زال مخطوطاً ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٨ م .

عاصمته فى السنة العاشرة من القرن العاشر الهجرى (السنة الرابعة بعد الخسمائة وآلاف ميلادية)، وهذا لايتفق مع ما كتبه الرحالة داود روبينى، الذى زار السلطان فى عاصمته فى منطقة لملم فى عام ١٥٢٢ ميلادية ، حيث أمضى هـذا الرحالة نحو العشرة شهور، رافق فيها السلطان فى رحلاته الدورية التى كان من عادته أن يقوم بها مرة فى كل شهر لناحية من نواحى مملكته . وقد سقطت تفصيلات تلك الرحلات من مدونة داود روبينى غير أن الرحالة قد أوضح بما لايقبل الشك أن زيارات السلطان المشار إليها قد شملت القطاع الممتد من منطقة لملم حتى حوض النيل (٩١) ونجد سنداً لما ذكره دارد روبينى فى الروايات التى جمعها روسينى(٩٢) وفيما كتبه لودلفس (٩٣) عن علاقه السلطنة مع النجاشى وكذلك ما كتبه فرنسسكو الفارز(٩٤)، الذى زار الحبشة فى حوالى ١٥٢٠ ميلادية ونقل فى كتابه ما سمعه عن حنا السريانى عن أحوال بلاد علوة ولم يذكر شيئاً عن وجود سلطان فى سنار فى ذلك الوقت .

ويبدو أن تدهور العلاقات بين النوبة السفلى ومصر للعداوة التقليدية بين العرب زعماء المشيخات فى النوبة وبين المماليك فى مصر ، وقيام الكشاف أو « الغز » الذين أرسلهم السلطان سليم بزعامة حسن قوسى(٩٥) لحكم البلاد بين الشلالين الأول والثالث قد جعلت البلاد جنوبى الشلال الثالث فى عزلة اقتصادية ، الأمر الذى دفع المشيخات إلى الاتجاه نحو ساحل البحر الأحمر ، والاتصال بالسلطان عمبرة الذى كان مسيطراً على تجارة ذلك القطاع الذى شمل المنطقة المؤدية إلى حوض النيل الأزرق ومراكز تجمع التجارة فيه . وهكذا دفعت الظروف إلى قيام الاتحاد .

---

(٩١) كتاب الرحالة اليهود لناشره السكان ناتان ادلر طبع لنـدن ١٩٣٠ ص ٢٥٧ حيث يقول ان مملكة الجعل (الجمليين) يحكمها الملك أبو عقارب وهو خاضع للسلطان عمبرة . ويرجع سبب إهمال بعض التفصيلات ان الرحالة لم يكتب يومياته كاملة بل أملاها من ذاكرته

(٩٢) الملحق الثانى

(٩٣) أنظر هامش ٧٠

(٩٤) الفارز ص ٣٥٢

(٩٥) استنجدت قبيلة الغربية التى سكنت أرض المحس بالسلطان سليم بعد الفتح العثمانى لمصر ليعينها على رد عدوان قبيلة الجوابرة التى كانت منتشرة في النوبة وقد استجاب السلطان لهذا النداء بارسال حملة بقيادة حسن قوسى الذى تمكن من طرد الجوابرة إلى منطقة دنقلا وحدث ان ابن جنبلان الذى خلف حسن قوسى بعد وفاته قد اشتبك مع القبائل التى تسكن شمالى منطقة دنقلا فى موقعة فاصلة عند « حنك » حيث أقيمت قبة ضمت القتلى واعتبرت هذه المنطقة الحد الفاصل بين حكم الكشاف . والبلاد الجنوبية .

وقد اتصل السلطان عميرة ومركزه فى منطقة لمم بالسلطان العثمانى سليم (الذى حكم من ١٥١١ - ١٥٢٠م وذلك بأن أرسل إليه كتابا أعده الشيخ السمرقندى، موضحاً به أنساب العرب أهالى السودان، وطلب منه أن لايغزو البلاد وسكانه من المسلمين، الذين لايجوز شرعا فتح بلادهم بالسيف. وهو الخطاب الذى ذكر نعوم شقير[٩٦] خطأ أنه أرسل إلى السلطان سليم. ووجه الخطأ أن السلطان سليم لم يصل الى سواكن ولم يحتلها بشخصه، وإنما احتلها الباشا العثمانى فى أعقاب الفتح العثمانى لمصر فى سنة ١٥١٧ ميلادية، وأننا نخالف هذا الرأى القائل بأن السلطان قد جاء إلى سواكن لغزو السودان، فالأصح أن يكون السلطان عميرة قد أرسل ذلك الكتاب (حوالى عام ١٥١٧م أى بعد ضم مصر إلى تركيا)، وكان عميرة يهدف من ذلك أن يعمل السلطان العثمانى على وقف التعدى الذى وقع على الحدود الشمالية من السودان، بين قبيلتى الغربية والجوابرة وهما من البربر الذين نزحوا إلى مصر فالنوبة السفلى. وقد دفع وصول الكشاف إلى بلاد المحس إلى توثيق عرى الاتحاد بين المشيخات فى السودان والسلطان عميرة وعاصمته فى لمم. ونرجح أن هجرة السلطان إلى حوض النيل الأزرق قد سبقتها محاولات استطلاعية مهدت لسيطرته على ذلك القطاع. والمعروف أن مملكة علوه قد زالت فى السنوات القليلة من أول القرن السادس عشر الميلادى، ويستخلص مما جاء فى رحلة روبينى أن السلطان عميرة لم ينتقل من عاصمة أسرته فى منطقة لمم إلا بعد الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادى أو قبيل ذلك بعام أو عامين على أكثر تقدير، أعنى فى سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٥ ميلادية. ويؤيد هذا الرأى ماجاء فى الروايات المحلية فى شرق السودان عن القتال الذى حدث بين الفونج من جهة والارتيقة والبلى من جهة أخرى، كما أشرنا إليه من قبل. ونرى أن هذا الصراع قد دفع بالسلطان إلى الانتقال إلى موطنه الجديد فى حوض النيل الأزرق. ولا يفوتنا أن نذكر أن تلك الحقبة كانت مليئة بالأحداث والتطورات. فميناء سواكن صارت عثمانية فى سنة ١٥٢٠م وكانت المراكب البرتغالية تجوب مياه البحر الأحمر لمنازلة الأتراك وأن هذه المراكب قد بقيت فترة من الزمن فى خليج مصوع، التى صارت عثمانية فى سنة ١٥٢٧ ميلادية. وأغارت السفن البرتغالية على ميناء السويس فى ١٥٤٠م غير أنها قد فشلت.

* * *

---

(٩٦) أنظر نعوم شقير الجزء الثاني ص ٧٢/٧٤.

وننتقل الآن إلى بيان المجموعات الاقليمية التى كانت قائمة عند قيام الاتحاد بين المشيخات والسلطان . ومن ثم إلى المجتمع فى بنيتـــه ومظاهر نشاطه ونظم الحكم والاقتصـــاد . وإننا بذلك نحاول أن نصور أثر ذلك فى تطور نظم الحكم فى مختلف المراحل .

توزيع السكان فى حوض النيل الأوسط

ينقسم السودان سبع مناطق تأثرت كل منها بالحياة الاقليمية الخاصة وهى : ـ

١ – السكان المشتغلون بالزراعة والتجارة فى السودان :

١ ــ المجموعة الاقليمية الأولى :

تقع هذه المنطقة بعد شلالات حنك شمالا وجنوبى الشلال الرابع جنوباً ، وهى الرقعة من الأرض التى عرفت بمملكة المقرة، التى سقطت فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، بعد حياة ناهزت العشرين قرناً ، شاركت فى خلالها مصر فى المدنية والثقافة كما شاركت مصر فى محنها بسبب دخول الفرس والروم الخ . . . وقد حافظ أهلهـــا على لغتهم وأسس مجتمعهم ، ومن أقسامها : ـ

١ ــ دار الجوابره وحدودها من شلالات حنك شمالا حتى حلة « تيتى » جنوباً وبها مشيخات أرقو وجزيرة مقاصر والخناق .

وتسكن هذه المنطقة الجوابرة والنوبة وهما الغالبية وقليل من المهاجرين المصريين وبعض العرب الذين يرجعون فى أصلهم إلى البشا (البجه) وتصدر زعامة هـــذه المشيخات ملك ارقو الذى بسط نفوذه على المشايخ الآخرين ويسكن هذه المنطقة جماعة من الهامق وهم فى الصحراء شرقى جزيرة ارقو[٩٧] .

٢ ــ دار البديرية وتبدأ من حلة تيتى حتى جبل داقر (حد دار الشايقية) وبها مشيخات الخندق ودنقلا العجوز وجزيرة تنقس وابكر والدفار ويتزعم هذه المشيخات ملك دنقلا العجوز .

---

(٩٧) أنظر هامش ٤٠

وتسكن البديرية والنوبة فى هذه الرقعة عدا قطاعى كورتى وامبقول حيث تسكن مجموعة الطريفية التى تنتمى إلى البديرية .

٣ — دار الشايقية وتقع بين جبل داقر حتى الشلال الرابع وبها مشيخات حنك وقوشابى ومروى والعمرى .

وسكانها من الشايقية الذين يكونون الغالبية العظمى وجماعات قليلة من النوبة الذين يعيشون فى درجة الموالى للشايقية .

وتميزت دار الشايقية بأنها وهى منقسمة أربع مشيخات كما أوضحنا، إلا أنها كانت تستجمع كلمتها وتوحد قواتها في جبهة واحدة لمقابلة العدو الذى يتعدى على إحداها ، بينما نجد أن سكان دار الجوابره ودار البديرية متفرقو الكلمة لا يفتأون عن مناوأة بعضهم البعض .

وتحتل دار الشايقية مركزاً استراتجياً على طرق القوافل ، بين ذلك الجزء من وادى النيل والغرب (درافور وفزان والمغرب الأقصى) وبين وادى النيل، وساحل البحر الأحمر ومصر عبر صحراء العطمور ، وكانت العلاقات مع الغرب زاهرة وخاصة بعد قيام سلطنة الفور. وكان لهذه العلاقات أثرها في قيام الشايقية بالانفصال عن الاتحاد السنارى كما سنبينه فى موضعه فيما بعد .

ب — المجموعة الاقليمية الثانية :

تحتل هذه المجموعة رقعة من الأرض تبدأ من الشلال الرابع حتى رأس الوادى (عند مصب العطبرة بالنيل)، وسكان هذه المجموعة أقل عدداً من المجموعة الاقليمية الأولى ويرجع ذلك إلى طبيعة بلادهم الصخرية القاحلة ، وبخاصة فى القسم غربى بلدة « أبو حمد » ، وتنقسم هذه المجموعة إلى : —

(١) دار المناصير - من الشلال الرابع حتى غرب أبو حمد - تميزت هذه المنطقة بأن أراضيها الصالحة للزراعة تنحصر على شاطىء النيل الصخرى بسبب طغيان الرمال على الأراضى الخصبة، وقد دفعت هذه الحالة من الجدب إلى فقر السكان واحترافهم السطو على القوافل، وقد عرفت هذه المنطقة فى الزمن القديم باسم « شنقير » ومعناها « نقود » أو « مال » ، وكانت هذه البلاد معروفة بهذا الاسم قديماً لوقوعها على الطريق إلى مناجم المعادن فى صحراء العطمور .

(٢) دار الرباطاب - تبدأ من حلة الشماخية (غرب أوحمد بنحو خمسين كيلومترا) حتى الشلال الخامس (شمالى بلدة العبيدية)، وهذه منطقة أكثر يسراً من دار المناصير وتتألف القبيلة التى تسكن هذه البلاد من شعب كثيرة منها الكبير فى مجموعته ومنها القليل وكانت لهم زعامتان إحداهما فى الشمال والثانية فى الجنوب .

(٣) دار الميرفاب - تبدأ من الشلال الخامس حتى رأس الوادى وفيها زعامة هذه المجموعة الاقليمية، ومركزها مدينة بربر الشهيرة بمركزها التجارى حيث تلتقى فيها الطرق التجارية بين مختلف البلاد، عن طريق النيل جنوباً إلى الخرطوم وما بعدها وتتصل عن طريق القوافل بموانىء البحر الأحمر .

وطغيان الرمال على الأراضى الخصيبة فى هذه المنطقة واضح الأثر .

والعلاقات بين المجموعتين الأولى والثانية وثيقة العرى فى مختلف نواحى النشاط.

وما زالت هذه المنطقة مجهولة تماما من الناحية الأثرية (الأركيولوجية) وقد ورد ذكر بعض بلدان من جنوب هذه المجموعة فى لوحة ملك أكسوم عيزانا الذى غزا بلاد مرو (بين نهر العطبرة والنيلين الأزرق والرئيسى) .

اللغة السائدة هى العربية العامية متأثرة باللهجات الخاصة بالبطون كل فى منطقته

وما زالت اللغة محتفظة بالكثير من الكلمات النوبية القديمة كما احتفظت بعض الأماكن بأسمائها القديمة مع بعض التصحيف .

جـ - المجموعة الاقليمية الثالثة :

تبدأ من الجانب الأيسر لنهر العطبرة حتى شمالى « أربجى » ، وأرضها أكثر خصباً وإنتاجا من سابقتيها وشملت : -

١ - الدامر - وقامت فيها زعامة بيت المجاذيب الدينية .

٢ - دار الجعليين - ومركزها شندى حيث يقيم الملك وضمت بعض المشيخات الصغيرة وحدث فيما بعد قيام أكثر من زعامة للجعليين خضعت لسلطان العبد اللاب المباشر .

٣ - دار العبد اللاب - من جنوب شندى حتى شمالى بلدة « أربجى » وضمت هذه بعض الشيخات المتفرقة على حوض النيل وفى شمال الجزيرة ومركزها فى بلدة «قرى» حيث أقام عبدالله جماع ، الذى مارس سلطاته المباشرة على هذه المجموعة وقد امتدت

سلطاته على هذه المجموعات الأخرى بأسم السلطان السنارى . واحتفظت دار العبد اللاب فى حدودها على ما كانت عليه « علوه » .

د ــ المجموعة الاقليمية الرابعة :

احتلت هذه المجموعة قطاع الحكم السنارى، الذى شمل أرض الجزيرة من مدينة « أربجى » شمالا حتى دار فنج جنوبا وفيها مشيخات خشم البحر. فازوغلى . كنجارا، ومن ناحية الشمال فقد امتد القطاع عبر البطانة متخذاً طريقاً شمالياً شرقياً ، للمحافظة على طرق القوافل بين داخلية البلاد وموانى البحر الارتيرى وشمل هذا القسم من القطاع مشيخة رأس الفيل والجزء الجنوبى من ولقايت وتعرضت أطراف هــذا القطاع لمنازعات بين ملوك أتيوبيا وسلاطين سنار .

* * *

٢ ــ مناطق الرعى والزراعة البدائية :

المجموعة الاقليمية الخامسة :

قامت هذه المجموعة فى أرض البطانة التى تحد جنوبا بالنيل الأزرق ورافد الرهد شرقا، وتتعدى حدودها الشمالية حوض العطبرة وتفصل بين هذه المنطقة والنيل الرئيسى (بين العطبرة والخرطوم) المدن والأراضى الزراعية القائمة على النيل . وقد قامت فى هذه المنطقة أكثر من ولاية، عصفت بها الحروب الداخلية وغزو الاتيوبيين مما ساعد على طغيان الرمال بطبقات كثيفة بفعل الرياح الموسمية التى تعرف بالهبوب . ففقدت بذلك الأرض خصائصها وهجرها أهلها وتحول من بقى منهم الى حياة الرعى ،

المجموعة الاقليمية السادسة :

تحتل هذه المجموعة المنطقة رقعة الصحراء الشرقية التى تبـدأ من جنوبى أسوان حتى دهلك (مصوع)، وتـكاد أن تـكون هذه المنطقة صورة لما كانت عليه مملكة نقيس التى ذكرها اليعقوبى والتى تـكلمنا عنها فيما سبق .

ولم تكن هـــذه المنطقة واقعة تحت سيطرة السلطنة السنارية المباشرة، وبخاصة الجزء الجنوبى منها ، الذى تعرض فيــه سلطان الفنج للامتداد والانكماش، متأثراً بالعلاقات مع الحبشا والاتيوبيين ، بخاصة بعد القتال المرير الذى حدث فى القرن السادس عشر الميلادى[٩٨]، كما حدثت منازعات وقتال بين سنار وأتيوبيا بسبب الحدود.

المجموعة الاقليمية السابعة :

احتلت هـذه المجموعة الصحراء غرب النيل من دنقلا شمالا حتى تقلى جنوبا ، وتعرضت هذه الرقعـــة لاعتداء سلاطين السودان الغربى والفور. وكانت القوافل التجارية بين مختلف البلدن الأفريقية وحوض النيل تخترق هذه المنطقة ، فى نقل السلع المتبادلة بين حوض النيل وموانىء البحر الارتيرى من ناحية وداخلية أفريقيـا من ناحية أخرى . وإلى هـذا يرجع اهتمام سلاطين السودان الغربى والفور بالعمل على امتداد نفوذهم إلى هذه المنطقة .

ولم تكن ولاية تقلى من القوة بمكان عند قيام السلطان السنارى فى حوض النيل الأزرق ، وبقيت على هذا الحال حتى اشتداد المنافسة بين سنار والفور . فى القرن السابع عشر الميلادى .

• تطورات الوضع السياسى :

يجمل بنا قبل أن نتعرض لحياة المجتمع فى مختلف مظاهر نشاطها، أن نتعرف على الوضع السياسى وتطوراته ، كما نتعرف على العلاقات والروابط التى كانت قائمة بين شطرى الوادى (مصروالسودان) ، بخاصة والعلاقات معدارالاسلام بعامة ، وذلك فى الفترة التى سبقت انتقال السلطنة الزرقاء[٩٩] إلى حوض النيل الأزرق . ولا شك فى أن التعرف على العلاقات والروابط ، التى أشرنا إليها سوف يفسر لنـا تطورحياة المجتمع ، كما تصور لنا سلوك الأفراد فى هذا المجال الذى تأثر بالآراء التى نقلت إليه ، وما ترتب على ذلك من تقدم .

---

(٩٨) أنظر الملحق الثانى لمذكرات الضابط الايطالى تالا مونت .

(٩٩) عرفت السلطنة السنارية بالزرقاء وسلطنة الفور بالخضراء ومصر بالسلطنة الحمراء .

فقد قامت فى البلاد دويلات ومشيخات إسلامية على أنقاض ما كان قائماً من دويلات مسيحية أو شبه مسيحية ووثنية ، وكان لزاما بعد أن استكملت تلك الدويلات والمشيخات الاسلامية مراحل تطورها، أن تتطلع إلى سلطة مركزية تجمع فى صورة ما ، بين تلك الدويلات والمشيخات (١٠٠) استجابة لدوافع النمو الطبيعى .

كانت البلاد أصلا محكومة بملوك مؤلهين ، وكان كل شىء ملكا لهؤلاء المؤلهين ، وكان طبيعياً أن تتغير تلك النظم بدخول المسلمين إلى البلاد ، فى هجرات جماعية متلاحقة ، وكان شأن تلك الهجرات العربية فى صدر الاسلام مختلفاً كل الاختلاف عما عرفته البلاد فى علاقاتها وصلاتها من العرب قبيل الرسالة المحمدية ، فقد كانت تلك العلاقات والصلات محصورة فى نطاق التبادل التجارى ، وما إلى ذلك من معاملات . أما فى العهد الاسلامى فقد خرج العرب من بلدهم فى أخطر تجربة وأقساها هدفها بناء (أمة) اسلامية لها قوميتها الموحدة، تضم المواطن التى امتدت إليها رسالة الدين الجديد . وكان طبيعياً أن تظهر مشاكل كثيرة بعد التوسع الاسلامى ، الذى شمل مناطق متباينة من النواحى الاجتماعية . وقد احتلت هذه المشاكل اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، الذى أخذ بمعاونة مستشاريه فى وضع دستور للدولة الاسلامية الكبرى ، إلا أن المنية قد عاجلته ولعبت بعد ذلك الفتن والقلاقل دورها ، والتى كان من أبرز نتائجها تعطيل الحركة التهذيبية التى جاءت مع رسالة الاسلام، وتغلب الخصائص والمميزات الشخصية لمختلف الشعوب، التى امتد إليها سلطان المسلمين.

دفع الوضع الاقليمى للسودان إلى الدخول فى روابط اقتصادية مع البلدان الاسلامية، الواقعة خلف حدوده، كما اتصل مع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر ، أما عن العلاقات بين شطرى الوادى (مصر والسودان) فانها قد كانت أعمق أسساً مما كانت عليه مع البلدان الأخرى من دار الاسلام وغيرها ، ومرجع ذلك إلى أن شطرى الوادى يطلان على منفذين إلى المحيطات ، وهما البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر ، كما أنهما يحتلان المدخل الأول إلى قلب القارة الافريقية (١٠١)، الأمر الذى

---

(١٠٠) أنظر نهاية الفصل السابق حيث أوضحنا الدويلات والمشيخات التى كانت قائمة فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى (العاشر الهجرى) والتى دخلت فى حلف مع السلطنات السنارى.

(١٠١) راجع خريطة نمرة ٥

وجهود موحدة ، للافادة من هذا الوضع الاستراتيجى ، بما فيه مصلحة البلدين ، ولانريد أن نذهب بعيداً فى توضيح الصلات البعيدة العمق ، ويهمنا أن نحدد العلاقات فى فجر الاسلام وفى السنوات التى تلت ذلك[١٠٢] .

* * *

ورد ذكر النوبة لأول مرة فى وثيقة إسلامية هى عهد الأمان الذى أعطاه عمرو ابن العاص لأهل مصر ، ونصه كالآتى كما ذكره الطبرى[١٠٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو ابن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم (مفردها صليب) وبرهم وبحرهم . لايدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ماجنى لصوتهم ، فان أبى أحد منهم أن يجيب ، رفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة وأن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى ، رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم ، ومن أبى واختار الذهاب ، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، أو يخرج من سلطاننا عليهم ماعليهم ، أثلاثاً فى كل ثلث جباية ثلث ماعليهم. على ما فى هذا الكتاب عهدالله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا فرساً على أن لايغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبد الله ومحمد أبناه وكتب وردان وحضر . . وذكر النوبة فى هـــذه الوثيقة إن دل على شيء فهو يدل على ماكان عليه النوبة من نفوذ اقتصادى بالنسبة للتجارة الواردة والصادرة عبر بلادهم . ثم أن الأمور لم تكد تستقر فى مصر بعض

---

(١٠٢) راجع المجلد العاشر من موسوعة « مصر القديمة » للدكتور سليم حسن

(١٠٣) الطبرى طبعة غوي . القسم الأول صفحة ٢٥٨٨ / ٢٥٨٩ ــ نشرها استانلى لين بول فى أعمال الأكاذيمية الايرلندية الملكية مجلد ٢٤ ص ٢٣١/٢٢٧ .

الشيء ، حتى أرسل عمرو ابن العاص حملتين إلى الحدود الجنوبية لوقف التعدى من القبائل القاطنة فى جنوبى أسوان ولتأمين الحدود ولفتحها التجارة ، وكانت حملة تحت أمرة عقبة ابن نافع ابن عبد القيس الفهرى (أخ عمر ولامه) وأخرى بقيادة عبدالله ابن سعد بن أبى سرح ولا يعلم بالضبط أى الحملتين قد سبقت الأخرى ، وقد ذكر البلاذرى[١٠٤] أن حملة عقبة بن نافع الفهرى قد أرسلها عمرو ابن العاص بعد فتحه لمصر ، وأن هذه الحملة قد انصرفت بجراحات كثيرة ، والمؤكد على أى حال أن حملة عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد أرسلت فى سنة عشرين أو فى إحدى وعشرين من الهجرة ، وأنها اشتبكت مع النوبة فى قتال انتهت إلى « مصالحة هدنة » ، تقرر فيها تبادل بعض المعونة والهدايا فكان على النوبة أن يقدموا إلى المسلمين ثلاثمائة وستين رأساً الخ الخ ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المصالحة قد جاء فيها « وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم (يشير إلى النوبة) ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان »

وقد عرفت مصالحة الهدنة هذه بالبقط[١٠٥] . وقد أصدر عبدالله بن سرح عهده هذا عقب حملته الثانية، التى دخلت بلاد النوبة حتى مدينة دنقلة، وذلك فى العام الحادى

---

(١٠٤) البلاذرى ف ٢٣٨ وما بعدها .

(١٠٥) البقط ما كان يؤخذ من النوبة فى كل عام فى قرية القصر التى تقع جنوبى مدينة أسوان بما يقرب من الخمسة أميال ويرجع هذا الاصطلاح الى الأصل الرومى، حيث يعرف هذا النوع من الاتفاقات بـ (bactum) ومنها (Pact) وتدل هذه المصالحة لحسم خلاف بين دول لا غالب ولا مغلوب بل ان الطرفين أو أكثر متعاقدين على قدم المساواة وهى أقرب شىء فى تفسيرها الى أنها عربون صداقة متبادلة أما البقط الذى اصطلح عليه العرب عقب غزوة عبد الله ابن سعد ابن أبى سرح عام عشرين أو واحد وعشرين هجرية هو ثلثمائة وخمس وستين رأساً من الرقيق لبيت مال المسلمين وللامير بمصر غير ما ذكر أربعون رأساً ولخليفته المقيم بأسوان وهو المتولى لقبض البقط عشرون رأساً وللحاكم المقيم بأسوان الذى يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة رؤوس ولاثنى عشر شاهدا عدولا من أهالى أسوان يحضرون مع الحاكم قبض البقط اثنى عشر رأساً من الرقيق وكانت النوبة قد دفعت الى عمرو ابن العاص أربعين رأساً من الرقيق فلم يقبلها وردها الى كبير البقط الذى اشترى بثمنها جهازاً وخمراً وأرسله لملك النوبة وبعث عبد الله ابن أبى سرح ما وعد النوبة به من الحبوب قمحاً وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلا ثم تطاول الرسم على ذلك فصار رسماً يأخذونه عند دفع البقط فى كل سنة وصارت الأربعون رأساً التى أهديت أصلا الى عمرو ابن العاص يأخذها والى مصر (أنظر المقريزى المواعظ والاعتبار س ٢٨٩ / ٢٩٩ الجزء الثالث — نشر فييت مطبعة المعهد الفرنسى للاثار الشرقية ـ القاهرة سنة ١٩٢٢) .

والثلاثين من الهجـــرة عند ما نـكثت النوبة العهـــد السابق ، وذلك بعدوفاة الخليفة الثانى عمربن الخطاب رضوان الله عليه ظناً منهم ، كما هى عاداتهم التى تميزوا بها فى مختلف العصور انهم فى نـكثهم للعهدالذى قطعوه علىأنفسهم فىولاية خليفة سابق، قد يصل بهم إلىتخفيف ما اصطلح عليه أصلا . وهذه الظاهرة ما زالت قائمة فى المجتمع، وبعد استسلام ملك النوبة فيلدروت تقرر الصلح على ثلثمائة وستين رأساً من الرقيق فى كل سنة ،ووعده عبدالله ابن سعد بهدية سنوية من حبوب وملابس الخ وكتب عبد الله ابن سعد أمانا،اشترط لقيامه ان يؤدى النوبة فى نهاية كل عام عدداً من الرقيق تحددت أوصافه . كما اشترط عدم التعرض للمسلمين من إقامة شعائرهم الدينية وحفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون فى دنقله وغير ذلك ،ولم يشر الجانب العربى إلى ما وعد به عبد الله بن سعد من حبوب وملابس الخ [١٠٦] .وقد وفى الجانبان العربى والنوبى بالتزاماتهما حفظا للعلاقات الوثيقة، الأمر الذى استمر نافذاً أكثر من ستة قرون، حتى حدثت تطورات فى العلاقات السياسية بين شطرى الوادى فى القرن السابع الهجرى كان من نتيجتها قيام حاف جديد ربط بين شطرى الوادى وسوف نتعرض لهذه التطورات فيما بعد .

هذا ما كان من العلاقة مع البلاد النوبية التى على حوض النيـل الأوسط . أما العلاقات مع البشا (البجة) فقد تحددت فى عقد الأمان الذى أعطاه عبد الله بن الجهم إلى كنون بن عبد العزيز عظيم البشا فى عام ٢١٦ هجرية (٨٣١ ميلادية) وقد سبق أن أوضحنا ما جاء فى ذلك العقد [١٠٧] من امتيازات منها أيلولة ملكية القطاع من جنوب أسوان حتى جنوب دهلك (مصوع) للخليفة .

وحدث فى عهد المماليك البحرية تدهور فى العلاقات بين المماليك ، الذين آلت إليهم مقاليد الحـكم وبين العرب والعربان المسلمين فى القطر المصرى.وكان ذلك مدعاة لقيام العربان بأثارة الفتن والقلاقل ، وكانت البلاد مهيأة لتلك الاحـداث لسبب ماتغلغل

---

(١٠٦) أنظر المقريزى ص ٢٩٦ جزء ثالث .

(١٠٧) راجع عقد الأمان في صفحة ٢٢ وهامش ٥٨

حدث أن نقض البشا عهدهم بغزو صعيد مر الأعلى حتى بلدة اسنا وذلك فى عام ٢٤١ هجرية (٨٥٥ ميلادية) فى عهد الخليفة جعفر المتوكل وأرسلت حملة لتأديبهم واضطر كبير البشـا إلى التسليم فأحسن العرب معاملته وأرسل مكرما ليطأ بساط أمير المؤمنين فى بغداد . وكانت هذه الحملة تحت أمرة محمد بن عبد الله القمى .

فى المجتمع المصرى من آراء وأساليب جديدة من العهود السابقة ، وقد قتل فى هـذه القلاقل ألوف من العربان فقدوا ماشيتهم وممتلكاتهم، وذهب الكثيرون منهم صوب شطر الوادى الجنوبى هربا من انتقام المماليك ، وتوالت حملات المماليك نحو الجنوب، حيث كثرت المشاحنات والحروب الداخلية، التى عطلت الحياة وهددت البلدان الواقعة شمال الشلال الأول . وانتهت الحملات التى أرسلها المماليك على النوبة بأن أجلس شكنده (١٠٨) على كرسى الملك فى دنقله فى عام خمس وسبعين وستمائة هجرية (١٢٧٦م) ، ولما نصبوه حلفوه بأن يكون نائباً للسلطان وجرى قسبه كالآتى « والله والله والله وحق الثالوث المقدس والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية ، والأنبياء والرسل الحواريين والقديسين والشهداء والأبرار ، وإلا أجحد المسيح كما جحد ديوس وأقول فيه ما تقوله اليهود ، وأعتقد ما يعتقدونه ، وإلا أكون ديوس ، وأطعن المسيح بالحربة ، كما طعنوه اليهود ، اننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه واننى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، واننى ما دمت نائبه لا أقطع ماقرر على فى كل سنة تمضى ، وهو مايصل من مشاطرة بلادى على ما كان يتحصل لمن تقدم من الملوك بالنوبة ، وأن يكون النصف من المتحصل لمولانا السلطان مخلص فى كل فن (حق)، والنصف الآخر مرصداً لعمارة البلاد وحفضها (حفظها) من عدو يطرقها ، وأن يكون على فى كل سنة من الأفيلة الثلاثة ومن الزرافات ثلاثة ومن الفهود خمسة ومن الصهب الجياد مائة ومن الأبقار الجيدة أربع مائة رأس، واننى أقرر على كل نفر من الرعيـة الذى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عيناً ، وانه مهما كان لداوود ملك النوبة ولأخوه (أخيه) شنكوا ولأمه ولأقاربه ومن عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور ، أحمله إلى الأبواب العالية ، واننى لا أترك شيئاً منه قل ولا جل ولا أخفيه، ولا أمكن أحداً من اخفائه ، ومتى خرجت عن شيء مما قرر على أعلاه كنت بريئاً من المسيح ومن السيدة الطاهرة ، وأخسر دين النصرانية ، وأصلى لغير الشرق وأكفر بالصليب ، وأعتقد ما يعتقدونه اليهود ، ثم أننى لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة صغيراً ولا كبيراً، ومن وجدته احتطت عليه ، وأرسلته إلى الأبواب العالية ، واننى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت مولانا السلطان فى وقته واننى لا أنفرد بشيء من الأشياء

---

(١٠٨) المقريزى ص ٢٩٧ / ٢٩٨ ، ومفصل ص ٢٣٩/٢٣٦

وانى عبد مولانا السلطان عز نصره وغرس صنائعه وسيفه المنصور ، وأنا ولى من والاه ، وعدو من عاداه ، والله على ما أقول وكيل وشهيد .

وأقسم شكندة يميناً ثانية : انى متى ورد على مرسوم السلطان فى ليل أو نهار يطلبه إلى الأبواب الشريفة يحضر لوقته وساعته ، ولا يتأخر بوجه من الوجوه ، إلا بمقدار ما يدبر ما يحتاج اليه من أمور السفر (١٠٩) . ومن هذا يتضح لنا أن شطر الوادى الجنوبى قد صار وفق ماجاء فى هذه المواثيق التعهدية «دار الصلح» . ولم يمض طويل وقت حتى كانت الهجرات العربية الجماعية قد تغلغلت فى بلاد النوبة والبشا ، وكونت عنصراً خطيراً وخاصة بعد مصاهرة المهاجرين للأسرات الحاكمة ، الأمر الذى مكن أبناء العرب من مقاليد الحكم بفضل التقاليد المحلية التى تمنح ابن الأخت وابن البنت حق الوراثة دون ولد الصلب ويقولون ان ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح ، وأن يكون من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال (١١٠) .

وكان من أثر هذا العهد الذى قطعه شكنده ، امتداد سيطرة سلطان شمال الوادى المباشرة على المنطقة السفلى للنوبة المعروفة بالمريس ، وهى الواقعة بين الشلال الأول وبلدة كرسكو ، التى تبعد عن شمالى وادى حلفا بحوالى الستين ميلا ، وصارت المقررات المعتادة من الضرائب على البلح والقطن وغير ذلك من المحصولات تدفع للسلطان ، كما كانت تجبى الجزية من المواطنين الذين يحتفظون بغير الاسلام دينا وذلك بواقع دينار واحد عن كل ذكر بالغ . وبعد وفاة السلطان بيبرس تولى الحكم قلاوون وفى عهده قتل شكنده واستولى على كرسى الملك (Berek) الذى لاقى حتفه على يد بعض المماليك ، وقام شمعون باعباء الحكم ، ولم تكن علاقات هذا الملك طيبة مع أمير (الأبواب) الواقعة على حوض النيل جنوبى مصب نهر العطبرة ، وقد أرسل هذا الأمير بعثة إلى السلطان شاكيا (شمعون) لتعرضه للطريق التجارى بين الأبواب

---

(١٠٩) مفضل ج ٢ ص ٢٣٩ وتاريخ هذا القسم ٢٤ مايو سنة ١٢٧٧ م وجاء فى المقريزى (ص ٢٩٨ جزء ثالث) عن تقسيم بلاد النوبة « أن تكون بلاد النوبة نصفين نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ماخلا بلاد الجبال فانها كلها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد الجبال فانها كلها للسلطان لقربها من بلاد أسوان وتكون نحو الربع من بلاد النوبة وأن يحمل مابها من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان وأن يقوموا بالجزية مابقوا على النصرانية ويدفع كل بالغ منهم فى السنة ديناراً عينا . . والتزم (شكنده) أن يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم » .

(١١٠) المقريزى ص ٢٦٧ و٢٦٨

وشمال الوادى . وحاول شمعون أن يضعف من أمر هذه الشكوى ، بارساله وفدا إلى السلطان ليكسب ثقته، غير أن السلطان قد أرسل بعض الأمراء إلى الأمارات الواقعة جنوبى مملكة دنقله [١١١] ، كما أرسل مندوبا إلى شمعون ، وقد استطاع أمراء الأبواب والبعصة (والأخيرة واقعة بين النيل وكسلا جنوب شرق شندى) من تدعيم شكايتهم من ملك النوبة ،ولهذا أرسل قلاوون حملة عسكرية لتأديب ملكها، وانتهت هذه الحملة بهرب شمعون وتولية ابن اخته ملكا ، وبعد عودة الحملة عاد شمعون، واستولى على الحكم ، فأرسلت قوة كبيرة فى عام ١٢٨٩ م وقد صحبها اثنان من الأمراء النوبيين، واستطاع شمعون أن يهرب ثانية ، ونصب ابن أخت الملك داود ملكا على دنقله . وتكررت المأساة بعد عودة لحملة بظهور شمعون ، وذلك فى ١٢٩٠ م واغتصابه الحكم بعد أن قتل الملك وبعض حكام الأقاليم الشمالية لمعاونتهم للسلطان ، وكتب شمعون إلى قلاوون معلنا ولاءه ، واستعداده ادفع الجزية المقررة، وبقى على عهده الذى قطعه فترة من الزمن ، دون أن يقوم بتعكير العلاقات ، وحدثت ثورة قام بها الأمير آنى من حكام الجنوب، وتولى الملك بوديما (Boudima) الذى كان فى مصر الحكم فى دنقله بدلا من شمعون . وفى عهد السلطان الناصر محمد قلاوون أرسل عز الدين الأفرم على رأس حملة إلى الأبواب ، التى كان ملكها فى مطاردة الأمير الثائر آنى .

وأخذت الأحوال فى الجنوب تسير فى خطى سريعة نحو النهاية ففى عام ١٢٩٩ أصيب المماليك بهزيمة فى حمص الشام فى حربهم مع المغول .

وقد كانت هذه الهزيمة فرصة استغلها العربان فى مصر فى عام ١٣٠٢ ميلادية ، باحداث قلاقل دفعوا ثمنها غاليا فى الرجال والمال ، وشرد من بقى منهم على قيد الحياة فالتجأ الكثيرون منهم إلى بلاد النوبة، هربا من الاضطهاد وتعقب المماليك لهم، وأرسل السلطان حملتين فى عامى ١٣١٢ و١٣١٦ ميلادية إلى بلاد النوبة ، التى كان يحكمها الملك كرنبس . وقد صحب الحملة الثانية الأمير النوبى عبد الله برشنبو [١١٢]

---

(١١١) جاء فى مخطوط تاريخ قلاوون ٩ إلى صاحب باره وإلى صاحب التاكه وإلى صاحب كدروا وإلى صاحب ديفوا وإلى صاحب أرى وإلى صاحب صفال وإلى صاحب سانج وإلى صاحب كوسه

(١١٢) تربي هذا الأمير فى القاهرة تربية إسلامية وقد احتلط اسم هذا الأمير على « ماك ميكل » الذى ذكر فى كتابه تاريخ العرب فى السودان ان اسمه عبد بن « سنبو » وقال انه زنجى بسبب اسم والده « سنبو » والحقيقة ان الاسم « برشنبو » معناه « ابن الأسد » وكان النوبة يميلون إلى استخدام أسماء الحيوانات حربا على عادة شمال الوادى (أنظر كتيب النوفذ اليونانى فى حوض النيل الأزرق) للمؤلف .

ابن أخت الملك داود . وقد أسندت إلى هذا الأمير مقاليد الحكم فى دنقله بعد أسر ملكها كرنبس[113] وقريبه ابراهام اللذين نقلا إلى القاهرة وانتهت بعزله كرنبس الدولة النوبية المسيحية الشمالية . وسادت البلاد قلاقل ومطاحنات ، بين الجالس على كرسى الحكم والنفر من المغامرين الذين تطلعوا لانتزاع السلطة . فقد حدث بعد عودة الحملة أن قتل كنز الدولة الملك عبدالله واستولى على الحكم ، فأرسل السلطان حملة صحبها ابراهام الذى وعده السلطان بولاية الملك إذا تغلب على كنز الدولة وقد تم له ذلك ، غير أنه لم يعش طويلا فتوفى عام ١٣٢٣ . وظهر كنز الدولة ونادى بنفسه ملكا على كرسى دنقله . وأرسل السلطان حملة صحبها كرنبس للتخلص من كنز الدولة وأعادت الحلقة المفرغة دورتها بعد عودة الحملة بظهور كنز الدولة واغتصابه مقاليد الحكم . واشتدت الاضطرابات الداخلية ، التى تخللتها جهود الجماعات العربية التى دخلت البلاد لتكوين ديارها التى أوضحناها فيما سبق ، واستمرت هذه الحالة أكثر من قرن كان فيها كل من شمال الوادى وجنوبه فى عزلة ، بسبب هذه الاضطرابات الداخلية فى كل منهما . وانتهت هذه الحال بدخول الزعامات القبلية للمجموعات الاقليمية فى اتحاد تزعمه السلطان السنارى الذى انتقل إلى عاصمته الجديدة فى قطاعة الاقليمى الذى شمل حوض النيل الأزرق جنوبى مدينة « أربجى » ، واستمر السلطان السنارى فى ممارسة سلطانه من عاصمته « سنار » التى أعاد بناءها .

وكان قيام هـــذا الحلف بين المشيخات المحلية والسلطان السنارى أمراً قررته الاستجابة لعراك حياة مجتمع فى صورة جديدة تمخض عنه ذلك الصراع الخفى بين المجموعات العربية التى دخلت البلاد فى طرف وبين السكان من أهالى البلاد فى طرف آخر ، وقد صهر هذا التزاوج المجتمع الجديد فى قالب تغلبت فيه مميزات البيئة المحلية التى اتخذت من أنساب تربطها بالعرب مدارج ارتقت بها إلى القول بانحدارها من بيوت الأشراف من العباسيين الذين دخلوا البلاد فى أعقاب مختلف الهجرات العربية . وهنالك مجموعات من الوطنيين المستضعفين بقيت محتفظة بمركزها الاجتماعى المتواضع

---

(١١٣) ورد اسم كرنبس فى وثيقة « دير سمعان » التى جاء فيها ـ كما حققه مارجليوث على نسخة بودليان ـ ان كرنبس تولى الحكم فى عام ١٣١٢ م (٧١١ هجرية) بعد مقتل أخيه الذى لم يعرف اسمه وكان ذلك فى العام الثانى من ولاية السلطان الناصر الذى أرسل حملة فى عام ١٣١٥م الى دنقلا انتهت بتنصيب عبد الله برشنبو ابن أخت الملك داود (أنظر مقـــال جريفث « وثائق مسيحية من النوبة الذى نشر فى محاضر الأكاديمية البريطانية الجزء الرابع عشر عام ١٩٢٨) .

وتتغير علاقاتها مع أصحاب الاقطاعات سواء كانت قبلية أو فردية عما كانت عليه فى سابق العهود، بل بقيت هذه العلاقات على سابق عهدها المتوارث وبخاصة فى مناطق المجموعات الأقليمية الأولى والثالثة والسادسة، وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك فئات مستضعفة فى المناطق الأخرى، بل كانت هنالك جماعات من السكان الأصليين تحكم فيهم القائمون على الأمر، كما هو الحال فى المجموعات الاقليمية الأولى والثالثة والسادسة. وأن هذه الجماعات على استضعافها لم تكن موضع تعسف أو اضطهاد، بل كانوا يعاملون كطبقة خاصة، ترتفع فى مستواها الاجتماعى على الرقيق، فهم يملكون حرية ممارسة العمل كما يرغبون، ولا يدخلون فى المعاملة بالبيع والشراء وكل ما فى الأمر إمكانية نقلهم من سيد إلى سيد، ولا تربطهم بالسيد إلا بعض التقاليد مثل اصطناعهم للحرب وتقديم بعض الهدايا فى المناسبات (كالزواج - الولادة، الطهور الخ)، وقد أخذت هذه التقاليد فى الاختفاء السريع.

وهكذا سارت الحياة على أطراف متناقضة استغل بعضها الرؤساء الروحيين، الذين سلكوا بها منهجاً خاصاً أملته عليهم نظرياتهم الخاصة. وسار فى الجانب الآخر أصحاب السلطان ولم يكن بين هذه الجماعات ما يربط بينها نحو أهداف معينة. فكل من المعسكرين اتخذ طريقه نحو تحقيق مصلحته الذاتية. وكان طبيعياً والحالة هذه أن تتعطل الحياة وأن تنتهى إلى ما وصلت إليه من تعطيل الشعور عند الأفراد بضرورة التطور الذى يتمشى مع طبيعة الأشياء. ومكن فقدان التوازن بين المعسكرين الروحى والمدنى من تمهيد الطريق وتعبيده للجماعات القوية لتستولى على الحكم كلما سنحت الفرص التى يضعف فيها رجال الصدارة من هذا الفريق أو ذاك.

٥ - المجتمع :

ا) بيئته - حياته - مظاهر نشاطه الاجتماعى:

جاء المهاجرون كما سبق أن أوضحنا فى جموعهم التى بدأت فى قلة بعد فتح مصر (١١٤) ثم أخذت هذه القلة تتزايد تدريجياً حتى تحولت إلى موجات متلاحقة من الفارين من شمال الوادى وذلك فى القرنين السابع والثامن من الهجرة (الثالث عشر والرابع

---

(١١٤) لقد حد العهد الذى أعطاه عبد الله بن سعد بن أبي سرح من الهجرة إلى البلاد جنوبى الشلال الأول واتخاذها موطنا غير ان هذا الحظر قد أهمل بعد أن استعاد سكان الوادى ما بينهم من قديم الصلات والروابط.

عشر الميلادى) ، ويرجع تطور الخروج من شمال الوادى فى موجات من الفارين إلى ما أصاب القوم من اضطهاد وعدوان من المماليك الذين تملكوا زمام الحكم فى مصر بعد انتزاعه من العرب أصحاب السلطان أصلا والذين نظر إليهم المماليك ، وبخاصة المماليك البحرية ، كعنصر غير مرغوب فى بقائه فى البلد الذى آلت إليهم مقاليد حكمه وذلك لخوف المماليك وقلقهم من قيام العرب والعربان باشاعة الفتن والثورات ، فى كفاح لاسترداد سلطانهم المغتصب . ولم يكن هناك من طريق غير هجرة العرب للخلاص مما حاق بهم بسبب ماحدث في مصر من تغيـــيرات ، بانتزاع أداة الحكم وانتقال السلطان من أيدى العباسيين إلى الطولونيين الاخشيديين ثم إلى الفاطميين فالأيوبيين والمماليك .

وجاءت إلى جنوب الوادى فى ركاب هذه الهجرات مختلف العقائد والمذاهب الفكرية وبخاصة مع اتباع الفاطميين من جند وغيرهم (١١٥) . وقد بلغ النزاع أشده فى أوائل القرن السابع الهجرى عندما أنزل المماليك بالعربان أفدح الخسائر (١١٦) ، الأمر الذى بلغت معه موجات الفرار ذروتها فى طريقها صوب جنوب الوادى حيث الملجأ الطبيعى .

جاءت هذه الجموع ولها من القوة الروحية ، المستمدة من الحماس للرسالة الدينية الجديدة ماجعلها تتغلغل فى سرعة فائقة فى المجتمع المحلى ، وتكتسح أسسه التى قامت فى ظل نوع من العبادات لم يكن راسخ الأركان بل كان طابعه الغالب تلك البقايا من المعتقدات القديمة التى ورثوها من عهود الوثنية السحيقة فى قدمها والمتعددة المعبودات وكان يسيراً على المهاجرين العرب تقويض جهاز الملكية التى مارسها رجال مؤلهون من رجال الكهنوت . وقد وجد المهاجرون عوناً على ذلك عن طريق المصاهرة ، كما تمكنوا من إنشاء مشيخات وملكيات ، يحكمها زعماء القبائل التى اختار كل فريق منها المنطقة التى تتناسب مع بيئته ، بالقدر الذى قدمته الظروف المحلية فى الوطن الجديد ، وأخذت الزعامات القبلية العربية فى تكوين ديارها التى أخذت فى التوسع بانضواء المجموعات القليلة العدد الضعيفة الجانب فى حمى هـــذه القبيلة أو تلك . وتمكنت الزعامات العربية من السيطرة الكاملة على مصير الوطن الجديد فى مختلف مناطقه

---

(١١٥) جاءت مع هؤلاء المذاهب الشيعية التى انتشرت فى صورة أو اخرى غير ان مدي انتشارها ضيق جداً وهذا الموضوع جدير بالدراسة واثارها ما زالت باقية إلى اليوم

(١١٦) المقريزى البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب

الاقليمية فى البادية وفى الحضر وفى الريف . ولم يحاول المهاجرون انتزاع السلطان من الأسرات الحاكمة المحلية بقوة السيف بل تركوا الأمر ليأخذ طريقه العادى ، وشغلوا أنفسهم بتوطيد أقدامهم فى الأرض الجديدة موضعاً موضعاً ، فمنهم من اشتغل بالزراعة وممارسة الحرف فى المدن وفى مواطن الخصب ، واختلط بذلك مع السكان اختلاطاً كاملا ، وشاركهم فى حياتهم ومظاهر نشاطهم ، ومنهم من ضرب فى مسالك الصحراء يخط سجل حياته بين خطى بعيره ومضارب خيامه ، يردد أناشيده وأشعاره التقليدية ، عازفا بمزماره متنقلا من واد إلى وادى ، طلبـــا لمواطن المرعى فى مختلف مواسمها . وكان اختلاط هؤلاء بأهل المدن فى أضيق الحدود . ومن المهاجرين أيضاً من اشتغل بنقل التجارة على ظهور الإبل على الطرق الصحراوية بين النيل ومواني البحر الأحمر وشمـــال الوادى والمناطق المجاورة ، كما اشتغلت جماعات فى استخراج المعدن[117] . وكان اختلاط هؤلاء بالقبائل التى سكنت ساحل البحر الأحمر .

واستطاع المهاجرون المحافظة على تقاليدهم العربية الموروثة بفضل تتابع الهجرات المتلاحقة ، والتى كانت تحمل دائماً فى ركابها دما غربياً جديداً ، الأمر الذى حال دون غلبة التقاليد واللغات المحلية غلبة كاملة كما كان متوقعاً أن يحدث بين جماعات اتخذت الزوجات والسرارى من أهل الوطن الجديد ، الأمر الذى تحيا معه الحياة الشعبية المحلية بامتصاص الوافدين ، وتكييفهم بعد صهرهم فى قالب الحياة المحلية فتدخل لغة الوافدين وتقاليدهم فى صراع مع منافساتها من المحليات . غير أن هذا الانتصار الذى كسبه العرب فى الجولة الأولى من صراعهم السلمى ، لم تكتب له الغلبة النهائية بعد أن نضب معين الهجرات المتلاحقة ، وبعد مضى الزمن الكافى فى الاصطراع الخفى بين العرب وأهل البلاد ، وكان أثر ذلك واضحاً فى العرب الذين اشتغلوا بالزراعة ومارسوا الحرف ، ولا شك أن دراسة علمية منظمة فى مختلف المهاجر سوف تكشف الكثير عن التطورات ، التى حدثت كما تبين ما كان من روابط بين المناطق وبعضها ودراسة اللهجات المحلية وما أصابهـا من تغيير وتبديل سواء كانت عربية خالصة أو محليـة ، سوف يزيل الستار عن مراحل الصراع فى البيئات الاقليمية المتباينة .

---

(117) يقول المقريزي ص ٢٧٧ « وقدم عليهم مشيراً إلى البشا » أبو عبد الرحمن بن عبدالله ابن عبد الحميد العمرى بعد محاربته النوبة فى سنة خمسة وخمسين ومائتين ومعه ربيعه وجهينه وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة فى البجة (الباشا) حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التى تحمل من القلزم الى عيذاب .

أحدثت الهجرات فى مراحلها المتعاقبة كما سبق أن أشرنا تطورات فى نظم الحكم ، وفى حياة المجتمع ومظاهر نشاطه الاقتصادية والسياسية فقد أزالت ما كان قائماً من فوارق بين الراعى والرعية ، وما بينهما من عبودية مطلقة واستردت الرعية حريتها الفردية ، بزوال جهاز الحكم المتوارث وقيام التقاليد القبلية العربية بعد أن كانت مقاليد الحكم تنتقل إلى ابن الأخت أو ابن البنت ، وصارت الأرض ملكا للجماعة القبلية متمثلة فى شخص زعيمها ، بعد أن كانت ملكا خاصاً لرئيس الدولة أو موقوفه على المعابد وكان الأهلون عبيداً لايملكون الأرض ، بل يعملون عليها لمصلحة الحاكم ورئيس المعبد أو من ينوب عنها (١١٨) . ولم يكن ذلك النوع من التقاليد التى أقامها النظام القبلى من حيث زوال قدسية الحاكم واختفاء الفوارق بين الأهالى وصاحب السلطان ، وصارت الأرض توزع على الجماعة يقومون على استغلالها ، ودفع الجعل المعين لشيخ القبيلة أو زعيم الدار ، إلا مرحلة من مراحل التطور من النظام الاقطاعى المطلق إلى نظام يعطى للفرد نصيباً من جهوده ، بعد دفع الأتاوة المعينة للزعيم الذى يقوم بدفع جزء منها لحاكم الدار . ولم يكن نظام توزيع الأرض الزراعية ، بين أفراد القبيلة عادلا مطلقاً ، يقتنع به الجميع حتى لايكون نواة للتذمر الذى يبدأ خفياً ثم يتخذ طريقه نحو الظهور فى شكل أو آخر .

جاء المهاجرون من العرب تظاهرهم القوة المعنوية المستمدة من أسس الدين الجديد ، الأمر الذى أكسب هؤلاء القوم مظهراً قوياً ، تضاءلت أمامه الروح المعنوية المحلية ، وكان من اليسير أن يستولى العرب على مشاعر سكان السودان الذين كانوا فى حالة من الانحلال والفوضى ، التى أخذت فى الازدياد منذ اللحظة الأولى لدخول المسيحية فى البلاد . وقد كانت ربوع السودان بعد دخول المسيحية إليها بعيدة لحد ما عن متناول السلطان الأجنبى (البطلى والرومى) الذى سيطر على مصر . وكان لزاماً والبلد تدين بالوثنية والعبادات القديمة ، أن يعمل رجال الكهنوت عند دخول

---

(١١٨) المقريزى ص ٢٨١ / ٢٨٢ جزء ثالث . وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم (النوبة) بوفد وفدهم الى الفسطاط ذكروا عنه أناسا من أهل مملكته وعبيده باعو ضياعاً من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العامرين » وكان ان أنكر النوبة الاقرار للملكهم بالعبودية وطالبوا بمعاملتهم كالمسلمين فى علاقاتهم مع حكامهم . أنظر نفس المصدر ٢٦٣ / ٢٦٤ عن مملكة علوة حيث يقول نقلا عن ابن سليم الأسوانى » وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع لهم وينادون الملك « يعيش فليكن أمره » .

المسيحية ، وقد كانت مقاليد الأمور الدنيوية والدينية فى يدهم، أن يعملوا على تكييف رسالة الدين بالطابع المحلى الذى يخدم مصلحتهم الخاصة أولا. فكان هؤلاء الكهنوت أول من تقبل الدين الجديد ، واعتنقه ليحتفظ بمركزه فى المجتمع ليمارس تقاليده وعقائده الموروثة فى ظل الدين الجديد ، وحتى لاتفلت من أيديهم مقاليد الحكم التى توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وقد ساعد التطاحن المذهبى بين اليعقوبية والملكانية على اضمحلال مركز البعثتين التبشيريتين ، فقد أرسل الأمبراطور جوستنيان بعثته للتبشير بالمذهب الملكانى كما أرسلت فى نفس الوقت الأمبراطورة تيودورا زوجته بعثة أخرى للتبشير بالمذهب اليعقوبى وكان ذلك فى حوالى عام ٥٤٣ ميلادية .

وحاول رجال كل من البعثتين ضم أكبر عدد ممكن من الأنصار ، إلى هذا المعسكر أو ذاك لتساعد الكثرة على التفوق على الفريق القليل العدد ، دون اعتبار إلى رسوخ العقيدة من عدمه ، وهكذا تحولت الجهود التبشيرية لغير الغرض الذى جاءت من أجله ، باستخدامها مختلف الوسائل والدعايات للقضاء على الفريق المضاد ، وطبيعياً أن يكون ذلك على حساب الدين ، الذى جاؤوا به مبشرين وقد أفاد هذا الوضع سكان البلاد وقادتهم لتثبيت أقدامهم فى ظل الرسالة الجديدة وهكذا استطاعت البلاد المحافظة على الكثير من تقاليدها فى ظل المعركة التى تبادل فيها كل فريق الغلبة إلى حين ، حتى جاء الاسلام إلى مصر فكانت أن تمكنت اليعقوبية التى أزرها العرب ، وهى دين الكنيسة المصرية من القضاء نهائياً على الملكانية مذهب البابوات ؛ الذى أيده الرومان وقد بقيت التقاليد الوثنية فالمسيحية المتوارثة فى صورة أو أخرى حتى يومنا هذا . ومن تلك التقاليد الباقية « الطاقية أم قرين » التى يلبسها الملوك وسوار الذهب(١١٩)، ومراسيم تقاليد الحكم للمشيخات الصوفية أو الادارية ، ومنها أيضاً ماهو متبع فى استقبال إمام المسجد فى أيام الجمعة فى بعض المناطق يستقبل الامام عند باب المسجد ، ويسير أمامه حامل السيف الخشبى التقليدى أو « العكاز » حتى باب المنبر حيث يسلم إلى الامام قبل صعوده المنبر(١٢٠) ومنها صليب الكحل على جبهة الطفل وعملية التغطيس فى الماء(١٢١) .

---

(١١٩) أبو صالح الأرمنى ص ٢٦٠ ومقال كروفورد « الطاقية أم قرين » الذى نشر فى مجلة السودان فى مذكرات ومدونات ص ٣٣٣ / ٣٤ من المجلد السادس والعشرين (عام ١٩٤٥) ومما يجدر التنبيه اليه أن « القاف » فى « أم قرين » تنطق كحرف الجيم عند أهل مدينة القاهرة أو كالقاف الصعيدية .

(١٢٠) حامل السيف الخشبى « أو العكاز » هذا يمثل صورة من الصور التى ترمز إلى الوظيفة التى يحتلها « الجندى » وسنتعرض لهذا فى مراسيم تقاليد الحكم .

(١٢١) عملية التعميد .

ويرجع بقاء هذه التقاليد وممارستها فى ظل الاسلام إلى تلك الجماعات من الأشراف واضرابهم ممن انتشروا فى دار الاسلام ، بعد ولاية عثمان رضى الله عنه للخلافة بعد أن منعهم الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من الهجرة ، وكان لهؤلاء وما تميزوا به من حرص على المال وطمع فى الاستكثار منه ، وهم فى ذلك إلى العقائد والرغبات التى استقرت فى أعماق نفوسهم من ممارستهم التجارة قرون عديدة كانت مقاليدها فى يدهم وهم سدنة البيت الحرام وقد أكسبتهم خبرة فى الأعمال الاقتصادية وولايتهم للقوافل ، الحنكة والدهاء ونفاذ البصيرة كما جعلتهم أن يزدروا بالقيم التى جاء بها الدين الاسلامى ، فى سبيل مصلحتهم القريبة والبعيدة ، فاستطاعوا أن يكيفوا الوضع الدينى الجديد بما يتناسب مع مغامراتهم بعد أن فقدوا طريقهم إلى الولاية والسلطان . وجاء فى مخطوطة « تاريخ سنار » . « وأيضاً فى مدة خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد قدم إليه جماعة من بر السودان وهو ببغداد وطلبوا منه أن يرسل معهم علماء يعلموهم أمور الديانة فأرسل معهم سبعة علماء من بنى العباس ووصلوا إلى دنقلة وأقاموا بها وتناسلت منهم ذرية(١٢٢) كثيرة » وإذا رجعنا إلى كتاب الطبقات نجد تصويراً لحالة البلاد الفكرية والروحية ، كما تناقلتها الأجيال حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، حيث دونها الشيخ ضيف الله فى طبقاته (١٢٣) وليس من شك أن كثيراً من التعديل تغيير وتبديل قد أصاب الروايات التى أخذت سبيلها عن طريق النقل الشفوى من جيل إلى جيل وقد بعدت الشقة فى بعض التراجم لأكثر من ثلاثة قرون وهذه الفترة الطويلة كفيلة باحداث ما نجده من خوارق للعادات وكرامات أراد بها ناقلوها وهم اتباع هذا الشيخ أو ذاك أن يرفعوا من قدره بالنسبة لغيره . ويجدر بنا أن نذكر ما للبيئة المحلية والزوجات والسرارى من أهالى البلاد

---

(١٢٢) بنصه من مخطوط تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٢ ــ دار الكتب المصرية (صورة شمسية نقلا عن المخطوط المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٠٦٩

يبدو ان هذا الطلب قد تقدم به بعض حاشية قيرقى ابن كبير النوبة زكريا بهنسى الذى قدم على المعتصم (٢٠٨ ــ ٢٢٧ هـ ٨٣٣ ــ ٨٤٢ م) لتسوية مشكلة البقط المتأخر كما يبدوا أن قيرقى قد صحب نفر من مسلمى دنقلة لتسهيل مهمته فى بغداد .

(١٢٣) قام بنشر كتاب الطبقات الأستاذ سليمان داود منديل فى عام ١٩٣٠ كما قام الأستاذ الشيخ ابراهيم صديق بنشر طبعة أخرى فى عام ١٩٣٠ م بعد أن حقق ما جاء فيها وعلق عليه وهذا الكتاب جدير بالدراسة الخاصة في مختلف نواحي الموضوع وفى مقدمتها تحقيق ما جاء فى الكتاب وتنقيته مما قد يكون مضافا اليه لغرض ما .

من أثر فى تكييف الحال التى كانت تختلف باختلاف مناطق نفوذ رجال الدين ، الذين لم تكن تربطهم سياسة دينية موحدة بل كانت هناك منافسات بين أولئك المشايخ مصدرها التلاميذ ومن تشيع للعلماء من أنصار ومريدين .

ان هذه الظاهرة ظاهرة التشيع لأصحاب السجاجيد ، ورفعهم إلى مراتب الكشف عن الغيبيات والاتيان بالمعجزات وخوارق العادات تصور لنا ما كان عليه المجتمع من تدهور فى حياته المعيشية . الأمر الذى دفع أفراده إلى الالتجاء إلى هؤلاء الرؤساء الروحانيين طلباً للنجدة والغوث فى قضاء الحاجات ، من دفع للأذى والضر وجلب للمنفعة والخير والمثوبة عند الله تعالى وصرف للعدو ولم تكن هذه الحالة من المعتقدات فى الشعوذة والسحر وما إلى ذلك (١٢٤) وليدة الهجرات العربية بل هى عريقة فى القدم توارثها القوم من آبائهم وأجدادهم عن أقدم العصور الوثنية عندما تمخضت عنها حياة مجتمع ارتبط بسلفه من الغابرين وغيرهم فى صورة أو أخرى من التقديس والتبريك ، وأخذت هذه المعتقدات تتطور مع انتقالها من عصر إلى عصر . وتمسك باحيائها فى العهد الاسلامى بعض الرجال الذين استأثروا بالتعليم الدينى وورث خلفاؤهم عنهم القيام بهذا النشاط وقد يكون رجل الدينى الأول عارفاً لرسالته قائماً بها على وجهها الصحيح غير أن الأمر قد أصابه التعديل والتبديل جيلا بعد جيل وبخاصة أن دخول أمثال هؤلاء العلماء للبلاد لم يكن متصل الحلقات . وكان للمرأة الوطنية أثرها الخطير فى تكييف الرسالة التعليمية فى نطاق التقاليد والعادات المحلية التى توارثتها عن بيئتها ، وقد ساعد ذلك على جعل الافادة من القرآن والعلوم النقلية محدودة وصار طلاب العلم يحفظون عن ظهر قلب ما يرويه مشائخهم دون المعرفة والعمل على تبسيط المعارف ونشرها لتساهم فى تقويم المجتمع . وآية ذلك ان مسألة الزواج والطلاق كانت تباشر دون استكمال العدة الشرعية فى الوقت الذى كان فيه علماء الدين (الفقهاء) يمارسون نشاطهم .

وسرعان ما اختفت الشخصية العربية فى المناطق المنعزلة التى اختلطوا فيها

---

(١٢٤) يتطلب موضوع « الشعوذة والسحر » دراسة دقيقة على أسس علمية فى محاولة لكشف أسرارها . فهذه لا تخرج عن كونها اداة للسيطرة على عقول العامة وتسخيرهم كما كان يفعل رجال الكهنوت فى الوثنية والكثير من الأعمال التى يظن لأول وهلة انها من المعجزات وخوارق العادات ومنها صناعة المطر واستخراج الذهب من بعض الزواحف بعد حرقها وغير ذلك مما لا يسمح المجال بالتوسع فى ذكره فهذا يرجع إلى « مهارة علمية » يستخدم فى انجازها بعض العناصر التى تساعد على عملها .

بالكثرة من السكان المحليين وكان من الطبيعي أن تتأثر المقومات التى جاء بها الاسلام وتختلط بالتقاليد والعادات الموروثة كما سنبينه فيما بعد ، وبهذا صار المجتمع تربة صالحة تنمو فيها الدعوات التى تبدأ مرحلتها الأولى بالتوجيه إلى الاصلاح ثم يتحكم فيها الأنصار والأتباع فيفقد صاحبها سيطرته ويخضع للتيارات التى توجهه لتحقيق أهداف الجماعة أو الجماعات صاحبة المصلحة والتى كانت تتصيد الفرصة المواتيـــة لتحقيق مطامعها بتشجيع الحركات الخفية ذات الطابع القومى وتقوم على رعايتها حتى تستكمل مظاهرها وتستهوى الاتباع وعند ذلك تعمل الجماعة أو الجماعات ذات المصلحة على على توجيه الحركة نحو أهدافها الحقيقية ويجد الزعيم نفسه ، وقد جرفته الحركة عاجزاً عن ملاحقتها فى خطاها . ويرجع ضعف القائم على الدعوة وعجزه عن السير بها فى طريقها الذى رسمه لها إلى أسباب نفسانية فهو قد اعتكف فترة من الزمن طويلة أو قصيره فى نوع من الاستذكار والعبادة فى خلوات قد تستمر لأيام وشهور على غذاء من القلة بمكان ويخرج بعد أن يشعر ببلوغه المرتبة التى تمكنه من إظهار دعوته . والفكرة أصلا قد قامت فى باطنياته ثم صهرتها فترة الاعتكاف وأعطتها الصورة المناسبة ، ولاشك ان هؤلاء بعد خروجهم من خلواتهم يكونون فى حالة عصبية مرهقة ، بسبب الاجهاد الطويل والصوم وبذلك تكون الأعصاب قد تحطمت تحطيما بالغاً فتفقد قدرتها على الاستمرار على تحمل الأعباء فى نواحيها المختلفة ـ وانى أعرف أكثر من حالة نادى فيها أصحابها بأن أحدهم « نبى الله عيسى » وثان بأنه « قطب الزمن » الخ الخ . . وقد استطاع أهلهم حجزهم لفترة من الزمن قاموا فيها على رعايتهم وبذلك هدأت أعصابهم وعادوا إلى صوابهم .

ولهذا نجد ان البلاد لا تخلو فى سنة من سنى حياتها الطويلة من قيام أكثر من حركة اتخذت مظاهر مختلفة فبعضها يستشرى ويحدث أثراً بعيداً يكون فى الغالب معطلا لتقدم الحياة اليومية وهذا النوع يسلك مسلك العنف فى دعواه ونشرها وتلتف حوله الجماعات من المتزمتين التي تجد فى مثل هذه الدعوات ما يفرج عنها كربتها . وهناك دعوات لا يلجأ زعماؤها إلى العنف بل تأخذ طريق اللين والمسايرة بما يتمشى والحياة اليومية وتكتب لهذا النوع الغلبة والبقاء .

وتتميز الدعوات التى تستشرى وتعطل تقدم الحياة بظهورها فى المناطق المنعزلة التى يغلب فيها العنصر المحلى حيث تلقى مثل هذه الدعوات من الأنصار والمريدين

ما يساعد على امتداد السيطرة إلى مناطق أخرى لا تستطيع الوقوف أمام التيار أو انها تجد فى الدعوة الجديدة مخرجا لها من حالة قائمة لا ترضاها .

ونذكر عن سبيل المثال لا التحديد بعض الحوادث التى حصلت فى أوائل القرن الحالى .

عام ١٩٠٣ قام محمد أمين الشريف البرناوى (نسبة إلى برنو) بحركة دينية فى « دار جمع » انتهت باشتباكه مع إدارة السودان والقبض عليه وشنقه فى الأبيض .

عام ١٩٠٤ ادعى محمد ود آدم بأنه « نبي الله عيسى » وقد قتل فى معركة مع الجنود فى سنجه .

عام ١٩٠٤ ذهب حسن ود حسونة من « أبى دليق » بالبطانة إلى كردفان واثار حركة دينية إنتهت بالقبض عليه وعند التحقيق ظهر ان هدفه كان لجمع المال كما ورد المصادر الرسمية ، وقد أفرج عنه بضمان « حسن السير والسلوك » .

عام ١٩٠٨ اشتبك « عبد القادر ود حبوبه » فى الكتفية بالجزيرة مع إدارة السودان وتقول الدوائر الرسمية ان عصيان « ود حبوبه » يرجع إلى حكم أصدره مفتش المركز لصالح عمه الشيخ عبد الله مساعد العمدة وأخيه محمد ، وذلك فى منازعة عن أرض طالب ود حبوبه بردها اليه . أما الأسباب التى تختفى وراء هذه الحادثة هى ان رجال المساحة المصرية الذين عهد إليهم بالقيام بتخطيط أرض الجزيرة تمهيداً لمشروع زراعة القطن قد وضعوا أوتاداً حديدية لتحديد المناطق غير ان رجال ود حبوبه قد قاموا برفع هذه الأوتاد بسبب اعتقادهم بأن مثل هذه الأوتاد سوف يمنع المطر الموسمى الذى تقوم عليهم زراعتهم . فذهب المفتش مونكريف ومعه المأمور اليوزباشى محمد شريف إلى « ود حبوبه » فى قريته وعندما قابله المفتش وجه اليه عبارات لوم قارصة إلى الحد الذى دفع بعض أنصاره أن يطعنوا المفتش طعنات أفضت إلى موته وقتل معه المأمور . وأخذت هذه الحادثة صورة خطيرة أقلقت إدارة السودان ومرجع ذلك إلى قرب عهدها بنهاية المهدية وعلاقة « ود حبوبه » بذلك النوع من الحكم . فأرسلت القوات من الجيش المصرى إلى الجزيرة وقامت الدوريات النيلية فى النيل الأبيض بين الخرطوم وكوستى ظناً بأنها حركة من المهدويين واسعة النطاق وانتهت الحملة بهزيمة أنصار ود حبوبه الذى قبض عليه بعد ذلك وقتل مع بعض أتباعه شنقاً وسجن آخرون وقد أقامت هذه الإجراءات ضجة فى الصحف المصرية وفى العالم الاسلامى .

عام ١٩٠٩ و١٩١٧ . وهناك حوادث بين ١٩٠٩ و١٩١٧ منها حادثة فى الرماش بجوار سنجه والثانية فى كسلا .

عام ١٩٢١ قام الفقيه عبد الله السحينى بدعوته فى مركز نيالا وانتهت باخماد ثورته.

* * *

وقد يبدوا غريبا أن تظهر هذه المحاولات الانقلابية أو الحوادث العنيفة فى مثل هذا العدد فى هذه الفترة القصيرة من الزمن فى الوقت الذى تنعدم فيه كلية مثل هذه الحالات من الحوادث العنيفة فى عهد السلطنة السنارية وفى الستين سنة الأولى من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان أى من عام ١٨٨٠ . ففى الثمانين من القرن الماضى (١٨٨٠ ميلادية تقريبا) بدأت الزوبعة تتجمع ولم يمض طويل وقت حتى تمخضت عن حركة مهدى السودان فى مظهرها العنيف . كما سنبينه فى الكتاب الثالث من هذه الدراسة . وبعد وفاة المهدى ببضعة أعوام قام أبو جميزة بدعوته فى دارفور وناصره الكثيرون ومنهم الأمير أبو الخيرات من بيت سلاطين الفور ومطالب بالعرش (١٢٥) وكان هدف أبو جميزة أن يغزو أم درمان ليقضى على حكومة الخليفة عبد الله التعايشى لولا أن عاجلته المنية وعجز خليفته عن القيام بتنفيذ خطة سلفه كما ان الحركة لم تأخذ مرحلتها الأولى الكافية لتمكين أبو الخيرات من السيطرة عليها توجيها لتخدم مطامعه .

وهناك حادثة أخرى حدثت فى النصف الثامن من القرن السابع عشر الميلادى وذلك عندما ذهب الشيخ حمد النحلان ابن محمد البديرى المشهور « بود الترابى » إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج وهناك فى مكة نادى بنفسه «المهدى المنتظر» فمسك الحجاج بتلابيبه وأوسعوه ضربا وحبس من صحبه ثم أطلق سراحه . وقد أرسل هذا الشيخ تلميذه « ميرف » إلى سنار لاعلان دعوته بأنه « المهدى المنتظر » فأمر الملك بادى أبو دقن بقتله وهكذا قضى على هذه الدعوة . ولما عاد الشيخ محمد النحلان إلى السودان كان قد تخلى عن عودته وكرس حياته فى العبادة (١٢٦) .

---

(١٢٥) ظهر أبو جميزة بدعوته الدينية فى ١٨٨٨ م . وقد حدث أن استدعى الخليفة عبد الله التعايشى الأمير زقل من دارفور تاركا يوسف ابن السلطان ابراهيم على ادارتها ولما ظهرت اتجاهات يوسف الى الاستقلال أرسل الخليفة . عثمان جانو أمير كروفان لكبح جماحه . غير أن يوسف قد هرب الى جبل مرة حيث قتل فى ١٨٨٨ م . ونادى أخوه أبو الخيرات بنفسه سلطانا وانضم الحركة التى تزعمها أبو جميزة ولكنه فشل بعد وفاة هذا الزعيم الدينى . ولم يكن خليفته من الكفاءة بمكان .

(١٢٦) انظر كتاب الطبقات س ٦٠

وقد يبدوا هذا عجيبا حقا إلا أن هذا العجب سوف يتلاشى فيما أرى إذا رجعنا الى ما جاء فى كتاب الطبقات والروايات المحلية . فالطبقات قد ذكرت تراجم حوالى خمسين ومائتين من الشخصيات الدينية التى كان لكثير منهم . كما أوضح الكتاب المذكور . مراتب صوفية وكرامات ظاهرة . فمنهم قطب الوجود » [١٢٧] و « حامل لواء أهل الأعيان » و « الأربعين الذين وصلوا القطبانية » الخ الخ [١٢٨] وهنالك عدد كبير من الشخصيات الدينية لم يذكرها صاحب الطبقات لسبب أو آخر . سواء لعدم وصول أخبارهم الى الشيخ ود ضيف الله أو انهم عاشوا فى زمن لاحق لكتابة الطبقات غير ان الفقهاء فى مختلف المناطق فى يومنا هذا يحتفظ كل منهم بسلسلة من أسماء الفقهاء من أهله وأهل منطقته ولكل من هؤلاء روايته عن مفاخر أولئك الفقهاء وما وصلوا اليه من مراتب عالية فى التصوف . ومن هذا أجد أن الفترة التى تولى فيها السلطان السنارى والستين عاما من امتداد الإدارة المصرية الى السودان أى الفترة من حوالى ١٥٠٠ م الى ١٨٨٠ م لم تخل سنة من سنواتها من هذا النوع من الحركات الدينية مع اختلاف واضح فى مظاهرها. فبينما نجد ان الحركات التى حدثت بعد ١٨٨٠ م حتى ١٩٢١ م . قد سلكت مسلك العنف الذى فرضه الفراغ المفاجىء الذى تسبب عن الاسراف فى إلغاء الرقيق وهو دعامة اقتصادية أساسية فى قسوة بالغة على يد أجانب أطلقت لهم الحرية فى ادارة البلاد السودانية فأفسدوا الجهاز الإدارى وتعطلت الحياة الاقتصادية وكان من نتيجة ذلك قيام الثورة المهدية التى سوف نتعرض لها فى القسم الثالث الخاص بامتداد الادارة المصرية إلى السودان. أما الحركات التى ظهرت قبل ١٨٨٠ م فقد اتخذت صورة بعيدة عن العنف فقد كان التنافس قائما بين الفقهاء وأتباعهم كما أوضحنا من قبل وكانت العلاقات بين الزعماء الدينيين المحليين والحكام على خير ما يكون بل وصلت الأمور إلى أبعد من هذا فقد كانت لهؤلاء الفقهاء الكلمة العليا فالسلاطين يتقبلون وساطاتهم ويستجيبون لها . كما كان السلاطين والحكام يلجأون إلى الفقهاء طالبين منهم الدعاء لقضاء حاجاتهم وحل مشكلاتهم وشفاء مرضاهم الخ الخ [١٢٩] ولاشك أن الفقهاء فى تلك الفترة التى سبقت عام ١٨٨٠ م قد شغلوا مرتبة الرئيس الدينى فى المنطقة وبجوار هذا تضاءلت سلطة

---

(١٢٧) المصدر أنف الذكر ص ٨ ترجمة الشيخ الزين ابن الشيخ صغيرون .

(١٢٨) أنظر كتاب الطبقات ترجمة « عبد الرحمن بن جابر » ص ١١١ وتراجم تلاميذه الذين بلغوا درجة القطبانية .

(١٢٩) أنظر خطاب الشيخ محمد بن الوزير الشيخ عدلان وزير السلطان بادى آخر سلاطين الفنج الى الشيخ احمد بن ابراهيم الفرضى . (الملحق السادس) .

الملك أو الزعيم المحلى . وقيام هذا النوع من الحكم الذى تتوزع فيه السلطات بين اثنين « رئيس دينى » و « رئيس مدني » لم يكن غريباً على المجتمع لمـــا ورثه عن أسلافه من عادات وتقاليد قديمة الأمر الذى سنتعرض له فى القسم التالى .

٥ ـــ المجتمـــــع :

ب) نظام الحكم :

كانت مقاليد السلطان فى العهود التى سبقت سيطرة العرب القبلية قائمة على أسس دينية يتولى تصريفها رجال من طبقة الكهنوت يتبادلون السلطة على نحو ما كان يفعله اضرابهم فى مصر التى ورث عنهـا هؤلاء فى الشطر الجنوبى الوادى (السودان) . فالملوك مؤلهون يعاونهم رجال الكهنوت ، وقد انطبعت هـذه النظم بالطابع المحلى الذى تأثر إلى درجة بالغة بمجريات الأحوال فى الشمال وبما أصاب حياة المجتمع من دخول الجماعات الافريقية البدائية فى دائرة نفوذ حكومات جنوب الوادى . وقد بقيت هذه النظم فى صورها المختلفة حتى الفترة التى بدأت فيها الهجرات العربية تشق طريقهـا نحو الجنوب فى مجموعات متلاحقة اختلطت بالسكان المحليين وصاهر زعماء القبائل العربية بيوتات الحكم فى المواطن التى استقرت فيهـا رحالهم وتمكنوا عن طريق هذه المصاهرة من ولاية السلطان تدريجياً وكان لزاما أن تترك المرأة الوطنية صورة من تقاليدها ومعتقداتها التى ورثتها عن بيتها فى أبنائها ومن هؤلاء الأبناء من تدرج لولاية الحكم بحق وراثة أبناء الأخت أوأبناء البنت وكانت مقومات السلطان قائمة على عناصر متشابكة من الدين والتقاليد والمعتقدات ذات الجذور البعيدة العمق فى حياة المجتمع ولم يكن من اليسير أن تقتلع هذه العناصر بل قدر لهـا أن تصطرع فى عراك خفى مع عناصر الحكم ومقوماته التى جاء بها المهاجرون .

قامت زعامة العنصر الوطنى للحكم على علاقة وثيقة الارتبـاط بالدين وبممارسة أنواع من السحر والشعوذة والتى ترتبط بدورها بحياة المجتمع ومظاهر نشاطه . قد تكون المراحل الأولى لانتقال الحكم لأبناء العرب أثرها فى اختفاء بعض المقومات التى قامت عليها الزعامة الوطنية وذلك بعد أن بسط العرب سيطرتهم وممارستهم للحكم حسب التقاليد القبلية العربية ـ غير أن هذا الاختفاء كان مؤقتاً فبدلا من أن يمارسه الزعيم العربى قد قام بجانبه الفقيه الدينى الذى اختص بأمور الدين والسحر والشعوذة فى شكل أو آخر كما أشرنا إليه فى الصفحات الأولى من هذا الباب ولم يحتفظ

الزعيم العربى إلا ببعض المظاهر التى تمت بصلة للدين والسحر منها خروجه فى المواسم لبذر أولى البذور وغيره من الاحتفالات وفقاً للتقاليد المرعية التى يتولاها الزعيم بحكم صدارته . ولم يكن انتقال السلطان إلى العرب ومن قام بجانبهم من الفقهاء عاملا على إحداث تغييرات ذات أثر فى المجتمع فى حياته اليومية التى استطاعت أن تكسب الغلبة وأن تبق فالنظم العربية قد أعطت الوطنيين حقوقا خرجت بهم من استعباد الحكام السابقين للعرب وجعلت للفرد كياناً تساوى فيه مع العرب غير أن ذلك لم يقطع صلة الوطنين بماضى تنظيمات مجتمعهم . ليس من السهل أن تحل نظم جديدة مكان نظم قديمة مالم تكن ـ هذه النظم الجديدة متمشية مع التطور الطبيعى للأشياء والاحدث رد فعل بعيد الأثر فى تهيئة الأرض الصالحة للانقضاض على هذه النظم الجديدة عندما تحين الفرصة لذلك . بصرف النظر عن صلاحية هذه النظم الجديدة وتفوقها على القديم الموروث فالمسألة يتحكم فيها الرأى الوطنى وفق تكوينه الاجتماعى الخاص به والذى يحدد عقله هو ما يتمشى مع طاقته وحاجياته اليومية .

توارثت طبقة رجال الكهنوت الحكم فى المدن الكبيرة وتولى أقاربهم وأنصارهم حكم المناطق الريفية وكان انتقال الحكم محصوراً فى أبناء الأخت وأبناء البنت كما سبق أن أوضحنا . وكانت الأرض الزراعية ملكا خاصاً لأولئك الحكام أو موقوفة على المعابد الدينية وهى فى ذلك صورة لما كانت عليه فى شمال الوادى مع اختلاف لا يعتد به لقيام معبودات محلية بجانب المعبودات المصرية . وقد ترك للمواطن العادى العمل على الأرض وفلاحتها وكان عليه أن يتقبل ما يجــود به عليه مالك الأرض لاستقامة حياته التى لم تكن بأحسن مستوى معيشة لرقيق الذى استخدم بكثرة فى الزراعة ورعى الماشية والخدمة البيتيه كما جند لخدمة الحاكم فى حروبه وغاراته التى يشنها على أعدائه . وقد عملت حالة المناخ فى المنـــاطق المختلفة على الاستكثار من تملك الرقيق إلى الدرجة التى صارت معها جميع الأعمال اليدوية شاقة أو خفيفة موكولة إلى سواعد الرقيق . وقد توارث القوم هذه التنظيمات الاقطاعية التى قامت أساساً على الرقيق الذى صار حجر الزاوية فى حياة المجتمع وسوف نتعرض فيما بعد إلى أثر هذا العنصر فى مجريات وما حدث من ثورات وقلاقل.

ومما يجدر ذكره ان الزراعة قد احتفظت بأسسها البدائية ولم يصبها تطور من ناحية النوع أو الاكثار من المحصول لأغراض تجارية أو من ناحية الآلات التى

كانت تستخدم فى فلاحـــة الأرض . وبقيت الزراعة محصورة فى الأذرة (١٣٠) بأنواعها الخاصة بمختلف المناطق ويعتمد فى زراعة هذه الغلة على الأمطار الموسمية التى كانت كثرتها وقلتها من موسم لآخر تتحكم فى المحصول الانتاجى وقامت بجانب هذا المحصول الغذائى الرئيسى بعض الزراعات المحدودة من خضر وفاكهة لسد الحاجيات المحلية ويتم التبادل التجارى عن طريق المقايضة وكان الرقيق والريش والعاج وبعض المصنوعات الجلدية والذهب والمنسوجات القطنية المعروفة بالدمور من السلع التى تستبدل بالتجارة الواردة مع القوافل .

كانت البلاد عند دخول الهجرات العربية الجماعيـة فى حالة من الاعـــلال والتطاحن بعد ما أصاب مدنية البلاد من تدهور فى أعقاب الهجوم الاثيوبى الذى شنه النجاشى عيزانا على مروه فى منتصف القرن الرابع الميلادى . فقد صارت البلاد منقسمة شيعاً متفرقة يحارب بعضها البعض الأمر الذى جعل الروح المعنوية المحلية تتضاءل وتخبو أمام الروح القومية التى حملها المهاجرون من العرب والمستمدة من الحماس الدينى الاسلامى وقد أخذ هؤلاء المهاجرون فى العمل على بسط سيطرتهم التدريجية حتى آلت إليهم مقاليد الحكم وتمكنوا من إدخال التنظيمات العربية القبلية على المجتمع المحلى . وكان من تلك التنظيمات ما يتمشى مع التطور الطبيعى لتقاليد محلية وكان البعض الآخر تطوراً مفاجئاً للحالة القائمة وقد أصاب ذلك حياة المجتمع بتصدع عميق الأثر فى حياة الأسرة وعلاقتها مع الزعيم والأرض الأمر الذى قام على روابط دينية . فقد تولى شيخ القبيلة الحكم فى مجموعته القبلية ومن سكن معها فى دارها من العشائر المتحالفة وصار الحكم وراثياً فى بيت الشيخ . وتكونت من مجموعات القبائل بحكم الرقعة الأقليمية التى اتخذتها دياراً لها زعامات أقليمية تولاها « شيخ المشايخ » الذى يكون عادة شيخ أقوى قبيلة فى المجموعة وقد عرف هذا

---

(١٣٠) ورد ذكر الأذرة فى كتب الرحلات كغذاء رئيسى فى البلاد كما زرع القمح فى المناطق الشمالية (دنقلا) ويبدو ان الأذرة الشامية قد دخلت البلاد مع العرب بعد قيام السلطنة السنارية وهذا النوع من الأذرة يعرف فى البلاد باسم « عيش الريف » ويقصد بالريف « شمال الوادى » وتعرف أيضاً باسم « قنقر » (قاف صعيدية) وهذه نوبية معناها أوراق القمح ويجدر القيام بدراسة يقصد منها التعرف على تحقيق دخول النباتات التى لم تكن معروفة قبلا سوف تكشف عن العلاقات الاقتصادية بين البلد ومصادر انتاج الأنواع المستوردة .

اللقب فى عهد السلطنة السنارية باسم الملك (١٣١) أو المانجل (١٣٢) وتستعمل كلمة « أرباب » مع هذين اللقبين للتكريم الرفيع وتطلق أرباب على أفراد الأسرات المالكة .

وكان الشيخ يمارس مسئولياته فى مجلس الأجاويد وذلك فى المسائل الخارجية عن سلطاته التقليدية التى يباشرها بشخصه وهذه تتلخص فى توزيع الأراضى الزراعية على رؤساء البيوت وأن يحافظ على حقوق القبيلة فى الأراضى التى تحتلها والآبار التى تستخدمها الطرق والمفازات، (العقبات) الواقعة فى حدودها الأقليمية وإذا كانت القبيلة ضاربة القبيلة فى الصحراء فشيخها يتولى إصدار أمره بالرحيل والنزول والقيام فى مواطن المرعى الموسمية وتختص كل قبيلة بموطن مرعاها الخاص بها والذى يحدد عادة بأشجار مطلة على حدوده الأربعة ويفضل زراعة الأشجار عن وضع أحجار بسبب أن موجات زحف الرمال تتكسر عند الأشجار وتطغى على الأحجار وتخفى أثرها. وعلى الشيخ أن يكون عارفا بتقاليد القبيلة وتقاليد القبائل المجاورة لها فى الدار وأن يكون حافظا للأنساب وأن يقوم باستضافة الغرباء الذين ينزلون دار القبيلة وفى بعض القبائل يأخذ الشيخ على عاتقه مسئولية ما يحدث فى حدود دار قبيلته من حوادث بدفع التعويض ودية الدم . بهذا حق له أن يحصل على جانب من المال أو الغلة ويحتفظ به لمصلحته .

كما كان على الشيخ أن يتولى تنظيم إقامة الأعياد التقليدية وغير ذلك من العادات القائمة فالشيخ بذلك رمز القبيلة يتولى إداره شئونها الخاصة والعامة ويفض مشاكلها وينظم علاقاتها مع شيخ المشايخ . وهو الذى يقوم بجمع العشور عن الأرض الزراعية والتى تكون عادة هينا ويرسل جزءاً منها إلى شيخ المشايخ وهذا بدوره يدفع جانبا الى خزينة السلطنة السنارية عند قيامها على رأس اتحاد المشيخات فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) .

---

(١٣١) يرجح ان أصل هذه الكلمة من الأثيوبية حيث معناها عظيم كما ذكره بدج فى كتابة المصرى جزء ٢ ص ٢١٢ .

(١٣٢) أطلق هذا اللقب على زعماء قرى (قاف صعيدية) خشم البحر الدندر ـ القضارف بيلا ـ دنقلا ـ الكيلى ـ وامتد فى زمن لاحق الى زعماء القضيات (ينطق القاف أحيانا غينا) والبديرية من قبائل كردفان . وتعرف هذه المناطق باسم المانجليات مفردها مانجليه نسبة للمناجل ـ وهذا لقب لم يتحقق مرجعه بعد تحقيقا يختفى معه الشك ويعتبر هذا من أرفع ألقاب السلطنة السنارية أنظر هامش / ٥٢ :

فاذا قارنا بين تنظيمات المجتمع التى توارثها القوم وبين ما استحدثه العرب نجد أن الوطنى قد استرد شخصيته وكيانه فى المجتمع كما استرد حريته فى أرضه التى يستغلها بزوال الفوارق بينه وبين حكامه من الغابرين وصار عليه أن يدفع للزعيم القبلى المحلى المقرر من الضرائب وكان من نتيجة هذا التطور دخول تحسين على مستوى المعيشة للأفراد وتبعاً لذلك فتحت افاق جديدة غير أن طريق التطور والتقدم قد أصيب بنكسة (أولا) بسبب من أصاب شمال الوادى من تدهور وانحلال وتطاحن تحت حكم المماليك وكان لهذا أثره فى العلاقات بين شطرى الوادى وبخاصة من الناحية الاقتصادية لتوقف التبادل التجارى (ثانيا) ان التغييرات الذى استحدثها العرب فى الزعامة القبلية والعائلية والأرض اقتلع جذوراً بعيدة العمق فى حياة المجتمع وتقاليده الدينية. ورغم ان هذا الاصلاح قد أدخل تحسينات لها قيمتها إلا أنه لم يأخذ طريقه الطبيعى للتطور فى فترات كافية تسمح لقبول الاصلاح الجديد والدفاع عنه.

وتأثرت بلاد جنوب الوادى (السودان) بالحالة التى قامت فى شمال الوادى (مصر) وتعطلت معها التجارة فاختل الأمن وكثر التعدى بسبب الصراع الذى دفعت اليه الاطماع القبلية وكان من نتيجة هذه المطاحنات اشتداد الضيق الاقتصادى والانحلال الاجتماعى. وكان أثر هذه الحالة واضحا فى الجزء الشمالى من جنوب الوادى (النوبة السفلى) لاتصاله الوثيق بشمال الوادى حيث أخذت الأحوال فى التدهور كما أوضحنا وتأثرت المنطقة الوسطى من البلاد بالنشاط العربى على ساحل البحر الأرتيرى وقد امتد هذا النشاط نحو حوض النيل الأزرق وشق طريقه نحو المشيخات المترامية فأدخل فيها روحا جديدة من الانتعاش الاقتصادى الذى خلق العناصر المشتركة التى مهدت القيام حلف بين المشيخات مع السلطنة السنارية.

* * *

ج) التنظيمات الاقتصادية:

قامت الحياة اليومية للفرد والمجتمع على أسس وثيقة الارتباط بالعقيدة الدينية التى كفلت مطلق التصرف للزعيم المحلى الذى يختار عادة من رجال الدين كما سبق لنا شرحه. وكانت الأرض هى الركن الأساسى الذى نشأت عليه العلاقات بين الزعيم والعامل على الأرض. واختص الزعيم بملكية الأرض بوصفه صاحب السلطان

وهو الذى يجرى توزيعها على أصحاب البيوتات من رعيته بالقدر الذى يتناسب مع إمكانياتهم على العمل الزراعى . وكان التوزيع فى كثير من الأحوال مثار مشاكل ومصدر تذمر وقلق . فقد يعتبر الزعيم أن ما قام به توزيعاً عادلا بينما يرى العاملون على الأرض غير ذلك . وبقيت ملكية الزعيم للأرض قاعدة سارت عليها المجموعات العربية فى صورة تتناسب مع تقاليدهم وما ألفوه فى مواطنهم الأولى وفى معابر هجراتهم وصارت الملكية للأرض فى عهد العرب معترفا بها وحددت العلاقات بين الملكية الجماعية للقبيلة صاحبة الدار كطرف أول وبين العامل على الأرض والمنتفع بها كطرف ثان هذا فيما يختص بالأراضى الزراعية وهى الواقعة عادة فى المناطق التى تجرى فيها المياه المستديمة الجريان أو الموسمية ، أما عرب البادية فكانت علاقاتهم بالأرض مختلفة كل الاختلاف عما هى عليه فى الحضر . وكان من أثر حالات التدهور التى أصابت شمال الوادى وجنوبه فى القرن الخامس عشر الميلادى ماساعد على ركود العلاقات التجارية وصار كل من شطرى الوادى فى عزلة . وتوقف دفع البقط بأيلولة مقاليد الحكم للعرب فى جنوب الوادى وكان طبيعياً أن تصاب العلاقات بتوقف تام لما بين العرب فى الجنوب والمماليك فى الشمال من تنازع وصراع .

وقد ورث العرب التنظيمات المحلية الخاصة بالأرض التى كانت متبعة فى المناطق التى اتخذوا فيها مهاجرهم وقد اختلفت هذه التنظيمات بعض الشىء بين منطقة وأخرى ومرجع ذلك إلى ظروف البيئة والمناخ التى تحكمت فى اعداد الأرض للدورات الموسمية وعلى هذا الأساس صار تقدير درجة تربة الأرض كما هو مبين بالملحق رقم (٥) .

واحتفظ الزعيم بمساحة من الأرض لاستغلالها لمصلحته الخاصة وعرفت هذه باسم « العمارة » وكان الزعيم أو السلطان السنارى فيما بعد يتصرف فى جزء من أرض العمارة من طريق الهبة خاصة للفقهاء الروحيين . وصارت هذه الهبات نواة للملكيات التى سمح للفقهاء ووارثيهم بالاحتفاظ بها واستغلالها لمصلحتهم .

وكان على العامل على الأرض[١٣٢] وعلى صاحب المال والتجارة والماشية أن يدفع كل فى حدوده ضرائب معينة كما هو مقرر في جداول الملحق رقم ٥ وكانت

---

(١٣٢) يعرف محليا باسم سيد السوقة (Sid El Masuaqa)

هذه الضرائب بما فيها الفطرة والزكاة تدفع فى غالب الأحوال عينية، بخاصة فى الريف والبادية البعيدة عن مراكز تجارة القوافل، ويقوم نظام التعامل بالدفع العينى على أساس المقايضة. وبالاضافة إلى هذه الجبايات، فقد كان من حق الشيخ المحلى للدار أو القبيلة الضاربة فى بطن الوادى، أن يحصل مايسد به المطالب التى يقوم بها بوصفه زعيما، كالضيافة واقامة الأعياد التقليدية وغير ذلك. وكان على الزعيم المحلى أو القبلى أن يدفع جزءا مما يحصله لزعيم الدار الاقليمية، وكان على زعيم الدار هذا أن يدفع نصيباً إلى خزينة السلطان السنارى، التى كما يبدو من خطاب السلطان عدلان (ملحق رقم ٤) انها كانت قائمة فى العواصم الاقليمية - ولا يفوتنا أن نذكر أن الأهالى كانوا يدفعون ضرائب للرؤساء الروحيين المحليين فى صورة النذور أو الهدايا، وقد كانت هذه مباشرة بين المواطن والشيخ، ولم تكن محددة بل تركت لقدرة المواطن. وهكذا استمرت الأسس التى قامت عليها الجبايات، وانتقلت من جيل إلى جيل ولم يكن للفرد ما يفيده منها، بل كان يدفع ما يخصه للشيخ المحلى وهذا بدوره يدفع عن قبيلته أو داره إلى زعيم الدار الأكبر خزينة الذى يدفع المقررات إلى خزينة السلطان السنارى وقد كانت مقررات السلطان السنارى شكلية غير مجحفة كما أن الزعماء كانوا يحصلون ضرائبهم بنسبة المقدرة الشخصية لا على أساس فرض رسم معين يتساوى فيها الجميع. كما كان الزعيم المحلى لا يحصل ضرائب من الفقراء ومتوسطى الحال.

ومما يسترعى الالتفات أن مراكز تجمع التجارة فى السودان، التى اتخذتها القوافل محاطاً لرحالها، كانت قليلة الأثر فى النهوض بالزراعة والصناعة والتعليم - النهوض الذى من شأنه أن يحدث تطوراً اجتماعياً اقتصادياً، ويرجع ذلك إلى أن القوافل كانت أساساً يتولى شئونها زعيم يتسلم السلع من مكان إلى مكان، ويقوم بعملية التبادل ويعرف هذا الزعيم «بالخبير»، وهو القائم على الإبل ورجالها، وكانت طرق القوافل تسير بعيداً عن المدن، وتصور لنا هذه الحالة ما كان عليه الفرد والمجتمع من تأخر وركود ذهنى وجمود تعليمي، ولم تكن حياة المدن فى تلك الآونة بأحسن حالا من الحياة فى الريف.

وبالاضافة إلى ماتقدم فان العلماء من رجال الدين وغيرهم الذين دخلوا البلاد من وقت لآخر لم يكن لهم كذلك الأثر المحسوس فى بعث شعور الفرد ويقظته للسير نحو مستوى للحياة أفضل. وكان شأن أولئك العلماء شأن أمثالهم من رجال القرنين التاسع

والعاشر الهجرى الذين عرف عنهم التباغض والسعى لدى الحكام وأصحاب الجاه لقضاء مصالح الناس طمعاً فى عطاياهم .

* * *

قدمنا فيما سبق صورة من العلاقات بين صاحب الأرض المعروف محلياً باسم « سيد الأصل » سواء كان هو الزعيم القبلى أو الشيخ المحلى أو الملتزم القائم على الأرض وقد كانت هذه نظم « الاقطاع » فى الشطر الجنوبى من الوادى ، الأمر الذى لايختلف كثيراً عن نظم الاقطاع فى الأقطار الشرقية . وإذا قارنا هذه الأسس مع مثيلاتها فى بلاد الفرنجة نجد أن الفارق شاسعاً بين الأهداف والغايات المرجوة من قيام الاقطاع . قام الاقطاع فى بلاد الفرنجة على أساس استغلال الأرض والانتفاع بها كمصدر من مصادر الاقتصاد الطبيعى لبناء دولة . فقد منح الزعيم سواء كان ملكا أو أميراً الأرض للاشراف والفرسان الذين كان من واجبهم الأول الولاء لصاحب الأرض ، وكان عليهم أن يحتفظوا بقوات مجهزة تجهيزاً كاملا كما تقضيه ظروف العصر، الذى عاشوا فيه وكانت هذه القوات مستعدة لتلبية نداء الزعيم بالاشتراك فى حربه لأعدائه . وهكذا كان على الشريف أو الفارس أن يقوم نيابة عن زعيمه بتكوين جيش ، يدفع له مرتباته وتكاليف تجهيزه ، ومن هذه التنظيمات نشأت فكرة قيام « الدولة » بانتقال التزامات الاشراف والفرسان إلى « سلطة مركزية » وصار تمويلها عن طريق الجبايات المختلفة ـ أما الاقطاع فى السودان كما فى غيره من البلاد الشرقية فقد قام أصلا على أساس دفع المال لصاحب الأرض وهو الأمير صاحب الزعامة التى تستند على العلاقات الدينية والمعتقدات التقليدية من سحر وغيره . فكان الزعيم يقوم بافتتاح الموسم الزراعى بصلواته ، كما كان يمارس طرد الأرواح الشريرة بالعزائم على الأرض عند استصلاحها للزراعة لأول مرة ـ وكان على العامل على الأرض أن يدفع ضرائب عينية شملت الرقيق الذى كان يستخدم فى العمل على الأرض وغير ذلك من الخدمات البيتية ، وكان على الزعيم القبلى أن يبعث بجزء مما يحصله من قبيلته إلى زعيم الدار وكان على الزعيم الأكبر أو السلطان السنارى أو مانجل العبد لاب فيما بعد أن يكون جيشه ، ويحتفظ به فى عاصمته ويقوم رجال هذا الجيش بالعمل على أرض « العمارة » فى وقت السلم ، ويجمع أفراد هذا الجيش من الرقيق الذى تقوم الغزوات الموسمية ، التى تعرف فى بعض المناطق بالنهاضة ، بصيده من مواطنه فى المناطق البدائية ، وكانت هذه الغزوات مصدر كسب العيش للمشتغلين بهذا الغزو ، من رجال القبائل القائمة على

حدود مواطن السكان البدائيين ، ومن هذا يتبين لنا أن العاملين على الأرض والزعماء المحليين فى المناطق الزراعية لم يرتبطوا مع الزعيم برباط الولاء . أما القبائل الضاربة فى الصحراء فتكاد علاقاتها مع الزعيم الأول أن تكون غير قائمة ، وفى بعض الحالات التى تكون فيها دار القبيلة التى تسكن الصحراء قائمة على طريق تجارى فان أتاوة تدفع لزعيم هذه القبيلة لتأمين الطريق للقوافل .

ونشأت عن هذه الظروف حالة من الركود والجمود ، الذى أدى بدوره إلى فوضى ذهنية تحكم فيها الفقهاء ، كما قام صراع خفى كانت من نتيجته خلق ضيق اقتصادى ، وتدهور معاشى ، وبخاصة أن البلاد قد تعرضت إلى وقوع مجاعات دورية فى كل سبع سنوات تقريباً ، وذلك لاعتماد الزراعة اعتماداً كلياً على الأمطار الموسمية التى تختلف من موسم إلى موسم . ولم تكن فى البلاد نظم للرى والصرف والافادة من مياه النيل وروافده .

وقد زادت الأمور تعقيداً باختلال سير القوافل بين السودان ومصر حيث كان حكم المماليك قد دخل فى مرحلته الاخيرة ، قبل الفتح العثمانى لمصر فى عام ١٥١٧ ميلادية ، ولم يحدث هذا الفتح تحسيناً كبيراً فى استقرار الاحوال بالنسبة للسودان .

هذا ما كانت عليه المشيخات الاسلامية فى حوض وادى النيل التى دخلت فى اتحاد مع السلطان السنارى وذلك حتى السنوات الاخيرة من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) عندما انتقل ذلك السلطان إلى عاصمته الثانية فى « سنار » وسوف نتعرض لموضوع هذه السلطنة فى الكتاب الثانى من هذه الدراسة .

ولم نتعرض إلى بلاد كردفان (تقلى) ودار فور ، لأنها لم تدخل فى بادىء الأمر فى نطاق المشيخات ، التى تكوّن عنها الاتحاد السنارى - ولأن دخول تقلى ودار فور فى محيط العلاقات السنارية لم يحدث إلا بعد تغلب العنصر الاسلامى فى تلك البلاد بعد قيام السلطنة السنارية فى حوض النيل الأزرق بفترات متباعدة .

الكتاب الثانى

السلطنة السنارية

فى

حوض النيل الازرق

السلطنة السنارية فى حوض النيـــل

لقد استعرضنا مجريات الحوادث وتطورها ، فى الحقبة التى سبقت هجرة السلطان عميرة وأسرته من منطقة « لملم » إلى حوض النيل الأزرق فى السودان ، واتخاذه مدينة « سنار » ، التى أعاد عمارتها ، لتكون عاصمة لملكه فى تنظيماته الجديدة . كما أوضحنا حياة المجتمع فى السودان ، وأثر الهجرات العربية ، وما أدخلته على مظاهر الحياة ، وما كان من أثر الصراع الخفى ، الذى نشب بين المجموعات من المهاجرين من العرب والمجتمع الوطنى . وقد كان من أثر ذلك الاصطراع بدء حياة جديدة ، لها أسسها المستمدة من اختلاط المهاجرين والوطنيين وتزاوجهم .

وقد أوضحنا الظروف التى مهدت لقيام الحلف الاتحادى ، الذى تزعمه السلطان عميرة دونقس ، أول سلطان للبيت السنارى بعد انتقاله إلى حوض النيل الأزرق ، ولانعلم على وجه التحديد الأسس التى قام عليها ذلك الحلف ، بين مختلف المجموعات القبلية والزعامة المركزية فى سنار ، والثابت أن هـذا الحلف قد تدرج فى مراحل متعددة ، لم تلبث أن أخـذت صورتها النهائية ، فى السنوات الأخيرة من القرن الخـامس عشر الميلادى ، بقيام حلف من المشيخات والشيخ عبد الله جماع شيخ العبد اللاب ، بوصـفه أقوى الزعماء المحليين ، فى تلك الفترة من الزمن ، والذى دخل بدوره فى حلف مع السلطان عميرة ، وبهذا تم الحلف الاتحادى فى صورته الأخيرة . وقد كان الشيخ عبد الله جماع ومقره فى « قرى » ، الزعيم المباشر للمجموعات القبلية من قرى حتى « حنك » فى شمال دنقله ، أما السلطان عميرة دونقس ، وهو الذى تميز بحمل اللقب « السلطان — دونقس[1] » ، فقد احتفظ بحق اختيار المرشح لتولى المـانجلية أو الشياخة[2] ، وقد جرت العادة بحكم الظروف القبلية المحليـة ، أن يكون هذا المرشح من بين أفراد أسرة بيت الزعامة

---

(١) اتخذ السلطان الأول عميرة أو عمارة لقب « دونقس » وهذه كلمة اليومية معناها « دو » أصلها "DJAN" و NEGUS ومعناها عظيم « نقس » معناها أى نجاشى وبذلك يكون اللقب « النجاشى العظيم » .

(٢) المانجل « لقب يمنح لزعيم الدار وهو أرفع ألقاب السلطنة بعد السلطان وتأتى بعده مرتبة الشيخ أوالملك وهو زعيم فى جزء هذه الدار .

القائم، ثم أن السلطان لم يكن له ليتدخل فى تصريف شئون المشيخات الداخلية، وفى علاقاتها بعضها ببعض، بل اكتفى بزعامته الرمزية، وحصوله على نصيبه من الضرائب والزكاة وغيرها، التى كانت تدفع إلى خزينة السلطان المحلية[٣]، التى أقامها السلطان فى عاصمة كل دار أو اقليم، لكى تدفع إليها هذه المخصصات، ويصرف منها فى الأوجه التى يأمر بها السلطان، ولم تكن هذه الخزينة المحلية إلا فرعاً من بيت المال أو الخزينة العامة لمال المسلمين، الذى صار السلاطين يتصرفون فى موارده، وفق اتجاهاتهم الخاصة غير مقيدين بالتشريعات الاسلامية، الخاصة بادارة بيت مال المسلمين، وكان على السلطان كما ذكرت روايات العبد اللاب أن يساعد قرى فى حالة الحرب.

وكانت موارد السلطنة، زعيمة الحلف، كذا موارد الزعماء فى مختلف المناطق، ملكا للزعيم المحلي، وبالاضافة إلى ما كان يجمعه السلطان من منطقته، التى يبسط عليها نفوذه المباشر، فانه يتحصل على نصيب من العشور والضرائب، التى يجمعها المشائخ من مناطقهم، كذا على نصيب من الرقيق الذى تصطاده النهاضة فى المواسم، وكان للسلطان نصيب من الرسوم، التى تحصل فى محطات الجمارك، وأهمها فى دنقله وقرى وتشلجه[٤]، وكان للسلطان وكلاء فى القاهرة وأسيوط وبعض المدن الأخرى مثل اسنا ودراو واسوان، للقيام بالشئون التجارية الخاصة بالقوافل، والتى كان للسلطان نصيب وافر فى أموالها.

وكانت للسلطنة صلات وثيقة بالباشا التركى، فى موانىء البحر الأحمر (سواكن ومصوع)، كما كانت لها علاقات خارجية مع اليمن، التى كانت تستورد منها السيوف والدروع[٥]، ومع الهند وغيرها من بلاد الشرق الاقصى، كما كانت للسلطنة علاقات مع المغرب الاقصى[٦]، عن طريق القوافل عبر كردفان ودارفور، وعن الطريق المباشر بعيداً عن درافور فيما بعد، وذلك عندما اشتد التنافس بين الفور وسنار.

---

(٣) راجع الملحق الرابع.

(٤) تقع تشلجه (Chelga) شمالى بحيرة تانا – داخل الحدود الحبشية وهذه الحالة أقرب إلى النظام الذى اتبعته حكومة السودان فى إنشاء نقطة تجارية فى جمبيلا داخل الحدود الحبشية على نهر بارو (السوباط) للتبادل التجارى. وكانت إيرادات تشلجه الجمركية تقسم مناصفة بين سلطان سنار ونجاشي الحبشة.

(٥) ملحق ٣ = قصة الشيخ احمد ابراهيم الذى سافر إلى مخا باليمن واستورد سيوفا ودروعا.

(٦) كتاب جيمس جراى جكسن ص ٢٨٢ وما بعدها

ويتبين لنا من هذا أن اللامركزية المطلقة كانت طابع الحكم ، فى الديار المختلفة تمارسه وفق عاداتها وتقاليدها المحلية ، وقد تميز الاتحاد بين المجموعات الاقليمية ، الذى تزعمه السلطان السنارى بتقاليد «الجمهورية التجارية» ، على النحو الذى كان متعارفا عليه فى الجزيرة العربية ، مع ما دخل عليه من تعديلات اقتبست من مواطن الهجرات ، قبيل انتقال البيت السلطانى إلى حوض النيل الأزرق.

وكانت التقاليد الخاصة بالجمهورية التجارية تربط بين الجماعات من أصحاب المصلحة الاقتصادية ، الذين يوجهون بالغ اهتمامهم نحو استثمار المال فى مناطق معينة ، وكان طبيعياً أن يمتد نفوذهم إلى المناطق ، التى تقوم على الطرق التجارية بين مراكز تجمع السلع ، ومراكز التسويق لتأمين المواصلات، وتقديم ماتحتاج إليه القوافل أو السفن من مؤن ومعونة .

وقد قامت تنظيمات الادارة فى المشيخات ، التى دخل زعماؤها فى حلف مع سنار فى نطاق يكفل تأمين المصلحة التجارية فقط ، وترك كل شىء عدا ذلك يكيف نفسه وفق ظروفه الخاصة ، لهذا نجد أن السلطنة "سنارية ، بوصفها زعيمة الجمهورية التجارية ، لم تحاول القيام بتنظيم جهاز للحكم ، على أركان ثابتة من شأنه أن يشمل جميع نواحى النشاط ، ومن شأنه أن يتطور لقيام دولة بمعني هذه الكلمة السياسى ، ويمتد نفوذها الفعلى على مختلف المشيخات ، وتجمعها مع الزمن فى وحدة كاملة ، إلا أن الأسرة السنارية قد اكتفت بتطبيق تنظيمات الجمهورية التجارية ، وكانت تلك التنظيمات جامدة تعطل معها النشاط الفردى ، ومما يلفت النظر أن الأسرة السنارية لم تراع فى تطبيقها تنظيماتها التجارية الاعتبارات المحلية ، التى تختلف اختلافا كلياً عما كانت عليه الأحوال فى الجزيرة العربية، ففى حوض وادى النيل الأوسط، المساحات الواسعة من الأراضى الزراعية ، وكانت فى البلد صناعات وحرف أخذت فى التدهور وأهملت السلطنة إيجاد هيئة مركزية ، لتنسيق جهود مختلف الجماعات فى المشيخات نحو هدف موحد ، بل ترك كل أمر لا يتصل بالمصلحة الاقتصادية على حالته فى نطاق التقاليد القديمة العهد ، التى خضع لها توزيع الأراضى ، والتى تجعل الزعيم مالكا للأرض كما سبق أن أوضحنا ، ولم تكن العلاقة بين المنتفع والزعيم قائمة على الولاء ، وكان الزعيم أو السلطان يعتمد على جيشه المكون من الرقيق والمرتزقة ، وكان للشيخ المحلى أن يعلن الحرب ، على من يجاوره من زعامات ، دون الرجوع إلى السلطان . وهكذا أخضعت إداة الحكم لنظامين متنافرين بالنسبة للمجتمع ، أولهما نظام الجمهورية

التجارية ، الذى يهدف إلى استغلال موارد الشعب لخدمة الزعماء ، وثانيهما نظام الاقطاع الشرقى ، الذى يوزع الأرض على السكان للعمل عليها ، وللزعيم نصيب ، ولهذا لم يكن من السهل التوفيق بين هذين النظامين ، وبين قيام حكم صالح ، إلا إذا أعيد تنظيم الجمهورية التجارية والاقطاع الشرقى ، بما يكفل التطور الطبيعى لخلق قومية ومشاعر ، تلتقى عندها مختلف المجموعات القبلية ، أما وقد أهملت الزعامات تنظيم الحكم، بما يتجاوب مع خلق حياة جديدة عامة، فان قوة الزعامات وضعفها وتدهورها وانحلالها كان مرهوناً بأثر العوامل الاقتصادية الخارجية، من حيث قوة هذا العوامل أو ضعفها ، وكانت من أسباب الانحلال والتفكك ، الذى أصاب السلطة ، لتعطيله المجتمع كلية من ممارسة أقل حقوقه .

وكانت سلطة السلطان المباشرة ، محصورة فى حدود قطاعة فى حوض النيل الأزرق، ومثلث البطانة ، وهو الطريق المؤدى إلى موانىء البحر الأحمر ، وكان لمنطقة حوض النيل الأزرق طابعها الخاص الموروث ، عن مملكة علوة القديمة وعاصمتها « سوبا[٧]» وقد قامت هذه المملكة بعد سقوط المملكة المروية ، فى منتصف القرن الرابع الميلادى وتخربت مدنها وتشرد سكانها ، وتعرضت مملكة علوة لدخول هجرات ، كانت فى الأكثر من مجموعات كبيرة من القبائل الافريقية ، ومن جماعات اتيوبية (حبشية) ، وبخاصة بعد عودة البيت السليماني ، الذى استرد الحكم فى اتيوبيا (الحبشة) من البيت الزغوى، فى قرابة نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (عام ١٢٧٥) وتعقب البيت السليمانى مناوئيه ومن تعاون معهم ، كما اضطهد المسلمين ، لما كان بينهم والبيت الزغوى من علاقات ، واضطرهم إلى الفرار فى جماعات كبيرة إلى حوض النيل الأزرق ، بوصفه المجال الطبيعى ـ وحدثت هذه الهجرات بخاصة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى وقد اتخذت الجماعات الأتيوبية لنفسها بعد نزولها فى حوض النيل الأزرق لقب « فنج» أو « فونج » ، وتصحف « فنينجا[٨]» ، ومعناها البيت الحاكم وقد ورث البيت السنارى هذا اللقب ، وذلك عندما انتقلت السلطنة ، وعلى رأسها عميرة « دونقس » إلى سنار .

وجاءت موجات أخرى من المجموعات الافريقية والعربية من الجنوب والشمال، واشتد تدفقهم فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى، ودخلت هذه المجموعات فى صراع من الجماعات الأتيوبية ، وانتهى الأمر بخروجها من البلاد إلى الغرب ـ بلاد دارفور[٩] .

---

(٧) سوبا أو علوه = جنوبى شرق الخرطوم مباشرة على الشاطىء الأيمن للنيل الأزرق .
(٨) مكميكل ص ٧٥ .
(٩) نفس المصدر السابق ص ٧٥ .

وقد اختلط أمر هذه الهجرات، الاتيوبية والافريقية ـ العربية على بروس[10] فاعتقد أنها جماعة من الشلك الذين يسكنون الشاطىء الغربى للنيل الأبيض ، والذين قاموا بغزوة فى عدد خضم من الزوارق ، على المنطقة العربية فى الجزيرة، ووقعت بينها معركة فاصلة بالقرب من مدينة أربجى، انتصر فيها الغزاة وفرضوا إرادتهم على العرب، ويضيف بروس أن هؤلاء كانوا من الوثنيين، واعتنقوا الاسلام فيما بعد، بسبب العلاقات التجارية مع القاهرة، أى أن اعتناقهم للاسلام، قد دفعت إليه رغبتهم فى المحافظة على التجارة مع مصر . والحقيقة وواقع الأمر كما سبق، أن أوضحنا لم يكن أولئك الذين قال عنهم بروس أنهم من الشلك ، إلا جماعات من البيت الزغوى الذين نزلوا فى حوض النيل الأزرق .

وقد تميز القطاع السنارى، فى حوض النيل الأزرق بصفته المسيحية التى تأثرت كثيراً بالتقاليد والعقائد الدينية القديمة . وقال فى ذلك الفارز[11] ، الذى نقل عن حنا السريانى، الذى زار بلاد النوبة فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى، أنه قد رأى فى بلاد علوه حوالى الخمسين والمائة من الكنائس، مزدانة بصور العذراء مريم، ومع ذلك فان السكان فى تلك البلاد (التى تشمل بصفة خاصة أرض الجزيرة) كانوا كما قال فى حالة بعيدة عن اليهودية أو المسيحية أو الاسلام، وأنهم فى حاجة إلى التبشير بالدين المسيحى .

وقد ذكر جكسن حادثاً، يدل على بقاء العادات الوثنية إلى وقت متأخر، حيث اضطر السلطان عبد القادر، الذى خلف والده السلطان عميرة حوالى ١٥٣٧ م، إلى قتال السكان المحليين فى جبال مويا وسقدى[12]، لأنهم ظلوا يقدمون فتاة فى كل عام قرباناً للآلهة ، كى لا تمنع عنهم الأمطار[13] ، وبقى الكثير من التقاليد والعادات الوثنية، الموروثة عن المدنية المصرية القديمة . فى صورة أو أخرى حتى اليوم ، وقد تركت هذه التقاليد ، أثرها فى الجماعات الاسلامية التى دخلت البلاد السودانية ،

---

(١٠) بروس الجزء الرابع ص ٤٥٨/٤٥٩

(١١) الفارز ص ٢٥٢

(١٢) جكسن « سن النار » ص ٢١

ونجد هذه العادات عادة التقرب للاله فى شكل أواخر منتشرة في المنطقة من هضبة اثيوبيا حتى دارفور والغرب فقد ذكر براون فى كتابه « أسفار فى أفريقيا » ص ٣٠٣ ان سكان الجبال يقدمون لآلهة الجبال قرابين ضحيتها ولد أو بنت تذبح في حفل رسمى تقرع فيه الطبول الكبيرة .

(١٣) مقال المؤلف « النفوذ اليونانى فى حوض النيل الأزرق » الخ الخ

فأضعفت تمسكهم بالشريعة ، حتى قيل أن الرجل صار يطلق امرأته ، ويعقبه عليها غيره من يومه بدون وفاء عدة [١] . ورغم أن هناك تضارب فى الروايات المحلية ، عن هذه النقطة ، إلا أن المؤكد أن التعاليم الدينية لم تستقر فى القلوب ، وأنها تأثرت بالظروف المحلية . وكانت المحاولات لنشر الدين ، متروكة لنشاط العلماء المحليين الذين لم تكن تربطهم سلطة مركزية إدارية أو روحية ، وقد تكيف وضع أولئك العلماء بحالة المجتمع ، التى سبق الكلام عنها . وكان للمجتمع أثره فى بقاء الوثنية ، بعد دخول المسيحية والاسلام إلى البلاد ، وإذا نظرنا من وجهة اقليمية إلى وضع الجزيرة ، نجد أنها أكثر خصبا وأوسع رقعة ، وأن سكانها الأصليين لم يهجروا بلدهم هذا حتى فى أسوأ الظروف ، التى أطاحت بالمملكة المروية فى منتصف القرن الرابع الميلادى ، ولم يكن من السهل على بيئة كهذه ، كثيفة السكان عريقة التقاليد الوثنية ، أن تتقبل الدين الجديد قبولا حسناً ، وبخاصة أن الظروف المحلية لم تمكن العلماء من خلق أجيال تخلفهم ، ونجد دليلا على بقاء مظاهر المسيحية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى ، فيما كتبه الفارز الذى أشرنا إليه من قبل ، وفى بكارى (Beccari) ، الذى يقول أن اقتراحا قد قدم إلى روما فى عام ١٦٩٤ ميلادية ، لتأسيس ارسالية تبشيرية فى سنار لخدمة المسيحيين الكاثوليك ، الذين قيل أنهم هربوا من أتيوبيا ، بسبب الاضطهاد المذهبى ، وأعيد تقديم الاقتراح فى يناير سنة ١٦٩٧م من الكاردينال سكربنتى (Secrapenti) الذى نجح فى الحصول على موافقة البابا باعتماد مبلغ يقرب من العشرة آلاف من الجنيهات ، وفعلا تأسست الارسالية فى مدينة أخميم فى صعيد مصر وذكر الرحالة العثمانى أوليا شلبى ، أن من بين الأسماء التى يستعملها أهالى حوض النيل الازرق « جرجس » وهذا اسم مسيحى .

وإذا رجعنا إلى التقاليد والعادات فى أرض الجزيرة ، وبعض المناطق من سودان وادى النيل ، التى لم يتركها أهلها القدامى ، نجد فيها دليلا على أن مجموعات السكان المحلية قد دخلت فى رعوية المشيخات ، التى أقامها العرب والتى دخلت فى اتحاد مع السلطنة السنارية ، التى امتدت سيطرتها المباشرة على قسم كبير من مملكة علوة ، التى اختفت فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر الميلادى ، ولاشك أن الذى دفع السكان القدامى إلى قبول الحكم الجديد ما كانت عليه الأرض من خصوبة ، نظمت

---

(١) أنظر تاريخ سنار مخطوطة وكتاب الطبقات .

مجتمعهم وحياتهم ، وكانت لهؤلاء تقاليدهم الدينية ، ولهم لغتهم ومدنيتهم الموروثة ، وكان لزاما أن تدخل هذه العوامل مجتمعة فى صراع مع ماحمله السكان الجدد .

ومما يؤسف له أن تاريخ السلطنة السنارية ، الذى وصل إلينا ، لم يدون إلا فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى[15] ، ولهذا نجد أن ما كتب عن السنوات الأولى ، يقتصر على ذكر اسم السلطان وتاريخ ولايته للحكم وتاريخ اعتزاله ، ولم توضح لنا الأسس التى قامت عليها السلطنة ، وعلاقاتها الداخلية والخارجية ، ولهذا كان علينا أن نتلمس الخيوط ونتتبعها هنا وهناك ، فى مختلف المصادر لكتابة تاريخ أقرب إلى الصحة ـ فالسلطنة فى سنواتها الأولى ، التى جاوزت القرنين من الزمان ، قد حكمها سلاطين من أبناء الصلب للسلطان عميرة ، مؤسس البيت السنارى فى عاصمته فى حوض النيل الأزرق ، وانتقل الحكم بعد ذلك إلى بيت عين الشمس ، الذى يمت للبيت السنارى بصلة الرحم ، انتزع الهمق (الهمج) ، الذين تولوا المشيخة ، الحكم من أولئك السلاطين ، وسنبين ذلك فى موضعه . ولما كانت السلطنة قد أهملت بادىء ذى بدء أن تقيم جهازاً لسلطانها ، يتمشى مع حالة البلاد وتطورها ، فان الزمام قد أخذ يفلت من يد السلاطين ، عندما تأثرت التجارة بعوامل خارجية .

---

(١٥) المخطوطات التى دونت فى أوائل القرن التاسع عشر (بعضها قد نشر) والتى وصلت الينا هى كالآتى :ـ

ا) طبقات « ود ضيف الله » فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان نشرها السيد سليمان داود منديل طبع الخرطوم ١٩٣٠ م ـ وطبعة أخرى أعدها وعلق عليها فضيلة الشيخ ابراهيم صديق ـ طبع القاهرة فى ١٩٣٠ م

ب) تاريخ « مدينة سنار » ـ جمعه وكتبه احمد الحاج أبو على المعروف بكاتب الشونة . الذي كان موظفاً بالديوان فى الخرطوم وينتهى تاريخه حتى عام ١٨٣٥ م . ومنها نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨ م .

جـ) تاريخ « مدينة سنار » ويشمل تاريخ السلطنة السنارية حتى نهاية عهدها وهذه المخطوطة تكون القسم الأول من مخطوطة كاتب الشونة آنفة الذكر ـ وقد نقلها عن الأصل أحد الفقهاء فى الخرطوم كطلب المبشر اجناز كنوبلخر الذى أودعها فى مكتبة فينا الأهلية ـ وهناك بعض الاختلاف بين النسختين ب . وج وليس من اليسير تحقيق ذلك إذا لم نحصل على النسخة الأصلية لكاتب الشونة .

د) تاريخ ملوك القوة والسودان وأقاليمه ـ كاتبه مجهول منقول عن النسخة ب مع تعديلات وإضافات وتنتهى فى عام ١٨١٣ م - ومنها نسخة بدار الكتب المصرية (منقولة عن نسخة المكتبة الأهلية بباريس) وهى تحت رقم ٢٥٤٧ .

هـ) تاريخ مختص بأراضى النوبة ومن ملكها منذ ملوك الفنج ـ كاتبها مجهول ـ وهى أصلا

ويجمل بها أن نستعرض تاريخ السلطنة ، ممثلا رجالاتها من سلاطين وغيرهم ، وما وقع فى فترات ولايتهم الحكم أو الزعامة ، من احداث وهذه تصور لنا من الناحية الواقعية ، وتساعدنا من ناحية أخرى على تفسير تلك الحوادث ، ومجريات أمورها وأثر ذلك فى الحياة اليومية .

فالسلطان عميرة بن عدلان (ورد فى بعض الروايات « عمارة ») هو السلطان الأول للبيت السنارى ، عند قيامه فى حوض النيل الأزق ولم يحظ فى الروايات المحلية ، التى وصلت إلينا فى أكثر من مخطوط ، بأكثر من تأريخ ولايته وتأريخ وفاته ، وتحالفه مع الشيخ جماع (شيخ قرى) على غزو حوض النيل الأزرق . وبقى تاريخ هذا البيت غامضاً عن الفترة التى سبقت انتقاله . وقد كان قائماً كما سبق أن أشرنا يمارس سلطانه فى منطقة « لملم » على الأقل فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى،واستناداً على قول روبينى نجد ان قيام السلطنة فى سنار لم يكن إلا امتداداً لحكم سابق لجأ أصحابه إلى حوض النيل الأزرق ، بعد أن تغيرت الظروف فى الموطن السابق ، وصار الاستمرار هنالك مستحيلا لدرجة ما ، ولم تذكر الروايات عن السلاطين الثلاث الأول، الذين تولوا بعد عميرة أكثر من تاريخ الولاية وتاريخ الوفاة . واختلفت الروايات فى الترتيب الزمنى لعبد القادر ونايل ، الذين حكما بعد عميرة بالتوالى ، أو سبق أحدهما الآخر ، ويرجع هذا الاختلاف فى الرواية ، الى انها قد كتبت بعد انقضاء أكثر من ثلاثة قرون من ظهور السلطان عميرة فى السودان ، ومن عهد السلطان دكين ولد نايل ، وهو الخامس بعد عميرة ، نجد ان هذه المعلومات قد أخذت فى الازدياد ،فقد ذكرت الروايات عن هذا السلطان (١٦) ، انه « ملك العادة » الذى رتب الدواوين ،

= مأخوذة عن كتاب كاتب الشونة مع تعديلات وإضافات ـ أهمها الطعن فى إدارة احمد ممتاز باشا ـ وهنالك ، يجعلنا نعتقد ان الذى أوعز بذلك . معنى بك الشامى « الذى كان وكيلا لمديرية الخرطوم لما كان بينه وبين وممتاز باشا من من علاقات سيئة ـ وقداعتمد نعوم بك شقير ومكميكل على هذه النسخة ـ وقد نقل غوردون منها نسخة أودعها فى المتحف البريطاني وهنالك نسخة أخرى أرسلت الى المعية السنية غير انها قد فقدت . وتوجد فى مكتبة جامعة الاسكندرية نسخة من هذه المخلوطة ـ وقدنشرها السيدالدكتور مكى شبيكة (طبع الخرطوم ١٩٤٧م) ضمن مطبوعات كلية غوردون التذكارية بالخرطوم ـ تاريخ رقم (١) .

(١٦) أشار النجاشى فى كتابه الذى أرسله إلى سلطان سنار فى ٢١ يناير سنة ١٧٠٦ م الى العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين الحبشة وسنار وسلطانها دكين وقد ورد اسم هذا السلطان =

وأجرى قوانين مربوطة ، لا يتعداها أحد من جميع أهل مملكته ، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيساً ، معلوما ورتب عليه ما رتبه ، وكان دخولهم وجلوسهم عنده حسب الرتب الأعلى فالأعلى ، وهذه التنظيمات الديوانية ، تكشف لنا عن تغلغل الآراء والنظم العثمانية ، وأثرها على سنار ، ولا غرو فقد كان لباشوات سواكن [١٧] ومصوع من العثمانيين ، وكلاء تجاريين فى سنار واربجى ، [١٨] ويبدو أيضاً ان النفوذ الهندى لم يكن بأقل خطر من النفوذ العثمانى ، فقد كانت للهنود جاليات من التجار « البنيان » ، فى موانىء البحر الأحمر وفى داخلية البلاد . ونجد فى الصورة التى تركها كايو ، عن السلطان بادى (آخر ملوك سنار) ، ملابسه وحذاءه صورة طبق الأصل بما كان يلبسه المهراجات فى الهند فى ذلك الزمن .

وقد سار خلفاء السلطان دكين على نهجه ، حتى ولاية السلطان عبد القادر (حكم من ١٦٠٢ - ١٦٠٦) ، ولم تذكر الروايات المحلية عنه شيئاً غير تاريخ ولايته ووفاته على حد قولها ، لكن المصادر الحبشية تلقى الضوء على حياة هذا السلطان ، الذى عزل عن الحكم بسبب لهوه وخلاعته ، وقد هـرب إلى تشلجه ، حيث التجأ إلى النجاشى ، الذى منحه اقامة ، تتناسب مع مركزه السابق، ومما يؤخذ على هذا السلطان ، انه عقد اتفاقا مع النجاشى ، اعترف فيه بتبعيته للحبشة ، وقبل « نقارة » محلاة بسلسلة ذهبية ، وتبادل الهدايا مع النجاشى ، على النحو الذى يوحى بخضوع سنار لسيطرة النجاشى وسيادته ، ويبدو ان وجود عبد القادر فى بلد على الحدود الحبشية السنارية ، قد أساء إلى العلاقات بين البلدين ، فقد جاء فى حوليات النجاشى « سوسنيوس » ، ان عبد القادر قد أجبر على مغادرة الحبشة ، بدعوى المحافظة على العلاقات الودية مع سنار .

وتولى الحكم بعد عبد القادر ، عدلان ولد آى ، الذى أدخل تعلايلات على التقاليد والعادات المرعية ، الأمر الذى سبب قلقاً وتذمراً ، كان من نتيجته قيام

= فى المؤلفات الأجنبية وخاصة « بروس » محرفا حيث كتبه (De Kim) دى كم وفسره بأنه ملك من ملوك القيروان . وكتاب النجاشى المشار اليه قد أرسل من النجاشى نقلا هيانوت للسلطان بادى للسماح للبعثة الفرنسية وعلى رأسها « دى رول » بالسفر الى الحبشة .

(١٧) بنصه من مخطوطة تاريخ ملوك ملوك الفونج والسودان أقاليمه ـ دار الكتب المصرية نمرة ٢٥٤٧ .

(١٨) عرف باشا سواكن بباشا سنار .

حركة تمرد وعصيان ، أخذت مظهرها فى محاولة الشيخ عجيب ود عبد الله زعيم العبداللاب ، الانفصال عن الاتحاد السناري وقد اشتبك مع عدلان فى معركة فاصلة فى الـكلـكول [١٩] قتل فيها الشيخ عجيب ، وفر أهله إلى دنقله ، فأرسل السلطان الشيخ إدريس بن محمد الأرباب [٢٠] ، ومعه عفو السلطان وطلب من أهل عجيب، العودة إلى بلدهم « قرى » حيث أسند إلى العجيل ، أكبر أبناء عجيب، منصب والده وتميز عهد هذا السلطان بهجرة كثير من العلماء ،من مصر والمغرب والجزيرة العربية وغيرها إلى السودان ، ومن هؤلاء العلماء من رجال الدين ، الشيخ حسن ودحسونه الأندلسى [٢١] ،والشيخ ابراهيم جابر البولادى المصرى [٢٢]،والشيخ محمد المصرى [٢٣] وقد أدخل هؤلاء طريق الصوفية إلى البلاد .

واختلفت الروايات المحلية، فى مدة حكم هذا السلطان ، فالمخطوطات تقول انه حكم ثلاث سنوات ، انتقل بعدها إلى رحمة مولاه ، بينما تذكر الطبقات فى ترجمة الشيخ صغيرون ، ان الملك عدلان بعد ما قتل الشيخ عجيب فى كركوج ، سافر بجيوشه إلى دنقله ، فلما جاء فى « حفير مشو » عزله الفونج عن الملك ، وولوا بدله بادى سيد القوم، وهذة مسألة جديرة بالتحقيق، وتعوزها الوثائق واننا نشك كثيراً فى ان عدلان هذا كان ملكا على سنار ، ونرجح انه كان يشغل منصب «سيدالقوم»، وهو « الوزير الأول » ، والذى عليه قيادة الجيش [٢٤]،ويحتمل انه كانت له شخصيته القوية ، التى حجبت السلطان ، وتولى الملك بعده السلطان بادى سيد القوم ابن السلطان عبد القادر ، الذى خلع وهرب إلى أتيوبيا ، وقد أرسل النجاشى للسلطان بادى سواراً من الذهب وكـكرا ألخ ألخ ، ولما كانت مثل هذه الهدايا ، لا ترسل عادة إلا من سيد إلى مسود ، الأمر الذى أغضب بادى ، فأرسل النجاشى اثنين من الخيل الهزيلة العرجاء العمياء ، ويهدف بذلك أن يشعر النجاشى بأن سنار لا تدين بالولاء

---

(١٩) الـكلـكول في رواية وكركوج في رواية أخرى وولد أبي عمارة فى رواية ثالثة وهذه جميعها واقعة فى منطقة على الشاطىء الشرقى للنيل الأزرق جنوب شرق الخرطوم .

(٢٠) طبقات ود ضيف الله ــ ص ٧ ــ طبع القاهرة سنة ١٩٣٠ م

(٢١) المصدر نفسه ص ٦

(٢٢) المصدر نفسه ص ٤٧

(٢٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ وهو الشيخ محمد بن على بن قرم الـكيماني المصرى

(٢٤) الفصل الثاني « الترتيب الزمنى لسلاطين سنار » .

للحبشة (٢٥) ، وتقدم فى نفس الوقت بالشكوى ، من وجود والده عبد القـــادر فى تشلجه ، يزاول نشاطاً يتنافى مع علاقات حسن الجوار بين البلدين ، فقد تعاون مع النجاشى فى حملته على المملكة صديقة ، التى كانت تحكم على المنطقة المجاورة لحـــدود الحبشة ، ويغلب انها كانت فى حوض نهر العطبرة . ويبدو أن تطور العلاقات واحتجاج سنار ، قد أديا إلى إخراج عبد القادر من الحبشة ، غير ان ذلك لم يحسن العلاقات كما كان مرجوا ، فقد حدث أن هرب « غالب » ، حاكم مقاطعة مزقه ، ودخل إلى السلطنة السنارية ، وقد رفض السلطان تسليمه ، أو إعادة خيل النجاشى وشارات الحكم ، التى حملها غالب معه - وأوعز السلطان إلى نايل ود عجيب ليشن غارات على منطقة بحيرة تانا . ولم يكن من المستطاع أن ينتقم النجاشى من السلطان لهديته المهينة وما تلاها من مشاكل وذلك بسبب مشاغله الداخلية غـــير أنه أخذ فى العمـل على استماله نايل ود عجيب إلى جانبه ، ليفيد منه عندما تحين الفرصة . وانتقل الحكم بعد بادى الى ابنه رباط ، الذى حكم أكثر من خمسة وعشرين عاما ، وقد ترك له بادى تركة مثقلة بالمشاغل ، التى تصور لنا مظهراً ، من مظاهر بداءة التحول فى تاريخ البيت السنارى ، ولم تذكر لنا المصادر المحلية شيئاً عن تلك التطورات ، بينما تلق المصادر الأخرى ضوءاً على مجـــريات الأمور فى عهد السلطان رباط . فالنجاشى قد أخذ فى الاستعداد ، لغزو أراضى السلطنة السنارية ، ولم يمض طويل وقت ، حتى استطاع إرسال ثلاث حملات، واحدة منها لغزو التاكه (كسلا) ، والثانية على حوض العطبرة، والثالثة اكتسحت الحدود بين التاكه والنيل الأزرق وكان ذلك فى عام ١٦١٩ ، كما ذكر بائز فى تاريخه . وقد استطاع سكان التاكه ، ومنطقة الحـدود ، الهرب فى الوقت المناسب ، قبـل وصول جنود الأحباش ، أما الحملة التى أرسلت إلى حوض العطبرة ، فقد تمكن قائدها من أسر الملكة فاطمة ، التى كانت تحكم فى شرق منطقة «الميرفاب» (بين مصب العطبرة

---

(٢٥) حكم السلطان بادى من سنة ١٦١١ ميلادية (تقريباً) وقد ورد ذكره فى المخطوطات المحلية « بادى المعروف » بسيد القوم ولقب سيد القوم هـذا من الألقاب التى كانت شـــائعة الاستعمال فى أوائل عهد السلطنة السنارية فبينما كان يعرف به الشيخ المتولى الوزارة فقد عرف به أيضا القائم على شئون السلطان الخاصة - وقد أشار اليه بروس فى كتابه (مجلد ٤ ص ٤٦٠) بأنه المتولى تنفيذ قتل السلطان عندما يصدراليه الأمر بذلك واستعمل هذا اللقب أيضا لأمناء المشايخ الدينين كما ورد فى الطبقات - ترجمة الشيخ حسن ود حسونة - ص ٤٩ .. خمسمائة عبد كل واحد شايل سيفا قبضته وابزيمه ومحاجيره فضه ولهم سيد قوم وجندي وعكا كيز .

ونجد ان الانجسنا يطلقون (Sen.i- Kung) وبالعربية « سيد القوم » على الشيخ المتولى شئون القرية وله صفه قيادة الحرب . والنظر فى الشئون الخاصة بأهل القرية وما يعجز عن حله يرفعه الى الملك الذى يتولى المسألة بالاشتراك مع سيد القوم والأجاويد . وظيفة سيد القوم كما هى اليوم فى الانجسنا وراثيه

وبربر) ، وتعرف هذه المملكة باسم نجاشية الروم (٢٦) ويبدو كما جاء فى المصادر الأثيوبية ، ان هذه الغزوات كان القصد منها التأديب والحصول على الاسلاب .

وجاء فى الروايات الخاصة بتاريخ مملكة تقلى ، ان الملك « قيلى أبو قرون (حكم من ١٦٤٠ إلى ١٦٦٨ م تقريباً) ، قد تزوج من « عجايب » ابنة السلطان رباط ، وقد أغفلت هذه الروايات ذكر الظروف التى عملت على التقرب بين السلطان السنارى وملك تقلى بالمصاهرة ، أما تفسير ذلك من تاريخ تقلى ، خلال تلك الفترة فهو ان السلطان السنارى قد لجأ الى كسب مودة تقلى للعمل سويا على الحد من نفوذ الفور ، وبخاصة ان تقلى بحكم موقعها الجغرافى ، بين سلطنتى سنار ودارفور ، وهى بحكم هذا الموقع ، تعتبر قلعة أمامية بالنسبة لتجارة القوافل ، من والى سنار ، ولكن هذه المحاولة فشلت ، لأن نفوذ الفور قد أخذ فى الامتداد إلى حوض النيل ، فى دار الشايقية ، حيث أراد الفور أن تسير قوافلهم التجارية متجهة إلى دار الشايقية ، ومنها إلى موانى البحر الأحمر ، بعيداً عن مناطق النفوذ السنارية . وبقيت العلاقات قائمة بين الفور والشايقية ، حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى ، كما تبينه الوثيقة رقم ٣ ، وهى التى أرسلها سلطان الفور محمد الفضل ابن عبدالرحمن (حكم من ١٨٠٠ إلى ١٨٣١ م) ، ومعها هدايا مختلفة ، ليستعين بها الفقيه محمد أبو جبة (أبو دلق) على إقامة المسجد وعمارته ، اطعام المساكين فى دار الشايقية ، وبعدوفاة السلطان رباط وانتقال العرش إلى ابنه بادى أبو دقن ، وقد استمر فى الحكم فترة طويلة ، بلغت السلطنة السنارية فى خلالها عصرها الذهبى ، كما بدأت تتجمع الزوبعة ، التى نقلت الحكم من يد خلفه الثالث إلى بيت الأونساب .

وتميز عهد السلطان بادى أبو دقن ، بعلاقاته الطيبة مع علماء الأزهر لما كان يرسل لهم من عطايا ، فنظموا القصائد فى مدحه ، ومنها قصيدة الشيخ عمر المغربى ، الذى بعث بقصيدة للسلطان بادى ، مع خبيره الشيخ احمد علوان ، استهلها بقوله : ـ

أيا راكبا يسرى على متن ضامر	الى الغرب يهدى نحوه طيب الذكر
ويطوى إليه شقة البعد والنوى	ويقتحم الأوعار فى المهمة القفر

---

(٢٦) لا يعلم على وجه التحقيق مصدر هذه الكلمة . فهل هى تشير الى الروم أى الأغريق أو هى تصحيف لكلمة أروم (Urum) فى اللغة الكنزية ومعناها أسود على حد قول بورخا ردت ص ١٥٧

وينهض من مصر وشاطىء نيلها وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير ان وافيت سنار قف بها وقوف محب وانتهز فرصة الدهر(٢٧)

وقد بنى هذا السلطان مسجد سنار ، وقصراً للحكومة ، وجعله من خمس طبقات فوق بعضها ، وأقام مخازن عديدة لحفظ مهمات الحكومة ، من أسلحة وغيرها ، وأقام أيضاً حائطاً كبيراً حول القصر ، وجعل فى ذلك الحائط تسعة أبواب ، خصص كل باب منها لواحد من كبراء دولته ، وكانت كل هذه الأبواب تفتح فى حائط مستقيم ، وأمام هذه الأبواب سقيفه بعمدان ، وفيها دكة عالية تعرف بـ « دكة (٢٨) من ناداك » ، تسمع فيها الشكاوى والقضايا ويصدر السلطان حكمه . وكان مجلس السلطان هـذا ، يجتمع كالعادة صباحا ومساء خـلال أيام الأسبوع عدا أيام السبت والأربعاء ، التى يخرج فيها السلطان وحاشيته إلى بيته الريفى فى العيرة ، « الواقعة على مسافة قصيرة من العاصمة » .

وحدث فى عهد هذا السلطان ، أن ذهب الفقيه حمد النحلان المعروف بود الترابى ، إلى الحجاز وهنالك نادى بنفسه انه « المهدى » المنتظر ، فضربه الحجاج وحبسوه ، وبعد ذلك أرسل أحد تلاميذه المدعو « ميرف » ، وقال امش فى سنار وقل المهدى ظهر ، فأمر الملك بادى بقتله (٢٩) .

كما اشتد فى عهد هذا السلطان ، التنافس التجارى بين سنار والفور ، الأمر الذى اتخذت معه تقلى موقفاً ، أكثر ميلا إلى الفورمنه إلى سنار ، ولم تكن للمصاهرة التى تمت فى عهد السلطان رباط ، من أثر فى تخفيف حدته ، ومرجع ذلك إلى طبيعة المجتمع فى كل من تقلى ودارفور ، وأسس الحكم فيهما ، مما جعل ذلك التقرب بينهما سهلا ، فالحاكم فى البلدين يهدف إلى نشر الرسالة الاسـلامية ، بين شعبه ، وحكام الأقاليم فيهما يدينون بالولاء الكامل للزعيم الأكبر ، وكان الأمر على عكس ذلك فى الجمهورية التجارية السنارية .

وقد تأثرت تقلى ، بحكم موقعها الأقليمى بالمنافسة التجارية الشديدة بين سنار والفور ، ولما كان الفور أشد بأساً وأقوى نفوذاً من سنار ، فان تقلى اتجهت نحو

---

(٢٧) أنظر مخطوطة تاريخ سنار (نسخة المكتبة الأهلية : باريس) ص ٧ وما بعدها .
(٢٨) المصدر السابق ص ١٠
(٢٩) أنظر كتاب الطبقات (نشر الشيخ ابراهيم صديق) ص ٦٢

تحسين علاقاتها مع الفور ، الأمر الذى أغضب مجموعة الحلف السنارى ، وعلى ذلك فقد انتهز السلطان بادى ، على نحو ما جاء فى الروايات المحلية ، حادث تعرض ملك تقلى لتجارة خاصة بصديق له ، فأرسل حملة للانتقام من تملى ، واستمر القتال بضعة أيام وانتهى بصلح ، صارت تقلى بمقتضاه تدفع جزية سنوية لسنار ، ولم يهتم الفور بنجدة تقلى ، لأن اهتمامهم كان متجهاً نحو امتداد نفوذهم إلى دار الشايقية ، وفتح الطريق التجارى مع حوض النيل ، بعيداً عن المرور عبر منطقة تقلى .

ولقد كان لهذه العلاقات بين الشايقية والفور أثرها فى تقوية مركز الشايقية أنفسهم حيث انهم شقوا عصا الطاعة على سنار ، ودخلوا فى حرب مع العبد الأب ، واسطة الحكم السنارى ، وزعيمة المشيخات الشمالية ، المتحالفة مع سنار .وكانت تلك الحرب فى السنوات الأخيرة من حكم السلطان بادى .

وقد اشتد فى عهد السلطان بادى ، أو فى السنوات القليلة التى سبقته ، نشاط البعثات الدينية من الفرنسسكان ، ويسندهم بابا روما ، والجزويت ومن خلفهم لويس الرابع عشر ، وكل من هاتين الجماعتين تحاول بسط نفوذها فى أتيوبيا ، وبجانب ذلك يهدف لويس إلى فتح أسواق تجارية فى أتيوبيا وسنار وأخذ الفرنسسكان (٣٠) فى التودد إلى السلطان السنارى ، لتسهيل سفر رجالهم عبر بلاده من مصر إلى أتيوبيا ، بدلا من السفر من القاهرة إلى أتيوبيا ، عن طريق عيذاب وسواكن،بسبب العراقيل التى يقيمها باشا سواكن ، وتتابعت بعد ذلك الرحلات عن طريق النيل ، كما فعل الرحالة العثمانى أوليا شلبى فى سنة ١٦٧٢ م ،أما البعثات فقد سارت عبر الصحراء من أسيوط إلى الواحات ، ومن ثم إلى بلده « مشو » (على النيل شمالى دنقله) ، وتخرج القوافل من منطقة دنقله ، مخترقة صحراء البيوضة ، إلى منطقة شندى ، ومنها إلى قرى وأربجى وسنار .

وذكر أوليا شلبى فى رحلته ، انه قد شهد حربا وقعت فى منطقة دنقله فى أكتوبر أو نوفمبر سنة ١٦٧٢ ميلادية ونرجح أن تكون هذه الحرب، هى التى حدثت بين الشايقية والشيخ الأمين ود عجيب ، شيخ العبد لاب وزعيم المشيخات الشمالية المتحالفة مع سنار . وترجع أسباب هذا القتال إلى امتداد نفوذ الفور إلى دار الشايقية كما أشرنا من قبل . وقويت بذلك شوكة الشايقية ، وحاولوا الانفصال عن الحلف

---

(٣٠) بيليوتيكا – جزء أول ص ١٢٧

السنارى ، الأمر الذى دفع الشيخ الأمين إلى انتهاز الفرصة المناسبة للاشتباك مع الشايقية ، للحد من نفوذ الفور وأضعاف الشايقية ، وجاءت المناسبة فى التجاء أحد الخارجين ، على هذا الزعيم إلى دار الشايقية ، فأرسل فى طلبه إلى الشيخ عثمان سيد دار الشايقية ، الذى رفض تسليمه أو قتله . ولم يتوان الشيخ الأمين ود عجيب من الزحف برجاله على دار الشايقية ، وعسكر على شاطىء النيل أمام دلقه (٣١) ،وأرسل إلى الشيخ عثمان بالتسليم ، فى مدة لا تزيد عن خمسة أيام ، ولما كانت القوة التى تحت أمرة عثمان قليلة ، فانه قد لجأ إلى جمع الخيل ، التى أخذ فى تلوين جلودها بلون لكل مرة يرسلها فيها للشرب من النيل ، على مرآى من معسكر الامين ،الذى ظن أن عثمان سوف يهاجمه بقوة كبيرة ، فأرسل فى اليوم السادس إلى عثمان ليوافيه للمفاوضة ، وجاء عثمان بمفرده لكشف الخبر ، والتحقق من نوايا الأمين ، وعندما دخل عثمان وجد الأمين يلعب «المنقلة» ، وأشار الأمين لبعض رفاقه بالحضور،للقبض على عثمان غير أن أحد الشايقية ، من أصدقاء الأمين صرخ فى عثمان ، باللهجة الاقليمية للشايقية وقال « وحياة الرب شرك أم حبيبة فى رقيبك طب » ، ومعناها « انج بنفسك قبل أن يقبض على رقبتك شرك الطير ، فأسرع عثمان إلى ظهر جواده إلى جزيرته،وكان الماء على عمق بسيط . وجمع رجاله وحزم أمره على القيام بهجوم خاطف ، على العبد اللاب ، وفى ظلام الليل أعد جميع ما لديه من ماشية ، حمير وغنم وماعز ، وربط على ظهر كل منها كمية من القش الجاف ، وعبر بها فى صمت وسكون ، وأخذ رجاله وعندما وصل إلى مكان قريب من معسكر العبد اللاب،أشعل النار فى القش،وطارد الحيوانات فى اتجاه المعسكر ، فأحدث ذلك هرجا ومرجاً بين العبد اللاب ، وأخذ رجال عثمان فى قتل من يقع فى يدهم ، ووجد الأمين جالساً على فروة الصلاة فى انتظار الموت . ولما وصل اليه عثمان قال له وهو شاهر سيفه ، اننى أعفو ، على أن تضمن لى استقلال الشايقية،ولم يسع الأمين إلا أن يؤمن عثمان على استقلال بلاده، وقطع المواثيق له بذلك .

وقد لعبت المرأة الشايقية دورها التقليدى ، فى تقدم المقاتلين والمبادءة بالحرب واشعال الحماس فى الجند للاستماتة فى القتال (٣٢) .

---

(٣١) دلقه — جزيرة جنوبي بلدة مروى على مسافة تقرب من الستة والخمسين ميلا .

(٣٢) جاء فى كتاب الشايقية نكولس Nicholls بالانجليزية ص١١/١٠ الدور الذي لعبته =

وكان تحديد التاريخ الذى حدثت فيه هذه المعركة بين الشايقية والعبد اللاب موضع جدل ، والغالب انها حدثت فى وقت ما بين عامى ١٦٥٩ و ١٦٨٠ ميلادية ، ونرجح ان القتال الذى شهده أوليا شلبي ، وهو فى طريقه إلى سنار وحدد تاريخه فى شهر رجب ١٠٨٣ هـ (أكتوبر / نوفمبر سنة ١٦٧٢) هو القتال الذى انتهى كما سبق أن أوضحنا ، باستقلال الشايقية عن الحلف السنارى . وترك لنا أوليا شلبي وصفاً خيالياً عن المعركة ، ولم يذكر شيئاً عن تفصيلات القتال ، أكثر من انها كانت حربا بين هارديقان عابد النار وبربر ستان ، وان القتال قد انتهى بهزيمة هارديقان — والمقصود بهارديقان الشايقية ، وبربر ستان العبد اللاب ، بينما حقيقة الواقع على عكس ذلك ، فالشايقية (هارديقان) قد انتصر على العبد اللاب (بربر ستان) ، وإذا راعينا ظروف أوليا شلبي المختلفة ، نجد ان أخطاءه وخلطه بين الأسماء والحوادث أمراً غير مستبعد .

وقد نتج عن هذه الحرب تحول طرق التجارة بعيداً عن متناول الشايقية كما كانت القوافل تزود بحراسة قوية ، لحمايتها من تعدى الشايقية ، وأشار إلى هذه الحالة أوليا شلبي نفسه ، وبونسيه (Poncet) ، وكرمب (Krump) ، والفرنسسكان ، وغيرهم من الرحالة الذين زاروا منطقة دنقله فى تلك الفترة .

وبعد وفاة السلطان بادى أبو دقن ، تولى السلطان أونسه بن ناصر بن رباط ، على حد قول الروايات المحلية ، ولكن هذه الروايات على مايبدو لنا غير صحيحة ، بل المرجح أن يكون سلطان آخر قد حكم بعد السلطان بادى أبو دقن ، وهو السلطان عدلان بن محمد . أما السلطان أونسه فيرجح أنه قد حكم بعد عدلان بن محمد ، والدليل على ذلك ، أنه يوجد خطاب يحمل ختم السلطان عدلان بن محمد ، وجاء فى ختام هذا الخطاب « يامن يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد المذكور ، أنه توصيت (توصية) من السلطان جمرة الأموى . سنة ألفاً وأربعة وثمانون » (أى ١٦٧٣/١٦٧٤ م)[٣٣] ، وهذا التاريخ هو تاريخ

= عديله والدة الشيخ عثمان فى الخروج أمام جند الشايقية وهذه تعيد إلى الذاكرة الدور الذى لعبته الفتاة مهيرة بنت الشيخ عبود عند ملاقاة الشايقية للحملة المصرية بقيادة اسماعيل كامل بن محمد على وقد وقعت فى الأسر فأحسن إليها وأعادها إلى معسكر والدها مكرمة معززة الأمر الذى أعجب والدها وكان ان طلب الصلح مع اسماعيل الذي حافظ على ابنته وأكرمها .

(٣٣) أنظر الملحقين نمرة ٧ و ٨

الخطاب وليس تاريخ توصية السلطان جمرة الأموى ، والدليل على ذلك أن اسم السلطان جمرة ، قد ورد فى وثيقة أخرى ، أنه تولى الحكم فى الفترة السابقة لعام ١٦٠٢ ميلادية ، ورب معترض يقول أن قائمة السلاطين ، التى أعطيت إلى الرحالة بروس[٣٤] ، ذكرت أن السلطان بادى أبو دقن توفى فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٧٠ م (٦ ذو الحجة سنة ١٠٩١ هـ) ، فهذه القائمة قد كتبت بعد حوالى مائة عام من حكم عدلان ، ولا مفر لنا من قبول الوثيقة الخطية الأصلية ، التى صدرت عن السلطان نفسه

وحدثت فى عهد « أونسه » زيادة النيل عن المنسوب العادى للفيضان ، وكان ذلك فى عام ١٦٨٣ ميلادية ، وتسبب عن تلك الزيادة أضرار جسيمة ، وغلاء شديدا جداً أكل فيه الناس لحم الكلاب ، لذلك عرفت بسنة أم لحم ، وانتشر الجدرى فى صورة وباء تخربت بسببه الحلال (مفردها حلة ـ القرية) الكثيرة ، وصارت الحاجيات الغذائية ، وفى مقدمتها الأذرة وهى الغذاء الرئيسى ، تباع بأغلى الأثمان .

وبعد وفاة هذا السلطان ، تولى ابنه بادى الأحمر ، الذى لم يكن موفقاً فى إدارته فخرج عن طاعته أهله من الفونج والشيخ أمين أرادب ، وولد عجيب ، وأقاموا ملكا آخر اسمه « أوكل » ، ونادوا بعزله ، ولكن بادى الأحمر تمكن من إخماد حركتهم .

وتميزت الفترة التى قضاها السلطان بادى الأحمر فى الحكم ، بدخول البعثات الأوروبية الدينية فى طريقها إلى الحبشة ، وكانت «سنار» مركزاً للصراع والدسائس التى كان يحيكها كل فريق من هؤلاء المبشرين ، لتعطيل منافسه من مواصلة السفر إلى الحبشة ، ففى عهده جاء الرحالة الفرنسى بونسيه ، وهو من الجزويت[٣٥] (١٦٩٨/١٧٠١م) .

ودخل السودان فى أعقاب بونسيه مباشرة ، رجال من الفرنسسكان الذين أسسوا مركزهم التبشيرى فى بلدة أخميم فى صعيد مصر ، للعمل فى بلاد الفونج[٣٦] وأتيوبيا ومن هؤلاء الفرنسسكان الأب يوسف ، الذى كان فى سنار سنة ١٦٩٩م إلى ١٧٠٣ ومن ١٧٠٥ إلى ١٧١٠ م ومعه باسكال ، الذى اشتغل طبيباً للسلطان السنارى بادى الأحمر ، لمدة سنتين ، وسافر إلى أتيوبيا ، وخلفه فى عمله كطبيب للسلطان كرمب البافارى[٣٧] .

---

(٣٤) أنظر قائمة الترتيب الزمنى لولاية الحكم ص ٩٨ وما بعدها

(٣٥) وهو ثالث رحالة من الذين دخلوا السودان ولهم مذكرات عن أسفارهم .أو لهم داود =

وفى الوقت الذى كانت فيه بعثة الفرنسسكان دائبة النشاط والحركة ، بين غندار (شمالى بحيرة تانا فى الحبشـة) وسنار والقاهرة ، كان القنصل الفرنسى فى القاهرة دى ماليت (De Maillet) يعد التجهيزات لارسال بعثة إلى الحبشة ، عن طريق سنار وقد سافرت هذه البعثة من القاهرة فى ١٩ يوليه سنة ١٧٠٤م ، وعلى رأسها جاك لنوار - دى رول ، الذى كان قنصلا لفرنسا فى دمياط بالقطر المصرى ، ووصلت هذه البعثة إلى سنار فى حوالى العاشر من يوليه من العام التالى (١٧٠٥م) ، بعد أن حجزت لفترات طويلة فى بلدة مشو (شمال أرقو فى دنقـله) ، وكان هدف هـذه البعثة أولا إنشاء علاقات تجارية بين الحبشة وفرنسا ، لـكى تتمكن الأخيرة من فتح أسواق جديدة لتصريف منتجاتها الصناعية ، وثانياً التبشير الدينى ، وتركيزه فى يد الجزويت ، وثالثاً جمع المعلومات عن الامكانيات العسكرية ، فى الممالك التى تزورها البعثة ، وكانت فرنسا تخشى أن يفلت منها سوق الحبشة ، بدخول جماعات من الصناع الأجانب لتلك البلاد ، ويتعلم الأهالى منهم صناعاتهم ، ولم يكن للفرنسسكان أن يتركوا الباب مفتوحا ، لامتداد نفوذ الجزويت ، ومن ورائهم التجارة الفرنسية ، دون إحباط هـذه المساعى الفرنسـية ، التى بدأت فعلا بالبعثة الاستطلاعية التى رأسها « بونسيه » .

وقد قام الفرنسسكان بتنفيذ خططا إيجابية ، فى صورة حملات من الدس لدى نجاشى الحبشة وسلطان سنار ، عن بعثة « دى رول » فأشاعوا فى سنار أن هذه البعثة سوف تعمل على تحويل مجرى النيل الأزرق ، وتحريض النجاشى على الهجوم على الأتراك واحتلال سواكن ومصوع ، ومن سوء طالع تلك البعثة أن الفيضان فى عام ١٧٠٥م وهو العام الذى وصلت فيه الى سنار ، كان منخفضا ، مما أكد الاشاعات ، التى راجت وكان ان ذهب دى رول ورجال بعثته ، ضحية لهذه الخلافات المذهبية بين البابا وملك فرنسا ، فقد قتل وصحبه فى سنار (فى حوالى الساعة الثالثة من ظهر يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٠٥

وأوغر مقتل بعثة دى رول صدر نجاشى الحبشة تقلا هيمانوت ، وبخاصة بعد أن أرسل رسولا خاصاً ، يحمل كتاباً لسلطان سنار بادي الأحمر ، للسماح لهذه البعثة بمتابعة سفرها إلى غندار[٣٨] ، وكان أن وصل هذا الرسول إلى سنار بعد مقتل رجال

= روبينى (١٥٢١ /١٥٢٣ م) ثم أوليـا شلبى (١٦٧٢/١٦٧٣ م) وبعد ذلك جاء بونسيه وزملاؤه .

(٣٦) انظر صفحة ٧٥ حيث أوضحنا ان اقتراحا قدم إلى البابا لتأسيس مراكز تبشرية فى سنار لخدمة المسيحيين الـكاثوليك الذين قيل انهم هربوا من الحبشة بسبب الاضطهاد المذهبى .

(٣٧) أنظر كتاب كرمب وقد نشر ملخصا له كروفورد فى كتابه ص ٢١٢ - ٢١٦

البعثة ، واعتبر النجاشي تقلا هـذا الحادث ماساً بكرامته ، وأعتقد أن القاهرة هي المسئولة عنه ، لذلك أرسل كتاباً شديد اللهجة ، يهدد فيه بتحويل مياه النيل الأزرق عن مجراه .

ويبدو أن النجاشي ، لظروفه الداخلية ، لم يتمكن من الانتقام لكرامته من سنار، واستمر العداء والصراع المذهبي ، من جراء المنافسة بين الفرنسسكان والجزويت ، وكان اعتقاد الجزويت أن أتيوبيا مجالهم التبشيرى ، وكان الفرنسسكان يرون أنهم دخلوا الحبشة من قبل ، ومن حقهم القيام بالتبشير منفردين . وأخذ القنصل الفرنسى فى القاهرة دى ماليت يتخبط فى اتهاماته لمقتل رجال البعثة ، فمرة يقول أن النجاشى هو الذى حرض سلطان سنار، على ارتكاب الجريمة ، ومرة أخرى يتهم سلطان سنار ويطلب من باشا سواكن « عمر » ، فى كتاب له بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٧٠٦م ، أن يعترف بشيخ العبد اللاب فى قرى كسلطان فعلى لدولة سنار ، وأن يرسل أحد الأغوات إلى سنار ، لعزل السلطان بادى ، وأن يقطع العلاقات التجارية مع سنار ، وقد بنى مالت اتهاماته على الأخبار المتناقضة ، التى نقلها إليه بعض الخدم الذين كانوا مع دى رول[٣٩] .

وأخذت حالة التوتر بين الحبشة وسنار ، فى الظهور والاختفاء طوال فترات حكم الأباطرة من الأحباش ، الذين تولى الحكم ، بعد النجاشى تقلا هيمانوت واكتفى هؤلاء بارسال غزوات على الحدود السنارية ، واستمر الحال على هـذا المنوال حتى عهد للنجاشى اياسو الثانى (حكم من ١٧٣٠/١٧٥٥م) ، وكان على سنار السلطان بادى أبو شلوخ (حكم من ١٧٢٥ إلى ١٧٦٢ م) ، فأعد ياسو جيشاً كبيراً لغزو سنار لكنه فشل ، كما سنبينه فيما بعد .

ولاشك فى أن هذه الفترة التى برز فيها الصراع ، بين الفرنسسكان والجزويت ، فى صورة واضحة المعالم ، تتطلب دراسة وافية سوف لايجد فيها الباحث عنتاً ، لكثرة الوثائق المتصلة بتاريخها[٤٠].

---

(٣٨) نص الخطاب الذى حمله المبعوث الحبشى الى سلطان سنار فى كتاب لجران ص ٤٧٠/٤٧٢ أيضاً فى كتاب بدج ـ جزء أول ص . .

(٣٩) وهذه الحادثة وما نقله الخدم عنها وتصرفات ما ليت نجد منها صورة لما حدث فى مقتل اسماعيل باشا كامل ابن محمد على حرقا فى شندى واتهم الملك نمر استناداً على قول أحد العساكر المحليين . .

(٤٠) ببليوتيكا جزء أول وثان ، أيضا كروفورد ويحتوى على ببليوغرافيا وافـية

وتولى بعد بادى الأحمر، ابنه أونسه، وكان صاحب لهو وفساد، فاتبع هواه كما ذكرت الروايات المحلية، وقد استدعى ذلك عزله، ولأسباب لم تعلم بعد، اجتمعت كلمة أهل الرأى من الفونج وزعماء الدولة، على اختيار «نول» سلطانا، بعد أن بقى العرش شاغراً، من أبريل سنة ١٧١٩ إلى يونيه ١٧٢٠م. وكان هذا الذى اختاروه ينتمى الى البيت السنارى عن طريق الرحم، بعد أن كان ينحدر من الصلب سلاطين الأسرة السنارية، التى حكمت حتى السلطان أونسه. وقد ذكرت الرواياتالمحلية عن «نول»، أنه سيد قوم بيت الشمس «الاونساب [41]»، وأنه لم يمكث فى الحكم طويلا، وانتقل الحكم الى ابنه بادى أبو شلوخ، وهو على حد قولالروايات، آخر ملوك الصولة والشوكة وقد حكم أكثر من خمسة وثلاثين سنة، عاونه فى نصفها الأول تقريباً، وزيراً حكيما اسمه «دوكه»، وبعد وفاة هذا الوزير، استقل السلطان بادى بادارة شئون الدولة، وأسرف فىالطغيان وارتكاب الجرائم، حتىعرف «بالجهمان»، وأطلق يد أولاده وبطانته فارتفعت الشكاوى لكنه تغاضى عن جرائمهم ومفاسدهم وأنزل العقاب بمن يطالب بحقه المغتصب - وفى عهد هذا السلطان، وقعت الحرب الحبشية الثانية - حدثت الحرب الأولى فى عهد السلطان رباط كما أشرنا الى ذلك فى موقعه من قبل.

وترجع أسباب هذه الحرب الثانية الى أكثر من سبب، ظاهرها الانتقام لمقتل دىرول وبعثته فى عام ١٧٠٥م، والتى سبق أن فصلنا أمرها فيما سبق، لكنالحقيقة التى دفعت الى هذه الحرب بعد تسعة وثلاثين عاما تقريباً، هى أن الأحوالالداخلية فى الحبشة قد اضطربت بعد موت النجاشى تقلا هيمانوت، وتنازع العرش من بعده أقارب هذا النجاشى، وانقسمت البلد معسكرين، بعضهم يناصر ولى عهده والبعض نادى بملك آخر، ويبدو أن الصراع المذهبى بين الفرنسسكان والجزويت، كان له أثره فى التطاحن الداخلى، وبالاضافة الى ذلك فان النجاشى أياسو الثانى قد اهتم ببناء القصور، وأهمل أمر الرعية مما أثار الأهالى عليه، وحتى يتخاص من استياء رعاياه وتذمرهم فانه أعد عدته لغزو السلطنة السنارية.

جاءت الجيوش الحبشية عن طريق حوض نهر الدندر، وأخذت فى شق طريقها حتى وصلت الى أبواب مدينة سنار، ورأى السلطان بادى اخلاء المدينة قبل أنتعبر اليها جيوش الأحباش، لكن الموقف قد تغير بموافقة السلطان على اقتراح تقدم به

---

(٤١) الأونساب هم بيت الشمس، ويتحتم على السلطان السنارى أن يتخذ زوجته - السلطانة - من هذا البيت.

الأمير خميس ، وهو من الفور الذين لجأوا إلى سنار ، وكان مقترحه أن يقود أربعة آلاف من الفرسان ، على أن ينقض بهؤلاء على الجيش الحبشي الرئيسي ، من الخلف ورغماً عن أن هذه الخطة قد نقلها ، أحد زعماء القبائل من سكان شرق سنار ، إلى النجاشي الذي هرول لملاقاته ، إلا أن خميس قد استطاع الانقضاض على مؤخرة الجيش الرئيسي ، الذي كان بقيادة الراسي ولد لول وأنزل به هزيمة منكرة ، تشتت بعدها الجيش الحبشي وهرب النجاشي إلى بلاده ، بعد أن غنم الجيش السناري الكثير من المهمات ومنها التاج وأدوات الحكم الأخرى - ومنها ماهو ديني بالغ الأهمية ، ودفع الأحباش مبلغاً كبيراً من المال لاسترجاع هذه الأدوات ، واشترك في هذه الحرب في الجيش السناري الشيخ محمد أبو الكيلك ، الذي أخذ نجمه في الصعود واستطاع فيما بعد تولى منصب المشيخة - الوزارة ، واغتصاب السلطة الفعلية للسلطان

وكانت الموقعة الفاصلة بين سنار والحبشة ، في السابع من ابريل سنة ١٧٤٤ ميلادية في مكان يقال له « الزكيات » - على نهر الدندر وراجع الخريطة رقم ٦

وبعد هذه الحرب وهذا الانتصار ، أرسل السلطان بادى حملة إلى كردفان لقتال المسبعات ، الذين كانوا يسيطرون على الجانب الغربي من[٤٢] ، وقد اختلفت الروايات في أسباب هذا الغزو ، كما اختلفت هذه الروايات في أمر القوات ، التي أرسلت ، فقد جاء في مخطوطه تاريخ سنار أن جيش الفونج خرج بقيادة الوزير ولد تومه[٤٣] ، وانضم إليه الشيخ عبد الله ولد عجيب (ملك قرى) ومعه أخوه شمام ومعهم جنودهم ، وتولى القيادة العامة الشيخ عبد الله ، وكان مع الجيش السناري الشيخ محمد أبو الكيلك وتقابل الجيشان - الجيش السناري ومعه جنود قرى - وجيش السلطان هاشم المسبعاوى وحدثت الموقعة الفاصلة في القحيف[٤٤] ، وانتهت بهزيمة منكرة للجيش السناري ومقتل الشيخ عبد الله والوزير ولد تومه ، فاستطاع الشيخ محمد أبو الكيلك أن يعيد تنظيم الجيش السناري ، وأن يذكى الروح المعنوية بينهم ، ونجح في ذلك وهجم على

---

(٤٢) المسبعات وسلطانها هاشم المسبعاوى كانت تسكن في أطراف كردفان الغربية القريبة من حدود الفور . وتربط بين السلطان هاشم وبيت السلطان في دارفور صلة العمومة كما ذكر التونسي في كتابه ص ٧٨ وما بعدها . وحصلت معارك بين هاشم وسلطان الفور تيراب .

(٤٣) جاء في مخطوطه سنار ص١١ ان ولد تومه هو من أهالى جند توت (بالقرب من شندى) وقد تولى الوزارة بعد الشيخ دوكه.

(٤٤) القحيف مكان في غرب كردفان .

المسبعات وهزمهم [٤٥] ، ولما وصلت أخبار القتال إلى الملك بادى أصدر أمره إلى إلى الشيخ محمد أبو اللكيلك ، بولاية قيادة الجيش ومطاردة المسبعات وإبعاد خطرهم.

وتقول رواية العبد اللاب [٤٦] ، التى ترفع بطبيعة الحال من شأن الشيخ عبدالله وأبنائه ، وتهبط بالسلطان السنارى إلى مرتبة أدنى ، مما كان عليه العبد اللاب ،تقول هذه الرواية أن الحرب نشأت أصلا بين العبد اللاب والمسبعات ، بسبب غزو المسبعات لكردفان وتوغلهم فى أراضيها ، التى لم تكن تحت سيطرتهم ، فذهب الشيخ عبد الله ولد عجيب لطردهم ، وقتل الشيخ عبد الله فى الموقعة التى نشبت بينهما ، كما قتل معه أخوه شمام ومحمد العجيل ابن شمام ، وان سلطان سنار لما سمع بهذه الهزائم خشى أن يقوم الشيخ مسمار ابن الشيخ عبد الله ولد عجيب بحركة جنونية ، للأخذ بثأر اهله من المسبعات ، وبهذا يدخل السلطان السنارى طرفاً ثالثا فى القتال بجانب العبد اللاب ، تنفيذاً للمعاهدة [٤٧] بين العبد اللاب والفونج ـ وحدث فعلا توتر بين مك العبد اللاب والسلطان السنارى ، تدخل لانهائه الشيخ ادريس الأرباب [٤٨] وأعد سلطان سنار حملة مشتركة بقيادة الشيخ محمد أبو اللكيلك لقتال المسبعات .

وذكر جكسن ان الأمير خميس ، الذى كان يقود القوة التى انقضت على مؤخرة جيش الحبشة وسببت هزيمته ـ كان وراء الحملة إلى كردفان ،بسبب تعطشه للانتقام من المسبعات والفور ، لأنهم تعقبوه لقتله ونجا بالتجائه الى سنار وخميس أصلا من قواد الفور البارزين .

وفى الوقت الذى كانت فيه الحرب دائرة الرحى فى كردفان ،كان السلطان بادى غارقا فى مفاسده ولهوه ، وأكثر من النساء ، وعندما بلغ مسلك السلطان حداً غير لائق ، قرر الزعماء أرسال الوفود الى الشيخ محمد أبو اللكيلك فى كردفان، لابلاغه

---

(٤٥) ذكر جكسن فى كتابه سن النـــار ص ٥١ ان الموقعة التى انتصر فيها الشيخ محمد أبو اللكيلك كانت فى مكان له « شمسكانا » وهى أيضاً في غرب كردفان .

(٤٦) نشرها المستر ا . ا . بن فى مجلة السودان في مـدونات ومذكرات الجزء السابع عشر ص ٥٩ وما بعدها .

(٤٧) لم يصل إلينا ما يؤيد عقد معاهدة بين السلطان والعبـد واللاب ، ويحتمل أن يكون المقصود من المعاهدة ـ الاتفاق الذى تم بموجبه الحلف بين السلطان السنارى ـ عمارة والشيخ عبد الله جماع .

(٤٨) أنظر مقال المستر ا . ا . بن فى مجلة السودان فى مدونات ومذكرات الجزء السابع عشر ص ٥٩ وما بعدها.

بما وصل اليه الحال فى سنار ، من فساد وظلم واخلال بالتقاليد القائمة ، حيث أسند السلطان الوظائف الهامة إلى جال من بطانته ، وترك لهم حرية التصرف دون معقب فاستخفوا بالقيم وبأهل البيوتات . طلب الزعماء من الشيخ محمد أبو اللكيلك العودة الى سنار لوضع حد لهذا الانحلال ، الذى شمل مختلف مظاهر الحياة ، وقد استجاب الشيخ محمد ، وعاد الى سنار وبعد مفاوضات عزل السلطان ، الذى خرج منفياً الى سواكن ، وفى هذا الصدد يقول الرحالة بروس ، ان هذا السلطان قد التجأ بعد عزله الى الحبشة ، حيث استقبله الراس « سهيل مخائيل » ، الذى وعده بأعادته الى عرشه ، اذا وافق النجاشى على غزو المملكة السنارية ، وانتقل بادى مع الراس ميخائيل الى معسكر النجاشى ، حيث قدم بادى فروض الطاعة والتبعية ، بتقبيله الأرض فى حضرة النجاشى ، فرحب به وطلب اليه أن يتذرع بالصبر حتى تحين فرصة مناسبة لاعادته إلى عرشه ، وفى الوقت نفسه أقطعه النجاشى ولاية « رأس الفيل » ، ولكن بادى قد ذهب ضحية مؤامرة ، دبرها له بعض المهاجرين من سنار ، الذين زينوا له فرصة السفر إلى منطقة حوض نهر العطبرة ، لاعداد جيش من أهالى تلك المنطقة ، والهجوم على سنار لاسترداد عرشه . وقد وقع فى الفخ الذى نصب له ، وذلك بعد دخوله السودان ، فان الشيخ ولد حسن حاكم تيوه (بين القضارف ورافد الرهد) قبض عليه وقتله غيله ، وبخلع هذا السلطان ، ونفيه على هـــذه الصورة ، انتقلت السلطة الفعلية من يد زعماء السلطنة ، إلى الشيخ محمد الذى تولى الوزارة .

وبعد عزل السلطان ، أقام الشيخ محمد أبو اللكيلك ابن السلطان المخلوع ناصر سلطاناً على سنار ، واحتفظ الشيخ محمد لنفسه بجميع سلطات الملك ، الذى صـــار رمزاً لاحول له ولا قوة ، وتوقف بقاؤه فى كرسى الحكم على رضاء الوزير ، وبهذا التغيير فى الأوضاع أصيبت نظم الجمهورية التجارية بضربة قاسمة ، تحولت معها إلى تنظيمات للحكم ، أقرب إلى الاقطاع فى صورته الشرقية ، وكان ذلك التحول سبباً مباشراً فى تذمر الزعماء فى المناطق المتحالفة مع سنار ، وبخاصة بعد أن بدأ الشيخ محمد أبو اللكيلك بالعزل والتعيين وفقاً لرغباته ، وتثبيتاً لسياسته التى ترمى إلى الاحتفاظ بالوزارة فى أسرته ، والشيخ محمد أبو اللكيلك هذا كما سبق أن أشرنا ، من جماعة الهمق (التى تحرفت إلى الهمج) ولا نعلم علم اليقين عن ماضيه أكثر من أنه كان مقدما (قائد جماعة) على الخيالة فى الجيش السنارى ، الذى حارب النجاشى أياسو فى سنة ١٧٤٤ م .

وقد أخذ الشيخ محمد بعد توليه المشيخة ، فى العمل على توطيد مركزه ونشر سلطانه ، كما أخذ فى تلمس الأسباب لمطاردة منافسيه والتخلص منهم ، بطريقة أو أخرى فكان أن قتل من كبار الأسرة السلطانية ، وصار يولى ويعزل كما شاءت له مصلحته الخاصة ، حتى السلطان ناصر نفسه قد امتد اليه العزل ، وتحديد إقامته فى حلة البقرة (بضم الباء وسكون القاف وفتح الراء) ، وانتهى الأمر بقتله بعد اتهامه بالتآمر مع جماعة من الفونج على الفتك بالشيخ محمد(٤٩)

ونادى الشيخ محمد أبو الكيلك باسماعيل ابن السلطان بادى، وأخ السلطان ناصر ملكا على سنار ، وأصيبت البلاد فى سنوات مشيخة الشيخ محمد الأخيرة بغلاء شديد وزيادة فى فيضان النيل ، تسبب عنها التلف وانتشار الأمراض(٥٠) . وبعد وفاة الشيخ محمد ، تولى منصبه الشيخ بادى ولد رجب ابن أخ الشيخ محمد. وقد حاول الفونج التخلص منه ، إلا أن مؤامرتهم انكشفت ، فكانت النتيجة عزل اسماعيل ونفيه الى سواكن ، كما انتقم الشيخ من أعوانه ، وأخذت الفتنة تعمل فى الخفاء ، فكان التطاحن الداخلى بين القبائل والزعامات وقتل فى هذه الفتنة الشيخ بادى ولد رجب نفسه ، وتولى رجب بن محمد . وفى أثناء غيبته فى كردفان ، اشتدت حركة المقاومة والتف المناوءون لوزارة الهمق بالسلطان عدلان بن اسماعيل، الذى خلف والده بعد نفيه ، وقد زين هؤلاء للسلطان أن يضرب ضربته ، فى غيبة الشيخ رجب للخلاص من الهمق ، واستنجد السلطان ببعض القبائل المناصرة له لمساعدته فى حركته ، ليقضى على الهمق ومعاونيهم ، ومن بينهم الشيخ ابراهيم أخ الشيخ رجب ، كما أراد قتل الأنقيب(٥١) النعيسان ، الذى هرب إلى كردفان عندما تأكد من تدبير السلطان لقتله وبوصوله إلى معسكر الشيخ رجب ، دخل عليه وبادره دون أن يحييه كما تقضى التقاليد بقوله :

« يؤاجركم القيوم ، فى حكم اللى قتل الصقر اللى يحوم ، اللى هنا وهناك مين اللى قتل محموم ، فيكم مشى والا برايا أنا أقوم » .

---

(٤٩) مخطوطة سنار ص ١٣ ب .

(٥٠) مخطوط سنار ص ١٤ .

(٥١) الا نقيب هو اللقب المحلى الذى يعرف به الشاعر المحلى الذى يرافق أصحاب الجاه والسلطان يقرض لهم الشعر وينشدهم آيات المدح والتحريض على الحرب ويدخل السرور على نفس سيده بالغناء والقصص .

وحملت هذه العبارة نبأ مقتل الشيخ ابراهيم أخ الشيخ رجب ، وهو الذى يشير إليه « بالصقر اللى يحوم » ، أى الصقر الذى يرتاد ساحة الوغى ، وقوله « اللى هنا وهناك ، مين اللى قتل محموم » أى أنتم الذين هنا وهناك أن الصقر قد قتل غيلة » ، وطلب الانتقام لقتله فى قوله « فيكم مشى والا برايا أنا أقوم » أى هل منكم من يثأر له ، والا أنا أتولى الأخذ بالثأر » ، وفى هذا القول استنهاض للهمم ، واستفزازها لسرعة العمل للأخذ بالدم .

ولم ينته النعيسان من نعيه ، حتى هب الشيخ رجب فزعا مردداً « أقتل أخى » ونادي إلى بطانته قائلا « دنجر » ، أى دقوا النحاس (طبول الحرب) إعلاناً للخبر واستمر البكاء والحزن ثمانية أيام . وحزنت النسوة والجوارى أربعين يوما ، لم ترفع فيها امرأة رأسها ، كما تقضى العادات والتقاليد المحلية ، فى مثل هذه الظروف ، ومنها النوم على الأرض ، وعاد الشيخ رجب بجيوشه إلى سنار ، وحصل قتال مع الجيش الذى أعده السلطان عدلان فى مكان يقال له انطرحنا » فى الجزيرة ، وكان قتالا شديداً ، انتهى بهزيمة جيش السلطان ، الذى توفى مغموما مقهوراً ، لما لحق جيشه من خذلان . واندلعت نيران الفتنة ، واشتد أوارها فأكلت اليابس والأخضر ، وانقسمت البلد معسكرات تتطاحن فى عراك مستمر ، وصارت مقاليد الأمور تنتقل من يد إلى يد فى فترات متقاربة ، وأخذ الزعماء ينادى بعضهم بسلطان ، بينما ينادى الفريق الثانى بسلطان ثان ، وهكذا حتى بلغ عدد من تولى فى الفترة من ١٧٨٧ حتى حكم سنار فى منتصف ١٨٢١م ، أى خلال مايقرب من أربعة وثلاثين عاماً ، تسعة ملوك وهم أوكل الذى ولاه الشيخ ناصر ، ولم يمكث إلا قليلا ، وخلفه طبل ثم بادى ثم رباط وقد قتل هؤلاء الثلاثة فى الحلفاية (شمال الخرطوم) . فى الحروب الداخلية بين الزعماء ، وجاء بعدهم حسب ربه ثم نوار وقد قتله الشيخ لخوفه من سطوته ، وتولى بعده بادى وكان صغير السن ، وبعد قليل نادى الشيخ كمتور بسلطان آخر اسمه رانفى ، واشتبك الفريقان المتعارضان ، وانتهى القتال بالصلح ، على أن يعزل بادى وأن يبقى رانفى ، وبعد فترة استمرت عاما واحداً ، كان فيه العرش شاغراً ، أعيد بادى إلى العرش ، وقد حكم بادى حوالى الثمانية والعشرين عاما ، من مجموع الأربعة وثلاثين عاما ، التى حكم فيها تسعة ملوك ، كما أشرنا فتكون بذلك المدة التى حكم فيها الثمانية ملوك الآخرين هى ست سنوات تقريباً ، وتنقص من هذه المدة عاما كان فيه العرش شاغراً ، وبهذا تكون مدة حكم الثمانية ملوك الآخرين خمسة سنوات تقريباً ،

ومن هذا يتبين مدى ما أصاب البلاد من انحلال وتعطيل لمرافق الحيـاة ، وما ساد من قلق وفزع ، كثرت معه هجرات القبائل، وبخاصة فى المنطقة الوسطى من السودان، وهى التى تشمل أرض الجزيرة والبطانة [٥٢] . وكانت هذه الحالة المتدهورة ، فرصة سانحة لازدياد نفوذ رجال الدين من الفقهاء ، وسيطرتهم على العامة ، الذين لجأوا إليهم لسؤال الله تعالى ليرفع عنهم الغمة .

* * *

وبينما كانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ ، تغيرت الأحوال فى مصر باختفاء الحكم المملوكى ، وهرب جماعة منهم إلى شمال السودان ، محـــاولين تثبيت أقدامهم واقامة حكومة . يسيطرون بها على البلاد فزاد بذلك الظلم والتدهور ، مما دفع الزعماء من مختلف نواحى السودان إلى الهجرة إلى مصر ، ومنهم من سافر إلى الحجاز ،حيث التقوا بمحمد على (خلالى حرب الوهابيين) وقد طلب هؤلاء منه المعونة لوضع حد للقلاقل والحروب المحلية ، بعد أن توقفت التجارة وتعطلت الحياة الاقتصـــادية ، وخيم على البلاد شبح الخراب والدمار .

وجاءت المعونة المصرية بعد الانتهاء من حرب الحجاز ، فى صورة حملة قادها اسماعيل كامل ابن محمد على كما سنبينه فيما بعد ، وطويت صفحة من تاريخ السودان ، بتنازل السلطان بادى آخر ملوك سنار ، عن ملكه يوم دخول الحملة الى عاصمة البلاد، حيث وقع السلطان الوثيقة ، التى اعترف فيها بتبعيته للسلطان العثمانى، وتسليمه إدارة البلاد إلى حكم مصر ، الذى امتد إلى السودان فى عام ١٨٢٠ / ١٨٢١ ميلادية .

ويجمل بنا قبل أن ننتقل إلى امتداد الحكم المصرى إلى السودان ، أن نستعرض تطور الأحوال فى السودان ، والعوامل التى قوضت أركان السلطنة السنارية ، وسببت انحلال المملكة .

فالسلطنة ق. بدأت سنواتها الأولى ،التى امتدت أكثر من قرن فى رعاية التجارة، التى أقامت على أساسها جهاز الحكم ، ووطدت علاقاتها مع باشوات البحر الأحمر من العثمانيين ، وبقيت الحال قائمة على جانب واحد ، لم تتجاوب معه مشاعر أهل البلاد ،

---

(٥٢) من هؤلاء المهاجرين من نزل فى المنطقة شمالى مدينة أسوان مباشرة (أبو الريش قبلى وبحرى) وتقول الروايات المحلية ان جدهم ونس قد جاء إلى أسوان فى طريقه للحجاز وفي أسوان وافاه القدر المحتوم وبقى ابنه الذى كان صغيراً حتى بلغ الرشد ثم عاد الى السودان .

وكانت موارد السلطنة والزعامات الأقليمية المتحالفة مع سنار على أساس تنظيمات « الجمهورية التجارية » ، التى كان زعماؤها يقومون باحتكار التجارة ، فى المنتجات المحلية وتصريفها فى الأسواق الخارجية ، واستيراد الحاجيات الأخرى من خارج البلاد ، وبالاضافة إلى ذلك كان زعيم كل أقليم يجمع العشور والضرائب عن يد رجاله ، وفق النظام الاقطاعى فى الشرق ، وكان يدفع جزءاً من ذلك المتحصل الى زعيم الدار ، وهذا بدوره يدفع نصيبا لخزانة السلطان ، وكان طبيعياً أن تتسرب الى هذا النظام مساوىء ، تخرج به من حدوده المعقولة ؛ الى إضافة مبالغ للعمال القائمين على الجباية ، فى صورة أواخر منها « حق الضيافة » ، كما كان على المواطن أن يدفع نصيباً من زكاته للفقيه المحلى ، وغير ذلك من الالتزامات الاجتماعية ، مما زاد العبء على كاهل القبائل والعشائر ، مما صار بمضى الزمن حقـاً مكتسباً ، بصرف النظر عن ما يصيب البلاد من كساد ، وبخاصة بعد أن أشتدت المنافسة بين العثمانيين والفرنجة ، وتحول التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح ، ونزول الأوروبيين فى غرب أفريقيا ، وانشائهم مراكز تجارية ، أخذوا منها فى توسيع نفوذهم الى داخل القارة الأفريقية ، ولم تقو السلطنة على الاحتفاظ بمركزها ، لأنه لم يقدر لها أن تتخذ من أساليب الحكم ، ما يتمشى مع التطور الطبعى للأشياء ، ولم تعمل على أن تجمع بين مختلف المجموعات القبلية ، لتوحد بينهم فى مصلحة عامة ، كما انها تركت التقاليد المحلية ، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقة الأرض بالفرد والزعيم ، فلم تربط بينهم الا وشائج بالغة فى الضعف ، ومع ما فى هذا النظام من فساد عطل التطور ، وسبب الركود والجمود ، فان اغتصاب الهمق للسلطة ، وجعلهم للسلاطين رمزاً ، لا قيمة لهم ادارة شئون البلاد ، قد انتكس بنظام « الجمهورية التجارية » ، وأرجع البلاد الى حكم اقطاعى فى أحط درجاته ، ومما زاد الأمور تعقيداً وجود الزعامات الدينية المحلية ، التى كونت سلطة ثانية فى البلاد لها نفوذها ، وكان من المنتظر أن تعمل هذه الزعامات لتكوين قوة ، لها شأنها فى حفظ التوازن ، مع سلطة الزعماء والسلطان ، الا ان هذه الزعامات الدينية قد انحرفت فيما بينها ، وانعدمت العلاقات الطيبة بين الفقهاء ، وعمل هؤلاء على اشاعة روح التعصب والتنافس ، وتحول اهتمام الكثير من هؤلاء الى كسب المال ، عن هذا الطريق أو ذاك ، وانقسمت القبائل الى معسكرات ، يتطاحن بعضها البعض ، وعمل اليأس والقنوط الذى خيم على الحيـاة اليومية ، على انهيار المجتمع وتكونت منه مجموعات مسعورة ، تعمـل على السلب والنهب ، فتركت الأراضى

الزراعية وهجرها القائمون عليها قانعين بالقليل ، والتجأ الشعب الى أصحاب السجاجيد وخلفائهم فى قضاء الحاجات ، من دفع للأذى والضر وجلب للمنفعة ، والخير والمثوبة من الله تعالى ، ويكفى دليلا ماجاء فى كتاب الطبقات ، الذى يعطى لنا صورة واضحة عن الانحلال الذى أصاب البلاد وأثر خوارق العادات التى نسبت الى الفقهاء .

وكان من نتيجة اشتداد حالة القلق ، بسبب العدوان بين مختلف المعسكرات ، ان حطت الفاقة والذلة على الشعب ، فانحلت بذلك الروح المعنوية ومركز السلطة ، لأكثر من سبب وفى مقدمة تلك الأسباب : ــ

أولا : نظام ولاية العرش والتنافس بين الزوجات من بنات عين الشمس (٥٣) ، وبين الزوجات اللائى ارتفعن إلى مصاف الزوجية الشرعية لسبب أو آخر .

ثانياً : ضعف سياسة الحكم ، وعجزها عن خلق عناصر جديدة ، ومقومات تهدف إلى قيام وحدة قومية ، وحياة اقتصادية ، تغنى البلد عن اعتمادها الكلى على التجارة المرورية ، ولم تقم فى البلد صناعات ألخ لخ .

ثالثا : فشل الحكومة المتحدة (الجمهورية التجارية) التى مركزها سنار فى إنشاء حكومة مركزية قوية الجانب ، وبالتالى فشلت فى خلق رجال الصف الأول لتحمل المسئوليات .

رابعاً : قيام سلطات دينية متعددة ، وغير مرتبطة مع بعضها فى القيام بعمل مشترك هدفه الاصلاح .

خامساً : إسراف السلاطين فى حياة الترف والملذات ، وأوضح دليل ما كان من حالة السلطان بادى الأحمر (١٦٩٢ / ١٧١٦ ميلادية) وابنه السلطان أونسه ،الذى تولى الحكم فى ١٧١٦ / ١٧١٩ ميلادية كما سبق بيانه .

---

(٥٣) من التقاليد المرعية أن يتزوج السلطان أوعلى الأقل أن تكون زوجته الشرعية الأولى من بيت عرف باسم بيت عين شمس كما جاء فى مخطوطه « فينا » ويبدو أن هـذا البيت كان فى الأونساب التى منها السلطان « نول » وهى لا تقل فى مركزها الاجتماعى عن البيت المالك وموطنها أصلا خور « أنسبا » بالأريتريا الذى أخذت منه اسمها حيث تأثرت بيئتها بالتقاليد المصرية القديمة التى امتدت وشملت ذلك الجزء من شمال أثيوبيا ــ وبنت عين شمس ترجع الى العبادة الفرعونية « للشمس » وقد عرف السلطان نول بسيد قوم الشمس كما جاء فى مخطوطه تاريخ مدينة سنار لكاتب الشونة .

سادساً : استخدام جماعات من الأقليات ،لتولى تصريف شئون الدولة الأمر الذى ترتب عليه ابعاد أهل الشورى والخبرة ، وخلق التذمر والقلق .

سابعاً : الابقاء على تقاليد توزيع الأراضى ، فى الزعامات المحلية المختلفة ، وكان هذا العامل الأساسى فى بده بذور الفتنة والتطاحن .

ثامناً : كان حكم وزراء الهمق حكما فرديا ، تسنده القوة وهذا النوع من ولاية الحكم يغرس معه بذور الانحلال ، وتنتكس معه الظروف القائمة إلى حالة بدائية .

الترتيب الزمنى لولاية الحكم

فى السلطنة السنارية

١ ـ هذه محاولة تهـــدف نحو تحقيق الترتيب الزمنى فى السلطنة السنارية ، وقد اعتمدنا فى ذلك على دراسة مقارنة استعرضنا فيها ، مانقله بروس فى عام ١٧٧٢ م عن « سيد القوم » ، وهذا هوأقدم جدول وصل إلينا ، ثم ماكتبه ود ضيف‌الله، فى طبقاته قبيل وفاته فىعام ١٨٠٩ ميلادية ، وماكتبه كايو فى رحلته التى نشرت فى عام ١٨٢٦ م ، ومخطوطة كاتب الشونة التى أنهاها فى عام ١٨٣٨ م ، ومنها نسخة محفوظة فى مكتبة فينا وتنتهى فى ١٨٢١ م ، وكتاب تريمو الذى نشر فى ١٨٦٢ م ، وتاريخ شقير طبع ١٩٠٤ م (٥٤) ، وقد روجعت‌المعلومات التى وردت فى هذه المصادر على بعض المستندات (٥٥) الخطية ، الصادرة من بعض السلاطين ، وقد حددت هـــذه المستندات الزمن الذى صدرت فيه ، وهذا يقدم بدوره دليلا على ان السلطان صاحب الوثيقة كان جالساً على العرش فى ذلك الوقت .

---

(٥٤) راجع : بروس . رحلة ـ ود ضيف الله ـ الطبقات ، كايو ـ رحلة، مخطوطه تاريخ‌سنار بدار الـكتب المصريه بالقاهرة تحت رقم ١٨م ، تريمو ـ رحلة ، نعوم شقير ـ تاريخ السودان طبع القاهرة ١٩٠٤م

(٥٥) المستندات المشار اليها (وقد نشرت فى ملاحق الـكتاب) وهى :

١ ـــ كتاب من السلطان محمد بادى عجيب لأهله فى دنقله .

٢ ـــ كتاب من السلطان عدلان بن محمد

٣ ـــ وهنالك وثيقتان نشرهمـــا أركل (ترجمة انجليزية) فى مجلة السودان فى رسـائل الخ مجلد ١٥ ص ٢٤٨/٢٥٠

٢ ـ فاذا رجعنا إلى قوائم السلاطين ، التى وردت فى المصادر التى أشرنا إليها آنفاً ، نجد انها قد كتبت بعد انقضاء مدة تقرب من الثلاثة قرون ، فيما يخص بروس ، وأكثر من ثلاثه قرون للمصادر الأخرى ، ولذلك كان طبيعياً أن تكون هنالك اختلافات ، وبخاصة تاريخ سلاطين الصدر الأول للسلطنة ، وقد كان أحمد الحاج أبو على المعروف بكاتب الشونة وصاحب المخطوطة المشهورة باسمه هذا ، أكثر توفيقاً فى التنبيه إلى ذلك ، حيث يقول « سنذكر ذلك ان شاء تعالى تفصيلا وإجمالا على حسب ما عرض على المسامع من غير ترتيب ، لأنى لم أره مرتباً ، بل حكايات واردة ، ولم تخل من التقديم والتأخير والتبديل والتغيير [٥٦] .

٣ ـ وردت سنوات الحكم فى مصادرها المحلية بالتاريخ القمرى وقد اتخذ كل من بروس وكايو وغيرهما فترات الولاية ، التى أمضاها كل سلطان ، أساساً لتحديد التاريخ ، الذى اعتبره كل منهم بدء حكم البيت السنارى ، وقد وصلوا إلى ذلك بأنقاص سنوات كل سلطان من العام الهجرى السابق ، لوجودهم فى سنار ، وأخذوا طريقهم فى ترتيب تنازلى ، حتى وصلوا إلى تحديد بدء ولاية السلطان عميرة فى أوائل عام ١٥٠٤ ميلادية ، لبروس وعام ١٤٨٤ م لكايو .

فحسبما ذكره بروس قد بلغت ولاية التسعة عشر سلطانا ، التى سبقت ولاية اسماعيل بن بادى ، ٢٦٥ عاماً قمريا وهذه تعادل ٢٥٦ عاماً شمسياً [٥٧] ، وحسبما جاء فى كايو بلغت ٣٣٥ عاماً قمريا للسلطنة ، من قيامها حتى نهايتها ، وهذه تعادل ٣٢٤ عاماً شمسياً ، وقد أسقط كايو من حسابه ما يزيد عن السنتين والنصف ، التى بقى فيها العرش شاغراً لسبب أواخر من المشاكل الداخلية .

٤ ـ أخذ بروس وكايو بهذه التقديرات ، وحدد كل منهما التاريخ الذى قامت فيه السلطنة فى سنار ، وذلك بأن خصم بروس الـ ٢٦٧ عاماً قمريا من السنة السابقة ، وهى ١٧٦٩ م التى انتهى فيها حكم سلف اسماعيل أى ١٧٦٩ - ٢٦٥ = ١٥٠٤ م ، وقد

---

(٥٦) مخطوطة تاريخ سنار ـ دار الكتب المصرية ١٨ م

(٥٧) كان التاريخ الشمسى قبل نهاية عام ١٥٨٢ م (المعروف بالتاريخ الجوليانى) يسبق التاريخ الجديد بعشرة أيام لهذا أعاد البابا غريغورى الثالث عشر تنظيم التاريخ وذلك بأسقاط عشرة أيام من ٤ إلى ١٥ أكتوبر ١٥٨٢ م وبذلك بدأ عام ١٥٨٣ م عشرة أيام سابقة لتاريخ بدئه وفق التاريخ الجوليانى وكان بدء العام الهجرى ٩٩١ فى ٢٥ يناير سنة ١٥٨٣ م بدلا من ١٥ يناير سنة ١٥٨٣

فات على بروس ان الـ ٢٦٥ عاماً كانت بالحساب القمرى ، وقد ربط بروس هذه السنة (١٥٠٤ م) بغزوة الشلك لأرض الجزيرة ، وتأسيسهم للسلطنة السنارية ، بعد محالفتهم مع العرب (٥٨) .

وهذا القول عن غزو الشلك لأرض الجزيرة لا نصيب له من الصحة للأسباب الآتية : -

أولا : لأن السلطان السنارى الأول كان فى عاصمته فى منطقة لملم على الأقل بعد زيارة داود روبينى فى ١٥٢٢ / ١٥٢٣ م .

ثانياً : ان مملكة علوة كانت قائمة فى صورة ما حتى عام ١٥٠٤ م ، وان نفوذ السلطان عميرة ، قد امتد إلى هذه المنطقة ، قبل ذلك التاريخ كما أوضحناه فى موضعه .

٥ — وقد سار كايو على نفس الطريقة ، التى اتبعها بروس فى تحديده تاريخ قيام السلطنة فى سنار ، وذلك بأن خصم الـ ٣٣٥ عاما قمرياً من العام السابق لزيارته لسنار أى ١٨١٩ - ٣٣٥ = ١٤٨٤م ، أما كاتب الشونة فقد كان أكثر توفيقاً منهما ، حيث ذكر أن السلطان عميرة تولى فى أول القرن العاشر الموافق ١٤٩٤/١٤٩٥ ميلادية ، ويقول فى مخطوطته أول عمارته بسنار أول القرن العاشر بعد التسعمائة ، وملك أربعين سنة فغاية ملكه إلى سنة أربعين بعد التسعمائة ، وهذا يوضح أن عميرة قد أنشأ سنار فى ٩١٠ هـ (١٥٠٤م) أى بعد ولايته الحكم بعشرة سنوات ، ومن الواضح أنه لم ينتقل إليها نهائياً إلا فى حوالى ١٥٢٥ م ، وقد سبق انتقاله هـذا ، امتداد نفوذه إلى حوض النيل الأزرق ، فليس هنالك إذن مجال للشك فى أن عميرة قد أعاد تعمير سنار فى ١٥٠٤م ، وانتقل إليها بعد ذلك بحوالى العشرين عاما .

٦ — ونجد فى القائمة أ . المرفقة مع هـذا ، بياناً عن فترات ولاية الحكم ، كما جاءت فى مختلف الروايات التى لاتتفق فى بياناتها فى أكثر الحالات ، كما أننا لانجد فى هذه الروايات تاريخاً محدداً تحديداً دقيقاً ، بالنسبة لليوم والشهر والسنة لولاية الحكم واعتزاله ، لذلك من الصعب الوصول إلى تحديد تاريخى صحيح فالسنوات متداخلة بعضها فى البعض، غير أن هذه الصعوبات لاتمنعنا من محاولة ترتيب السلاطين ترتيباً زمنياً لأقرب سنة ، وسوف يبقى الحال على ماهو عليه الآن ، حتى يعثر على

---

(٥٨) أنظر رحلة بروس (بالانكليزية ص ٤٦٤ من الجزء الرابع

وثائق جديدة تلق ضوءاً ، على فترات حكم السلاطين الذين سقطت أسماؤهم من القوائم التى لدينا ، ومن هؤلاء السلطان صابر المشهور بعجيب وابنه السلطان جمره ، اللذين ورد ذكرهما فى خطاب السلطان محمد بادي عجيب ، الذى أوضح فيه « ومستوى فى زمنى الآن عشرة سلاطين على المنابر فى دار الدنيا وأنا العاشر » .

٧ — وإذا أخذنا بالقوائم الموجودة وأضفنا إليها اسم السلطان صابر المشهور بعجيب والسلطان جمره ابنه ، فان ذلك يجعل بادى سيد القوم فى مكان يختلف عماهو عليه الآن ، ويبدو لنا والحالة هذه بأن بعضاً من السلاطين الذين وردت أسماؤهم فى القوائم ، كانت لرجال تولوا المشيخة واختلطت أسماؤهم مع السلاطين ، بسبب مضى زمن طويل قبل جمع هذه المعلومات، وقد يكون بعض هؤلاء المشائخ (الوزراء) ممن كانت لهم شخصية قوية ، حجبت السلطان الأصيل ، ومن هؤلاء السلطان عدلان ولد آى صاحب قتال كركوج ، والذى عزل فى الوقت الذى كان فيه موجوداً فى دنقله وكان ذلك فى الفترة التى كانت تعانى فيها السلطنة من الاضطراب الداخلى ، الذى أخذ مظهره فى تمرد الزعماء ، ومنهم الشيخ عجيب المانجلك ، وحدث بعد ذلك التطاحن الذى انقسمت معه البلد معسكرات، فهذا ينادى بسلطان وهذا يعزل القائم بالأمر، كماحدث فى أمر رباط وأوكل وطبل وبادى ورانق ، الذين حكموا فى أواخر عهد السلطنة .

٨ — ويلاحظ أن الفترة الذهبية للسلطنة قد استمرت ما يقرب من القرنين من الزمن تداول الحكم فيها خمسة عشر سلطانا ، فيكون معدل السنوات التى قضاها السلطان الواحد حوالى أربعة عشر عاما . ونجد أن السلطان عميرة قد حكم أربعين عاما فى رأى وحوالى الثلاثين فى آراء أخرى وحكم كل من رباط وبادى أبو دقن وبادى الأحمر وبادى أبو شلوخ ما يقرب من ذلك . ولاشك أن هذه المسألة جديرة بالاهتمام ، والبحث عسر أن تظهر بعض المستندات المحلية ، من توثيق الأراضى والخطابات الخ الخ .

٩— وتبين فى الجداول المرفقة أسماء السلاطين ، وفترات حكمهم بما لدينا من روايات محلية وغيرها ، بعد تحقيقها كما يتبع ذلك الجدول بجدول، يبين الترتيب الزمنى لولاية الحكم ، فى أقرب حدوده الزمنية .

قائمة ـ ا ـ عن سنوات الحكم كما جاءت فى الروايات المختلفة

اسم السلطان	بروس	كابو	كاتب الشونة	تريمو	شقير
١) عميرة	٣٠	٣٢	٤٠	٣٤	٣٠
٢) عبد القادر	٨	١٠	١٠	١٠	١٠
٣) نايل	١٧	١٢	١٢	١٢	١٢
٤) عمارة أبو سكيكين	١١	٨	٨	٨	٨
٥) دكين	١٧	١٧	١٥	١٧	١٥
٦) دوره	٣	٨	٨	٨	—
٧) طبل	٣	٥	٤	٥	١٢
٨) أونسه	١٣	١٢	١٢	١٢	١٠
٩) عبد القادر	٤	٤	٤	٤	٦
١٠) عدلان ولد آى	٥	٥	٣	٥	٧
١١) بادى سيد القوم	٦	٧	٧	٧	٣
١٢) رباط	٣٠	٢٧	٢٩	٢٧	٢٨
١٣) بادى أبو دقن	٣٨	٣٧	٣٦	٣٧	٣٥
١٤) أونسه	١٢	١٢	١٢	١٢	١٢
١٥) بادى الاحمر	٢٥	٢٧	٢٧	٢٧	٢٦
١٦) اونسه	٣	٣	—	٣	٣
١٧) نول	٤	٤	٤ر٨	٤	٦
١٨) بادى أبو شلوخ	٣٩	٤٠	٤٠	٣٣	٣٨
١٩) ناصر	٨	٨	٨	٣	٧
٢٠) اسماعيل		٨	٨	٨	٨
٢١) عدلان		١٢	١١	١٢	١١
٢٢) رباط			شهر	١	١
٢٣) اوكل		٢	١ر٦	٢	
٢٤) طبل		٢	١	٢	
٢٥) بادى		٢	١	٢	٢
٢٦) حسب ربه		—	١	—	١
٢٧) نوره (نوار)		١	١	١	١
٢٨) بادى السادس		٦	٦	٦	٨
٢٩) رانفى		٥	٥	٥	٥
العرش شاغر		١	١	١	
٣٠) بادى السادس		١٥	١٤	١٥	١٦

جدول (ب)

	ولاية الحكم ميـــلادى من	الى	مدة الحكم
(١) السلطان عميرة بن عدلان:			
ذكرت المصادر المحليه انه قد حكم أربعين عاماً ويقول كاتب الشونة ان مدة حكمه قد انتهت فى عام ٩١٠ هـ	١٤٩٧	١٥٣٦	٤٠
عبد القادر بن عميره نايل بن عميره عماره أبو سكيكين دكين دورة (لم يذكر اسمه فى مخطوطة تاريخ سنار وتاريخ الفونج) طبـل أونسه صـابر جمره	١٥٣٧	١٦٠٢	٦٦
لا يعلم على وجه التحقيق ترتيب هؤلاء الولاة وبالتالى فان مدة حكمهم ما زالت غير معروفة . وقد ورد ذكر السلطان صابر والسلطان جمرة فى خطاب السلطان محمد بادى عجيب .			
عبد القادر بن أونسة			
خلع عن العرش والتجأ الى أتيوبيا وطلب من النجاشى حمايته ـ أنظر حوليات سيوسنس	١٦٠٣	١٦٠٦	٤
عدلان ولد آى			
ورد ذكره فى المؤلفات المحلية وفى الطبقات وقيل أنه عزل عن العرش بعد سفره الى دنقله	١٦٠٧	١٦١١	٥

مدة الحكم	الى	من	
		١٦١٢	

١٠ - بادى سيد القوم (محمد بادى عجيب)

ورد فى خطاب السلطان محمد بادى عجيب أنه « العاشر على منابر الدنيا » - ويشير فى ذلك إلى ولاية البيت السنارى للحكم . وقد يكون هذا الاسم هوالاسم الكامل للسلطان بادى أما « سيد القوم » فلا تعدو عن أنها لقب من القاب التكريم ورفعة المكانة

رباط بن بادى

فى عهده حدثت حرب اتيوبيا الاولى فى عام ١٦١٩/١٦١٨ وحضر فى مدته الشيخ عبد الرازق أبو قرون (توفى ١٦٥٠م) وغيره من الفقهاء . أنظر الطبقات ص ١٤٢ .

بادى أبو دقن ابن رباط

تلميذ الشيخ ادريس محمد الأرباب (١٥٠٧ - ١٦٥٠م) وقد عاش ١٤٣سنة - أنظر الطبقات ص١٤ زار السودان فى مدته الرحالة التركى أوليا شلبي . ولم يذكر اسمه . وكانت الزيارة فى نوفمبر - ديسمبر سنة ١٦٧٢ . وقد ذكر بروس نقلا عن القائمة التى أعطيت له فى سنار أن بادى قد توفى فى ٢٨ديسمبرسنة١٦٨٠م ويحتمل أن يكون قد تولى الحكم بعد عدلان بن محمد أنظر الطبقات طبعة صديق ص٦٠/٦٥ عن علاقة هذا السلطان بالشيخ ود الترابى .

عدلان بن محمد

أصدر أمراً لمن يتولى حكم دنقله ليدفع هبات عينيه أوضحها فى أمره لمسجد الشيخ احمد شنبو وينهى أمره هذا بقوله « يامن يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد

من	الى	مدة الحكم

المذكور أنه توصية من السلطان جمرة الأموى سنة ألفاً وأربع وثمانون (١٦٧٣/١٦٧٤م)

وكتابة التاريخ بهذه الصورة قد تشير إلى أن السلطان جمرة قد أصدر أمراً سابقاً في عام ١٠٨٤هـ (١٦٧٣ ١٦٧٤م) وأن هذا السلطان عدلان بن محمد أصدر أمره هذا توكيداً للأمر السابق. ويرجع ترجيحنا لحكم عدلان في هذه الفترة أن السلطنة قد بدأت تفقد نفوذها في المنطقة الشمالية (الشايقية ودنقلة) في أواخر القرن السابع عشر الميلادى فلابد أن يكون السلطان جمرة قد حكم في فترة سابقة من العصر الذهبي وثانياً، أن خطاب السلطان محمد بادى عجيب الذي يذكر فيه أنه السلطان العاشر كما أوضحنا سابقاً. وقد جاء فيه مايشير إلى أن السلطان صابر وابنه السلطان جمرة قد سبقا بادى محمد عجيب في الحكم.

وتتداخل فترة السلطان عدلان بن محمد في مدة حكم بادى أبودقن التي انتهت بوفاته كما ذكرنا سابقاً ويحتمل أن يكون السلطان بادى أبو دقن قد اعتزل الحكم في حوالى ١٦٧١م كما يحتمل أن يكون قد حكم بعد ١٦٧٤م وأمر تحقيق هذه النقاط متروك لما يحصل عليه في المستقبل من وثائق. — ١٨ ديسمبر سنة ١٦٨٠ | ٦٩

أونسه ابن أخ بادى أبودقن (ابن ناصر بن رباط)

جاء في قائمة بروس أنه قد تولى الحكم بعد والده السلطان بادى أبو دقن وبقى في الحكم حوالى إحدى عشر عاما وبضعة أشهر.

من	الى	مدة الحكم
٢٩ ديسمبر سنة ١٦٨٠	يونية سنة ١٦٩٢	١٢

بادى الأحمر ابن أونسه

حكم خمسة وعشرين عاما وعزل كما جاء في قائمة بروس. خرج عن طاعته أهله الفونج ومعهم الشيخ — ٦ يونية سنة ١٦٩٢

	من	إلى	مدة الحكم
أمين أرادب وعينوا ملكا اسمه اوكل لـكنه انتصر عليهم. وصله خطاب من النجاشى تكلا هما يوت بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٧٠٦ يطلب منه رعاية البعثة الفرنسية التى رأسها راءول (الذى قتل فى سنار فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٧٠٥ م.) وفى عهد زار سنار بونسيه ١٦٩٩/٨م وكرمب ١٧٠١ م والبعثات التبشيرية ١٧٠٢/١ م أنظر أيضاً الطبقات (طبعة صديق) ص ٦٠/٦٥ عن علاقة هذا السلطان بالشيخ ود الترابى .		ابريل ١٧١٦	٢٥
أونسه بن بادى : خلف والده وعزل كما ذكره بروس وبعزله انتقل الحكم إلى خلفه نول الذى يمت إلى البيت السنارى من صلة الحرم .	١٣ ابريل سنة١٧١٦	ابريل سنة ١٧١٩	٣
وقد بقى كرسى العرش شاغراً أكثر من عام	ابريل سنة ١٧١٩	٧ يونيه سنة١٧٢٠	١
نول بن بادى: حكم أربعة أعوام	٨ يونيه ١٧٢٠	سنة١٧٢٥	٤
بادى أبو شلوخ ابن نول : ذكر آركل فى مقاله بمجلة السودان فى رسائل ومدونات مجلد ١٥ص ٢٤٨/٢٥٠ انه قد وجدت وثيقتان نشرهما فى مقاله المذكور عن توثيق هبة أرض منحها الشيخ رحمه الى الشيخ اليعقوبابى وقد وقع السلطان على هاتين الوثيقتين اللتين كتبتا بتاريخ ٢٨ مايو سنة ١٧٢٤ و٢ يونيه سنة ١٧٣٤ م وقد حدثت حرب أتيوبيا الثانية فى عام ١٧٤٤ م فى عهده وذكر روس انه قد عزل عن العرش فى ٢٧ مارس سنة ١٧٦٢ وأضاف إلى ذلك ان هذا السلطان بعد عزله قد ذهب إلى أتيوبيا وطلب حماية النجاشى وإعادته لعرشه . وقد أقطعه	١٧٢٥	٢٧ مارس سنة١٧٦٢	٢٣

	من	الى	مدة الحكم
النجاشى ولاية رأس الفيل لكنه قد استدرج إلى كمين دبره له الشيخ عدلان حاكم حوض العطبرة وقد قبض عليه الشيخ ولد حسونة حاكم تيوى وقتله غيلة . وذكر بروس انه قد استقى هذه المعلومات من الشيخ عدلان نفسه .		٢٧ مارس ١٧٦٢	٣٦
ناصر بن بادى أبو شلوخ :	ابريل سنة ١٧٦٢	١٧٦٩	٨
اسماعيل بن بادى :	١٧٦٩	١٧٧٧	٨
عدلان بن اسماعيل :	١٧٧٧	١٧٨٧	١١
رباط :			
عينه الشيخ الأمين والشيخ أبو ريده منافساً لأوكل قتل فى الحلفاية	١٧٨٧	١٧٨٧	٣٠ يوما
أوكل :			
عينه الشيخ ناصر	١٧٨٧	١٧٨٨	١٨ شهراً
طبل :			
عينه الشيخ ناصر قتل فى الحلفاية	١٧٨٨	١٧٨٩	١٧ شهراً
بادى الخامس :			
عينه الشيخ ناصر قتل فى الحلفاية	١٧٩٠	١٧٩٠	١٢ شهراً
حسب ربه :	١٧٩١	١٧٩١	١٢ شهراً
نوره أو نوار:	١٧٩٢	١٧٩٣/٢	١ سنة
بادى السادس ابن طبل :	١٧٩٣	١٧٩٩	٦ سنوات
رانفى:	١٨٠٠	١٨٠٤	٥
كلن العرش شاغراً	١٨٠٤	١٨٠٥	١
بادى السادس ابن طبل :			
تنازل عن السلطنة فى وثيقة كتبها فى ٢ يونيه سنة ١٨٢١ وسلمها لقائد الحملة المصرية اسماعيل كامل .	١٨٠٦	يونيه سنة ١٨٢١ م	شهر سنة ١٤ر٥

جدول (ج)

الترتيب التتابعى	الاسم	ولاية الحكم من	السنة الميلادية الى	مدة الحكم يوم	مدة الحكم شهر	مدة الحكم سنة
١	عميرة بن عدلان	١٤٩٧	١٥٣٦			٤٠
٢	عبد القادر بن عميرة					
٣	نايل بن عميرة					
٤	عمارة أبوسكيكين بن نايل					
٥	دكين					
	دوره	١٥٣٧	١٦٠٢			٦٦
	طبل					
٦	أونسه					
٧	صابر المشهور بعجيب					
٨	جمره بن صابر					
٩	عبد القادر بن أونسه	١٦٠٣	١٦٠٦			٤
	عدلان ولد آى	١٦٠٧	١٦١١			٥
١٠	بادى سيد القوم (محمد بادى عجيب)					
١١	رباط	١٦١٢	١٨ ديسمبر سنة ١٦٨٠			٦٩
١٢	بادى أبو دقن					
١٣	عدلان بن محمد					
١٤	أونسه ابن أخ بادى أبودقن (ابن ناصر بن رباط)	١٩ ديسمبر سنة ١٦٨٠	يونيه سنة ١٦٩١	٨	٥	١٠
١٥	بادى الاحمر ابن اونسه	٦ يونيه سنة ١٦٩١	ابريل سنة ١٧١٦	٧	١٠	٢٤
١٦	اونسه بن بادى	٠٠ ابريل سنة ١٧١٦	ابريل سنة ١٧١٩	–	–	٣
	العرش شاغر	ابريل سنة ١٧١٩	٧ يونيه سنة ١٧٢٠	٧	١	١
١٧	نول بن بادى	٨ يونيه سنة ١٧٢٠	١٧٢٥	–	٨	٤

الترتيب التتابعى	الاسم	ولاية الحكم من	الى السنة الميلادية	مدة الحكم يوم	شهر	سنة
١٨	بادى أبو شلوخ	١٧٢٥	١٧٦٢	—	—	٣٨
١٩	ناصر بن بادى	١٧٦٢	١٧٦٩	—	٩	٧
٢٠	اسماعيل بن بادى	١٧٦٩	١٧٧٧	—	—	٨
٢١	عدلان بن اسماعيل	١٧٧٧	١٧٨٧	—	—	١٠
٢٢	رباط	١٧٨٧		٣٠	—	—
٢٣	أوكل	١٧٨٧	١٧٨٨	—	٦	١
٢٤	طبل	١٧٨٨	١٧٨٩	—	٥	١
٢٥	بادى الخامس	١٧٩٠	١٧٩٠	—	—	١
٢٦	حسب ربه	١٧٩١	١٧٩١	—	—	١
٢٧	نوره أو نوار	١٧٩٢	١٧٩٢	—	—	١
٢٨	بادى السادس بن طبل	١٧٩٢	١٧٩٩	—	—	٦
٢٩	رانفى	١٨٠٠	١٨٠٤	—	—	٥
	العرش شاغر	١٨٠٤	١٨٠٥	—	—	١
٣٠	بادى السادس ابن طبل (اعيد للكرسى)	١٨٠٦	يونيه ١٨٢١	—	٥	١٤
				٢٢	٢	٣٢٥

التنظيمات الادارية والاجتماعية وتقاليد الحكم

فى الحلف السنارى

١ - التنظيمات الإدارية والاجتماعية :

قامت زعامة السلطان السنارى فى حوض وادى النيل الأوسط ، كما سبق أن أوضحنا ، على طراز « الجمهورية التجارية » . وأشرنا فى استعراضنا لتطور المجتمع فى البيئة والتقاليد والعادات المحلية وما تركته من أثر فى توجيه هذا الطراز الجديد من الزعامة ، بعد صراع عنيف انتصرت فى نهايته المميزات الموروثة عن أقدم العصور وانطبعت معها تنظيمات الزعامة بالطابع المحلى ، ويبدوا هذا واضحاً فى مقومات بناء القرية ، التى تكون الخلية الأولى فى بنية المجتمع السودانى ، ثم ينتقل إلى وحدة أعلى ، وهى المدينة الصغيرة ، ثم الى ثالثة وهى المدينة الكبرى ، التى تتجمع فيها التجارة ، وبها سوق القوافل ، التى تحط رحالها فى هذه المدن الكبرى فى الغدو والرواح .

فالقرية وهى المعروفة محلياً « بالحلة » ، قد تتكون من أسرة واحدة عديد أفرادها ، أو من مجموعة من « قبيلة » ، أو بطون قبائل ، متآلفة مع من دخل فى كنفها من السكان المحليين ، ويتولى شئون القرية زعيم يعرف بالشيخ ، وفى بعض الحالات بالأرباب ، إذا كانت له بالبيت الحاكم ويعاون الزعيم أكابر القرية (الأجاويد) ، وقاضى وهو فقيه ، الذى يتولى أيضاً أمر التعليم ، ويساعد الزعيم جماعة ، من اتباعه الذين يعهد إليهم بوظائف الكتابة ، والعشور والمحافظة على الأمن ، ويتأثر هؤلاء فى عددهم ووظائفهم ، بمركز القرية الاقتصادى ، الأمر الذى يختلف بين منطقة وأخرى والقرية تتكون من مجموعة قليلة من المساكن ، وتنتشر عادة المساكن بعيداً عن القرية ، وعلى طول الأراضى الزراعية التى كانت ملكا للقبيلة ، ويقوم الشيخ بتوزيعها على أفراد قبيلة ، وفق النطاق الذى يراه من ناحية قدرتهم على العمل فى الأرض ، وقد تدخلت فى التوزيع عوامل أخرى ، وقد ذكر كرمب انه وجد البيوت والأكواخ منتشرة على طول الطريق فى منطقة « دنقله » (٦٠) ، وتقوم المساكن عادة على أطراف الأرض الزراعية ، بعيدة عن مجرى المياه من نهر النيل أو روافده ، ولا يختلف الحال كثيراً من ناحية الأسس التى قامت عليها القرية ، عن حال المدينة الصغيرة أو

---

(٦٠) رحلة كرمب فى كتاب مملكة الفونج فى سنار لكروفورد بالانكليزية ص ٢١٥

الكبيرة ، فالقرية تسيطر على عدد من الحلال ، التى تنتشرها هنا وهناك على أطراف الأراضى الزراعية أو مواطن الوعى ، ويتولى شئونها الشيخ وجماعته الصغيرة من قاضى وعمال ، وتسيطر المدينة على مجموعة من القرى ، ويتولى شئونها مانجل أومك ، أما المدينة الكبرى وتكون عادة واقعة على ملتقى طرق القوافل ، وتسيطر على عدد من المدن الصغيرة ، وما يتبعها من قرى وحلال ،ويتولى شئون هذه الوحدة الكبرى ، زعيم الدار ويحمل لقب مانجل وينادى بالأرباب ، وولاية السلطة للشيخ والملك والمانجل وراثية ، يتبادلها الزعيم وأقاربه أو من ينتمون اليه .

وتقام فى المدن الصغرى والكبرى الأسواق الأسبوعية (يختار يوم معين لكل منطقة ليتناسب مع المصلحة العامة للسكان لكى يتمكنوا من الانتقال من سوق إلى سوق) ، ففى هذه الأسواق يتبادل الأهالى مختلف منتجاتهم المحلية ، وكان التبادل غالباً عن طريق المقايضة فى القرى والمدن الصغرى ، أما فى المدن الكبيرة فكانت تستخدم بعض العملات الاسبانية وغيرها .

ويتحصل المانجل أو الملك على نصيبه من الدخوليات ،ومن المكوس على القوافل التى تختلف قيمتها بين منطقة وأخرى ، ويدفع الزعيم المحلى جزءاً من حصيلته ،العينية والنقدية إلى خزينة السلطان السنارى،وكانت هنالك ثلاث مراكز جمركية فى السودان هامة الأول فى دنقله ، والثانى فى قرى ، والثالث فى تشلجه .

وتميزت العلاقات بين الأهالى والزعيم المحلى بالطابع الدينى ، الذى لا يختلف عما كانت عليه حال القرية فى عصور الفراعنة ، التى تركت رواسبها وكيفت نفسها فى القالب الجديد ، لتتمشى مع الدعوة الإسلامية ، التى أزالت الفوارق الطبقية،وهدمت أركان الأقطاع القديم ، باشراك الفرد ليجنى نصيباً من تعبه ، ليستمتع بحياة مناسبة رفعته من أغلال العبودية إلى مستوى إنسانى ، وبدأت البلاد فى الاتجاه نحو بناء جديد فى الاقتصاد والاجتماع .

ونجد الطابع الدينى واضحاً ، كل الوضوح فى الطقوس التى تتبع فى تقليد ولاية الملك للسلطان ، بصفة خاصة كما سنتعرض له فيما يلى :

٢ - تقاليد الحكم :

تصور لنا طقوس ومراسيم ولاية الحكم ، فى السلطنة السنارية مدى الارتباط الوثيق بين الماضى البعيد والحاضر ، تصور مدى ما أحرزت التقاليد الموروثة من

انتصار ، فى صراعها مع تقاليد العرب والمسلمين ، فاذا رجعنا إلى الماضى البعيد نجد أن الحاكم كانت له شخصيته ، التى استمدت قدسيتها من الدين ، وكان عليه قبل أن يباشر سلطانه أن يتدرج فى طقوس ومراسيم ، ليتطهر جسده وترتقى به عن مستوى البشر ، وكان له مطلق التصرف فى رعيته واستعبادهم ، وإذا أراد أمراً قالوا له « فلتكن مشيئتك » ، واستمرت هذه التقاليد فى عهد المسيحية فى صورة لم تتأثر بتعاليم الدين الجديد ، وعندما دخل الاسلام السودان ، تفاعل مع هذه التقاليد ونشأت صور جديدة ، لها مظاهرها من الأوضاع القديمة والحضارة الجديدة ، واستطاع الاسلام إذن أن يدخل بعض التعديلات التى لم تغير من طبيعة التقاليد ، فانفلقت النواة وتقاسمها الحاكم والفقيه .

فالسلطان لايصل إلى كرسى الحكم ، إلا بعد أن يخضع لمراسيم ترفع من شخصيته ، عن مستوى الرعية وتؤهله للقيام بأعبائه التقليدية ، ومنها رمى البذور الأولى فى موسم الزراعة ، وافتتاحه لدورة الحصاد ، ولهذا ارتباطه بالعقيدة الموروثة ، التى لاتتم أركانها إلا بعد قيام الحاكم بهذه التقاليد ، لضمان الخير والبركة ، التى سوف تجعل المحصول وفيراً لايتعرض للآفات الزراعية ، أو أى مؤثر آخر يقلل من غلته ، كما كان على السلطان أن يتولى تكريس الزعماء المحليين ، وأعطاهم البركة ، قبل ممارسة مهام مراكزهم ، أما الفقيه فعليه أن يؤدى الصلوات للاستسقاء وغير ذلك من التوجه إلى الله تعالى ، لدفع الأذى والضر والاكثار من الخير والبركات ، كما كان على الفقيه أن يقوم بتكريس من ينتخب للنيابة عنه ، فى تولى أمر سجادته فى المناطق البعيدة ، عن مركز سجادته الرئيسى .

وليست هذه التقاليد فى شطريها ، ما يمارسه السلطان وما يمارسه الفقيه ، إلا صورة مما كانت عليه فى العهد الفرعونى ، وهذه التقاليد منتشرة فى السودان وفى المناطق المجاورة ونجدها فى صورة واضحة فى مناطق العزلة فى السودان .

ويهمنا قبل أن ننتقل إلى استعراض هذه الطقوس والمراسيم التقليدية ، أن نحاول التعرف على الأسباب التى عملت على الابقاء على هذه الحضارة فى صورة أو أخرى ، طوال هذه العصور ، ومن دراستنا السابقة عن دخول الاسلام السودان ، ظهر لنا أن المجتمع كان فى حالة ركود وجمود من أثر الانحلال ، الذى أصابه فى الفترات التى سبقت دخول الاسلام ، ولم يمكن للوافدين من العرب والمسلمين ، أن يدخلوا على

المجتمع السودانى ما يعرضه لهزات فكرية عنيفة ، أو تغيير ذى شأن فى مقومات حياته الاقتصادية والاجتماعية ، لأن دخوله كان هادئا ، يحمله التجار والدعاة ، وبعض العلماء الذين صهرهم المجتمع ، وحولهم إلى الاهتمام بمصالحهم الدنيوية ، لذلك أهملوا تكوين أجيال ، تحمل من بعدهم رسالتهم الدينية فى صورتها الصحيحة ، وتسربت دعوتهم الدينية فى يسر أبق على كثير من الأوضاع ، التى كانت تعيش فى ظلها القبائل ، وساعد هذا الحال على إيجاد انطباعات جديدة من صور الماضى .

٣ — طقوس وتقاليد انتقال ولاية الحكم

جاء فى مخطوطة تاريخ سنار « فحين يملكون لهم ملكا جديداً يزوجوه من نسل تلك المرأة » ، ويسمونها ابنة عين الشمس ، ويحملونها على عنقريب من خشب السرطان [٦١] إلى حوش الجندى ويحبسوه (يحبسونهما) به سبعة أيام ، ثم يخرجوا به (السلطان المنتخب) إلى محل معروف لهم ، فيه عوايد تخرج لهم من الأرض يتفاولون (يتفاءلون) بها بخروجها ويتشاومون (يتشاءمون) ، بعدمها وهى باقية فيهم حتى انتهى ملكهم والله أعلم » ، وهذه أول عبارة صريحة تشير إلى طقوس تقليد السلطات فى صورة عامة ، وفى نفس الوقت تكشف لنا عن بقايا العهود القديمة ، التى أخذت تنتقل من جيل إلى جيل ، حتى وصلت إلينا فى صورها الحاضرة ، وقد سجل ديزنى [٦٢] ما شاهده من طقوس ، أتبعت عند تتويج ملك الفونج فى فازوغلى واسمه « حميده رجب بدير » وذلك فى فبراير سنة ١٩٤٤ م - وذكر فى مقاله ان بعض رجال العمدة ، قد أقبلوا وأخذوا من الجندى قطعة من القماش الأبيض ، كان متمنطقا بها ، وظللوا بها الملك لتحجب عنه أشعة الشمس ، حتى لا يتعرض لها ، قبل اتمام التقاليد المرسومة لولاية الحكم ، وبعد ذلك تقدم بعض الرجال متشابكى الأيدى ، ليهيئوا مقعداً لحمل الملك إلى حوش الجندى ، الذى يبقى فيه حتى المساء ،ومن ثم ينقل إلى منزل خاص منعزل ، يحبس فيه ومعه عذراء [٦٣] تشاركه محبسه ، الذى تصل

---

(٦١) أنظر مخطوطه تاريخ ص ٤ كاتب المخطوطة احمد ابن الحاج أبو على المشهور بكاتب الشونة كما هو وارد ضمنا فى المتن . والنسخة التى اعتمدنا عليها هى النسخة المحفوظة فى المكتبة الأهلية فى فينا (النمسا) . وهذه العبارة الخاصة بالطقوس لم ترد فى مخطوطة تاريخ سنار المحفوظة بدار الكتب المصرية وهى مكتوبة بقلم يختلف عن نسخة فينا .

(٦٢) مقال ديزنى فى مجلة السودان فى مذكرات ومدونات ص ٣٧ - ٤٢ مجلد ٢٦ تحت عنوان « تتويج ملك الفونج فى فازوغلى »

(٦٣) يشترط أن تكون العذراء من نسل بيت عين الشمس .

مدته إلى سبعة أيام ، وفى نهاية هذه الفترة قد يختارها زوجة له أو غير ذالك ، ويبقى الحبيسان تحت حراسة الجندى ، لمنع الاتصال الخارجى ، كما لا يسمح لأحد بالبقاء فى المنزل ، إلا لعجوز تقوم بتدليك الحبيسين ، وتطييبهما بالعطور المختلفة التراكيب أما الغذاء فان الجندى ينقله إليهما ، بعد اعداده فى الخارج ، ويتحتم على الملك أن لا يتعرض خلال فترة الاعتكاف لضوء الشمس ،حيث أن تعرضه للضوء يعد مخالفة للعوائد (٦٤)، تؤدى إلى حرمانه من العرش والانتقام منه .

وعلى ذلك فان الملك لا يتسلم مقاليد الحكم ، قبل اتمام مراحل ثلاث ، تبدأ بمرحلة الاختيار من بين المرشحين للعرش ، وهم فى غالبية الحالات،من الصق الأقرباء بالحاكم السابق ، الأبناء ، الأخوة ، الأعمام ، أبناء الأخ ، أبناء العم ، أبناء الأخت ، وأخيراً الأقارب من الرحم ، كما حدث فى اختيار السلطان نول ، ويقوم بعملية الاختيار مجلس من أكابر الدولة ، من أعضاء البيت السنارى ، ويجتمع هذا المجلس عندما يشرف القائم على العرش على الوفاة ، أو يقرر المجلس عزله لسبب أواخر ، وعندما يتم الاختيار يؤخذ المنتخب إلى محبسه فى حراسة الجندى ، ومعه العذراء كما ذكرنا قبلا ، وبعد نهاية فترة الاعتكاف التى فصلناها فيما سبق، يقوم الجندى بمرافقة الحاكم المنتخب من محبسه إلى ساحة التتويج ، التى يجتمع فيها الأمراء وأكابر الدولة والأهالى ، وفى هذه الساحة يقام الككر تحت شجرة كبيرة الظل ، وعند وصوله إليها يقوم الجندى ، بخلع قفطان الحاكم ويحلق شعره ثم يتقدم أكبر رجال الدولة من البيت السنارى ، ومعه قفطان جديد وعباءة ليلبسها الحاكم وتوضع على رأسه الطاقية أم قرين (٦٦) ، ويسلم إليه السيف ، وبعد اتمام ذلك يجلس على الككر ، ويتقدم الوزير وأكابر الدولة والمشائخ وغيرهم لبيعة الحاكم الجديد وتحيته ، وللتحية

---

(٦٤) العوائد هى الـ Taboo ـ العادات المحرمة .

(٦٥) الككر (Kakar) وهو كرسى الملك ـ أنظر مقال أركل ص٢٢٧ بمجلة السودان فى مدونات ومذكرات المجلد الخامس عشر .

(٦٦) الطاقية أم قرين ـ أو أم قرن . هى إحدى شارات الملك وهى عادة قديمة العهد أنظر مقال كروفورد فى مجلة السودان فى مدونات ومذكرات ص ٣٣٣ / ٣٣٤ المجلد السادس والعشرين .

تقاليدها الخاصة وذلك أن يتمنطق الزعيم بثوبه (٦٧) عندما يتقدم لتأدية التحية، ويقبض كل من الحاكم الجديد والزعيم بكلتا يديه على يد الآخر ، وتدق فى أثناء ذلك موسيق تصدر أنغامها من النفخ فى القرون ، بينما يقوم الفقهاء بقراءة الفاتحة وترتيل الأدعية .

وبعد الانتهاء من قبول مراسيم التهانى ، يذهب الحاكم ومعه الجندى وبعض أكابر الدولة إلى مكان معين ، ينتظرون فيه خروج عوائد (٦٨) يتفاءلون بخروجها ويتشاءمون باختفائها وينتقل هذا الموكب بعد ذلك إلى مجرى النيل ، حيث يدخل الحاكم الماء حتى يصل إلى رقبته فيغطس رأسه ، وبهذا تنتهى الطقوس والتقاليد ويستكمل الحاكم مراسيم تسلم سلطته الشرعية .

وذكر بروس وكايو (٦٩) ان من عادة السلطان أن يقوم بافتتاح الموسم الزراعى ، عند رمي التقاوى ، وعند جمع المحصول ، وذكر بونسيه ان السلطان فى سنار لايظهر أمام العامة سافر الوجه ، بل يلتثم بغطاء من الحرير الملون (٧٠) ، ويستخدم هذا النوع من الحجاب ، بصفة عامة بين الملوك الزعماء فى المنطقة من الحبشة شرقاً إلى نيجريا غربا ، وهى المنطقة التى يتحتم فيها على الزعيم المنتخب أن يمضى فترة من الزمن، تبلغ الستة أيام ، يعتزل فيها الحياة العامة . وقد تختلف مراسيم ولاية الحكم بعض الشيء بين منطقة وأخرى ، ومرجع ذلك الاختلاف إلى البيئة المختلفة لكل اقليم .

ففى أتيوبيا نجد أن النجاشى يستكمل تتويجه فى المعبد ، ومن ثم يخرج فى طريقه

---

(٦٧) الثوب قطعة من القماش الأبيض يلتحف بها الرجال فى شكل يختلف عن استعمال النسوة اللاتى يستعملن نوعا من القماش الملون يعرف بقرن علج ، والعادة أن يربط طرفا الثوب حول الوسط عند الدخول على شخصية محترمة سواء كانت دينية أو مدنية — وهذا النوع من اللباس منتشر فى الحبشة والسودان يقل تدريجياً كلما بعدت المسافة غربا (أنظر كتاب برتون ص ٣٧) . الثوب عادة يتكون من عرضين من القماش متلاصقين بالحياكة . وكل نصف منهما يعرف بالشقة (Shuqua) .

(٦٨) العوائد كما يبدو كلمة شملت التقاليد المتوارثة فى مختلف صورها ، وهى فى هذا الوضع بالذات يقصد منها انتظار خروج « دابة الأرض » وتحتاج هذه الظاهرة إلى تفسير وإلى تحديد علاقتها مع ماورد في سورة النمل « وإذ وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون » (آية ٨٢) .

(٦٩) أنظر بروس فى رحلته جزء ٤ ص ٤٦٦ وكايو جزء ٢ ص ٢٧٧

(٧٠) بونسيه فى كتاب البحر الأحمر والممالك المجاورة فى نهاية القرن السابع عشر الميلادى ص ١٠٤

إلى مخيمه فتعترضه عذارى أكسوم ، اللائى يقفلن الطريق بحبل من الحرير ، ولا يسمحن له وصحبه بالمرور ، إلا بعد أن يؤكد لهم انه النجاشي لمملكة صهيون ، وهذا الاعتراض نجـده فى السودان فى طريق العريس عند ذهابه لعروسته ، فيمنعه من من الوصول إليها بشتى الوسائل حتى يدفع لهن بهداياه وتعرف بـ « الشعقيبة » ، وفى الـرب نجد ان قبيلة الجـكون (٧١) . فى نيجريا ، وبطونها المنتشرة فى مختلف المناطق ومنها المبوم تتبع تقاليد وطقوس ولاية الحكم تتفق فى كلياتها وتفصيلاتها مع ماهو متبع عند سلاطين سنار ، وأنهم يحرمون على الأمير أن يتخطى الماء ، كما انهم لا يسمحون ببقاء أثر قدمى (٧٢) الأمير على الأرض ، لذلك يسير خلفه خادم ، فى يده قوام لنسر ليعفى بها الأثر ، أولا بأول وتذكرنا هذه بما كان من أمر السامرى ، « قال فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضه من أثر الرسول فنبذتها ، وكذلك سولت لى نفسى » (سورة طه آية ٩٤ و ٩٥) ويعرف الشخص الذى يتولى تهيئة الزعيم المنتخب فى قبيلة الجكون باسم كندشيخو وهذه أصلها « جدى « شيخ » ، والتصحيف ظاهر كنتيجة اللهجة المحلية .

وفى دارفور يبق السلطان ، الذى تم تعيينه سبعة أيام فى منزله ، قبل أن يباشر سلطاته ، وقد خالف هذه العادة السلطان عبد الرحمن (٧٣) (حكم إلى دفور ١٧٨٧ - ١٨٠٢ م) .

أما فى مملكة تقلى فان ولاية الحكم والنزول عنه موكولة ، إلى امرأة تلقب بـ « الأرتية (٧٤) (Artiya) وهى عريقة فى حسبها ونسبها ، وهى من صفوة سلالة ملوك

---

(٧١) الجـكون موضوع كتاب الأستاذ ميك المسمى (مملكة سودانيه) وهؤلاء كانو يـكنون حوض نهر العطبرة وهم إحدى القبائل الـكبرى التى هجرت موطنها ، فى حوض النيـــل وفرت إلى غرب أفريقيا (حوض نهر النيجر والـكمرون وسيراليون) وقد ورد ذكر هذه القبيلة فى كتاب الخطط للمقريزي باسم ديجون (بورخارد ص٤٩٨) وذكر في كاترمير «ديجون» ومنهم بقايا قليلة فى جنوب سنار ويعرفون باسم « جكون آب جريد » وموضوع هجرة قبـائل حوض النيل الأوسـط بسبب هجوم النحاشى غير أنه فى منتصف القرن الرابع الميلادى جديرة بالبحث والتحقيق

(٧٢) أنظر كتاب الادارة الأهليه فى نيجريا لمؤلفته مـرجرى برهام ص ١٤٢

(٧٣) أنظر التونسى ٩٦/٦٤

(٧٤) أرتى (Arti) كلمه نوبيه معناها الـكاهن ـ صانع المطر ويطلقهـا البعض على لفظ الجلالة (أنظر قاموس مقارن للنوبيه والانجليزيه لمؤلفه ج . و.مرى G.W. Muray وكتاب Alkmvist عن اللغه النوبيه وتطلق Arti في اللغه السكنزيه على الجزيرة Island .

تقلى ، ولهذه الا مرأة مكانتها الروحية ، ومقامها فى تقلى أعظم من « أيا باسى » كبيرة المبارم فى بلاد الفور ، وتقضى تقاليد تقلى أن يكون لها القول الفصل فى ولاية الحكم وعزل القائم عليه ، وهى تحتفظ بأدوات الحكم من تاج ونحاس وسيوف ألخ . لكنها لا تنفرد بأصدار أوامرها ، إلا بعد أن تجتمع كلمة المشايخ المحليين (المكوك) ، وكشرط متمم لولاية الحكم الذهاب إلى مغارة عميقة، فى إحدى الجبال تسكنها حية تعرف باسم « حميدة أم كا أبيض » ، ويسألون عن المستقبل ويسمعون صوتاً يخاطبهم بوضوح تام ، عن الحوادث المنتظرة وما يتوقع حدوثه فى عهد الحاكم الجديد ، من رخاء وغلاء وسلام وحرب ، وقد ذكر أوليا شلبى فى رحلته انه عند وصوله إلى سفح جبل سنداسى ذبحت سبعة جمال وسبعة خرفان وسبعة ماعز وسبعة ديوك وسبعة ثعابين . . . ، ولوث الجميع أيديهم فى هذا الدم ومسحوها فى الصخرة ، ولما سأل عن سبب ذلك قيل له ان هذا هو الطلسم لفتح باب الغار الذى دخل منه كبار القوم ، وسمعوا صوتاً بالترحيب ، وبعد ذلك أخذ كل منهم فى سؤال الصوت الخفى ، عن مقصده فكانت تأتيه الاجابة « مسموعة واضحة باللغة التى يعرفها وهى التركية . والذى يهمنا من هذه القصة ان التقاليد المرعية فى تقلى وهى استشارة الحية لها مصدرها الحبشى . ولا يخفى ان للحية فى تاريخ الحبشة أثر كبير .

مراسيم تقليد المشيخة – للزعيم المحلى

وننتقل إلى المراسيم الخاصة باسناد المشيخة أو المكوكية (٧٥) ، فقد ذكر نعوم شقير (٧٦) « وكانوا إذا توفى شيخهم اختاروا شيخاً آخر ، وأخذوه إلى ملك سنار فيؤيده كما كان مشايخ العبد اللاب يؤيدون المشايخ والملوك ، الذين هم دونهم وتحت سيادتهم وذلك انه كان إذا مات لهؤلاء ملك ،اجتمع أهل قبيلته واختاروا لهم ملكا يولونه عليهم ، وأتو به إلى الشيخ ، فيحلق الشيخ رأسه ويلبسه طاقية ذات قرنين ،

---

(٧٥) مكون مفردها مك وهو الشيخ المحلى .

(٧٦) يختص السلطان السنارى باجراء التعيينات المختلفة فى قطاعه أما فى المناطق المتحدة مع سنار فالسلطان يوافق على تعيين الشيخ أو الملك من بين المرشحين الذين كانوا عادة من بيت الزعامة . كما أن السلطان يعين القضاة « الشرعيين » أنظر الطبقات ترجمة دشين قاضى العدالة ص ٩٠ والقضاة الآخرين عبد الله العركى ص ١١٢ وعبد الرحمن ابن مشيخ النويرى ص ١١٤ وبقدوش ابن سرور ص ٤٤ – ويقوم الشيخ المحلى بتعيين من هم دونه مرتبة دون الرجوع إلى السلطان .

محشوة قطناً ويجلسه على كرسى يسمى بالككر ، ثم يخاطبه بلقب مك أى « ملك » ويقول له « مبارك عليك » ، فيقبل الملك يده وتدعو له بخير ، فيأمر الشيخ بضرب النحاس ، اشهاراً لتأييده ملكا على أهله ، وعند ذلك يتقدم أهله ، فيسلمون عليه بالاحترام الذى سلم به على الشيخ ، ويخاطبونه بلقب « أرباب » ثم يقولون جعلك الله مباركا علينا ، ولتعمر البلاد بك ، وتكثر الخيرات على يدك ، فيقول لهم « الله يعمركم ويخليكم أنا بكم مش بلاكم » .

وذكر كرمب انه قد حضر أثناء زيارته لبلدة قرى ، مراسيم تولية شيخ لاحدى القرى التابعة لشيخ قرى ، ويقول ان الشيخ المعين قد أحضر إلى اجتماع فى البلدة ، ليسمع بعض الأدعية ، التى يقوم بها الفقهاء ،وبعد ذلك يقدم له الشيخ قميصاً حريرياً وعمامة ويسلمه سيفاً كرمز لولايته سلطاته ، وعند ذلك يتقدم الحاضرون بالتحية للشيخ الجديد ، وذلك بالانحناء أمامه حتى تلمس جباهم الأرض ما يقرب من الثلاثين مرة — ويرقص الشيخ الجديد ، شاهراً السيف الذى قلد به فى بيده ويغنى مادحا شيخ قرى (٧٧)

وفى بلاد المحس فى شمال السودان ، والتى كانت تحت حكم الكشاف ، فان تتويج الشيخ يتم بجلوسه على حجر فى مكان معين ، وفى بلاد المحس أيضاً نجد ان رجلا يحمل عصاه أو سيفاً من الخشب يستقبل به الامام عند باب المسجد ، عند حضوره لصلاة الجمعة ويسير أمام الامام حتى باب المنبر فيسلمه العصاة أو السيف وبهذا يستكمل الامام صلاحياته ، للامامة ويصعد على المنبر للخطبة ، ولهذه العادة أثر فى صعيد مصر .

مراسيم الاستقبال عند السلاطين

ذكر بونسيه أنه قد ذهب فى اليوم التالى ، لوصوله إلى مدينة سنار ، لمقابلة السلطان فى ديوانه الرسمى ، وأوضح المراسيم التى تراعى فى مثل هذه المناسبات ،وذلك بأن يخلع الداخل حذاءه عند باب ديوان متسع ،اصطفت على جوانبه جنود من حملة الرماح ، ويقف الداخل عند حجر ، بالقرب من باب ديوان اعتاد السلطان أن يجلس

(٧٧) أنظر رحلة كرمب فى كتاب مملكة الفنج فى سنار لمؤلفه كروفورد ص ٢٢٢ ومابعدها طبع ١٩٥١

فيه ، لمقابلة البعثات الأجنبية ، وبعد أداء التحية وفق العادة المتبعة ، وهى الركوع وتقبيل الأرض ، ينقل الوزير ، الواقف بالقرب من السلطان ، التحية ويحمل رد السلطان عليها ، ويقول بونسيه ان السلطان كان جالساً على سرير فاخر ، ويرتدى معطفاً موشا بالذهب ، ومتمنطقاً بحزام من قماش ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ،وحوله عشرون من كبار رجال الدولة .

وبعد أن حمل الوزير تحية السلطان ، قدم بونسيه الهدايا التى أحضرها معه، وهى عبارة عن مصنوعات زجاجية أوروبية ، وقد أظهر السلطان إعجابه بها ، وبعد حديث تناول الاجابة على الأسئلة التى وجهها إليه ،سأله عن سبب رحلته .واستمرت المقابلة زهاء ساعة من الزمن ، انتهى بعدها الاستقبال وانسحب الزائر ومن معه إلى الخلف، وأعادوا الركوع وتقبيل الأرض ثلاثا ـ وأمر السلطان الحراس بمرافقتهم إلى منزلتهم وأرسل إليهم أقداح السمن والعسل والمأكولات الأخرى وعجلين وخروفين.

مراسيم تقليد الخلافة الدينية

يختار الفقيه صاحب السجادة (الطريقة الدينية) كالقادرية وغيرها ـ من يصلح من تلاميذه بعد أن يستكمل مرحلة العلم ، ليشغل مركز خليفة الفقيه فى المكان الذى يختاره ، لنشر دعوته وتلقين المريدين تعاليم الطريق ، ويتم التعيين لمركز «الخليفة » ، فى حفل يقام أمام بيت الفقيه ، يجلس الطالب على كرسى وتلف على رأسه عمامته ، ويطوفون حوله عدة مرات ، قد تكون سبعاً ، ثم يتلوا الفقيه بعض الأدعية ، وبعدها يباركه ويسلمه ركوة وفروة وعكاز وسبحة، تكون فى بعض الحالات مكونة من ألف حبة ، وتذبح الذبائح ، وتقام بعد ذلك الأذكار ، وينشد المداحون وينتهى الحفل ، عادة بعد صلاة العشاء بالدعاء والفاتحة .

مراسيم الاستقبال عند الزعيم المحلى

روى كرمب [٧٨] ان الأهالى عندما يزورون الزعيم فى « قرى » يتقدمهم رجل يحمل عصا طويلة ، ويتبعه القوم فى صف واحد ، يحى كل منهم الشيخ بقوله « يا ما نجل » أنا فلان . . . . . ، ويرد عليه الشيخ مكرراً الاسم ، وبعد الانتهاء من المستقبلين يقيم الشيخ عرضاً لجنوده ، يقومون بتمثيل موقعة صورية ، تدق خلالها الطبول ، وتستمر الحال حوالى النصف ساعة ، ينصرف بعدها القوم إلى بيوتهم .

---

(٧٨) أنظر كتاب مملكة الفونج فى سنار لمؤلفة كروفورد س ٢٢٢

تقاليد الاستقبال عند الفقهاء

جاء فى كتاب الطبقات [79] .. ان الفقيه عبد الصادق ولد حسيب أرسل إلى الشيخ حسن بالقدوم إليه ، ولما وصل الشيخ إلى حلة الفقيه ، وجده غائباً فانتظره إياما وفى يوم عودته ، علت التهاليل والزغاريد ، وذهب الفقيه إلى الحوش (منزله) ولما زالت الشمس ضربت الطبول . وفرشت دكة الديوان ، ثم جاء الفقيه لابساً قيصاً عالياً كبيراً وجلس على الدكة وقامت العبيد يحملون العكاكيز (مفردها عكاز) ، للسلام ويقول الواحد منهم « أنا فلان » ويكرر الفقية الاسم فيرد عليه هذا الفلان « سيدى » ، فلما فرغوا قامت الفقراء فسلمت ، ثم قام أرباب الحاجات فسلموا وتكلموا وانتهى الاستقبال .

أما فيما يختص بمختلف الوظائف الأخرى ، فى السلطنة وفى الأقاليم المتحالفة ، فاننا لانجد مايشير إلى ذلك تفصيلا ، من حيث الرواتب التى تدفع للموظفين من كبار رجال الدولة إلى أدنى الدرجات ، وهل هى كانت تدفع وفق مقررات معينة ، أو كانت متروكة لهم لأخذ نصيبهم ، مما يحصلونه من عشور وضرائب الخ . ويبدو فيما يخص الوظائف الرئيسية أن أصحابها كانوا يحصلون على معيشتهم من أرزاق الاقطاعات ، التى تمنح لهم كما هو الحال فى دارفور .

ونجد تنظيمات فى دارفنج (جنوبى سنار إلى الرصيرص) أخذ بعضها فى الاختفاء فى العهد الحديث ، وقد يكون من المفيد أن نسجلها لصالح البحوث المستقبلة .

وهذه التنظيمات هى كالآتى :-

١ — وور AUR :

هذا هو لقب الزعيم المحلى ويقابله « مك » ، المستعمل بين المجموعات فى السودان الأوسط ، ولهذا الزعيم السلطات المدنية والدينية فى منطقته ، وعليه أن يقوم بدور رئيسى فى إقامة الشعائر الدينية .

ويتخذ هذا الزعيم مسكنه فى كوخ يعرف باسم واتل (We -ei - tel) ومعناها « كوخ الشمس » ، ويعتبر هذا الكوخ مركز الشعائر الدينية ، ويحتفظ الزعيم فيه

---

(٧٩) كتاب الطبقات نشر الشيخ ابراهيم صديق ص ٥٠

بمقعد خشبي ، ينتقل عند وفاة الزعيم إلى خلفه ، وهذه الوظيفة وراثية يرثها الابن عن الأب ، ولايخرج هذا الزعيم إلى الحرب .

ويفصل هذا الزعيم فى المشاكل التى تعرض عليه . كما أن من واجبه أن يرعى مصلحة منطقته المعيشية ، ويعاونه فى ذلك موظفون كما هو موضح بعد .

٢ — سن أى كنج (بضم الكاف) (Sen - i - Kung) :

وصاحب هذا اللقب هو « قائد الحرب » ، ويقابله فى سنار « سيد القوم » ، وهو منوط برعاية الأحوال اليومية وترفع إليه الشكاوى للفصل فيها أما المشاكل الهامة فيقدمها إلى الوور (Aur) الذى يفصل فيها باستشارة الأجاويد وسيد القوم .

والوظيفة وراثية .

٣ — كاى Kai :

ويقوم هذا بممارسة علاج المرضى بالسحر أو غيره .

٤ — سن أى توك Sen-i-tok :

وهو قائد الماشية ، ولكل حلة (قرية) قائد ماشيتها ، ومن اختصاصه أن يقود الحيوانات إلى موطن الرعى ، عقب انتهاء فصل الأمطار ، وعليه أن يصدر أوامره إلى الرعاة لتغيير موطن الرعى ، عندما تتطلب الظروف ، كما عليه أن يأمر باقامة الزرائب فى المواضع المختارة فى مواطن الرعى ، والزرائب تقام عادة فى شكل دائرة تحيط جوانبها أشجار شوكية .

٥ — سن أى سرم Sen - i - Serm :

وهو نافخ البوق (والبوق ـ النفير ـ من قرون الحيوانات) ويتولى « حامل البوق » ولكل قرية عاملها ـ دعوة السكان للخروج للصيد ، وهو الذى يتصرف فيما يجمعون ، وعليه أن يقوم بدوره « السحرى » فى عملية الصيد .

٦ — سن أى ساك Sen-i-Sak :

وهذا هو زعيم المريسه (الشراب المحلى) ، ويمارس وظيفته عندما يتقدم إليه شخص بطلب استخدام عدد كبير من العمال ، وفى هذه الحالة يقوم هذا الزعيم باعداد

المريسة المطلوبة ، ويطلب من المخدم أن يعين مندوبا عن عماله لاستلام المريسة وتوزيعها على رجاله .

والمريسه تستخرج من خمير العيش وتستعمل فى بعض المناطق كغذاء رئيسى .

٧ — القطاش Gatash :

وهو الذى يعرف مسالك الجبال والطرق ، ويرشد الغرباء إلى الطريق ، وإذا حدث خلاف بين الأهالى فى منطقة الجبال والانقسنه ، فانهم يذهبون إليه فى الجبل الذى يسكنه ومعهم خروف لذبحه وإقامة حفل للصلح .

ونجد فى هذه المراسيم والطقوس مظاهر بارزة ، تتطلب بحثاً دقيقاً فى دراسة مقارنة لمعرفة مصادرها وتطوراتها ، ومن هذه المظاهر حبس السلطان المنتخب لسبعة أيام ، والتزامه بأن يمتنع كلية خلال تلك المدة من التعرض لضوء الشمس ، ثم ذهابه إلى المكان المعين انتظاراً لخروج العوائد، وأخيراً دخوله الماء وغطسه فيه، ويشرف على هذه الاجراءات الجندى ، الذى تبدأ مهمته من الساعة التى يتم فيها انتخاب السلطان الجديد ، وهذه المظاهر إن دلت على شىء ، فانها تدل على قدسية شخصية السلطان ، لذلك يتحتم عليه قبل أن يتسلم مقاليد الحكم ، أن يعتزل المجتمع للمدة المعينة تتبعها مباشرة مراسيم تقليده السلطنة ، وليس اعتزاله المجتمع إلا لكى يتطهر ويرتقى ، من مرتبة البشر إلى مصاف أنصاف الآلهة . وأن عملية التدليك التى تقوم بها العجوز فى فترة الاعتكاف ، ليست إلا مصدراً من مصادر منح السلطان القوة .

وتكشف لنا هذه التقاليد والطقوس ، عن مدى أثر المدنية المصرية القديمة وعباداتها ، وبخاصة عبادة الشمس ، التى نجد طقوسها بارزة فى شكل أو آخر ، فى حفلات التتويج ، ونجد أيضاً أنه من الضرورى ، أن يتزوج السلطان فى سنار من بنت عين الشمس ، كما يعرف الزعيم فى بعض قبائل نيجريا بابن عين الشمس(٨٠) ، وبدراسة هذه التقاليد والطقوس ، كما يمارسها بقايا الفونج فى فازوغلى (التى ذكرها ديزنى فى مقاله آنف الذكر) ، وما هو متبع فى المناطق المجاورة للسودان ، فى نفس الزمن الذى سجل فيه ديزنى مشاهداته ، ومقارنة ذلك مع ما كانت عليه فى العصور القديمة ، يتبين لنا ما أدخل عليها من تعديلات وما أصابها من تطورات ، تتناسب

---

(٨٠) أنظر كتاب دراسات قبلية في شمال نيجريا (بالانكليزية لمؤلفه مك س ٣٥٠/٣٥٦)

مع البيئة المحلية الخاصة ، ومما يسترعى الالتفات أن هذه التقاليد والطقوس فى مختلف العهود ، التى مرت عليها لم يحدث تغيير فى الأسس ، التى قامت عليها أصلا ويرجع ذلك الاستمساك بتلك الأسس إلى طبيعة الحضارة المصرية [٨١] .

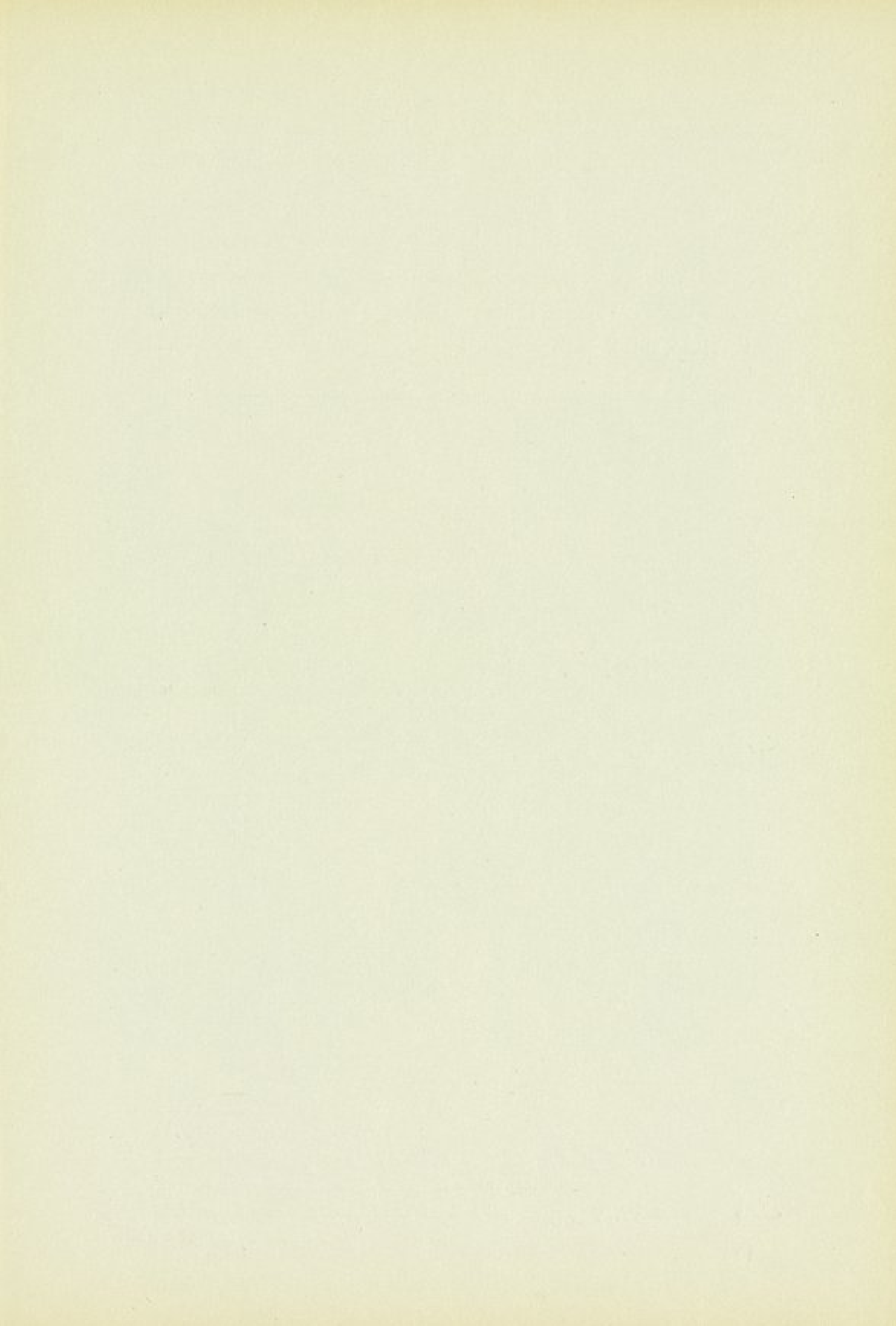
والجندى هذا يقوم بدور رئيسى فى مراسيم التتويج ، ويكون عادة من رجال الدين ، فقد جاء فى الطبقات ما قاله الملك عمارة أبو سكيكين للشيخ « ادريس بن محمد الارباب » أنت فى السابق كنت جندينا ، ثم بقيت جنديا لله ، وحات الملك ان كان ما عافيت أمى ، أردك إلى جنديتك [٨٢] » ـ وهذا المنصب يقابله فى العصرين الفرعونى والمسيحى ، منصب « الكاهن » الذى يتولى تكريس الزعيم لتسلم مقاليد الحكم .



٤ - الطاقية ام قرون - من كنيسة نجى وادى حلفا - (الشيخ عبد القادر)

(٨١) من تلك البقايا التي مازالت باقية :
١ — عادة التخطيب بالحناء ورسم علامة القرص الشمسى فى أسفل الـكف .
٢ — تـكرر النسوة فى حلقات الرقص كلمة حك (Haqi)

(٨٢) طبقات ود ضيف الله ـ نشرها الشيخ ابراهيم صديق ص ٨/٧ والمقصود من « حات الملك » أي قسما بحياة الملك .



الكتاب الثالث

من امتداد الادارة المصرية إلى السودان
إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى

السلطنة السنارية فى سنواتها الأخيرة

تميزت السنوات الستة عشر الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادى باشتداد الصراع بين انجلترا وفرنسا، وبخاصة بعد أن فشلت الدولة الفرنسية فى بسط نفوذها القوى فى هولندا أمام النشاط البريطانى، وكان هذا الفشل من أبرز الأسباب التى دفعت فرنسا إلى الانتقال بمسرح الصراع إلى جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط، حيث نزلت الحملة الفرنسية فى أرض مصر فى عام ١٧٩٨م، لأهميتها الاستراتيجية على مركز انجلترا وعلى خطوط التجارة [١]، بين الشرق والغرب وداخلية أفريقيا. وقد أحدثت هذه التطورات تغيير نظام الحكم في مصر، واهتم قائد الحملة نابليون بمحاولة إعادة فتح طريق التجارة، بين مصر وبين الفور وسنار، بعد أن أهملها المماليك، الذين وجهوا اهتمامهم نحو التجارة عبر البحر الاحمر إلى السويس، ومنها بطريق البر إلى شاطىء البحر الأبيض، وتركوا السودان فى عزلة اقتصادية تكاد أن تكون تامة، ولم يكن لبريطانيا أن تهتم بالتنافس والتطاحن، الذى كان قائماً فيما بين زعماء المماليك بسبب التجارة عبر مصر، طالما أن ذلك الصراع لايؤثر على شريان مصالحها فى الشرقين الأدنى والأقصى، إلا أن نزول القوات الفرنسية فى مصر قد أيقظ اهتمام الدول الأوروبية وبخاصة انجلترا، التى كانت تحرص الحرص كله على بقاء هذه المنطقة منطقة الشرق الأوسط - بعيدة عن السيطرة لدولة أو أخرى، لما يخلق لها ذلك من متاعب، تتعطل معها مصالحها الاقتصادية، وعلاقاتها مع الهند وإلى مستعمراتها فيما وراء ذلك

وبذلت بريطانيا جهودها لاخراج الفرنسيين من مصر، الأمر الذى تم لها فى عام ١٨٠١م، وبعد خروج الفرنسيين أقام الباب العالى ولاة فى مصر، لم يكتب لهم التوفيق فى إدارة البلاد، حتى انتزعه الشعب المصرى، الذى سلم مقاليد أموره إلى محمد على، واستخدم هذا الوالى عدداً من المستشارين الفرنسيين لمساعدته في تنظيماته الجديدة، كما أنه نشط فى مطاردة المماليك والخلاص منهم، لما كانوا يقيمونه من عراقيل ومشاكل لمحمد على، وقد امتد نشاط المماليك إلى السودان حيث دخلت اليه بعض الجماعات منهم هربا من محمد على.

وكان لهذه التطورات فى الشمال أصداءها فى الجنوب (السودان)، حيث أيقظت الوعى، وأخذ زعماؤه يتلمسون الطرق والوسائل للحصول على نجدة مصر، للخلاص مما حل بهم من تطاحن قبلى وحروب دخلية، زادتها تعقيداً هجرة المماليك [٢] إلى البلاد، ومحاولتهم السيطرة على دنقله، والانتقال منها تدريجياً نحو الجنوب، حتى تم لهم الزعامة الكاملة، كما حاول أولئك المماليك الدخول إلى كردفان وبلاد الفور، حيث ذهب محمد بك المنفوخ وعبدالرحمن بك، واقترنت هذه الجهود من جانب المماليك فى مهجرهم بالاتصال بالوهابيين، فى الجزيرة العربية عن طريق مندوبهم حسن جوهر الكاشف.

---

(١) كوبان - السفراء والبعثات السرية - لندن ١٩٥٤ — روز. جزء أول ص ١٦١.

وكانت خشية مصر أن يتعاون المماليك مع أتيوبيا على قيام دولة مملوكية تسيطر على حوض النيل الأوسط وتنفذ إلى ساحل البحر الأحمر وتنشىء فى هذا الجزء من وادى النيل مشيخات وزعامات تخضع فى صورة أو أخرى للمماليك الذين يرتبطون فى شكل ما مع دولة أوروبية عن طريق محالفات صداقة وامتيازات تجارية . وكان والى مصر يرقب تطور الأحوال فى جنوب الوادى بعين الحيطة والحذر والعمل على مواجهة ماقد ينتج من تطورات بخاصة بعد رحلة هنرى صولت[٣] فى صحبة اللورد فلنشيا فى عام ١٨٠٦/١٧٠٥ ورحلته الثانية فى ١٨١٠/١٨٠٩م (وبين ١٨٠٥و١٨١٠م جاءت إلى مصر حملة فريزر التى فشلت) . وقد كان فى رحلتـه الأولى مع اللورد فلنشيا التى أرسلتها الحكومة البريطانية إلى نجاشى أتيوبيا للحصول على موافقته على منح بريطانيا قاعدة بحرية فى أرض الدناكل يمكن استخدامها لغزو مصر اذا قامت قوات فرنسـية بقفل البحر الابيض المتوسط لاحتـلال مصر مرة أخرى أو إذا وقعت مصر تحت نفوذ دولة قوية تخشى انجلترا منافستها . وفى الرحلة الثانية التى كانت أيضاً بأمر الحكومة البريطانية لتوثيق الروابط الدينيـة المسيحية . وهذه من أولى مراحل التوسع الأووربى الذى اتخذ بادىء ذى بدء الدين كوسيلة لأهدافه .

وقد اهتمت مصر بنشاط هنرى صولت فى حوض البحر الأحمر وأتيوبيا الأمر الذى تبولت عنه مكاتبات[٤] . ولم يتوان محمد على فى اتخاذ خطوات مضادة لعرقلة الحركات المعادية التى تهدف إلى إقامة قوى منافسة ، تستطيع مناهضة مصر والضغط عليها . وذلك بارساله وفداً رسمياً إلى السلطان السنارى فى عام ١٨١٢م مطالبا العمل على مقاومة النفوذ المملوكى[٥] كما أرسلت بعثة ثانية إلىغندار بأتيوبيا لنفس الغرض مقاومة للنشاط المملوكى وجاءت إلى مصر كنتيجة للتطورات التى حدثت بتغيير نظام الحكم وزوال السيطرة المملوكية ، وفود من السودان على رأس كل منهـا زعيم من كبار الشخصيات ومنهم أبومدين المطالب بعرش دارفور والملك ادريس ود ناصر من البيت السنارى ومعه زعماء من فازوغلى كما جاء الملك نصرالدين أبوحجل زعيم الميرفاب

وفى الوقت الذى جاءت فيه هـذه الوفرد إلى مصر كان الوالى غارقا فى مشاكله الخاصة بشمال الوادى (مصر) ، غير أن تلك المشاكل لم تحجب عن مصر التيارات

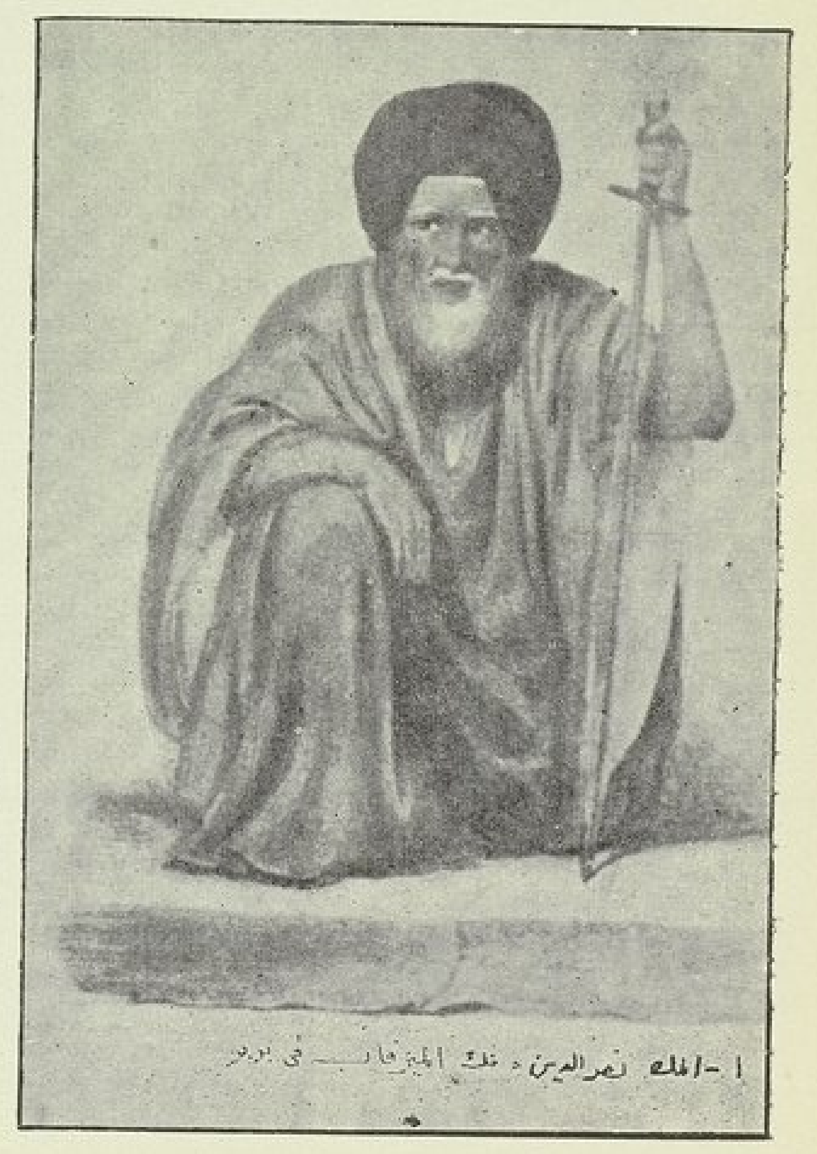
---

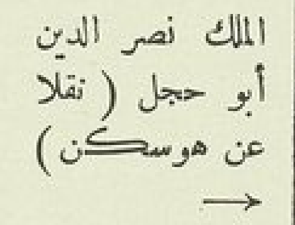
(٢) أنظر مقال الأمير عمر طوسون « نهـاية المماليك » فى مجـلة المجمع المصرى مجلد ١٥ ص ١٨٧/٢٠٥ ـ أنظر أيضاً كتاب التونسى « تشحيذ الأذهان » .

(٣) شغل هنرى منصب القنصـل الانجليزى فى مصر ١٨٢٧/١٨١٥م وكان مهتما بالآثار الرحلات كما كان وكيلا لشركة الهند الشرقية وله علاقات مباشرة مع وكلاء هذه الشركة فى مخـا (اليمن) ومالطه .

(٤) أنظر أدوار دربو فى كتابه بناء أمبراطورية محمد على ص ٣٠٤

(٥) قابل الرحالة بورخارد هذه البعثة في شندى (أنظر كتاب ص ٣٠٨)





أبو مدين المطالب
بعرش الفـور
(عن بيرون)
←

الملك نصر الدين
أبو حجل (نقلا
عن هوسكن)
→



الخفية التى كانت تعمل فى مهارة لتثبيت أقدامها فى جنوب الوادى كما أشرنا آنفاً. وقد أخذ الوالى فى إعداد خطته لتوجيه القوات اللازمة لاعادة الأمن واستتبابه فى البلاد وذلك بعد أن تجمعت لديه المعلومات الضرورية وأهمها ماجاءت به البعثتان المصريتان من سنار وغندار ومما نقله زعماء الوفود السودانية. وقد حانت الفرصة لارسال أولى قواته تحت أمرة ابنه اسماعيل كامل بعد الانتهاء من الحرب فى الجزيرة العربية. وأرسل الوالى قبيل سفر جنوده المهندس محمد خسرو بك المعروف بالدفتردار لكشف الطريق بين أسوان وحدود نقلة، التى كانت تحت سيطرة الكشاف، ولجمع المعلومات عن نشاط المماليك فى دار الشايقية وجنوبيها [٦].

قامت الحملة بقيادة اسماعيل كامل أصغر أبناء محمد على، وبصحبته جماعة من كبار علماء الدين منهم القاضى محمد الأسيوطى، والسيد احمد افندى السلاوى مفتى السادة المالكية، والسيد احمد البقلى مفتى السادة الشافعية، وكانت مهمة هؤلاء العلماء القيام بارشاد الاهالى وتبصيرهم بأهداف الحملة التى ترمى إلى إرساء أسس جديدة لاعادة الطمأنينة والاستقرار للبلاد، والتخلص من المماليك. وقد روعى فى اختيار هؤلاء العلماء تمثيل المذاهب التى تعتنقها غالبية سكان السودان الشمالى، فالأكثرية تتبع المذهب المالكى، وقلة منهم على المذهب الشافعى، وجماعات أقل على المذهب الحنفى ولم تكن التجريدة فى واقع الأمر أكثر من قوة بوليسية أرسلت لاعادة النظام وتوطيد العلاقات بين شطرى الوادى بعد أن تعطلت هذه الروابط بسبب قيام حكومة متنافرة من المماليك وقليل منهم من اهتم بأمر الجنوب، وكانت من نتيجة تلك العزلة كساد الحياة الاقتصادية وتطاحن الزعماء المحليين واشتباكهم فى حروب داخلية أكلت الاخضر واليابس، واشتدت حركة العصابات للسلب والنهب وقطع الطرق وكان لزاما على مصر أن تعمل على إعادة الاستقرار والأمن وإرجاع الحياة اليومية إلى مجاريها، بعيدة عن السيطرة الأجنبية التى برزت فى صورة محاولة المماليك فى السيطرة على ذلك الجزء من وادى النيل، وفى تلك السيطرة مافيها من خطر على مصر نفسها.

ولم تجد التجريدة المصرية مقاومة بعد اشتباكها مع الشايقية الذين رفضوا ترك أعمال التعدى وقطع الطرق، وقد طلب إليهم اسماعيل أن يركنوا إلى الزراعة وحياة

---

(٦) مقال الأمير عمر طوسون آنف الذكر ص ١٧٨/٢٠٥

الاستقرار والعمل على إعادة بناء الحياة اليومية ، وحدث فى إحدى المعارك إن وقعت فى الأسر ابنة زعيم الشايقية العذراء « مهيرة [٧] » التى كانت فى مقدمة المحاربين من أهلها كما قضت العادات والتقاليد القبلية ، وقد أحسن القائد المصرى معاملتها وبالغ فى إكرامها باعادتها محملة بالهدايا ، الأمر الذى دفع والدها أن يتوقف عن محاربة من حافظ على شرف ابنته ، وطلب الصلح معه .

وسارت الحملة من دار الشايقيـة إلى دار الميرفاب ، وفى بربر حضر الملك نمر (ملك شندى) وحاشيته ، مرحباً بقدم الحملة ومعلنـا استسلامه وخضوع إقليمه للادارة المصرية ، فأحسن قائد الحمـلة معاملته وإكرامه خلال الأيام الثلاث التى قضاها الملك فى معسكر الحملة فى بربر ، وعمل هـذا الملك بعد عودته إلى منطقته على تأمين طريق الحملة عبر بلاده ، كما أحبط محاولة الملك المساعد الذى أراد أن يجمع رجاله ومن ورائه فلول من المماليك ، لمحاربة الحملة وعرقلة سيرها ، وحاول الملك المسـاعد أن يستميل إلى جانبه الملك شاويش وفرسانه من الشايقية إلى جانبه إلا أنه لم ينجح فى محاولته هذه ، وانضم الملك شاويش ورجاله إلى الحملة ومنح رتبة « السنجق » .

ورافق الملك نمر الحملة المصرية من شـندى إلى سنار للاستئناس برأيه ومشورته فى المسائل المحلية التى يتطلب حلها مراعاة التقاليد والعادات المحلية[٨] ، وحدث فى يوم وصول الحملة إلى سنار عاصمة السلطنة السنارية ان وقع السلطان بادى الوثيقة التى اعترف فيها بتبعيته للسلطان العثمانى وبتسليم إدارة بلاده إلى حكم مصر[٩] وقد قابل السلطان بادى الحملة المصرية فى واد مدنى ، معلنـاً ترحيبه واستسلامه . ومما يجدر ذكره أن وزير السلطنة السنارية لما علم بقيام الحملة المصرية سارع بارسال خطاب إلى الفقيه ابراهيم الفرضى (بفتح الفـاء والراء وكسر الضاد) طالباً منه سؤال الله تعالى ليبطل مجيء الحملة[١٠] ، وهذه تبين لنا تغلغل المعتقدات فى أصحاب السجاجيد .

٢ — الملك نمر والغدر باسماعيل بن محمد على

لايهمنا فى قليل أو كثير أن نتعرض لمراحل القتال الذى انتهى بامتداد الارادة

---

(٧) هذه عادة قديمة — أنظر هامش ٣٢ من الـكتاب الثانى .
(٨) كتاب رحلة إلى دنقلة وسنار لجورج انجلش طبع بوستن سنة ١٨٢٢ ص ١٥٨
(٩) المصدر آنف الذكر ص ١٦٩
(١٠) صورة الخطاب في الملحق السابع .

المصرية حتى شملت أجزاء السلطنة السنارية ، وتطهير البلاد من خطر المماليك واستئصال شأفتهم ، لكننا لانريد أن نهمل ذلك الحادث الذى ذهب ضحيته اسماعيل وصحبه فى شندى . وبينما تتفق مختلف الروايات على أن الموت قد حدث بسبب الاختناق فان هذه الروايات تختلف فى عناصرها عن العوامل التى دفعت الى ارتكاب الجريمة . ويبدو أن المعلومات التى تجمعت حينذاك عن ملابسات القضية قد بنيت على بيانات لم يبذل فى تحقيقها أدنى جهد . وما كان لهذه المسألة أن تعالج على هذا النحو الذى ترك أثره العميق فى المجتمع السودانى ، وسواء أكانت هذه الأخبار قد نشرت فى صورتها الخاطئة عن حسن نية أوعكس ذلك ، فان الأمر الذى لاشك فيه أنها خلقت جواً من التشكيك فى الادارة المصرية للسودان ، كما أيقظت الشائعات المغرضة وتعطلت مرحلة البناء . وفى هذا التشكيك وما ينجم عنه من بلبلة للأفكار فى السودان وغير



الملك نمر — مك شندى

السودان مصلحة للمتربصين من الفرنجة من أصحاب المطامع السياسية، التي لم تأخذ في ذلك الوقت صورتها البارزة الواضحة المعالم. ولم يفت هؤلاء الفرنجة استغلال الحادث في صورة أو أخرى كما فعل القنصل الفرنسي في القاهرة ماليت في قضية مقتل دي رول رئيس البعثة الفرنسية الى الحبشة الذي قتل وصحبه في سنار في ٢٥ نوفمبر سنة ١٧٠٥م كما سبق أن أوضحنا ظروف ذلك الحادث.

مات اسماعيل بن محمد على ورجال حاشيته الصغيرة اختناقا بدخان القش الذي وضع في دار الضيافة التي أعدها الملك نمر (زعيم شندى) لنزول ضيفه وحاشيته وذلك خلال فترة وجودهم في شندى وهم في طريقهم الى مصر بسبب مرض اسماعيل وقد حدث هذا الحريق في ليلة ١٧ صفر سنة ١٢٣٨هـ (أواخر أكتوبر سنة ١٨٢٢) واتهم الملك نمر والملك المساعد وألقيت عليهما المسئولية عن تدبير المؤامرة والاشتراك في تنفيذها وقال البعض أن الملك نمر هو المسئول عن الحريق ويقول هؤلاء أن الباشا قد أغلظ في القول لملك نمر وطلب منه أن يقدم له ألفاً من الرقيق في خلال يومين[11]. وجاءت في رواية لينان دي بلفون[12] أن اسماعيل طلب من نمر أن يدفع له ثلاثة آلاف ريال أبو طيره وستة آلاف من الرقيق. ونقل روبنسون[13] أن اسماعيل فرض على نمر أن يقدم من المال والمواشي الخيول والجمال والغلال والرقيق ما تزيد قيمته عن العشرين ألفاً من الجنيهات. وتضيف الرواية التي نقلها روبنسن أن الملك نمر أوضح لاسماعيل أن رجال قبيلته لا يملكون شيئاً يساعده على الاستجابة لمطالبه وأنه لذلك عاجز عن تنفيذ ما طلب منه. فما كان الأمير إلا أن ضرب نمر بالشبق وحاول نمر أن يرد الاهانة بالسيف لكن الملك المساعد منعه من ذلك وبعد الاعتذار وعد بتقديم المطلوب في اليوم التالي!! وهو يضمر الانتقام لما لحقه من اهانة.

---

(١١) روبل في كتابه ص ٣٠٠ وما بعدها والمؤلف معروف بكراهيته للمصريين.

(١٢) دوان في السودان المصري ص ٣٨٧ وما بعدها.

(١٣) مقال روبنسن في مجلة السودان في رسائل ومدونات المجلد الثامن ص ١١٨/١٠٥ وقد ذكر لي الأستاذ محمد عبد الرحيم أن السادة موسى ود تركاب وموسى ود تنير وموسى ود حمزة والشيخ محمد الحاج فضل الله صهر الملك نمر وموسى ود هلال قد أخذوا جثمان اسماعيل إلى بيت أحدهم واحتفلوا بتشييع جنازته في جمع عظيم ودفنوه عند قبة حاج فراج أمام ثكنات السوارى بشندى ــ وذكر لي ايضاً أنه سمع من الأمير اسماعيل احمد بن الخليفة عبد الله التعايشى أنه لما كان في الأسر في دمياط حدثت وفاة أخيه الأمير محمود وتقدم خمسة من أعيان البلد وهم عبد المنعم بك، واللوزي بك، وعبد الرازق بك، الشيخ عبد السلام العلايلي، ومصطفى بك الدرسي، واحتفلوا بدفن الأمير في موكب كبير سار فيه العلماء والأعيان وكبار البلد وتقبلوا التعزية وأقاموا سرادقا لاستقبال المعزين كان ذلك كما ذكر لي سيادته في ابريل سنة ١٩٠٤م.

وبما لاشك فيه أن هذه التقديرات خيالية ، لم يراع فيها صاحبها الامكانيات الاقتصادية لمنطقة شندى ، التى لم تكن ، كما ذكر بورخارد ، أكثر من سوق تجارية تتجمع فيها السلع ، وبخاصة الحبوب التى تصل اليها يومياً على ظهر الابل من منطقة النيل الأزرق ، وأوضح هذا الرحالة أن منطقة شندي فقيرة الى حد كبير ، ولم يكن هذا الوضع الاقتصادى لشندى خافياً على اسماعيل ، وأن عملية حسابية بسيطة تكشف لنا عن أن هذه الروايات قد اختلقت ، لتخفى وراءها أسرار الحقيقة الدامغة .

وقد كان اسماعيل حريصاً الحرص كله على أن لايحصل ما يسبب المتاعب للأهالى من جنوده ، وكان يتودد اليهم بشتي الوسائل ليدخل الطأنينة الى قلوبهم ، وذكر انجلش ، الذى رافق الحملة ، ان بعض الخدم والجند قد سلكوا مسلكا مخالفاً لما أصدره من أوامر بشأن معاملة الأهالى ، فأنزل بهم العقاب الصارم[١٤] ، ودفع للأهالى تعويضاً عما أخذه منهم أولئك الأفراد ، وكان أن أمر اسماعيل بتخفيض الأموال التى قدرها دفع الله الأرباب وديوان افندى والمعلم حنا الطويل[١٥] .

ويجعل بنا أن نحاول استعراض ظروف الحادث ، وملابساته للكشف عن ما أخفته الروايات عن مسئولية ارتكاب الجريمة .

١) تتفق الروايات ، فى صورة اجماعية ، على ان المؤامرة قد نفذت بتكديس القش حول المنزل ، الذى أعد لنزول الضيوف ومن ثم أشعلت النار التى أوجدت سحباً كثيفة من الدخان لفترة مستمرة تكفى لاحداث الموت اختناقا للنازلين فى دار الضيافة ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار إلى نظام تخطيط المساكن فى شندى كما فى غيرها من بلاد السودان نجد أن المنزل قد أحاط به حوش كبير وهذا يتطلب مقادير هائلة جدا من القش يحتاج نقلها وتكديسها - إذا فرضنا جدلا توفر هذه الكميات فى بلد محدود الموارد الزراعية مثل شندى - إلى استخدام الآلاف من الجمال والعمال فى مدة تزيد عن الأسابيع ولا يفوتنا أن نذكر ان الزمن الذى حدثت فيه الحريق كان فى نهاية شهر أكتوبر ، وهذا يقع فى نهاية الفترة الفاصلة بين نهاية فصل الخريف (الأمطار) وبدء الشتاء وعند ذلك تتحول الرياح من جنوبيه الى شماليه ، ونرجح أن كمية من أشجار السنط كانت فى داخل الحوش ، وفى بعض الحجرات ، وهذه هى التى

---

(١٤) انجلش فى كتابه حملة دنقلة وسنار ص ١٠٩/١٤٠/١٤٢

(١٥) مخطوطه تاريخ سنار ص ٢٨ — الف

أشعلت فيها النار وأوجدت ستاراً كثيفا من الدخان تسبب عنه الموت اختناقاً ـ ومما يسترعى الالتفات ان استخدام مثل هذه الخطة للانتقام من اسماعيل ورجاله لم يكن معروفا فى السودان ـ ومن هذا يتبين ان مدبر الخطة لم يكن من أهالي البلاد وإذا ربطنا هذه الخطة مع هدفها وهو الانتقام من اسماعيل فأن التهمة تتجه نحو صاحب المصلحة فى ذلك ولم يكن فى السودان غير « المماليك » والعلاقة بينهم والعلاقة بينهم ومحمد على لا تحتاج إلي بيان ، وقد كان من الأسباب الهامة لدخول الحملة المصرية الى السودان مطاردة المماليك وإخراجهم من البلاد قبل تثبيت أقدامهم فيها وانشاء دولة يتولون ادارتها . وذكر أنجلش ان جماعة من المماليك كانت فى شندى وهربت منها إلى منطقة النيل الأبيض بعد أو رفضوا شروط الباشا التى عرضها عليهم فى شندى ديوان افندى مبعوث اسماعيل للاستسلام . وفى الوقت هرب فيه المماليك الي منطقة النيل الأبيض أعان الملك نمر ولاءه وخضوعه ، الأمر الذى أغضب الملك المساعد وهو ابن عم الملك نمر ويحكم على الجانب الغربى للنيل تجاه شندى . وكان عدواً لدوداً لنمر لما بينها ثأر كما سنذكره فيما بعد . وحاول المساعد أن يتعاون مع الملك شاويش (زعيم الشايقية الذين فروا أمام الحملة) على عرقلة سير الحملة بشن الغارات عليها وهى فى طريقها فى منطقة شندى نحو الجزيرة . وقد أفسد هذه الخطة الملك نمر بما اقامه من حراسة على طول الطريق . واستسلم الملك شاويش ورجاله وانضم للحملة فى ١٦ شعبان سنة ١٢٣٦ هـ (٢٠ مايو سنة ١٨٢١ م) وبعد أن دخلت الحملة أرض الجزيرة فى طريقها إلى سنار عاد المماليك من منطقة النيل الأبيض إلى شندى ـ وكان الملك نمر فى صحبه اسماعيل للاستئناس برأيه فى المسائل المحلية التى تتطلب خبرة بالعادات والتقاليد المحلية ـ وكانت فرصة غيبته من شندى قد سهلت على المماليك أحكام الخطة وتدبيرها وفى جانبهم الملك المساعد وعلاقته مع الملك نمر علاقة « ثأر الدم » يطالبه به نمر .

ب) لم تكن العلاقة فى يوم من الأيام على شىء من التفاهم بين الملك نمر والملك المساعد لما كان بينها من «ثأر» وقد حدثت بينهما قبيل وصول الحملة المصرية بسنوات قتال عرف بحرب « العواليب » وكان الملك نمر قد استنجد بسلطان سنار لرد طغيان المساعد وقبيل وصول النجدة السنارية تحرج مركز نمر إلى الحد الذى جعله يفكر فى الهرب والالتجاء إلى المجاذيب فى الدامر وفعلا أخذ فى تنفيذ خطته هذه وعند وصوله إلى « جبيل أم على » اجتمع قادة جيش نمر وتداولوا أمرهم واستقر رأيهم

على الاستعانة بالأنقيب (شاعر الملك) ليثير حماس الملك نمر ويثنيه عن عزمه والعودة إلى محاربه الملك المساعد خوفا من عار الهرب ، ودخل الأنقيب على نمر الذى كان مستلقيا على سريره وأنشده قائلا .

متمدد تقول سوتريه [١٦] ورايط لك قلبا ينط الهربا
الميتة ومات التربة [١٧] أفضل من نقيع الغربة [١٨]

وقال أيضا .

ما شفت أبوك يركب على المتويرى ينتر هنا وحسه فى قوز برى [١٩]
اما اركب كاس وقل للخيل اندى واما اقعد فكي وود مرتضاك يقرى [٢٠]

خاطب والأنقيب الأرباب إدريس عم الملك نمر منشدآ .

ادريس يا عريس أضمرت بالرق ادريس مدفع الباشا إلى ذخيرته تبق
امرق نحاسك شمس ودق
قدر الله يطيح حتى ان دخل فى حق

وكان ان دقت الطبول للحرب وعاد نمر وجيشه واشتبك مع المساعد وأسفرت المعركة عن انتصار نمر وعودته إلى شندى . الأمر الذى زادت معه الضغائن بين نمر والمساعد وصار الأخير يتربص الدوائر للثأر من نمر الذى اشتهر بتقواه وخوفه من الله وبعده عن اللهو والطرب كعادة زعماء القبائل فى ذلك الزمان ، وكان نمر يكره الحرب والغزو كما جرت العادة بين القبائل .

وقد هرب الملك نمر بعد موت اسماعيل وتحمل المسئولية لأن التقاليد والعادات القبلية تجعل من زعيم الدار مسئولا عما يحدث فى داره من أهله أو من يساكنهم [٢١]

---

(١٦) سوتريه : جبل أسوتريا الواقع غرب ميناء بور سودان .

(١٧) الميتة ومات التربة : نموت وتجمعنا القبور .

(١٨) أفضل من نقيع القربة : فذلك أفضل من أن نعيش غرباء .

(١٩) المتويرى : تصغير المتورى ـ وهو الحصان العالى ـ ومعنى هذا أما رأيت فقد كان أبوك يركب الخيل العالية التى يسمع صهيلها من قوز برى (قوز برى حلة بعيدة عن شندى) .

(٢٠) الكاس : الحصان العالى ـ اندى : اهجمى ويعنى هذا الجزء أركب الخيل الأصيل وقل لها اهجمى وإلا فاقعد كالفقيه ولد مرتضى لتعليم الأولاد القراءة والكتابة .

(٢١) حدث أن على البرير من البطاحين قد قتل الشيخ حامد أبو سن فى عام ١٨١٨م فى بلدة الصفية وهرب إلى شندى حيث احتمى بالملك نمر الذى رفض تسليمه للشكرية الذين زحفوا على شندى ورابطوا بالقرب منها لأخذ القاتل عنوة . فتدخل المجاذيب للصلح وفى خلال ذلك هرب على البرير فسقطت عنه حماية النمر . واقتتلت الشكرية والبطاحين .

وهكذا كان لزاما على نمر أن يتقبل التبعة ويترك موطنه حتى لا يلطخ اسمه بالعار إذا سلم المسئولين عن الحادث وقد اختار اخف الضررين وهو الهجرة من بلدة إلى مكان بعيد عن متناول الحكومة .

مات اسماعيل ورفاقه ، وهرب الملك نمر ورهطه ، وبقى المساعد بعض الوقت ، يرقب اندلاع الفتنة والثورة الشاملة فى البلاد ، حتى تأتى أكلها بالقضاء على الادارة المصرية ، فيحقق أحلامه بأن يقيم شخصه زعيما على دار الجعليين على الأقل . لكن الدفتردار قد عاجله بزحفه السريع ، نحو شندى والمتمة موطن الفتنة ، وهنالك أراد أن يعالج الأمر بالحكمة إلا أن أحد المتهوسين رماه بحربة محاولا قتله ، غير انها لم تصبه ، فاختلط الأمر وحدثت اشتباكات ذهب ضحيتها الأبرياء . وهرب المساعد نحو البطانة قبيل وصول الدفتردار إلى شندى ، الذى سار فى مطاردته واشتبك مع الهاربين إلا أنهم تمكنوا من الفرار نحو الحبشة .

وكان لهذه الفتنة أثرها فى المناطق الأخرى ، فى بربر وفى الجزيرة ، وهجر السكان وبخاصة فى الجزيرة بلادهم، واعتصموا بمناطق بعيدة عن متناول الحكومة ، رتعطلت الزراعة وتوقفت الحياة اليومية ، ولم يكن من الميسور تحصيل الأموال الأميرية ، وبذلك كانت المهمة شاقة جدا أمام الادارة الجديدة ، وهى فى أول عهدها للعمل على إعادة الطمأنينة والاستقرار ، وكان علاج الموقف يتطلب بعض الوقت .

وهذه القضية التاريخية الهامة جديرة بالبحث والتحقيق على ضوء ما قد يظهر من وثائق جديدة (٢٢) .

---

(٢٢) أنظر روبل

أنظر مجلة السودان فى مدونات ومذكرات .

أنظر الوثائق بالمحفوظات بالقصر الجمهوري (عابدين سابقاً) .

١ ـ وثيقة رقم ٢٧١ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ سلخ ربيع الأول سنة ١٢٣٦ هـ

٢ ـ وثيقة تركية رقم ٨٩ محفظة رقم ٨ بتاريخ ٣ ربيع الأول /١٢٣٨هـ

٣ ـ وثيقة رقم ٤٠٤ دفتر رقم ١٠ معية بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٣٨ هـ

٤ ـ وثيقة رقم ٥١٢ من الدفتر رقم ١٠ معية بتاريخ ٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٨هـ

٥ ـ وثيقة رقم ١٣ صفحة / ٤٠ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ رجب / ١٢٣٨هـ

٦ ـ وثيقة تركية رقم ٢٥ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ٢٥ رجب رقم ١٢٣٨هـ

٧ ـ وثيقة رقم ٥ من الدفتر رقم ١٦ معية بتاريخ ١٤ رمضان سنة ١٢٣٨هـ

٨ ـ مكاتبة رقم ١٠٦ دفتر / ١٤ معية تركى بتاريخ ٢٠ شوال سنة ١٢٣٨هـ

٩ ـ مكاتبة تركية رقم ١٨٩ دفتر رقم ١٤ معية تركى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٩هـ

٣ـ تنظيمات الادارة الجديدة :

انتقلت السلطة الشرعية لولاية البلاد السودانية إلى الادارة المصرية فى اليوم الثالث عشر من شهر يونيه عام ١٨٢١ م ، وذلك بتنازل السلطان بادى آخر ملوك سنار . وقد شمل امتداد الادارة المصرية جميع الأجزاء التى كانت فى حلف مع سنار ، عدا المنطقة التى تكون مثلثاً قاعدته حوض الدندر والرهد ، شرقى سنار ، وضلعيه يمتد على خط يتجه شمالاً شمالا شرقياً ليتصل بالحدود الحبشية جنوبى سواكن ، ودخلت فى هذا القطاع عطيش (حوض الدندر والرهد) والقضارف (البطانة) ، ويرجع السبب فى ترك هذا المثلث الى الاعتقاد بأنه مرتبط بالحبشة ، فى نوع من العلاقات وقد بقى هذا الاعتقاد الخاطىء حتى أوائل ولاية خورشيد أغا [٢٣] .

وأخذت الادارة الجديدة فى وضع الأسس اللازمة لسير العمل ، ويبدو ان الحملة المصرية لم تكن قد أعدت لها بادىء ذى بدء خطة مرسومة كاملة التنظيم ، قائمة على دراسات تفصيلية لمختلف المشاكل ، لتواجه تطورات الظروف ولم يكن لمصر أن تفعل أكثر مما فعلت فى ذلك الحين ، لان امتداد الإدارة المصرية ليشمل شطرى الوادى كان أول تجربة من نوعها وانها قد أفادت فعلا من اخطائها - والدليل على ذلك المرسوم الاول الذى أصدره سعيد باشا عند زيارته للسودان (١٨٥٦/١٨٥٧ م) .

ومما يدل على أن الحملة لم تكن مزودة بخطة واضحة انها قد تركت الامر فى المناطق التى تسلمت ولايتها وهى فى طريقها إلى سنار فى يد المشايخ المحليين والكشاف

١٠- مكاتبة تركية رقم ١٩٠ دفتر /١٤ تركى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٩هـ
١١- وثيقة رقم ١٩٤ ترجمة دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ١٦ محرم سنة ١٢٣٩هـ
١٢- مكاتبة ٢٥٥ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٩هـ
١٣- مكاتبة رقم ١٦٤ سجل رقم ١١ معية تركى بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩ هـ
١٤- وثيقة تركية رقم ١٢١ سجل رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩هـ
١٥- وثيقة تركية رقم ١١٧ سجل رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩هـ
١٦- مكاتبة تركية رقم ١٨٥ دفتر / ١٦ معية تركى بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩هـ
١٧- مكاتبة رقم ٢٧٧ دفتر / ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ رمضان سنة ١٢٣٩هـ

(٢٣) أنظر ترجمة صورة مجلس المشورة (عقد فى ١٢ أغسطس سنة ٤٨١٦) فى كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ٣٣١

والقواسين (القواسين مفردها قواس) ، وبعض الجنود من المرتزقة (الباشبوزق) فى المدن الرئيسية ، وفى هذا ما فيه من تجزئة للمسئولية الادارية ، وبخاصة فى بلاد واسعة الأرجاء كالسودان ، لا ترتبط بينها مواصلات سريعة . وكان من أثر هذه التنظيمات أحياء التقاليد القديمة ، بشأن تحصيل الضرائب مما كان له أسوأ الأثر البعيد المدى كما سنبينه فيما يلى .

١ ـ التنظيمات الضريبية:

بدأت الحملة بعد تنازل السلطان بادى مباشرة ، بتكوين لجنة من ديوان أفندى والمعلم حنا الطويل بالاشتراك مع الأرباب دفع الله ولد حمد فى وضع التنظيمات الضريبية ، وقد فتحت هذه اللجنة دفاتر الخراج وأرسلتها إلى القاهرة قبيل عودة قائد الحملة اسماعيل كامل ، من حملته على المناطق جنوبى سنجه ، وكانت التقديرات التى وصلت إليها هذه اللجنة ، على حد قول المعلم حنا الطويل أمام مجلس المشورة (١٢ أغسطس سنة ١٨٢٦ م) ، وزعناه (المال) على حسب قدرة كل واحد منهم (أهل القرى ألخ) وعلى حسب الموجود ، وبيان هذه التقديرات كالآتى : —

	كيسه
سنار	١١١٠٠
حلفا	٢٩٤
العرب بجهة النيل الأبيض	٣١٤
الجملة	١١٧٠٨ أو ٥٨٥٤٠ جنيهاً (الكيسة ٥ جنيهات) [٢٤]

وبعد ذلك بعام تقريباً فتحت دفاتر « الفردة » ديسمبر سنة ١٨٢٢ م) وعهد أمر تحصيل هذه للضرائب إلى الجهاز الإدارى المحلى لكل منطقة والذى تكون كما سبق أن أوضحنا من الشيخ والكاشف والقواس والجنود ولم يزود هؤلاء بالعدد الكافى من الكتاب للقيام بعمليات القيد بل ترك الأمر فى يد أولئك المحصلين وفى ظل هذا النظام أخذت فيه التقاليد والعادات مكانها حيث كان على دافع الضرائب أن يدفع مبالغ إضافية تشمل حق الضيافة وواجب الشيخ والكاشف وهكذا إلى الحاكم الأعلى ، مما ارتفع بالمتحصل إلى أضعاف مضاعفة .

---

(٢٤) أنظر ترجمة صورة مجلس المشورة فى كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ٣٢٨

ما للنظام الذى اتبع بشأن تحصيل المال من البدو وغيرهم من الضاربين فى المناطق الصحراوية فأن مبالغ معينة قد فرضت على زعيم كل قبيلة أو شعبة وروعى فى ذلك التقدير حالتها الاقتصادية بما تملكه من ماشية الخ أو ما تقوم من نشاط فى تجارة القوافل . وترك للزعيم أن يجمع المال من أفراد قبيلته على طريقته الخاصة فيأخذ من زيد مثلا مائة قرش ومن عمرو عشرة قروش . ويأخذ الزعيم فى تقديره الفردة أن تكون حصيلته أكثر مما هو مقدر عليه فعلا لدفعه لخزينة الحكومة . وهذا الفرق بين المتحصل فعلا وبين المقدر أصلا كجباية على قبيلته يشمل حق الضيافة وحق الكاشف وغيره من رجال الحكومة . وقد ذكر موسى الكاشف أمام مجلس المشورة « ان فى مقدمة الأكالين هناك هو السر عسكر ثم الكشاف ويأتى القائمون فى الصف الثانى والمشايخ فى الصف الثالث وكل من يليهم يأكلون (٢٥) » سواء كانت هذه الأموال الاضافية تصل إلى أولئك أو لم تصل فانها كانت تجمع فعلا .

وتطورت التنظيمات الضريبية مع الزمن فشملت نواحى النشاط الاقتصادى المختلفة ومن ذلك العشور على السواقى ، النخيل ، الزراعة وعوائد الأملاك ألخ ألخ والويركو على أصحاب الحرف والصناعة والجمارك والتجارة والعقبة على المراكب كما أدخل نظام الالتزام (٢٦) .وهكذا نجد ان النظام الضريبي قد قام على طريقتين الأولى التى استحدثتها الادارة المصرية والثانى ما أخذته من المتوارث القديم وهذا المزيج من الأسس كان مصدراً لخلق بيئة صالحة لانتشار جرثومة الافساد التى كان لها أبعد الأثر فيما حدث فى السودان من تطورات وبخاصة أن أمر التحصيل للمال قد ترك فى أيدى الزعامات المحلية يعاونها الكشاف وبعض القواسين والجنود من الباشبوزق .

وكانت فى حالات بعض القبائل التى يكثر فيها التعدى على غيرها بالسلب والنهب أن يعين لها بعض الخيالة والجنود المشاة لحفظ الأمن ، وكان على القبيلة أن تدفع تكاليفهم إما كاملا أو مناصفة .

---

(٢٥) نفس المصدر ص ٣٢٥ وكان موسى الكاشف هذا أحد معاونى خورشيد باشا وقد توفي فى جبال الصعيد (أعالى النيل الأزرق) فى سنة ١٨٢٧م .

(٢٦) أنظر مكاتبة محمد على الى سر عسكر السودان اسماعيل باشا التى يأمره فيها بأن يعطى كردفان لأحد الملوك المحليين نظير جعل معين يدفع سنويا غير ان الدفتردار قد عارض هذه الفكرة ـ أنظر وثيقه رقم ٤٠٤ دفتر رقم ١٠ معينة بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٢٨ هـ ديسمبر سنة ١٨٥٢ ميلادية) ودفتر ١٤ معينة تركى وثيقة ١٣ صفحة ٤ بتاريخ رجب ١٢٢٨ ونفس الدفتر مكاتبة ١٠٦ بتاريخ ١٠ شوال ١٢٢٨ هـ .

ونبين فيما يلى مقارنة بين التقديرات الضريبية فى مختلف أنواعها كما بدأت فى عام ١٨٢٢/١٨٢١م وما وصلت اليه من عام ١٨٦٩ م حتى عام ١٨٧٩ م ونوضح البيانات عن فترتين منفصلتين أولاهما من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٤ م والثانيةمن ١٨٧٥م إلى ١٨٧٩ م وهذه الفترة الأخيرة هى التى كان فيها غوردون باشا حكمدارا للسودان وأقاليمه . ومما يجدر توجيه النظر إليه ان الميزانية كانت تبدأ سنتها المالية من سبتمبر فى سنة إلى سبتمبر من العام التالى ، وقد استمر هذا النظام معمولا به حتى سبتمبر ١٨٧٥ م وتعدلت ميزانية ١٨٧٦/١٨٧٥ م وشملت المدة من سبتمبر سنة ١٨٧٥ حتى ديسمبر ١٨٧٦ م أى ان تلك السنة كانت خمسة عشر شهرا . وصارت السنة المالية بعد ذلك تبدأ من يناير إلى ديسمبر من كل عام .

	تقديرات جنيه	المتحصل فعلا جنيه
من سبتمبر سنة ١٨٦٩ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٠	٣٧٨٥٨٤	٣١٥٤٩١
« « « ١٨٧٠ « « « ١٨٧١	٣٥٩٦٦١	٢٥٧٣٧٣
« « « ١٨٧١ « « « ١٨٧٢	٣٥٦٩٩٤	٢٤٠٣٣٩
« « « ١٨٧٢ « « « ١٨٧٣	٣٦٣٠٠٣	٣٠١٢٢٧
« « « ١٨٧٣ « « « ١٨٧٤	٣٦٩٣٣٦	٣١٩٢٩٢
الجملة	١٨٢٧٥٧٨	١٤٣٣٧٢٢
العجز		٠٣٩٣٨٥٦

	تقديرات جنيه	المتحصل فعلا جنيه
سبتمبر ١٨٧٤ إلى سبتمبر ١٨٧٥	٣٧٠٨٦٥	٢٢١٧٦٧
سبتمبر ١٨٧٥ ديسمبر ١٨٧٦	٤٨٢٩٨٥	٣٦٣٨١٨
يناير — ديسمبر سنة ١٨٧٧	٣٦٢٧٤٤	٢٧١٨٧٣
« « ١٨٧٨	٢٩٢٤٩٨	٢٨٣٨٢٢
« « ١٨٧٩	٤٠٢٥٩٥	٢٨٧٧٠٥
الجملة	٢٠١٢٥٩٧	١٥٢٨٩٨٥
العجز		٤٨٣٦١٢

وكان العجز فى الفترة الأولى ٢٩٣٨٥٦ أى بمعدل ٧٩٠٠٠ سنويا
وفى الفترة الثانية ٤٨٣٦١٢ « ٩٧٠٠٠ «

ويلاحظ من الأرقام الخاصة بالفترة الأولى (من سبتمبر ١٨٦٩ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٤م) ان العجز فى السنين من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢ قد بلغ حوالى ٢١٩٠٠٠ج ويرجع ذلك إلى التعديلات التى أدخلت بتخفيض الضرائب لتشجيع الزراعة، (وقد بلغ العجز فى ١٨٨٢م ١٠٣٠٠٠ج تقريباً ولايشمل هذا الرقم المال المخصص فى الميزانية للمعاشات) ، ولذا لانستطيع تحليل الأرقام ومقارنتها ونترك هذه المسألة لدراسة خاصة تتجمع عناصرها من الوثائق وتحقيق الظروف المحلية عن حالة الفيضان والأمطار وإلى ماغير ذلك من العوامل التى كان لها أثرها فى الاقتصاد القومى .

ولما كانت البلاد تعتمد اعتماداً كلياً على محصولها الزراعى ورعى الماشية والقائمين عليها من الرقيق فان الميزانية العامة كانت دائماً مصدر متاعب للخزانة المركزية لتغطية العجز .

وبالاضافة إلى عبء الضرائب الذى قد يرتفع فى بعض الحالات إلى أضعاف مضاعفة كما أوضحنا من قبل فقد كان على المواطن العادى أن يدفع جانباً من دخله الخاص إلى الفقيه المحلى الذى يرتبط معه برباط روحى وقد خلقت هذه شعور قلق وبخاصة عندما تقل غلة الأرض أو تنفق الماشية لسبب أو آخر (قلة المطر الموسمية هبوط الفيضان عن مستواه فى بعض السنوات والآفات الزراعية وأمراض الماشية).

ب — الاعفاءات الضريبية :

وقد أغدقت العطايا والامتيازات على رجال الدين والفقهاء والأعيان وشملت امتيازات الفقهاء القائمين عليها للتعليم الدينى الاعفاء من الضرائب التى تجبى عن الأرض التى يزرعونها[٢٧] غير أن تلك الطمأنينة وذلك العمل على تعمير البلاد وقيام حكومة مركزية تتعامل مع الأفراد فى مختلف البيئات الاقليمية لم يكن الأمر الذى يتقبله المجتمع فى مرحلته التى كان عليها عند امتداد الادارة المصرية ، فالبلاد كما سبق أن أوضحنا قد وصلت إلى أدنى مراتب التدهور والانحلال وتفرق أهلها إلى مجموعات قبلية يناصب بعضها البعض العداء والبغض وقد فقدوا شعورهم بالحاجة الى حياة استقرارية تهدف الى توحيد الصفوف وتكتيلها لتمكين البلاد من السير فى ركب الحضارة والتقدم كما كانت تبغى السياسة التى جاء بها امتداد الحكم المصرى . فالمواطن العادى كان يزرع الأرض ليستنبت منها حاجته من الغلال ولم تكن عليه التزامات

---

(٢٧) الدكتور عبد العزيز عبد المجيد . كتاب التربية فى السودان جنوثان ص ١٧ .

محددة نحو زعيمه القبلى فى الصورة التى فرضتها الادارة الجديدة . وقد أوجد هذا شعوراً خفياً نحو نظام الحكم المستحدث وبخاصة عندما يرى المواطن العادى أن الأعيان وغيرهم قد منحوا اعفاءات وعطايا الأمر الذى ألقى بعبء دفع الضرائب وغيرها على الفرد . وقد كان لهذه الحالة أثرها فى المجتمع مما جعل الافادة من التنظيمات الجديدة بعيداً عن المساهمة فى تثبيت أركان الحياة المستقرة وإرساء قواعدها لتقف أمام العواصف وما كان لهـــا أن تنعم بذلك النوع من الحياة الذى ينشده الحكم والتوسع الأوربى يرقب تطور الأحوال ، وبالاضافة إلى هذه الاعفاءات التى منحت لفريق من أهل المدن فان هـذه الامتيازات قد شملت خلال حكمدارية غوردون بعض القبائل والعشائر مما أزكى روح الحسد والتباغض بين القبائل .

وتوضح فيما يلى الجبايات التى كانت مقررة على المشائخ الضاربين فى البادية وذلك قبل عام ١٨٨١م ولو أخذنا بعين الاعتبار عند تقدير مال الحكومة عـــدد أفراد القبيلة وقدرتهم المالية فيما يملكون من حيوانات وموارد أخرى لوجدنا تفاوتا كبيرا فى تلك التقديرات .

		أعلى مبلغ جنيه		أقل مبلغ جنيه
مديرية الخرطوم	قبيلة الشكرية	١٦٣٢٧	البطاحين العشما	٤١٠
« بربر	الكميلاب	٦٨١	القاسماب	١٢
« دنقلة	القراريش	١٨٩	الهواوير	٦٥
« التاكة	الضباينة	١١٠٢٣	المليكاب	١٩
« سناروفازوغلى	رفاعة الهوى	٩٠٢٣	الكواهلة	١٣١٦
« سواكن	هباب	٢٠٠٠	أولاد على	٣٩
« مصوع	عرب رحل شياخة على عامر	٣٣٦	عرب رحل شياخة حسنين وحسين	٦
« كردفان	الكبابيش	٨٤٧٢	زيادية	٥٥
« دارا	الرزيقات	٣٩٢٠	ترغم	٢٥
« كبكبيه	الفلاتة	٦٠٠	غير معروف	٠٠
« درافور	الزيادية	٢٥٠٠	بشير	١٠٨

ج — **التنظيمات الادارية :**

وعندما اندلعت نيران الفتنة بعد الغدر باسماعيل وصحبه فى شندى وما تلى ذلك

من فرار الأهالى إلى دار عطيش والقضارف وغيرها من المناطق البعيدة عن متناول الحكومة ، صار تحصيل المال مستحيلا . ولهذا فان مهمة خلفه عثمان بك جركس كانت فى غاية من الصعوبة وبقى الحال على هذا المنوال حتى أوائل عهد خورشيد أغا (تولى منصب الحكمدارية من يونيو ١٨٢٦ حتى نهاية عام ١٨٣٨م) .

وإذا رجعنا إلى إجابة موسى الكاشف أمام مجلس المشورة (٢٨) حيث يقول « أما الحكام الذين كانوا هناك منذ مدة عثمان بك لغاية الآن فلم يبحثوا عن شيء ما ولم يقوموا بأى عمل ـ فلم تعمر البلاد وظلت آخذة فى الخراب . أعنى ذلك أنه عند انفصال أى حاكم وتعيين آخر بدلا منه لم تكن تجرى محاسبة بينهما ، ولا كان الحاكم المنفصل يسلم البلاد إلى خلفه ـ فاذا كان المأمور الذى يأتى يسأل ويفحص أولا طبق أصول الديوان ثم يدخل الأمور تحت ضابط ويربطها بقاعدة فيرجى للبلاد أن تعمره فاننا نجد فى هذا مايشير فى صورة أو أخرى أن الأمور كانت متروكة كلية فى يد المشايخ ومعاونيهم .

وأضاف موسى الكاشف « ولذلك قد طلب استخدام كتاب فاذا تم هذا التفتيش كما يريده مولانا فان الكتاب المرسلين الى تلك الديار سيوزعون على الأعمال التى تحتاج اليهم لاحتياج البلاد الى أمثالهم لأن الاقليم ملك فسيح وقد كان علم الكتابة مهملا فى العهد القديم ـ وقد طلبنا الآن كتابا للحاجة الماسة بهم ولضبط أمور الديوان (٢٩)

وقد عمل خورشيد أغا على بث روح الطمأنينة والاستقرار لانعاش البلاد بعودة الفارين الذين أمنهم وازالة مخاوفهم ، وأخذت البلاد تمارس تدريجياً حياتها اليومية فى ظل أحوال مستقرة وأمن مستتب ، وأدخلت زراعات وصناعات جديدة وأصلحت مساحات واسعة من الأراضى التى كانت مهجورة بسبب فرار أهلها بسبب الفتن ، التى حدثت عند مقتل اسماعيل فى شندى ، وانتظمت الحياة الاقتصادية ، وبدأ التحسن فى مستوى المعيشة ، واكتسب المجتمع حياة ملؤها النشاط ، وكان تطور الاحوال المضطرد مثار اعجاب وتقدير الرحالة ، الذين زاروا السودان فى تلك الفترة من الزمن .

واستمرت السياسة الاصلاحية ، التى بدأها خورشيد أغا ، طوال عهد خلفه احمد باشا جركس الذى اشتهر فى السودان باسم « احمد باشا أبا أدان » (أبوودان)

---

(٢٨) دكتور شكرى ص ٣٢٤
(٢٩) نفس المصدر السابق ص ٣٢٤

لضخامة أذنيه ، كما أطلق عليه احمد باشا الجزار وتميزت شخصية أبو ودان بتوطيد العلاقات الودية مع زعماء البلاد كما كان يتبادل معهم قرض الدوبيت ومن ذلك ماقاله مادحا الشيخ إدريس (٣٠) .

ادريس وداعة السيدة الزيعلية   الأســـد المشيته الضولعيه
قمر سيفين مالوش تحية   يريد يوم الكتال والتمبكية(٣١)

واهتم احمد باشا بالتوسع الزراعى وإنشاء مصانع فى الخندق والمتمه والكاملين وغيرها واستخدم فيها عدداً من العمال ولسبب لم يعلم بعد تمرد هؤلاء وأضربوا عن العمل فى يوم واحد شمل جميع المصانع. وهرب الكثير منهم إلى ديارهم فى الجبال جنوبى كردفان ، يعتقد ان هؤلاء كانوا من الرقيق الذى أدخل لجندية ، ويرجع هربهم إلى ما كان يلاقيه اخوانهم من زعماء القبائل الذى ألحقوا بخدمتهم لتحصيل المال غير أن هؤلاء قد استخدموهم فى الخدمة البيتية وأغلظوا فى الاساءة اليهم .

وزار السودان فى مدة حكمه محمد على وتفقد أحواله ونظر فى شئونه لتدعيم حياته الاقتصادية وتحسين موارده .

وتوفى احمد باشا فى سبتمبر عام ١٨٤٣م واختلفت الروايات المحلية فى أمر موته فنهم من يقول انه قد جنح إلى الاستقلال بالسودان عن مصر ، على أن يكون تابعاً للباب العالى مباشرة ويقول البعض ان أحد زعماء السودان عرض على أحمد باشا أمراً أصدره السلطان سليم فى حوالى ١٥٢٠ م بأن يكون السودان ولاية تابعة للسلطان العثمانى مباشرة ـ وان احمد باشا أرسل كتابا إلى الصدر الأعظم فى هذا الشأن ـ وقد أغضب ذلك محمد على الذى أرسل قوة من مصر بقيادة السنجق « داموس أغا » للقبض عليه . وما بلغ ذلك احمد باشا تناول السم وكانت وفاته بالخرطوم ودفن فى القبة الشرقية .

ويبدو أن هذه الإشاعات كان لها أثرها من حيث إدخال تعديلات على التقسيمات الإدارية فى السودان وعلاقاتها المباشرة مع القاهرة وسببت هذه التغييرات والتعلايلات

---

(٣٠) الشيخ إدريس ود ناصر خال الشيخ عبد الرحمن البدوى الأزهرى ال عيسى .

(٣١) ومعنى هذا « ادريس الذى أودعته السيدة الزيلعية كرامتها . كالأسد فى مشيته القوية ـ وكأنه قمر سيفين ليست له تحية ـ يريد اليوم للقتال والتدخين (التمباك) النارجيله) فقلت عن الشيخ شمس الدين الحنق فى وادى مدنى عام ١٩٤٣

اضطرابا فى الاداة الإدارية وانعدمت المسئولية لقيام سلطتين أحدهما الحكمدار أو مدير عموم قبلى السودان . وثانيتها رجوع حكام الأقاليم فى الكثير من شئونهم المالية وغيرها إلى النظارات فى القاهرة ـ وزادت المشاكل تعقيداً بالأزمات السياسية التى قامت بين الباب العالى من جهة وبين عباس الأول من جهة أخرى .

وجاء من بعد أحمد باشا أبوودان واحمد باشا المنكلى ، ولم يبق فى السودان إلا فترة قصيرة وتلاه خمسة عشر حاكما للسودان فى وظيفة الحكمدار أو مدير عموم قبلى السودان ألخ . وذلك حتى فبراير ١٨٧٧ م عندما تقلد الحكمدارية الجنرال غوردون باشا . وهذا يعنى ان الخمسة عشر حاكما قد أمضوا فى الحكم ما يقرب من الواحد والثلاثين عاما أى بمعدل سنتين وشهر تقريباً لكل منهم وأطول فترة وهى خمسة سنوات تقريباً أمضاها جعفر باشا مظهر وستة منهم أمضى كل منهم سنة واحدة تقريباً . وهذا إن دل على شيء فانه يدل على ان هذه الفترات لم تسمح بالوقت الكافى لدراسة الأحوال والعمل على علاجها . وهذا أيضاً مما جعل الحكام فى السودان يعملون دون سابق خبرة وتجربة كما تتطلبه الادارة الجديدة من دراية خاصة لتصريف المعاملات اليومية مع الجماعات المتباينة فى نطاق سياسة عامة بعيدة المدى تهدف إلى الربط بين مختلف المجموعات القبلية ، الأمر الذي لم يكن موضوع إدارة جهاز حكومى عادى بل هو بالعكس أعمق من ذلك غورا فهو فترة لانتقال شعوب قضت القرون العديدة فى حالة متأخرة عن ركب الحضارة ، وكان من الضرورى العمل على تنسيق الجهود بما يتمشى مع الظروف الواقعية محلياً للأخذ بيدها تدريجياً نحو مستوى رفيع .

لا شك فى ان امتداد الإدارة المصرية إلى السودان قد حملت فى ركابها أكثر من فكرة ورأى جديد واستخدمت وسائل منظمة للنقل ، وفتحت دور التعليم وأرسل عدد من أهالى البلاد إلى شمال الوادى (مصر لتلق المعرفة والتدريب على الزراعة وكثر المال المتداول فى الأيدى وأخذت الطريقة القديمة طريقة التعامل بالمقايضة فى الاختفاء ، ودبت الحياة فى المدن والقرى التى بدأت تحتل مكانتها فى اقتصاديات البلد لأول مرة بعد إن كانت فى عهد السلطنة السنارية تدار على صورة الجمهورية التجارية لمصلحة فئة قليلة ، واكتسب الفرد شخصيته وحريته فى التعامل فيما ينتج وشملت سياسة التعمير والإنشاء مختلف مرافق الحياة بمساعدة الفنيين ، الذين أرسلوا من مصر إلى السودان للمساهمة فى تقدم البناء والزراعة واستغلال الموارد الطبيعية . كما أرسلت مصر إلى السودان الاعانات المالية والحبوب لتفريج الضائقات التى أصابت البلاد

سنة بعد أخرى لسبب قلة الأمطار الموسمية وتكاد أن تكون السنوات المجدبة فى حلقات دورية فى حدود السبع سنوات .

* * *

وكانت لزيارتى محمد على وسعيد للسودان أطيب الأثر فى رفع معنوية الأهالى وبخاصة بعد أن أصدر سعيد فى عام ١٨٥٧ م الأربعة مراسيم ، ويعتبر المرسوم الأول الذى وجه إلى المديرين كلائحة تأسيسية لارساء جهاز الادارة فى السودان على أسس سليمة يشترك أهالى البلاد فى إدارة شئونهم وتقدير الضرائب وغير ذلك عن عن طريق المجالس المحلية وجمعيات ذات صلاحيات واسعة .

وقد حاول سعيد باشا أن يصلح الاخطاء الادارية باقامة تنظيمات محددة الخطوط يشترك فيها الزعماء والسكان من أهل السودان فى صورة مجالس محلية لها دورها البارز فى إدارة البلاد (٣٢) إلا أن المشاكل الكثيرة ذات الأهمية البالغة قد عطلت جزئياً وكليا تلك المشروعات الاصلاحية وساعدت على تفاقم الحال واضطرابه فيما بعد السبب استغلالها فى إسناد مراكز المسئولية بطبقة خاصة .

وأخذ الولاة الذين حكموا البلاد فى الاهتمام بالمسائل السودانية وارساء قواعد حياة لمجتمع مستقر وبذلت الجهود لترغيب المجموعات الضاربة فى البادية لسكنى مواطن الزراعة والافادة من مياه الروافد . ولقد بذل الحكمداريون جهوداً صادقة فى سبيل تحقيق ذلك رغم الصعاب التى نجمت عن التغييرات المتتابعة فى الحكمداريين والتى كان من شأنها أضعاف مقدرة الحكمدار على العمل وتصريف الشئون وفق خبرته المحلية . كما ان هذه التغيرات الكثيرة عرضت الحكمدارين الى الشائعات المغرضة التى ترتبت عليها الاساءة الى الادارة المصرية فى السودان.ونذكر من هؤلاء أحمد ممتاز باشا (٣٣) الذى نعتقد أن التاريخ لم ينصفه الانصاف الكامل بما يتفق مع سيرته الحسنة فى السودان . بل بالعكس لقد لقى ممتاز أقسى مايلقاه إنسان من ظلم أخيه

---

(٣٢) كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور فؤاد شكرى ص ٢٤٥/٢٥٤

(٣٣) تولى احمد ممتاز باشا إدارة مديرية عموم قبلى السودان من سنة ١٨٧١ إلى ١٨٧٢ م ودبرت له الشكاوى التى رفعت إلى الخديو وبتحقيقها ظهر فسادها بعد حبسه فى القلعة بالقاهرة زهاء مايقرب من الشهر وقد مات مغموما بعد عودته إلى الخرطوم حيث دفن . وأشاع أعداؤه فى السودان ومصر من أهل الفساد ما أساء إلى ماسمعته ــ أنظر الملحق الثامن حيث نتعرض لترجمة حياة احمد ممتاز باشا .

الانسان ـ عمل ممتاز خلال خدمته فى السودان على التوسع الزراعى وخاصة القطن وزراعته على نطاق واسع فى دلتا خور بركة وفى حوض القاش ونهر العطبرة كما عمل على اصلاح أراضى دنقله وشق القنوات فى تلك المنطقة لتوسيع رقعة الأرض الصالحة للزراعة وإنشاء بعض الصناعات بما يتناسب والحال فى كل اقليم . وفكر فى إنشاء الخطوط الحديدية لربط البلاد ومخارجها فى الشمال والشرق وتعبيد الطرق وتنظيم المواصلات البرية والمائية والبريد والمواصلات السلكية [٣٤] .

وقد كانت الفرصة مواتية للافادة من زراعة القطن فى تلك الحقبة من الزمن بسبب الحرب الأمريكية وذهب ممتاز ضحية الدس والكيد من اسماعيل المفتش الذى كان يخشى من تقرب ممتاز من الخديو الذى بدأ فى الأخذ بمقترحاته وقد عاون معنى بك الشامى اسماعيل المفتش بتقديم الشكاوى ضد ممتاز [٣٥] وتحريض الأهالى على مثل ذلك .

وقد تأثر مجرى الأمور فى السودان بالاحداث التى ألمت بمصر خاصة بعد افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ م مما هيأ للسياسة البريطانية فرصة الانقلاب من موقف الانتظار ومراقبة تطور الظروف إلى العمل الجدى . ولعبت السياسة الدولية دورها الأمر الذى أفادت منه بريطانيا التى عمل الخديو على إرضائها والاستجابة لمطالبها ، وبخاصة عن الرقيق ، وقد تعين صمويل بيكر لإدارة خط الاستواء للقضاء على النخاسة وقد حارب التجار ونكل بهم وامتدت قسوته إلى الأهلين فزاد بعمله هذا كراهية الأهالى للحكومة وفقدوا ثقتهم بها وترتب على ذلك ان فقدت الحكومة نفوذها وصارت القبائل تتربص برجال الادارة للفتك بهم ، وهكذا نجح صمويل بيكر فى نشر روح التذمر بين الأهلين الذين صاروا يترقبون الفرص للخلاص من نيرها ، واحتمى الكثيرون منهم بتجار الرقيق الذى أنشأوا محطاتهم كما أسلفنا بعيداً عن سلطان الحكومة . عاد صمويل بيكر إلى بلاده وعين غردون مكانه ليصلح من اخطاء سلفه فى أعالى النيل ، وطلب اليه الخديو أن يحرص على الحصول على رضاء الأهالي ومحبتهم والابتعاد عما يسبب عداءهم للحكومة ، وقد حدد الخديو الغرض من تعيين غردون فى ثلاث نقاط أولها استتباب الأمن والسلام وثانيهما القضاء على تجارة

---

(٣٤) أنظر كتاب المواصلات فى سودان وادى النيل للشاطر بصيلى عبد الجليل

(٢٥) اسماعيل سرهنك باشا . حقائق الأخبار عن دول البحار بولاق مصر سنة ١٢ ـ ١٣ هـ ص ٢٧٤ جزء ٢

الرقيق وثالثها فتح البلاد الشاسعة للتجارة . ولكن غردون ولو انه نجح فى بعض الشيء إلا أنه لم يكن موفقاً فى الاجراء الذى اتخذه لوقف نشاط تجار الرقيق ومحاربة هذه التجارة ، ونعنى بذلك اعلانه احتكار تجارة العاج لحساب الحكومة (مارس سنة ١٨٧٤) [٣٦] ، حيث نجم ذلك اغلاق النيل الأبيض للملاحة وتعطيل التجارة ، فازداد بذلك تذمر التجار من الحكومة التى سلطت عليهم رجالها وغالبيتهم من الأوروبيين المغامرين وخولت لهم سلطات واسعة لتنفيذ السياسة فى نطاق ما حدده الخديو عن مهمة غوردون التى أشرنا إليها سابقاً .

وتتابعت المشاكل وتشابكت أطرافها فنوبار يذهب إلى انجلترا ناصحاً بفرض الحماية البريطانية على مصر لمواجهة التقدم الروسى فى البلقان وفى آسيا الصغرى [٣٧] . وألمانيا تقترح على بريطانيا على لسان مستشارها بسمرك مثل ذلك تحقيقاً لأهدافها السياسية نحو روسيا وفرنسا وكان لهذه الجهود أثرها فى خلق الارتباكات المالية فى مصر وتعطيل حركة الانشاء والتعمير التى رسمتها مصر للسودان . وسادت حالة الركود . وجاءت معدات الرقيق فى ١٨٧٧ م وتعتبر الصرامة التى اتبعت فى تنفيذها فى السودان العامل المباشر فى تكتيل حركات التذمر ضد الحكومة ، ثم استحكمت الأزمة المالية واستنفد اسماعيل جهوده لانقاذ الموقف ، ونصحته الدول بالنزول عن الحكم فلما رفض سعى الدول لدى الباب العالى لعزله وتم لها ما أرادت ، وبدأت من ثم التطورات التى انتهت فى عهد خلفه بالاحتلال البريطانى ، وقد سبقته المذكرة المعروفة بمذكرة غمبتا (المذكرة المشتركة) للاحتفاظ بتوفيق فى الحكم ، كضمان لتقوم مصر ورفاهيتها ، وقد اشتركت فى هذه المذكرة فرنسا وانجلترا عندما أحستا بأن الوطنيين المصريين سوف ينادون بخلع توفيق الذى كان مرتمياً فى أحضانهما .

* * *

وقد أفاد امتداد الحكم المصرى إلى خط الاستواء تقدم الكشف الجغرافى وعلوم الأجناس والنبات والحيوان كما تمكنت الادارة المصرية من وضع يدها على مصادر تجارة الرقيق بعد أن سيطرت على منافذها على البحر الأحمر ومواطنها فى الداخل . فقد تنازل الباب العالى لمصر عن مصوع وسواكن (عام ١٨٦٥ م) واستولت

---

(٣٦) أنظر كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص١٧٧ / ١٨٩

(٣٧) أنظر أدوارد ديسى فى كتابيه انجلترا ومصر ص ١٩ — ٢٠ لندن ١٨٨١ وقصة الخديوية ص ١٦٦ أيضاً محادثات نوبار والسفير الألمانى كما أشار اليه لانقر ص ٢٥٩

مصر على موانىء شاطىء البحر الأحمر الأفريقى . بربره وزيلع وتاجورة واستولت فى الداخل على هرر (١٨٧٢ - ١٨٧٥) وفى الغرب تسلمت دارفور (١٨٧٤ م) فأحكمت بذلك الحصار فى مخارج تجارة الرقيق . وبقى منفذ جنوبى فى منطقه نهر الجوبا ، غير ان الحكومة البريطانية عارضت فى امتلاك مصر لتلك الجهة بدعوى ان هذه المنطقة واقعة تحت سيادة سيد برغش سلطان زنجبار (٣٨) ، جرى كل هذا على أطراف البلاد السودانية ، أما فى داخلية البلاد فان الأحوال أخذت فى شق طريقها الطبيعى نحو الاستقرار كما أخذ المجتمع فى تكييف مقوماته وتوجيهها نحو شعور عام يجمع بين مختلف القبائل ويوحد كلمتها لنشأة أمة سودانية الأمر الذى عملت الادارة المصرية منذ امتدادها إلى السودان على تحقيقه .

٤ - أداة الحكم ومشكلاتها

حاولت الادارة المصرية فى النيف والثلاثين عاما الأولى من امتداد الحكم المصرى إلى السودان ، أن تقيم جهازاً للحكم ، استمد خطوطه العامة من التنظيمات التى كانت متبعة فى شمال الوادى (مصر) مع الأخذ ببعض التقاليد المحلية المتوارثة ، وقد اشركت الزعماء المحليين من مشائخ وغيرهم فى تحصيل الجبايات المختلفة فى نطاق التنظيمات الجديدة ، وقد نقلت فى نفس الوقت السلطات التنفيذية الفعلية التى كان يمارسها هؤلاء الزعماء إلى أيدى الكشاف والمأمورين والقواسين وغيرهم يعاونهم بعض الجنود ، وكان الأخذ بهذا النظام مصدر الخطر على الاستقرار الذى كانت تهدف اليه السياسة المصرية التى امتدت إلى السودان لتطهيره من عناصر الفوضى والاضطراب ، فهى فى تطبيقها ذلك النظام إنما قد أغفلت أن تراعى بعين الاعتبار حالة القلق التى كان عليها المجتمع ، الأمر الذى يتطلب العمل التدريجى للأخذ بيد المجتمع حتى يصل إلى مرحلة يتجاوب فيها ويتعاون مع التنظيمات الجديدة .

فالمرحلة كانت مرحلة انتقال حضارى ، تحل فيها حضارة جديدة محل حضارة بائدة ، لا تتمشى مع روح العصر ، وبخاصة أن السودان قد أمضى أكثر من ثلاثة قرون فى نطاق السلطنة السنارية والمشيخات المتحالفة معها ، والتى كانت نظمها كما سبق أن أشرنا ، تستمد أسسها من الجمهورية التجارية ، لذلك نجد فى واقع الأمر أن

---

(٣٨) أرسل الخديو اسماعيل حملة من السويس فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٧٥ م الى مصب نهر الجوبا وذلك لفتح الطريق مع خط الاستواء لمكافحة تجارة الرقيق تنفيذاً لتوصية غوردون .

الاصلاحات التى شملت ترقيـــة الزراعة والتوسع فى إعداد المساحات من الأرض الصالحة للزراعة وتحسين وسائل الرى والاكثار من الغلات وتنوعها وإنشاء صناعات جديدة ، ونشر التعليم فى مناهجه التى تختلف اختلافا كليا عما كانت عليه الخلاوى (مفردها خلوة - الكتاب) التى قصرت جهودها نحو التعليم الدينى المنقول ، كما أدخلت الادارة الجديدة تحسينات شملت مختلف نواحى النشاط ، من استتباب الأمن وتسهيل المواصلات وتعبيد الطرق ، وقد دفع ذلك بالبلاد كثيراً نحو التقدم ، فان تلك الجهود الانشائية كانت بالنسبة لحالة المجتمع حالة انتقال مفاجىء لم يمهد له باتاحة الفرصة الكافية من الزمن للتدرج حتى يصل المجتمع إلى المستوى الذى تتكيف معه حالة البلاد وتأخذ الأمور مجراها الطبيعى . وكانت الأحوال تتعثر بهذه الفتنة أو ذلك القلق الذى يصور حالة المجتمع النفسية ، ولم يكن رجال الادارة فى السودان من ذوى الخبرة فالعهد بهم قريب منذ قيام حكم فى مصر له طابعه الجديد بعد أن طويت صفحة الادارة المملوكية - وبعد دراسة المشاكل التى اعترضت سير الحكم خلال فترة زادت عن خمسة وثلاثين عاما ، أصدر سعيد باشا مراسيمه خلال زيارته للسودان فى عام ١٨٥٧م وكان فى تلك المراسيم العلاج السريع للقضاء على عناصر التخلف ، وبالرغم من أن هذه الاصلاحات قد جاءت فى وقت أخذت فيه المشاكل السياسية بالنسبة لمصر فى الازدياد ، فانها أثمرت لحد ما فى إرساء أسس جديدة لاشراك الزعماء والمواطنين إشراكا فعليـــاً مباشراً فى إدارة أمورهم وتصريفها وفى تحمل المسئولية ، ولو قدر لتلك الاصلاحات أن تأخذ طريقها نحو التنفيذ فى نطاق سياسة تقليدية يرعاها الخالف عن السالف ، ولم تتعرض للتيارات الأجنبية الخفية ، لكانت نتائجها بلا شك أعمق رسوخا فى المجتمع ، وفى إرساء قواعده على أسس سليمة تتمشى مع طبائع الأشياء ، وبالرغم من تلك التيارات الخفية فان الاصلاحات قد أوقدت جذوة الوعى القومى ، الذى سار فى اتجاهات متراخية تحركت من الزمن فى اتجاهات مختلفة .

١ - مشكلة الرقيق :

وبينما كان المجتمع يعالج مشاكله ليتخلص منهـــا وتستقر أسسه ، إذا به يفاجىء بمشكلة أخرى أشد تشكيلا وأبعد أثراً ، ألا وهى مسألة أبطال « الرقيق » وهى عماد الاقتصاد القومى وحجر الزاوية فى بنائه منذ آلاف السنين فقد أخذت بريطانيا فى الضغط بطريقة أو أخرى لمنع « النخاسة » ، وتذرعت فى خطتها هذه بأن هذه مسألة أنسانية

وصورت الرقيق فى الصورة التى اعتاد الأوروبى أو الأمريكى أن يراها وتجول فى خاطره من استخدام أولئك المساكين المثقلين بالأغلال والأصفاد، المسوقين بضرب السياط التى تلهب ظهورهم ولا يكاد غذاؤهم يكفى لسد رمقهم ، ويعيشون فى أمكنة مظلمة ، وتناست أن الرقيق فى الشرق يختلف اختلافاً كلياً فى معاملته عن أولئك المساكين الذين وقعوا فى قبضة الأوروبيين والأمريكيين ، وبهذه الطريقة استطاعت انجلترا أن تستثير مشاعر الغربيين حتى حصلت على توصية الدول فى مؤتمر فينا فى عام ١٨١٥م بالأخذ بمنع النخاسة وتحرير الرقيق .

وكان أن أصدر محمد على أمره الى خورشيد أغا حكمدار السودان (١٨٢٦-١٨٣٧م) لمنع هذه التجارة ووقف غزوات النهاضة الموسمية . وجاء فى أحد أوامره « اننى لا أريد تجارة لا تشرفنى وانى لعلى استعداد لبذل كل تضحية اذا تطلب الغاء هذه التجارة أية من تضحيات من جانبى[٣٩] » . ويهدف محمد على أن لا يلحق العار بشخصه فى نظر جميع الشعوب المتمدينة وبخاصة فى نظر الحكومة الانكليزية التى تقوم بينه وبينها علاقات ود وصداقة ، وقد أخذت مسألة الرقيق فى مضاعفاتها حتى صارت مصدراً شديد الخطر تمخضت عنه الأحداث والفتن فى السودان ، فكانت كالمارد الذى خرج فى غفلة من قمقمه .

ويجمل بنا أن نتوقف قليلا لنعرض تطورات مسألة الرقيق النخاسة وأثرها فى المجال الدولى والمقارنة بين ذلك الوضع مع ما كان عليه فى دار الاسلام .

ب — أصول تجارة النخاسة فى العصر الحديث :

بدأت تجارة الرقيق فى صورتها الواسعة على يد الأوروبيين الذين اتخذوا من هذه السلعة عنصراً اقتصاديا هاما يشبع أطماعهم ، وقد أنشأوا البيوتات التجارية الكبيرة برءوس أموال أوروبية دخلت معها أموال أمريكية فى نهاية القرن الثامن عشر لمزاولة تجارة الرقيق ، وكانت السفن البريطانية تنقل أكثر من خمسين فى المائة من شحنات النخاسة من السواحل الافريقية الى المستعمرات ، وكان الرقيق ينقل فى شحنات تتكدس فيها الأجساد البشرية فى العنابر دون أدنى اعتبار لانسانيتهم، ناهيك

---

(٣٩) أنظر كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٦٣

عن الأمراض التى كانت تفتك بهم خلال الرحلات الطويلة الشاقة ، والتى تستغرق مايقرب من الستة أسابيع ، يموت خلالها مايقرب من الربع من العدد المنقول على السفن ، ولم يستيقظ الضمير الانسانى وهو فى سباته العميق بسبب الأرباح الوفيرة التى كانت تدرها هذه التجارة التى تتنافى مع القيم الانسانية ، ويبدو أن هذه القيم قد صقلها حب المال وسخرها فى ركابه واستطاعت بريطانيا وهى صاحبة المصلحة المادية الكبيرة من هذه التجارة أن تتزعم حركة المطالبة بابطالها ، ولاشك فى أن هذا التحول فى اتجاه انجلترا وما ترتب عليه من تضحيات مادية لم يكن بالأمر اليسير .

فاذا رجعنا الى تطورات العلاقات الدولية فى السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر نجد أن ثلاثة عشر ولاية أمريكية قد أعلنت انفصالها عن التاج البريطانى فى ٤ يوليه سنة ١٧٧٦م وأخذت فى استرداد حريتها فى دخول السفن الامريكية فى مياه المحيطات بعد أن كانت التجارة البحرية تحتكرها السفن البريطانية فى بعض المحيطات .

واستطاعت بريطانيا أن تتولى زعامة الحركة المطالبة بتحرير الرقيق وتحريمه بعد أن أخذت بوادر كراهية هذه التجارة المخالفة للانسانية فى بعض الممالك الأوروبية وفى انجلترا بالذات حيث اقترنت هـــذه الكراهية بالقلق والخوف بسبب تفشى عادة استخدام الرقيق فى الاعمال البيتيـــة وقد بلغ عددهم حوالى العشرة آلاف جاء بهم أصحاب المزارع من الانكليز من المستعمرات وكان الخوف من ازدياد استخدام الرقيق فى صورة تصبح فيها عادة متوطنة لها خطرها على الانكليزى وبخاصة عندما كثر بين الطبقات الكادحة ، والاختلاط فى مختلف صوره مع الرقيق يخشى منه أن يفقد الدم الانكليزى نقاءه ، الأمر الذى يؤدى فى نظرهم الى انحطاط الحضارة البريطانية ، وتزعم حركة المطالبه بتحرير وتحريم استخدام الرقيق « جرانفيل شارب » الذى استطاع أن يصبغ حركته بالدعوة الانسانية ، وقدمت شكاوى للمحاكم ، وصدر أول أحكامها عن رئيس القضاة « مانسفيلد » الذى قرر أن وجود الرقيق فى أراضى انجلترا عمل غير شرعى ، وتلت ذلك أحكام أخرى من محاكم المناطق المختلفة فى الجزيرة البريطانية ، إلا أن هذه الأحكام لم يشمل الرقيق الذى كان يستخدم فى الزراعة فى المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار ، فقد أبقى على هؤلاء حتى يتسنى استغلال الارض بتكاليف رخيصة فيمكن أن تنافس المنتجات الزراعية من قصب وشاى وتبغ الخ الخ ، المنتجات الاجنبية فى الاسواق الاوروبية وغيرها . وكانت الامراض فى المناطق الاستوائية لاتسمح للأوروبى بالعمل الشاق فى تلك المزارع .

حـ – تطور مسألة الرقيق :

وأخذت مسألة الرقيق تتطور فى صورة أو أخرى حتى صارت أداة من أدوات الاستعمار فى صراعه الخفى بين الدول وبخاصة بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا فى أفريقية وبين بريطانيا وروسيا فى آسيا. وقد أخذ هذا الصراع مظهره فى مطالبة بريطانيا بالغاء الرقيق الذى صورته فى صورة ما كان يلاقيه هؤلاء التعساء على أيدى أصحاب المزارع فى المستعمرات وبذلك استطاعت بريطانيا أن تكسب الرأى العام إلى جانبها بعد أن أصدرت تشريعات اعتبرت النخاسة عملا من أعمال القرصنة وذلك فى عام ١٨٠٧ م واستطاعت انكلترا ان تحصل على توصيات مؤتمر فينا فى عام ١٨١٥ م بتحريمه كما ذكرنا من قبل.

ونشطت بريطانيا فى مراقبة الشاطىء الغربى لأفريقيا لمنع نقل الرقيق إلى أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة) التى ثارت على انجلترا واستطاعت أن تفوز باستقلالها عن الأمبراطورية البريطانية. ومن ذلك الحين صارت هذه الولايات عنصراً جديداً له خطره فى مجال المنافسة التجارية الدولية ، ومن هذا يتبين لنا أن التحول الذى طرأ فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، على مسلك بريطانيا تجاه الرقيق وجعلها تدخل تعديلات جوهرية على علاقاتها الخارجية كما أملته سياستها الأساسية وهى الاحتفاظ بالسيادة البحرية ،الأمر الذى قد دفعها فى بعض الأحوال إلى وسائل عنيفة لأضعاف منافسيها.

ودفعت بريطانيا تعويضا مالياً بلغ حوالى العشرين مليونا من الجنيهات لرعاياها من الانجليز الذين يستخدمون لرقيق فى مزارعهم فيما وراء البحار مقابل تحرير الرقيق [٤٠] ، عملت بريطانيا كل دلك فى عام ١٨٢٩ م لتحرير المستعبدين ، فهل كانت لتلك الجهود نتائج عملية بحيث اكتسب الرقيق حقوقه الانسانية وتركت له الحرية فى التنقل طلباً للرزق وفق مشيئته وبالأجور التى يقبلها ، الواقع ان مسألة تحرير الرقيق لم تكن إلا إجراء صوريا ، فقد ألغى الرقيق فى المعنى وليس فى الروح فقد كانت فى مزارع الانكليز فى المستعمرات أكثر من ثمانمائة ألف من الرقيق يعملون فى الزراعة فى نهاية القرن الثامن عشر وكانت فى المزارع الأمريكية اعداد وفيرة من الرقيق. وعلى الرغم من أن مجلس الكونجرس الأمريكى قد أصدر تشريعاً بمنع توريد

---

(٤٠) مذكرة السيد هنرغوردون (شقيق غوردون باشا) بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٤م نقلا عن كتاب المهدية والسودان المصرى « لمؤلفه ونجت ص ٥٥٤ / ٥٥٥

الرقيق إلى الولايات الأمريكية فى ١٨٠٧ م على أن يسرى مفعول هذا التشريع ابتداء من أول يناير سنة ١٨٠٨ م فان بريطانيا كانت تهدف إلى تحرير الموجود منه فعلا فى المزارع الأمريكية تحت ستار العاطفة الانسانية لخاق متاعب للأمريكان بزيادة تكاليف الانتاج فى بلادهم حتى يعجزوا عن منافسة التجارة البريطانية .

د ــ النخاسة فى الصراع الدولى:

وأخذت بريطانيا فى مراقبة الشاطىء الغربى لأفريقيـــا بدعوى منع الرقيق الى أمريكا ومضايقة السفن الأمريكية لمنعها من الدنو من ذلك الشاطىء ولكن هذا الأجراء فى غرب أفريقيا قد أوجد مجالا للسفن الأمريكية فى شرق أفريقيا والخليج الفارسى وتحول إلى هذه المنطقة النشاط التجارى ، كما قامت السفن الفرنسيةوالاسبانية والبرتغالية فى نقل الرقيق ، ورفضت هذه الدول الاذعان للرقابة البريطانية . وأخذ النفوذ الأمريكى فى العمل على انتشار تجارته فى هذه المنطقة من المحيط الهنـــدى ، وأحست بريطانيا بخطر هذا النفوذ على مصالحها الاستراتيجية فى هذه الرقعة، وبخاصة بعد أن عقدت الولايات المتحدة معاهدة مع السيد سعيد فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٣٣ ، والتى حصلت بموجبها الولايات المتحدة على امتيازات اقتصادية وتسهيلات للمبشرين الأمريكيين واستطاعت بريطانيا بطرقها الخاصة أن تقبض على ناصية الأمر ، وبعد صراع طويل استطاعت بريطانيا من بسط حمايتها على السيد سعيد ومن بعده ابنه وذلك تحت ستار منع الرقيق (٤١) . وتمكنت بذلك انجلترا من إنزال ضربة قوية على التجارة الأمريكية كما يصوره لنا الجدول الآتى :(٤٢)

ا) قبل الحرب الأمريكية الأهلية

	سنة ١٨٥٥		سنة ١٨٥٦		سنة ٨٥٧		سنة ١٨٥٨		سنة ١٨٥٩	
	عدد	طن	عدد	طن	عدد	طن	عدد	طن	عدد	طن
الولايات المتحدة	٢٨	٩١٤٢	٢٤	٧٢١٥	٣٥	١١٤٨١	٣٢	٩٩٦٢	٣٥	١٠٨٩٠
بريطانيا	٢	٤٠٩	٢	١١٦٧	٣	٧٧٠	٤	١١٦٩	١	٤٩٣
المانيا	١٥	٣٩٨٩	٢٠	٦٠٣٨	٢٣	٥٩٠٧	٢٦	٧٢٧٠	١٧	٤٤٢٨
فرنسا	١٣	٥٥٢٣	٢٢	١٠٠٧٩	٢٤	٨٣١٩	١٨	٦١٨٦	١٢	٣٠٦٦
الجملة	٥٨	١٨٧٦٣	٦٨	٢٤٤٩٩	٨٥	٢٦٤٧٧	٨٠	٢٤٥٨٤	٦٥	١٨٨٧٧

(٤١) أنظر « الاستعمار والتجارة » بالانجليزية لمؤلفه لينارد ولف ص ٣٢٠ وما بعدها.

(٤٢) أنظر مقال شرق أفريقيا وأمريكا بقلم السيرجون جراى فى مجلة تنجانيقا فى رسائل ومدونات (بالانجليزية) عدد ديسمبر ١٩٤٦ ص ٥٥ / ٨٦ .

ب) بعد الحرب الأمريكية الأهلية

	سنة ١٨٦٦ عدد طن		سنة ١٨٧١ عدد طن		سنة ١٨٧٧ عدد طن		سنة ١٨٧٩ عدد طن	
الولايات المتحدة	٥	٢٥١٥	٧	٤٢٥٠	١٠	٥٣٥٢	١٠	٥٢٨٣
بريطانيا	١٩	٦٥٦٨	١٧	١٠٤٥٩	٤٨	٤٢٤٨٧	٦٩	١٦٢٦٥
المانيا	١٦	٥٢٨٢	١٧	٧٤٦٧	١٥	٤٦٥٣	١٣	٥٩٤٠
فرنسا	١٦	٣٧٧٢	١١	٥٤٥٠	٥	٣٢٥٩	٤	١٩٧٥
جملة	٥٦	١٨١٦٧	٥٣	٢٧٦٢٦	٧٧	٥٥٧٥١	٩٦	٨٩٤٦٣

	الفترة ١٨٥٥/١٨٥٩ عدد	الفترة ١٨٥٥/١٨٥٩ طن	الفترة ١٨٦٦/١٨٧٩ عدد	الفترة ١٨٦٦/١٨٧٩ طن
الجملة العامة	٣٥٨	١١٣٢٠٠	٢٨٢	١٩١٠٠٧
نصيب بريطانيا	١٢	٤٠٠٥	١٥٣	٧٥٨٠٩
النسبة المئوية	٥ ٪	٣ ٪	٥١ ٪	٣٩ ٪

هـ ـ الرقيق فى دار الاسلام

أما فى دار الاسلام وبخاصة فى مصر والسودان فقد كان الرقيق فى حال أحسن كثيراً مما كانت عليه حالته فى الغرب ومرجع ذلك إلى تعاليم الدين الاسلامى التى أوصت بالمعاملة الطيبة كما شجعت على تحرير الرقيق لما فى ذلك ثواب، وقد ذكر أمير على ان الرقيق كان شائعاً فى الجاهلية وقد تسامح الاسلام بالابقاء المؤقت على هذه العادة، والقرآن فى نفس الوقت والواقع قد عمل على إلغائها [٤٣] تدريجياً وأبطل الاحتفاظ برقيق جديد، الأمر الذى يتمشى مع رسالة الدين التى قامت أساساً على المساواة والحرية.

وقد ذكرنا من قبل ان المجتمع السودانى، كما فى مناطق أخرى من دار الاسلام، قد احتفظ بالكثير من العادات والتقاليد القديمة، وهكذا بقى الرقيق وتغلغل فى كيان السودان الاقتصادى، وصار دعامة النشاط فى حياته اليومية، ومع ذلك فقد استغلت بريطانيا الناحية الانسانية، التى استندت فى أساسها على مسألة الرقيق، حتى تضغط على محمد على لمنع الاتجار فى الرقيق، ولتحرير الموجود منه فى خدمة الأهالى. وارتكبت بريطانيا من الاجراءات العنيفة الصارمة، فى تنفيذ هذا المنع للنخاسة

(٤٣) أمير على ٢ ص ٢٦٢

وتحرير الموجود منه فى خدمة الأهالى فى السودان ، الأمر الذى كان له أعمق الأثر فى تطورات الأحوال فى وادى النيل .

وأخذت مسألة الرقيق فى مصر والسودان فى التطور السريع ،وبخاصة ان انجلترا كانت ترقب بعين الاهتمام ما يجرى فى حوض النيل ، بعد أن تغلغلت الادارة المصرية فى السودان ، وبدأت فى بسط نفوذها على المناطق فى أقصى الجنوب ،وكانت بريطانيا تخشى قيام قوة من شأنها أن تخلق خطراً يتعارض مع المصلحة البريطانية فى هذه المنطقة ، فقد حذرت الدول الأوروبية محمد على من غزو الحبشة ، حتى لا يمتد السيطرة المصرية إلى القرن الأفريقى (المنطقة جنوب الهضبة الحبشية إلى نهر الجوبا) وتطل منه على المحيط الهندى (٤٤) ،وتنقل فى ركابها أراء جديدة ، يتطور معها الوعى القومى ، فى المناطق الواقعة على المحيط الهندى ، الذى يكون منطقة استراتيجية بالنسبة لانجلترا ، وقد ازداد قلق الدول الأوروبية من التقدم الذى وصلت اليه مصر بعد ظهور الجيش المصرى وبحريته فى حرب المورة لمساعدة الباب العالى على إخماد ثورة اليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ، وبدأ بعد ذلك التاريخ صراع الدول الأوروبية للتوسع فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى شاطئه الافريقى،فأنزلت فرنسا جنودها فى الجزائر فى عام ١٨٣٠ م ، لتعبيد الطريق لبسط سيطرتها على افريقيا الصغرى (تونس مراكش والمغرب الاقصى) ، وتكون لها فى هذه المنطقة قاعدة ، تخرج منها صوب الجنوب نحو قلب أفريقيا الاستوائية .

و ـ الرقيق وسيلة للضغط السياسى :

وبالغت الدولتان الانجليزية والفرنسية فى التودد إلى مصر ، وذلك بالدور الذى لعبتاه فى المشاكل ، التى قامت بين الباب العالى ومحمد على فى أزمة عام ١٨٣٢ (حرب الشام الأولى) ، من ناحية واشتد الضغط على مصر من ناحية أخرى بشأن الرقيق ، وكان من العسير حقاً أن تقوم مصر بمحاولة تحرير الرقيق فى السودان دفعة واحدة بأوامر تفرض على الشعب ، دون أن تعطى الفرصة الكافية للمجتمع ، ليكيف نفسه

---

(٤٤) كتاب السياسة الخارجية فى عهد بالمرستون جزء أول ص ٢٧٦ وقد حدث أن أرسل الخديو اسماعيل حملة إلى مصب نهر جوبا وذلك لفتح الطريق التجاري بين خط الاستواء والمحيط الهندى ولمكافحة الرقيق عبر هذا الطريق . فعارضت بريطانيا في إرسال هذه الحملة باسم السيد برغش سلطان زنجبار . وكانت بريطانيا تخفى تحت ستار اسم السيد برغش اهتمامها بوقف التوسع المصرى على الساحل الأفريقى للمحيط الهندى والسيطرة على الموانىء الاستراتيجية .

مع الزمن لهذا الاجراء ، وأن تترك المشكلة لتحل نفسها بنفسها ، بما يدخل على المجتمع من تغيير فى سلوكه اليومى ، نتيجة لما دخل البلاد من تطورات اقتصادية واجتماعية فى ركاب الادارة المصرية ، وقد ذكر محمد على إلى ريتشارد مادن « يعظم سرورى إذا ألغيت الرق إلغاء تاما ، ولكن من الواجب على الانسان أن يهيء للشعب قبل ذلك وسائل التربية والتعليم ، لأن مسألة الرق فى هذه البلاد من أشق المسائل وأشدها صعوبة ، على خلاف الحال فى بلادكم ، ذلك أن الناس اعتادوا أن يستخدموا الأرقاء لدرجة أنه إذا امتنع وجود الرقيق بالأسواق ، بادروا بالشكوى على نحو ما فعلوا سابقاً عندما منعت جنودى من تسيير الغزوات لصيد الرقيق في سنار[٤٥]

وكان للتيارات الخفية التى تحركها الدول الاستعمارية ، أثرها فى عرقلة جهود مصر لوقف تجارة الرقيق ، التى زادت تعقيداً بدخول عناصر أجنبية ، وذلك بدخول الليفانتيفيين والأوروبيين إلى السودان ، وممارستهم لصيد الفيلة وجمع العاج ثم صيد الرقيق ، وأنشأوا الزرائب والمحطات التى اتخذوا منها قواعد لحملاتهم المسلحة لصيد الرقيق ، وقد احتمى هؤلاء الأجانب بالامتيازات الأجنبية التى تستمتع بها دولهم فى مصر ، فصارت أعلامهم ترفع على مراكبهم ومحطاتهم ، حتى لاتتدخل السلطات الحكومية فى أعمالهم والحد من نشاطهم ، وقد واجهت مصر هذه التطورات بأن طالبت قناصل الدول ذات الشأن ، بأن يرفعوا عن رعاياهم حماية التجار المشتغلين بصيد الرقيق وتجارته ، وأن يكون للحكومة المصرية الرقابة القوية على تصدير الأسلحة والذخيرة ، وبهذا تستطيع الحكومة القضاء على هذه التجارة فى مواطنها فى السودان واضطر التجار الأجانب أمام مطالبة مصر للقناصل بالتدخل ، إلى بيع مؤسساتهم للحكومة التى قامت بالاستيلاء على الزرائب وتعويض أصحابها ، وتبع ذلك امتداد الادارة المصرية نحو الجنوب ، وكان أن رحل بعض التجار من المشتغلين بالرقيق إلى مناطق بعيـــدة عن سلطان الحكومة ، حيث وحدوا نشاطهم بتكوين قومبانية (أى شركة) وأنشأوا محطاتهم فى مملكة انيورو . كما سيطر الزبير رحمت على بحر الغزال ومملكة كيرة ، واتخذوا بلدة «بابة» ديم الزبير[٤٦] مركزاً لنشاطه ، وتحالف مع الرزيقات ، ثم اشتبك معهم ومع سلطانه الفور فى حروب ، انتهت بضم درافور

---

(٤٥) كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٦٤

(٤٦) نسبة إلى الزبير النفيعابي وهو غير الزبير رحمت .

إلى إدارة السودان المركزية ، وترجع أسباب حرب الزبير مع الفور الى عوامل اقتصادية بحتة ، وذلك أن الفور كانوا يعتمدون على حوض بحر الغزال ، كمجال حيوى لهم لصيد الرقيق وجمع العاج، ووجدوا أن سيطرة الزبير على هذا الجزء الذى يعتبرونه تابعاً لهم ، سوف تحرمهم من مصادر تجارتهم الرئيسية ، فكان لامناص من الاشتباك بينهم .

وكانت سيطرة الزبير على تلك المناطق ، قد أوجدت « مجالا حيوياً » خارجا عن سلطان الحكومة ، فى الجانب الجنوبى الغربى للسودان ، ولم تلبث أن فتحت أبوابها لهجرة المغامرين والتجار من الأقاليم التى تسيطر عليها إدارة السودان، حيث اشتدت موجة التنكيل بالأهالى على يد الموظفين من الأجانب وعملائهم تنفيذاً لمعاهـــدة الرقيق ، تنفيذاً صارما دون أن تراعي فى ذلك مصلحة الأهالى ، الذين يعتمدون اعتماداً كلياً ، بحكم العادات الموروثة ، على خدمة الرقيق ، وكانت هـذه الجيوب التى سيطر عليها الزبير مجالا ، وجد فيه المهاجرون متنفساً لكربتهم ، ولو ترك الأمر للزبير أن يعمل وفق طريقته الخاصة ، ولم تقم فى وجهه العراقيل، ولم تغدر حكومة غوردون بابنه لاستطاع الزبير منع تجارة الرقيق ، فى فترة قصيرة فى الوقت الذى يعمل فيه على تغيير الاتجاهات المحلية ، والتوسع الاقتصادى الى المستوى الذى ينتقل فيه الرقيق الى مركز يسترد فيـه حريته فى العمل كما يشاء ، وبالأجر الذى يرتضيه ، مادام المال متوفراً لمواجهة ذلك التطور .

ز — الرقيق — فى الدعاية المغرضة

وفى هذا العرض مايبين لنـا مدى محاولة مصر للأخذ بيـد السودان نحو التقدم والسير فى ركب الحضارة وأنها لم تحاول أن تحد من حرية أهله من ممارسة حقوقهم الطبيعية واشراكهم اشراكا فعليا فى إدارة شئون بلادهم . ومرجع ذلك إلى أن مصر لم تـكن لها « معتقدات أو رغبات » على الصورة التى تمارسهـا الدول الاستعمارية . ويتبين لنـا مما سبق ذكره أن مصر لم تذهب الى السودان لاستعباد أهله وتسخيرهم لمصلحتها كما جاء فى أقوال الفرنجة عن أهداف امتداد الادارة المصرية الى السودان ، وأننا لاننكر أنه كانت هناك بعض الأخطاء التى بولغ كثيراً فى تصويرها للتأثير على الرأى العام الأوروبى . ولاننكر أيضاً أن امتداد ادارة مصر الى السودان كان أول تجاربها بعد أن ذهبت لوضع حد لحالة الفوضى والحروب الأهلية التى اشتد أوارها بين

الزعامات القبلية ، ولكى تمنع من تثبيت أقدام فلول المماليك التى دخلت البـلاد للسيطرة عليها ، وكان وراءهم التوسع الأوروبى ، الذى حاول جاهداً مساعدتهم على اقامة حكومة في السودان فى صورة ماتتحقق معها مطامعهم .

ومما جاء فى أقوال الفرنجة أن مصر ذهبت الى السودان للحصول على الرقيق وأن الواقع يدحض هذا القول . فان الرقيق وهو كما أوضحنا عميق الأثر فى اقتصاديات البلاد كان يدفع ضمن الجبايات المطلوبة للادارة ، إلا أن تلك الادارة لم تستخدمهم فى مزارعها أو أنها حددت لهم مناطق للاقامة والعمل فى داخلها ومنعهم من الانتقال من هذا السيد أوذاك فهى قد جندتهم فى الجيش للخدمة فى بلدهم وكانت تعاملهم على قدم المساواة وفق القوانين التى كانت تسرى على غيرهم من رجال الجندية . وبعد انتهاء خدمته كان له الخيار فى الذهاب أين شاء وأن يعمل فى حرية مطلقة بما يتمشى مع رغباته الخاصة . وفى هذا المسلك الطريق الأمثل نحو إنهاء هـذه التجارة تدريجيا فى نطاق تطور المجتمع . وانجلترا التى اتخذت من الرقيق أداة من أدوات الاستعمار لتعطيل التقدم فى السودان لم تحاول فى مفاوضاتهـا مع وكلاء الامام المهدى التعرض لهذه المسألة ، مسألة أبطال الرقيق - على نفس الطريقة التى أنتهجتها للضغط على مصر . كما أن تجارة الرقيق والسبى كانت قائمة فى فترة الحركة المهدية ، وطلب كتشنر فى مذكرته التى أصدرها بعد إقامة الادارة الجديدة فى ١٨٩٨م بأن لايتدخل الحكام فى أمر الرقيق الذى فى خدمة أهله مالم يطلب منهم الرقيق ذلك .

أما القول بأن مصر ذهبت إلى السودان للحصول على الذهب - فلم يكن من المعقول أن تقوم إدارة جديدة دون أن تبحث فى موارد البلاد الطبيعية لاستغلالها - ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر كانت تدفع من خزانتهـا الأموال اللازمة لسد العجز فى إيرادات السودان ولو قدر للادارة المصرية أن تسير على الخطى التى رسمتها بعد تجاربها ولم يتدخل الاستعمار لـكان السودان غيره اليوم حيث كانت قد توفرت له امكانياته الاقتصادية واستغلالها منذ قرابة المائة عام .

وقد أرادت مصر باستخدامهـا الأجانب في مراكز ذات مسئولية فى السودان لتظهر حسن نيتها واستعدادها لإلغاء الرقيق - ولايفوتنا أن نذكر أن مصر كانت فى حاجة إلى إدخال الطمأنينة فى قلوب الأجانب لما كانت واقعة فيه من مشاكل مالية . إلا أن أولئك الأجانب أساءوا إلى مصر بتصرفاتهم ومسلكهم الشـاذ وهذا مانفر الأهالى وجعلهم ينظرون إلى مصر بعين الشك والريبة ، وصار مصيرهم معلقاً فى كف

القدر . فبينما كانت مأمورية صمويل بيكر فى خط الاستواء إدخال الوسائل المشروعة للتجارة ونشر الحضارة والاستقرار فى المناطق النائية ، فانه قد اعتبر مهمته عسكرية لحرب الأهالى والتنكيل بهم ؟ وسلك خلفه غوردون فى الجنوب مسلكا قديكون مختلفاً فى وسائله عما كان عليه مسلك بيكر إلا أن النتيجة كانت واحدة من حيث تنفير الأهالى من الحكومة فى الخرطوم والقاهرة ، التى اعتبروها مسئولة عن كل الكوارث التى حلت بهم بسبب مكافحة الرقيق .

ح ـ دخول مسألة الرقيق فى المعاهدات

وكانت الحكومة الانجليزية قد أخذت فى التفاهم مع الباب العالى بشأن الرقيق وقد أصدر السلطان العثمانى تنظيماته بمنع الرقيق الأبيض فى أكتوبر عام ١٨٥٤م والرقيق الأسود فى فبراير سنة ١٨٥٧م وكانت هذه التنظيمات تشمل ضمنا مصر بوصفها أيالة عثمانية ، وأخذت بريطانيا فى محاولاتها مع مصر منذعام ١٨٧٣م لابرام معاهدة بشأن إلغاء تجارة الرقيق فى مصر والسودان والمناطق التابعة لمصر وبينما كانت المفاوضات دائرة حول هذه المسألة أصدر الباب العالى دستوره ١٨٧٦م الذى منح جميع الرعايا الحقوق والحريات المتساوية وبعد ذلك بعام أى فى سنة ١٨٧٧م تم الاتفاق على الصياغة النهائية للاتفاق ووقعت عليه الدولتان المصرية والانجليزية فى الاسكندرية فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧م .

وهنالك مسألتان لهما أثرهما فى هذا الموقف، أولهما التنظيمات السلطانية التى صدرت فى عام ١٨٥٨ بشأن الرقيق الأسود وهو يشمل جميع الأمبراطورية العثمانية ومنها مصر والسودان والمناطق التابعة لمصر ، ويبدو أن هذا كان سنداً لمسلك بيكر فى إدارته لخط الاستواء فى السنوات ١٨٦٩/١٨٧٣ وغوردون من ١٨٧٤ / ١٨٧٦م بالاضافة إلى الأوامر التى أصدرها ولاة مصر حتى ذلك الحين والتى كانت تهدف إلى تنظيم الالغاء . والثانية أن الأزمة المالية المصرية قد برزت وجاء ستيفن كيف من رجال الخزانة البريطانية لبحث الحالة المصرية وتقديم تقرير عنها لحكومته . وفى هذه الفترة بالذات ، وبالرغم من الأزمة المالية التى صورت فى صورة بعثت على القلق ، كانت مصر قد شقت طريقها نحو النمو الاقتصادى كما تتضح هذه الحقيقة من ملاحظة الأطراد فى زيادة عدد السكان من عام ١٨٦٣ إلى ١٨٧٥م وزيادة النشاط التجارى فى حركتى الوارد والصادر .

	سنة ١٨٦٣	سنة ١٨٧٥	الزيادة
عدد السكان	٤٨٣٣٠٠٠	٥٥١٨٠٠٠	٦٨٥٠٠٠ نفساً
الواردات	١٩٩١٠٠٠	٥٤١٠٠٠٠	٣٤١٩٠٠٠ جنيهاً
الصادرات	٤٤٥٤٠٠٠	١٣٨١٠٠٠٠	٩٣٥٦٠٠٠ جنيهاً

وإذا رجعنا إلى معاهدة الرقيق ، التى أبرمت فى الاسكندرية فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ ، وإلى الدكريتو الخديوى الصادر فى نفس التاريخ ، فاننا نجد أن الاتفاق قد قام على أسس ليس من شأنها أن تؤدى إلى نتيجة إيجابية عملية لالغاء الرقيق إلغاء تدريجياً فى خلال الفترة المعينة لالغائه ، وهى سبعة سنوات لمصر واثنى عشر سنة فى السودان ، حتى تتاح الفرصة للمجتمع فى البلدين أن يكيف وضعه بما يتمشى والاتفاق الجديد ، فى الفترة التى تحددت لكل من مصو والسودان على التوالى .

وقد صيغت هذه المعاهدة على الشكل الآتى : —

الديباجـــه — تعبر من أقصى أمانى الدولتين - بريطانيا ومصر - للتعاون فى أبطال الرقيق بالـكلية .

البند الأول — تتعهد الحكومة المصرية بأن تمنع منعاً كلياً من الآن فصاعداً إدخال الأرقاء وتفرض بأشد العقوبات على المخالفين .

البند الثانى — تعتبر المتعاملين بالنخاسة أو المشتركين فى عملياتها بمنزلة السارقين القاتلين ويحاكم هؤلاء أمام المجالس العسكرية أوالمجالس المختصة .

البند الثالث — عن معاملة الرقيق المنزوعين من المتجرين به .

البند الرابع — تمنع مصر بقدر ماتحت يدها من سيطرة ونفوذ غزوات النهاضة وتعامل من يمارس هذه التجارة من القبائل معاملة القاتلين .

البند الخامس — تصدر الحكومة المصرية أمراً يرفق مع المعاهدة يحدد بمقتضاه منع الرقيق كلية فى أرض مصر والسودان من ابتداء تاريخ يعين فى الأمر . وتوضح العقوبة على من يخالف ذلك .

البند السادس — تسمح مصر للسفن البريطانية باجراء التفتيش فى مياه البحر الأحمر على المراكب للبحث عن الرقيق ويبين هذا البند طريقة التصرف فى هذه الحالات .

البند السابع — تشير إلى أن العمل بمقتضى هذه المعاهدة يبدأ بعد مضى ثلاثة شهور من توقيعها .

وللمعاهدة ذيل عن إنشاء قلم مخصوص فى كل من محافظتى القاهرة والاسكندرية للتصرف فى حالات الرقيق المختلفة .

معاهدات الرقيق لكسب حقوق

ووقعت الحكومتان المصرية والبريطانية معاهدة ثانية فى السابع من سبتمبر سنة ١٨٧٧ بشأن سواحل السومال . واهتمت بريطانيا بأن تحصل فى هذه المعاهدة على تعهد مصر ، بأن لاتعطى أى احتكار ، أو التزام أو ترخيص باعطاء أى قطعة أرض فى الحاضر والمستقبل لأية دولة أجنبية ، وأن لاتأخذ مصر عوائد جمركية تزيد عن الخمسة فى المائة ، وأن تتمتع بريطانيا وتجارتها ، بالمعاملة كدولة ممتازة فى جميع البلاد ، التى تمتد إليها سلطة مصر . وأن يكون الحق لانكلترا فى تعيين مأمورى قنصليات ، فى جميع الموانىء والجهات ، وأن يتمتع هؤلاء بجميع الامتيازات والمعافاة وسائر المزايا المعطاة ، التى تعطى إلى سائر مأمورى القنصليات التابعين لأى دولة ممتازة ، واشترطت انكلترا ان لايعين فى وظيفة مأمورى القنصليات من أهالى تلك البلاد ، أو البلاد المجاورة لها ، والتزمت مصر فى البند الرابع بمنع تصدير الرقيق ومنع تجارته وقبلت مصر أن يكون للسفن الانكليزية حق مراقبة تجارة الرقيق ، ومنعها وأن تضبط وترسل إلى المجالس المختصة ، السفن التى تتعاطى أو يشتبه فى أنها تتعاطى الرقيق وتحقيقاً لصلاحية هذه المعاهدة من الوجهة القانونية ، وتنفيذها قضت على وجوب أن يعطى السلطان العثمانى ، الذى تتبع له مصر تعهداً رسمياً بأن لايعطى فى أية صورة إلى أية حكومة أجنبية ، قطعة من سواحل السومال ومن سائر البلاد التى دخلت أو تدخل فى حوزة مصر .

وقد قام غوردون خلال حكمداريته من ١٨٧٧ الى ١٨٧٩ م بارتكاب أقسى أنواع التنكيل والتعذيب بالاهالى - قتل وتشريد ومصادرة الممتلكات - بدعوى اقتلاع جذور النخاسة وذلك لتبرير مسلكه التعسفى ، ولذا رجعنا إلى ما ذكره غوردون بقوله « ان بيضة الثورة الحالية (يقصد الحركة المهدية) قد وضعت خلال الأعوام الثلاث التى أتيح لى فيها ان أحكم السودان على مبادىء غير المبـــادىء التركية [٤٧] (يقصد بالتركية الادارة المصرية ونسبتهـا إلى الاتراك لم يكن إلا مغالطة وافتراء على واقع الأمر وحقيقته) وبهذا القول قد كشف غوردون عن حقيقة أهدافه التى حققها عن طريق ذلك المسلك الارهابى [٤٨] ، الذى أحدث أثره العميق فى المجتمع المحلى [٤٩] ودفع به الى الثورة فى وجه إدارة البلاد . وفى الحقيقة وواقع الامر ان الفترة من الزمن من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٩ م التى تولى فيها بيكر مديرية خط الاستواء من ١٨٦٩ / ١٨٧٤ وخلفــه غوردون من ١٨٧٤ / ١٨٧٧ م وولاية الاخير لحكمدارية السودان لم تكن إلا فترة متتابعة نفذت فيها سياسة موحدة الاهداف وإن كانت الأساليب قد اختلفت بعض الشىء . وقد ذكر صمويل بيكر « ان اهتمامى الأول كان لخدمة مصر ، وفى نفس الوقت كان على أن أساعد على نشر نفوذ انجلترا وقد تحمس غور ون لنفس الغرض وضحى بحياته أملا فى وصول انكلترا إلى الخرطوم [٥٠] . وقد يبدو ان هذا المسلك من بيكر وغوردون كان غريباً بالنسبة لمصر لأنه يتنافى مع أبسط قواعد الواجب الذى يحتم ولاءهما لمصر التى أسندت إليهما مركزيهما للعمل على تقدم البلاد ورفاهية الأهالى . إلا اننا إذا رجعنـا إلى روح العصر الذى عاشا فيه وماتركه من انطباعات فى عقليهما نجد تفسيراً لمسلكهما . ويذكر أن زميلهما استانلى الذى التحق بخدمة الملك ليوبولد فى الكونغو الحرة كان يعتقـد ان تلك المنطقة سوف تنتقل إلى الأملاك البريطانية .

ومعاهدة الرقيق التى ذكرناها آنفاً ، والتى كانت مصدر القلق والتذمر فى البلاد ، لم تكن واضحة المعالم مما جعل تفسيرها متناقضاً التناقض كله فبينما غوردون

---

(٤٧) صبري ص ٨٩ هامش ١
(٤٨) الن ص ٣٥٤ إلى ص ١٤٠
(٤٩) استراشي ص ٢٤٣ .
(٥٠) دوجلاس مرى وسلفا هويت ص ٣٥٣ ـ نقلا عن مكي عباس ص ٤٢

قد أخذ فى تنفيذها بشدة وصرامة فى فترة ولايته حكمدارية السودان ١٨٧٧-١٨٧٩م واستعان بالأوروبيين الذين عينهم فى المراكز الرئيسية بدلا من المصريين والسودانيين ـ وقد عين أربعة عشر موظفاً أوروبياً فى شهر يوليه سنة ١٨٧٨ م وأدخل لجهاز الحكم عناصر قد انقلبت به من أداة صالحة ، للأخذ بيد البلاد نحو التقدم إلى أداة استعمارية كما أنه قد غير رأيه فى مسألة الرقيق فى حكمداريته ١٨٨٤/١٨٨٥ م كما سنوضحه فى موضعه فيما بعد .

وهكذا نجد ان التنكيل بالأهالى فى السودان على يد الموظفين الاجانب وعملائهم تنفيذاً للمعاهدة لم يكن مبعثه الشعور الانسانى نحو الرقيق .

وكان مستحيلا على الاهلين الذين أرهقهم هؤلاء العملاء والوكلاء، من الأوروبيين والليفانتيين فى أدارة غوردون ، أثناء حكمداريته (١٨٧٧ - ١٨٧٩ م) ، أن يدركوا أو يصدقوا . ان هذا العسف والقسوة بأنهم يريدون حقاً إلغاء الرقيق وأبطال النخاسة . الامر الذى تعطلت معه الحياة اليومية وساد الذعر والارهاب ، وجاء فيما كتبه غوردون فى يوليه ١٨٧٨ م « قبضنا على اثنى عشر قافلة رقيق فى مدة شهرين» وقال أيضاً «انى أوجه ضربة قاصمة لتجارة الرقيق وقد أقمت ما يشبه الحكومة الارهابية فى معاملة هذه التجارة (٥١) » كما كان يصدر أحكامه بالاعدام رمياً بالرصاص على من يشتبه فيهم هو وأعوانه بممارسة هذه النخاسة » ، ويذكر صاحب « غرائب الزمان فى فتح السودان » قصة تدل على سوء الظن ، وهذا أضعف التعبيرات ، التى يمكن أن يوصف بها ما كان يدور فى ذهن أهل السودان تجاه نشاط الحكومة العنيف ، الذى أوجد بلبلة زاد معها سوء الظن بنوايا الحكومة وأغراضها وقد وصف مؤلف كتاب « غرائب الزمان فى فتح السودان (٥٢) » الذى أشرنا اليه ، زيارته لإحدى الشون ، التى أعدت فى الخرطوم لجمع الرقيق الصادر من النخاسين ، قبل أن تبت الحكومة فى مصيرهم ، فقال « فدخلنا وإذا بها (الشون) من صنف الخدم (الرق) ، شيء لا يعد فلما نظرت ذلك اندهشت لكثرتهم » ، قلت للتاجر ما هذا ؟ قال ألم تنظر قلت نعم أنظر (رقا) ، ولكن هذا شيء كثير ، وصدرت الأوامر بأبطال الاتجار فيه ، قال نعم لكن هؤلاء قد صار ضبطهم من التجار ،

---

(٥١) النص ـ فى كتابه غوردون والسودان ص ١٤٠ .

(٥٢) محمود طلعت فى كتابه غرائب الزمان في فتح السودان ص ١٢٧ وما بعدها طبع مطبعة الاسلام بمصر عام ١٣٠٤ هـ (١٨٩٦ م) ومحمود طلعت هذا كان موظفاً فى غرب السودان من ١٨٧٥ ـ ١٨٨٠ م) .

وسجنوا فى المحل خلاف إثني عشر ألفاً (مرداً) (لفظة أمرد تطلق على من سنه ١٧ إلى ١٦) وأرسلهم الحكمدار (يشير إلى غوردون) ، إلى الهند عن طريق مصوع ، ولا أدرى إذا كان يتجر فيهم أو أرسلهم هدية لدولته، فتتخذهم عساكر بمستعمراتها الواسعة . ولكن الخبر الثانى هو الغريب عن العقل ، وكان ذلك قبل مغـــادرة غوردون للسودان فى عام ١٨٧٩ م بعد أن حكم من ١٨٧٤/ ١٨٧٦ م فى خط الاستواء ، ومن ١٨٧٧/١٨٧٩ م حكمداراً للسودان يعاونه أوربيون من مختلف الجنسيات ، فى مراكز هامة ، عملت على آثاره الحفائظ وكراهية الحكم المصرى » .

* * *

غادر غوردون السودان فى عام ١٨٧٩ م ، بعد أن حكم البلاد ، كما سبق أن أوضحنا على أسس تختلف اختلافا كلياً عما كانت عليه ، فتعطلت التجارة والزراعة ، وشاع الفساد ، الذى امتد إلى القيم الاخلاقية ، وانحط بها بما يتنافى مع عادات البلاد وتقاليدها ، وسلم أداة الحكم إلى مساعديه من الأوروبيين والمتخلفين الذين أسرف فى تعيينهم ، وكثر عدد المتعطلين من الأيادى العاملة على الأرض والرعى ، بدعوى المدنية والانسانية لتحرير الرقيق ، وقد هيأ إرساء قواعد الحكم على هذه الصورة ، التربة الصالحة للتذمر والفتنة ، ودفعها دفعاً قويا إلى الاستجابة إلى الدعوة التى نادى بها الامام المهدى ، للخروج بالبلاد مماوصلت اليه تحت حكم الأوروبيين، ومن عاونهم من المختلفين .

مقاليد الادارة فى يد الاوربيين

وكانت سلطات الحكم ، وقد تسلم زمامها الأوروبيون والانتهازيون ، تتخبط فى فوضى وجهل ، وفق حاجاتها اليومية ، وقد ساعدت هذه الحالة ، الارتباك والقلق وتوقف النشاط ، على سرعة انتشار الفتنة ، باجتذاب الأنصار من الجماعات المتذمرة، وكان الغدر بسليمان الزبير ورجاله على يد جسى ، بأمر من غوردون، خاتمة المطاف، فتكون بذلك شعور عام ، اكتسح الجميع وأشد ساعد حركة العصيان ، الذى كان موجها أولا وقبل كل شىء ، إلى الخلاص من الادارة ، التى اصطبغت بالطابع الأوروبى ، الذى انحرف بها عن تقاليدها ، التى عرفتها أهل البلاد ، قبل سنوات العشرة الثامنة عن القرن التاسع عشر الميلادى ، عندما كانت الادارة وطنية خالصة (مصرية سودانية) وقبل أن يتسرب إلى السودان الأجانب وتقليدهم مراكز رئيسية فى إداراته ، وكان لسيطرة النفوذ الأجنبى فى مصر أثره ، فى تقوية سلطان

هؤلاء الحكام فى السودان ، وفى اتخاذهم مايرونه من إجراءات فى حرية مطلقة ، تعطل معها سلطان الحكمداريون الذين خلفوا غوردون ، وذهب ضحيتها الألوف من الأهالى ومن جنود الحكومة ، الذين وضعتهم الظروف السياسية فى مصر ، فى حالة نفسية متدهورة ، وأسلمت قيادتهم لمن يجهلون التنظيمات العسكرية ، وفنون القتال ، والتدريب على خوض المعارك ، وكان عتاد هؤلاء ومعداتهم وذخيرتهم ، غنيمة باردة ، ساعدت على تطور الحركة وانتقالها من مرحلة إلى مرحلة ، ونذكر على سبيل المثال من طراز أولئك القادة ، الذين تولو ادارة معارك دون سابق خبرة ، محمد بك أبو السعود تاجر الرقيق ، الذين عينه غوردون فى منصب وكالة المديرية فى « غندكرو » فى سنة ١٨٧٤ م ، ثم طرده من الخدمة وإعادة ثانية فى سنة ١٨٧٧ م مديراً للحسابات فى الخزانة العامة فى الخرطوم ، وكان أبو السعود فى المركز الثانى بعد الحكمدار . وكان فشله ذريعاً وهزيمته منكرة ، عندما أرسله رؤوف باشا إلى الجزيرة « أبا » .

وعندما وصل رؤوف باشا لتولى منصب الحكمدار ، بعد مضى ستة شهور من سفر غوردون سلك مسلك غوردون فى تنفيذ منع الرقيق . ولم تكن لهذا الحكمدار القدرة واتساع الأفق ، لمعالجة المشاكل كما كانت تتطلبه الحالة القائمة ، بل عمد إلى تنفيذ أوامر القاهرة التى كانت تهتم ، لظروفها الخاصة ، بتنفيذ هذه المعاهدة فى أية صورة من الصور ، املا فى اكتساب رضاء الأجانب والانجليز ليخف عنها الضغط، ولم تعلم انها بعملها هذا إنما قد زادت النار وقوداً وكان فى عهد رؤوف باشا هذا ان أخذت الدعوة المهدية مظهرها السافر ، فى صورة دعوة إلى الهجرة إلى المكان الذى اتخذه الامام المهدى مستقراً له لنشر دعوته ، وأرسل رؤوف باشا أبو السعود بك إلى الجزيرة « أبا » ومعه يوسف باشا الشلالى للقبض على صاحب الدعوة وأتباعه ، ولم تكن قيادتهما موحدة بل ترك لكل منهما أن يتصرف كما يشاء دون اعتبار لموقف زميله ، ويبدو أن وؤوف باشا لم يكن يقدر الموقف حق قدره ، فكان نصيب هذه الحملة الفشل ، بسبب جهل أبو السعود والشلالى بالفنون العسكرية ، ولم تكن هنالك خطة مرسومة للحملة ، بل ترك أمرها للظروف ،ولجهود الأفراد من ضباطها ،وذكر ابراهيم باشا فوزى فى كتابه أن رؤوف باشا أرسل فى أول الأمر الطيب بك مدير فاشوده إلى الجزيرة « ابا » ، إلا انه على حد قول ابراهيم باشا قد قبل رشوة من

أنصار الامام المهدى ، ولم يفعل شيئاً (٥٣) . وليس هناك من دليل على صحة هـذه الرواية . ويحتمل أن يكون ابراهيم باشا قد نقلها عن الشائعات والمعروف ان ابراهيم باشا قد عاد إلى مصر فى ذلك الوقت تقريباً ،وبقى فيها حتى سفره مع غوردون فى سنة ١٨٨٤ م وبقى أسيراً حتى نهاية حكم الخليفة عبد الله التعايشى فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ م .

استدعى رءوف إلى مصر ، وترك السودان فى فبراير من عام ١٨٨٢ م بعد أن سلم مقاليد الحكمدارية إلى « جيجلر باشا (١٨٧٧/١٨٧٩ م) بعد ان كان مفتشاً التلغرافات ، ولم يكن من اليسير على جيجلر أن يدرك أو يقدر مدى خطورة الحركة المهدية » وهو من بيئة تخلف اختلافا كلياً عن البيئة المحلية السودانية ، وذلك فى الدين واللغة والتقاليد ، وبالاضافة إلى ذلك فانه قد عمل زمناً فى تنفيذ معاهدة الرقيق على الصورة القاسية التى رسمها غوردون . ومما يجدر ذكره ان جيجلر قد بقى نائباً للحكمداو طوال حكم عبد القادر باشا ، الذى كان متغيباً عن الخرطوم ، لإعادة الامن فى أرض الجزيرة . ونجد فيما ذكره أحمد حمدى بك ، رسول الخديو الخاص ، ان جيجلر قد عمل جاهداً على أضعاف مراكز الحاميات المصرية على النيل الأبيض مما عرضها للأخطار (٥٤) .

جاء عبد القادر باشا إلى السودان فى مايو سنة ١٨٨٢ ، وقد تعين حكمداراً بالاضافة إلى منصبه كوزير لوزارة السودان (نظارة السودان) وكانت له شخصيته القوية وخبرته فى معالجة الشئون الادارية والعسكرية وقد استطاع القضاء على عناصر الفتنة والاضطراب فى منطقة جزيرة النيل الأزرق والمنطقة الواقعة شرقى النيل الأبيض ، إلا أن الصفات ، التى استطاعت بما لديها من إمكانيات ضئيلة ، أن تقبض على ناصية الأمن ، لم تجد فى مصر من يقدرها ، فيستمع إلى نصح صاحبها ، بسبب ما كانت تعانيه مصر من أحداث داخلية وخارجية عند قيام الحركة العرابية الوطنية ، وقد وجدت فيها بريطانيا الفرصة المواتية لاحتلال مصر ، متذرعة بأكثر من سبب

---

(٥٣) ابراهيم باشا فوزى فى تاريخه السودان بين يدي غوردون وكتشنر جزء أول ص٧٧ القاهرة صفر ١٣١٩ وقد ذكر الشيخ محمود القبانى فى كتابه السودان المصرى والانكليزى ص ١٥٤ « ان مدير فشوده قد قبض على الامام المهدى وحاول أنصاره رشوته مائة أردب من القمح فأطلق سراحه .

(٥٤) يوميات رسول الخديو تاريخ ٢٣ و٢٤ مارس سنة ١٨٨٣ م .

تغطية لسياستها وخططها بالنسبة لوادى النيل ، وكان لنزول الجيوش الانكليزية فى مصر ، وهو المرحلة الأولى التى مهدت لخطوات أوسع ، انطباعاتها فى السودان بصفة عامة ، وعلى مركز عبد القادر باشا حلمى بصفة خاصة وكان وجوده في السودان ، يدير عملياته لاعادة النظام والاستقرار ، أمراً تضيع معه الفرصة المرتجاه ، وكان عبد القادر باشا يعالج الموقف بما يتمشى مع طبيعة الدعوة المهدية ، وقد مكنته صفاته وكفايته من السيطرة على الموقف ، وهذا لا يتفق بل يعطل الأهداف الاستعمارية فى حوض وادى النيل ، وكان من مصلحة تلك السياسة أن تستشرى نيران الفتنة فى جنوب الوادى (السودان) لتخلق الوضع الذى يهيء الفرصة لكسب جديد .

عمدت هذه السياسة بوسائلها المختلفة إلى نشر الشائعات المغرضة التى من شأنها أضعاف مركز مصر فى السودان ، كما انها عملت على اثارة مخاوف الخديو توفيق من نشاط عبد القادر باشا حكمدار السودان متهمة اياه القيام بتدبير يرمى إلى فصل السودان عن مصر ، وتبعيته المباشرة للباب العالى ، فاستدعاه الخديو فى صورة توضح لها مدى خوف توفيق ، الذى كانت ولايته على مصر عرضة للخلع لولا مناصرة الانكليز له ، تحقيقاً لأهدافهم من بقائه فى مركز من الضعف ، فبينما كان عبدالقادر باشا يعمل وجنوده فى جنوب جزيرة النيل الأزرق ، للحد من نشاط بعض ذوى المطامع الشخصية من الوطنيين ، الذين انتهزوا فرصة الدعوى المهدية لتحقيق بعض مطامعهم فالتفت حولهم بعض الجماعات وقاموا بحركة عصيان ، فاذا حسين باشا واصف يصل إلى معسكر عبد القادر باشا ليتسلم منه قيادة قواته ، فتعطلت بذلك خططه لتأديب الخارجين ، وفى نفس الوقت يصل إلى الخرطوم علاء الدين باشا صديق ، والجنرال هكس باشا ، ومعهما رسول الخديو الخاص ، الذى أحيطت مهمته حينذاك بالكتمان الشديد . وقد كشفت الوثائق عن هذه المهمة وحدودها ، فقد كلف الخديو هــذا الرسول ضمن ما كلفه به ، إعلان حكمدارية علاء الدين باشا بدلا من عبدالقادر باشا حلمى ، كذا تعيين الفريق هكس باشا رئيساً لهيئة أركان الحرب للقوات المصرية فى السودان ، وإسناد قومندانية القوات إلى سليمان باشا نيازى ، وإبلاغ عبدالقادر باشا قرار إلغاء نظارة السودان التى كان يرأسها ، وبانفصاله عن الحكمدارية ، وغادر عبد القادر باشا الخرطوم فى ٢٦ ابريل سنة ١٨٨٣ م فى طريقه إلى القاهرة .

وفى اليوم الذى أعلنت فيه حكمدارية علاء الدين وقومنــدانية القوات إلى

سليمان باشا نيازى صرح هكس باشا لرسول الخديو ان هذه الاجراءات قد تمت بناء على طلبه [٥٥] .

وقد حاول رسول الخديو عبثاً إقناع الخديو بأن ما أشيع عن عبد القادر باشا لا نصيب له من الصحة ، بل بالعكس طالب بالابقاء عليه لاتمام ما قد بدأه من أعمال [٥٦] . لأن الخديو كان واقعاً تحت نفوذ المستعمر لخوفه من الشعب.

وهكذا أقصى عبد القادر باشا عن الميدان، وانتقلت قيادة القوات إلى سليمان باشا نيازى ، بعد أن كانت هذه المسئوليات من صميم اختصاص الحكمدار ، منذ امتداد الادارة المصرية إلى السودان حتى نهاية حكمدارية عبد القادر باشا، وعلى هذا تجزأت المسئوليات ، وصار فى السودان حاكم إدارى وآخر عسكرى ، فازدادت الثغرات التى أطلت منها رأس المنازعات والمشاحنات حول الاختصاص . وتمكن هكس من التدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى تحركات القوات[٥٧]. وبدأت بسيطرة هكس مرحلة خطيرة فى تاريخ الادارة المصرية للسودان ، لأن هكس ومن معه من الضباط البريطانيين الذين جاؤا معه لمعاونته ، قد كونوا شبكة خاصة ، وعمل هكس وزملاؤه بشتى الوسائل على إبعاد المصريين عن العمل في دائرتهم ، حتى لاتنكشف خطتهم ـ واستعان هكس بمترجم من هيئة المخابرات البريطانية فى الشرق الأوسط[٥٨] .

النشاط البريطانى — حملة هكس

ويهمنا فى هذا الموقف أن نتعرض للنشاط الذى قام به الانكليز وعملاؤهم بعد أن هيأ له غوردون التربة الصالحة خلال حكمداريته ١٨٧٧/١٨٧٩م ، فقد حدث

---

(٥٥) يوميات الأميرالاى احمد حمدى رسول الخديو الخاص بتاريخ ٢٥ مارس سنة ١٨٨٣ .

(٥٦) المصدر آنف الذكر بتاريخ ٥ ابريل سنة ١٨٨٣ دكتور صبرى ـ ص ٩٥

(٥٧) تلغراف ماليت فى ٢٨ مايو سنة ١٨٨٥ م الى هكس ـ شبيكه ص (٨٦) .

(٥٨) المترجم المشار اليه هو ادوارد بلدوين إيفانس ، ولد فى عام ١٨٤٣ ومات فى سنة ١٨٨٣ م وموطنه شمال مقاطعة ويلز (بانجلترا) وذكر عنه ريتشارد هل فى قاموس التراجم ص ١٢١ انه قد اشتغل بالتجارة في مصر وجده لبضعة سنوات قبيل التحاقه بالمخابرات البريطانية خلال الحملة الانجليزية على مصر فى عام ١٨٨١ م وانه قد خدم مع هكس كرئيس لمخابراته ومترجمه لاجادته اللغة العربية وقد ألحق هذا المترجم فى الجيش المصرى برتبة اليوزباشى . وكان الضابط الوحيد بين ضباط هكس من الانجليز الذى يستطيع التفاهم باللغة العربية فى لهجتها المحلية .

بعد احتلال انجلترا لمصر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢م أن أرسل الكولونيل استيوارت فى ديسمبر من ذلك العام إلى السودان ، لدراسة شئون البلد فى مختلف نواحيها ، وقد دون نتائج مهمته فى تقريره المعروف (٥٩) ، والذى ضمنه توصياته ، بما يرى اتخاذه نحو إدارة السودان، ومما يجدر ذكره أن هذا الضابط كان ضمن قوات الحملة البريطانية التى نزلت مصر ، وقد قام استيوارت باتصالات واسعة فى الخرطوم وفى غيرها من المدن ، تحت ستار جميع المعلومات لتقريره ، لاستفزاز الأهالى وتحريضهم على الانشقاق والعصيان فى وجه مصر الحكومة الشرعية فى البلاد . وبالرغم من أن الخديو توفيق كان يتوقع من استيوارت وهكس وزملائهم من البريطانيين القيام بنشاط لايتمشى مع مصلحة مصر والسودان ، فانه لم يكن قادراً على اتخاذ إجراءات مضادة للحد من ذلك النشاط ، نظراً لمركزه الدقيق فيما يختص بعرشه وولايته ، وبالاضافة إلى هذا فان السيطرة البريطانية كانت قابضة على مرافق البلاد ، توجهها على النحو الذى تراه وقد اكتفى توفيق بأن طلب من الحكمدار الجديد - ولا حول له ولا قوة بعد انتزاع اختصاصاته العسكرية - ان يراقب حركات استيوارت وهكس ومن يتعاون معهم ، وأن يحيط الخديو علماً بتلك الحركات أولا بأول (٦٠) . وقد عاون هؤلاء رجال رسميون أمثال جيجلر وغيره من الأوروبيين ومن تعاون معهم من أصحاب المنفعة من الموظفين ، ومن غير الرسميين يبرز اسم الرحالة شوبر (٦١) ، الذى جاء إلى السودان فى عام ١٨٨١م ، بعد أن أمضى فترة من الزمن فى انجلترا ، وبقى فى السودان حتى عام ١٨٨٢م ، وقد طاف فى منطقة النيل الأزرق ودار فنج وبحر الغزال ، ومنطقة أم درمان والنيل الأبيض ، وهى المناطق الأقرب إلى البدائية الصالحة لغرس بذور الأفكار الجديدة ، التى من شأنها إثارة الفتن والتمرد على الحكومة القائمة ، ورسم شوبر خرائط عديدة للأقاليم التى زارها . وذكر الشيخ

---

(٥٩) تقرير الكولونيل استيوارت — وثيقة برلمانية بريطانية مصر رقم ١١ سنة ١٨٨٣ م.

(٦٠) يوميات رسول الخديو .

(٦١) كتاب قاموس التراجم للسودان الانجليزى المصرى . لمؤلفه ريتشارد هل (بالانجليزية) ص ٣٣٤ ويذكر هل ان هذا الرحالة هولندى الجنسية ، أيضا كتاب السودان المصرى والانكليز لكاتب مجهول وهو مجموعة مقالات نشرت فى جريدة الاهرام وطبع منها الجزء الأول فى هذا الكتاب — وكاتب المقالات هو المرحوم الشيخ محمود القبانى (المتوفى فى أم درمان فى أول عام ١٩٥١ م) ص ١٨٤ .

محمود القبانى فى مقال له « . . . أصبحنا يوما وإذا الشوارع مملوءة بأوراق كأوراق (الدعوة الى) الاعراس مكتوب عليها باللغات العربية والانكليزية والفرنسية ما يأتى

« يا أهل السودان عموما وأهـــل الخرطوم خصوصاً ـ قد استولت حكومتنا البريطانية على حكومتكم المصرية فاطلبوا الحرية » .

الامضاء

« رجال بريطانيا العظمى »

فارتاعت الحكومة لهذا الحادث وبثت العيون والجواسيس فأمسك خادم بربرى وهوجم منزله فوجد فيه نحو خمسة صناديق مشحونة من هذه الأوراق وعليها كلها ختم بواسطة لندرا ومصر والخرطوم وظهر بعد ذاك أنها وردت بطريق البريد وعليها عنوان سائح انكليزى اسمه مستر شوبر كان نازلا فى بستان خارج المدينة لأحـــد الوطنيين وكان منزل الخادم المشار إليه بجوار منزلنا .

ولدى استنطاقه أجاب بأن ٥٠ صندوقا كتلك الصناديق وردت فى البريد باسم سيده فأرسل منها أربعين صندوقا إلى جميع جهات السودان وسمى هذه الجهـــات والأشخاص الذين أرسلت معهم وإليهم . فاستدعت الحكومة الســـائح لاستجوابه فمانعها قنصل الانكليز فسكتت واستكانت »(٦٢) .

ويضيف الشيخ محمود أن جماعة من السياح والبريطانيين كانوا يتصلون بالأهالى وبخاصة فى الخرطوم ويتحدثون اليهم عن عطف بريطانيا على السودانيين وأن جلالة الملكة (فكتوريا) حزينة لما أصاب البلاد من البلاء ولذا سعت جلالتها فى فصل بلادكم عن حكومة الجناب الخديوى(٦٣) . . . . . وهذا القول هو ماذكره غوردون عند وصوله الخرطوم فى ١٨٨٤م . وأقام هؤلاء الدعاة شبكة واسعة فى أطراف البلاد يعضدهم كثير من المأجورين وأخذوا يطوفون فى أنحاء البلاد ، ويوزعون منشورات جاء فى واحد منها « ان حكومة جلالة السلطان عبد الحميد لم تعد قادرة على القيـــام بنفقات حربها مع الروسية ، وقد باعت قسما من أملاكها التابعة لمصر وهو السودان المصرى لحكومة جلالة الملكة فكتوريا ، وتقاضت عن ذلك ٢٥٠ مليوناً من الجنيهات وشروط البيع أن السودانيين ليسوا من أحرار المسلمين ، بل هم زنوج أرقاء

---

(٦٢) بنصه من المصدر نفسه ص ١٨٢/١٨٤ (السودان المصرى والانجليز)

(٦٣) المصدر السابق ص ٢٨١ .

تأخذهم الحكومة الانكليزية وتبيعهم فى أوروبا والهند وغيرهما من بلاد البيض ، حتى إذا أمسكتهم حكومة انكلترا جميعاً وأنفذت فيهم ماتشاء وخلت بقاعهم من بنى جلدتهم أرجعت الأرض إلى حكومة جلالة السلطان، أما حكومة جلالة الملكة فتعترض على أن السودانيين ليسوا بأحرار ولامسلمين ولذا أرسلت مبعوثين من قبلهـــا ليشاهدوا بأعينهم هل القوم حقيقة كما تقول حكومة الاستانة ، التي يعدونها قدوتهم دينياً وسياسياً أم الحقيقة أن ذاك ناشىء عن حيف الأتراك وبغضهم للجنس العربى الذى منه السودانيون والأمل وطيد أن لايكون هذا القول صحيحاً، وهو رأى حكومة انكلترا » . والواضح فى هذا المنشور وما فيه من مغالطات يصور لنا أساليب الدعاية التى تعمل على بذر بذور الفرقة والفتنة واثارة الخواطر وإظهـــار الدولة العثمانية « سلطانها خليفة المسلمين » فى صورة تحط من مركزها بين أهل السودان .

أخذ هكس فى إعداد حملته استعداداً للزحف على كردفان ، واستطاع الخلاص من سليمان باشا نيازى ، الذى كان يعارضه فى خططه ، وصار علاء الدين باشا القائد العام اسماً ، وانتهى الحل والعقد إلى يد هكس ، وبدأ فى إرسال قواته إلى الدويم بعد اليوم الثانى من سبتمبر سنة ١٨٨٣م الذى انتهى فيه الاستعراض الكبير فى أم درمان وسار الجيش من الدويم فى جو من التفكك وعدم الانسجام(٦٤). وتضارب الآراء وانقسام القواد ، فكانت النكبة فى شيكان فى الخامس من نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، وقصة هـــذه الحملة مازالت فى حاجة إلى التحقيق ، من حيث أسباب الهزيمة المنكرة ، التى ذهبت ضحيتها الحملة بأكملها ، ومن ضمن رجالهـــا عدد كبير من الضباط المصريين والأجانب ومن بينهم علاء الدين وحسين مظهر . وقد أمدت هذه الكارثة الحركة المهدية بعتاد كبير وسلاح وفير ، الأمر الذى دخلت معه الحركة المهدية فى مرحلة جديدة ، ومما يجدر ذكره أنه بينما كانت قوات المهدية تتجمع حول منطقة الأبيض كانت هنالك قوتان على الأقل ، على درجة ما من القوة ، إحداها فى دارفور التى على رأسها سلاتين والثانية فى بحر الغزال يتولى إدارتها لبتون بك ، وكان فى ظهير لبتون بك أمين باشا (جورج شنتزر الألمانى) مدير خط الاستواء ، وقد يكون لهذه القوات شأنها ، فى تحسين الموقف وتخفيف حدته ، لو أن تنسيقاً قد تم فى صورة من الصور تتضافر فيه تلك القوات بزحفها من الغرب والجنوب نحو الأبيض لتعاونه على تخفيف الضغط الذى تلقته الحملة التى قامت من الدويم . وقد كانت وسائل الاتصال مع دارفور

---

(٦٤) مذكرات عباس بك . نشرها القائمقام عبد الرحمن زكى فى مجلة الجمعية التاريخية بمصر .

ممكنة عن طريق الصحراء من دنقله ، كما كان فى الامكان الاتصال ببحر الغزال عن النيل . وكانت الحالة فى هاتين المديريتين - حسبما ورد فى تقارير - رسول الخديو ، على مايرام ، ولا يعلم السر فى بقاء مديريهما فى موقف المتفرج . وجدير بالعنـــاية أن تحقق هـذه القضية لأنها لاتعنى إلا أحد أمرين ، أما تفكك القيادة العـامة وعدم التناسق فى الخطط - وهذا أمر مسلم به ، أوتم ذلك عن عمد لحاجة فى نفس يعقوب - وقد ذكر رسول الخديو أن أسرار الحملة وتحركاتها كانت تتسرب إلى رجل الشارع ، واتهم الرسول ماركو بولو بك بذلك(٦٥) ، وذكر الرسول أيضاً أن وكيل قنصلاتو انجلترا فى الخرطوم - جورجى اسطنبولية كان فى الأبيض يعمل فى معسكر الامام المهدى .

وقد سلم سلاتين مديريته للمهدية فى ديسمبر سنة ١٨٨٣م أى بعد شهر تقريباً من هزيمة شيكان ، وسلم لبتون بحر الغزال فى ٢٨ إبريل سنة ١٨٨٤م وبقى أمين فى خط الاستواء يصارع الفتن والقلاقل حتى خر صريعاً فى شباك الاستعمار .

وقد زادت هذه الأحداث أهل السودان إيمانا بانهم قد صاروا أمام حرب شنها عليهم الفرنجة ، الذين احتلوا مصر .

وبعد هذه النهاية المحزنة لحملة هكس ، وما ترتب عليها من اخطار ، تنبه الضمير البريطانى ، كما هى عادته بعد أن يطمئن إلى مغنم كسبه ، فى محاولة تبرئة ذمته من مسئوليات هذه المغامرة ، وأرادوا القاء تبعتها على عاتق مصر وحدها ، وهى التى كانت مقيدة بتنفيذ توصيات السياسة البريطانية ، ولم تكن مصر فى مركز يسمح لها باختيار ماهو فى مصلحتها هى ، والحكومة البريطانية التى تقول بانها لم تكن مسئولة عن تعيين هكس فى خدمة مصر ، هى أيضاً التى طلبت منه أن يحيطها علما أولا بأول عن تطورات الموقف فى السودان ، وتكرر هـذا الطلب من ماليت عن طريق الكولونيل استيوارت ، الذى كان يعمل كضابط اتصال مع هكس ، وهكذا حافظت انجلترا على القول بعدم مسئوليتها وبأنها لا تهتم بشئون السودان ، الذى يخص أمره مصر وحدها فقط ، جريا على سياستها التقليدية فى اخفاء أهدافها .

---

(٦٥) يوميات احمد حمدى بك بتاريخ ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣ م .

أوضحنا فيما سبق ما تميزت به الفترة التى جاءت بعد الاحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢م ، من أحداث متتابعة ، عجلت بمصير السودان ، فبينما كان هكس فى طريقه من الدويم إلى الأبيض كان القنصل البريطانى العام الجديد فى مصر — السير افلن بارنج قد بدأ محادثاته مع شريف باشا عن مسألة السودان ، واشتملت خطته ترك دارفور واقامة حكومة محلية ، ثانياً تعيين لجنه مكونة من ثلاثة أشخاص أحدهم أوروبى لادخال تعديلات على الادارة ، ثالثاً بناء خط حديدى — وفى نفس الوقت بدأت مناورة المفاوضات بشأن تخفيض عدد القوات البريطانية فى مصر ، ولم تكن كل هذه المناورات أكثر من أسباب لكسب الوقت وتحويل التفكير إلى طريق آخر ، والدليل على ذلك أن كل هذه المناورات صارت أثراً بعد عين بعد السابع عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٣م الوقت الذى بدأ فيه بارنج يشعر باحتمال هزيمة هكس الذى لم يسمع عنه شيئاً بعد ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٣م .

وبعد أن تحققت هزيمة هكس كان لزاما التوصية باخلاء السودان حرصاً على أمن مصر وطمأنينتها — على حد التعبير البريطانى — وكانت مصر حينذاك فى حالة مالية لا تسمح لها بارسال حملة أخرى للسودان ولم يكن من المستطاع الحصول على قوة هندية أو انجليزية ، كما أنه لم يكن من مصلحة مصر ، فى نظر الانجليز ، أن تطلب مساعدة عسكرية من الباب العالى ، إذن فلتتوقف المباحثات الخاصة بتخفيض الجنود البريطانيين المحتلين لمصر ، وعلى مصر أيضاً أن تقبل النصيحة بترك السودان إلى حدود معينة . حقاً أن السياسة المرتبة لها منطقها الغريب .

وتحولت الاتجاهات إلى بناء سكة حديد من البحر الأحمر إلى بربر ، وأرسلت قوة من الجندرمة المصرية إلى سواكن لفتح الطريق إلى بربر .

وتقدم شريف باشا فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣م بمذكرة إلى بارنج يعارض فيها ترك السودان بحجة أن الخديو لا يملك بمقتضى فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ حق التنازل عن أى جزء من أراضيه ، وذكر انه حتى ولو أن مصر كانت مطلقة اليد للتصرف فى أمر السودان فان تركه سوف تكون له اسوأ العواقب ، وأوضح أن مصر فى ذلك الوقت كانت مسيطرة على الموقف فى جميع أنحاء السودان فيما عدا كردفان ، ولم يكن خبر استسلام سلاتين قد وصل بعد ، وأشاد شريف بما قامت

به مصر من امتداد للمدنية إلى السودان حتى منطقة البحيرات . وقال أنه مازال أمام مصر من الواجبات نحو السودان وتعميره وفتحه للتجارة والكشف العلمى ، وأضاف أنه لا ينكر أن مجهودا قد قامت به مصر للحد من نشاط النخاسة — ولم تغن كل هذه الحقائق الدامغة لتتخلى بريطانيا عن موقفها بصدد تنفيذ نصيحتها بالترك أو الاخلاء بالمعنى المقصود من الكلمتين استعملتا وهما (Abandonment) و (Evacuation) ولكل من هاتين الكلمتين تفسيرها الخاص . وهو مطاط يمكن تأويله إلى الغرض المقصود ولم يكن اختيار هذين اللفظين إلا لتفادى الكثير من المشاكل التى قد تثار وتواجه بريطانيا مسئولية ما وبخاصة أن وضع بريطانيا فى مصر كان شائكا للعداء الذى كان قائما بينها وفرنسا وروسيا ، وكان من نتيجة اصرار بريطانيا استقالة شريف باشا ، فى وثيقة سجل فيها موقفه ، وجاء بعده نوبار باشا ، الذى قبل تنفيذ النصيحة ، وقد عرض ايفاد عبد القادر باشا حلمى إلى السودان ، ليشرف على سحب الحاميات المصرية ، وقال نوبار فى هذا الصدد أن القيادة العليا لن يسلم زمامها إلى يد أفضل من يد عبد القادر باشا حلمى . الذى يعرف عن السودان مالا يعرفه غيره ، فضلا عن أنه ضابط شجاع وكفء ، واستطاعت الحكومة البريطانية أن تتخلص مرة أخرى من عبد القادر باشا بأن طلبت من الحكومة المصرية كشرط أساسى أن تصدر أولا بيانا تعلن فيه عزمها على الترك(٦٦) . ومما لاشك فيه أن اصدار مثل ذلك البيان سوف يقيم الصعاب فى تنفيذ هذه الخطة ، كما أنه يعرض القوات المنسحبة إلى أخطار جسيمة ، ويتعرض المدنيون إلى النهب والسلب والفوضى . ولهذا رفض عبد القادر باشا هذه المهمة .

وقد حدث فى الوقت الذى كانت تتبادل فيه المذكرات مع مصر ، أن طلبت الوزارة البريطانية من غوردون العودة من بروكسل ، للقيام ببعض المحادثات ، وكان غوردون قد ارتبط مع الملك ليوبولد الثانى للعمل فى الكونغو الحرة التى يتولى سيادتها ذلك الملك .

---

(٦٦) التن ص ٣٣٦

وكتب غوردون بعد مقابلته للوزراء خطابا إلى بارنس (Barnes) جاء فيه « تقابلت مع ولسلى ، الذى دخل على الوزراء وتحادث معهم ، ثم عاد إلى وقال « ان حكومة جلالة الملكة تريد أن يكون واضحاً لك انها تحتم اخلاء السودان ، لأنها لا تضمن قيام حكومة المستقبل ، فهل لك أن تذهب للقيام بهذه المهمة ؟ فأجبت . نعم . فقال لى أدخل معى لمقابلة الوزراء ، الذين سألونى « هل أوضح لك ولسلى رأينا ، فقلت نعم ، انه قال لى انكم سوف لا تضمنون حكومة المستقبل ، وانكم تطلبون السفر لاجراء عملية الاخلاء ، فأمنوا على هذا القول وانتهى الحديث[٦٧] وكانت الملكة فكتوريا مهتمة كل الاهتمام بمسألة السودان وقد ذكرت فى خطاب لها إلى السير افلن وود أن ارسال غوردون كان يجب ارساله قبل الآن بكثير .

وقد سبق للورد ولسلى أن أوضح لغوردون أن الحكومة البريطانية لا تمانع فى خدمته فى الكونغو الحرة حسب اتفاقه مع الملك ليوبولد الثانى ، الا ان لأمته عليه حقاً أن يؤديه أولا قبل الذهاب إلى الكونغو — وهو السفر إلى السودان ، وبعد انتهاء مأموريته عليه أن يذهب إلى الكونغو الحرة .

وحاول غوردون الاستعانة بالزبير باشا ، إلا أن هذا الطلب قد رفضته الحكومة البريطانية ، لأكثر من سبب ، منها خشيتها أن ينتقم الزبير من غوردون لدم ابنه سليمان وبخاصة بعد أن صرح الزبير فى مقابلة له مع غوردون فى القاهرة بحضور السير بارنج أنه يعتبر غودون مسئولا عن دم ابنه وان ثأر الدم ما زال قائما بينهما وسوف يكون انتقام الزبير من غوردون مضيعة للخطة البريطانية . ويؤيد هذا ماجاء فى مذكرات الماجور جنرال الأونورايل منتيج ستورت ورتلى أن الزبير باشا قابل غوردون . فى القاهرة فى يناير سنة ١٨٨٤ فى منزل القنصل البريطانى العام بحضور السير بارنج والسيرافلن وود وجيرالد بورتال وصاحب المذكرات ، وقال لغوردون أن ابنى قد قتل رمياً بالرصاص بامر محكمة عسكرية مستندة فى حكمها إلى خطاب كتب منى (الزبير باشا) للحض على الثورة ، وطالب غوردون بان يقدم هذه الوثيقة . وفعلا أرسل كاتب المذكرات إلى وزارة الحربية المصرية لاحضار

---

(٦٧) نفس المصدر ٣٤٥

(٦٨) الى ٣٤٤

اجراءات المحكمة العسكرية وعند عرضها وجدت بأختامها منذ ١٨٧٩م — أى أنها لم تفض أختامها لحوالى خمسة سنوات وبالبحث لم يعثر على الوثيقة التى أشار إليها ، وقال غوردون أن الأمر كان مأساة وأن العدل انحرف عن مجراه . ، وانى سوف أعمل مايمكن للترضية ، ويبدو أن الحاح غوردون لذهاب الزبير إلى السودان كان لهذا الغرض — (المذكرات المشار إليها قد نشرت فى مجلة السودان فى رسائل ومدونات الجزء الرابع والثلاثين ص ٣٩/٤٠) .

جاء غوردون إلى مصر فى يناير سنة ١٨٨٤م ، بعد أن كانت نيته السفر مباشرة إلى سواكن عن طريق البحر الأحمر ، وسافر إلى السودان فى نفس الشهر ، ولا ننسى أنه كان قد ارتبط بخدمة ليوبولد فى الكونغو الحرة ، وندبته دولته لتنفيذ سياسة الترك فى سرعة ، والتى قدر لها غوردون شهرين تقريباً يذهب بعدها إلى الكونغو الحرة ، كما ذكر فى خطابه لأخته ، وكانت خطط غوردون لتنفيذ السياسة التى رسمتها له حكومته متضاربة فى كيفية القيام بهذه المهمة ، مهمة الترك ، وتكوين مشيخات وسلطنات صغيرة ، يربط بينها حلفاً فى صورة ما [٦٩] - ولا نعتقد أن مثل هذه المشيخات والسلطنات يترك أمرها لها فيما بينها دون أن تدخل فى تحالف معه باسم الحكومة البريطانية ، تدخل فيه هذه المجموعات فى حماية تلك الدولة ويسيطر عليها غوردون بعد انتقاله إلى بحر الغزال ، إلا أن موته فى الخرطوم قد قلب خطته رأساً على عقب وعطلها بعض الوقت .

استهتر غوردون بالقوة التى وصل إليها الامام المهدى أو تجاهلها ، وقد كتب ، وهو فى طريقه ، فى كرسكو بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٨٤م ، ،أن الأشياء قد زادتها المبالغة ، وانى لا أخاف من تقدم المهدى ، فإننى بعون الله سوف أصل معه إلى حل ، فالمهدى هو ابن أخت الخبير الذى خدم معى سابقاً ، .

وأعلن غوردون فى بربر ردا على الأسئلة التى وجهت إليه من أعيان المدينة بشأن معاهدة الرقيق لسنة ١٨٧٧م ، ومدى سريان نصوصها على السودان فى وضعه الجديد ، قال أنها لا تسرى على السودان ، بسبب أن السودان قد صار منفصلا عن مصر ، وأصدر بيانا رسمياً فى هذا الشأن ، وطلب غوردون من الامام المهدى أن يكون سلطانا على كردفان ، كما كان راغباً فى اقامة سلاطين آخرين هنا وهنالك فى

---

(٦٩) الن — ص٣٧

مناطق السودان القبلية ، وينسحب بعدها إلى حوض بحر الغزال ، وتتحول تجارة السودان إلى أوغندا ومنها إلى ساحل المحيط الهندى وتنقطع عروبته .

وكانت التعليمات التى أعطيت مكتوبة إلى غوردون قبل مبارحته لندن كالآتى :

« ترغب حكومة جلالة الملكة أن تذهبوا حالا إلى سواكن[70] ، لكتابة تقرير للحكومة البريطانية عن الحالة العسكرية فى السودان ، وعن الوسائل التى يستحسن اتخاذها لسلامة الحاميات المصرية ، التى تحتل مراكزها فى تلك البلاد ، كذا لسلامة الرعايا الأوروبيين الموجودين فى الخرطوم .

« وعليك أيضاً أن تبحث وتقدم تقريراً عن الطريقة الممكنة للاخلاء من داخلية البلاد ، أيضاً عن الوسائل التى يمكن اتباعها لسلامة موانىء البحر الأحمر ، وإدارتها بواسطة مصر إدارة حسنة .

« وفى صدد هذا الموضوع ، عليك أن تهتم اهتماما خاصاً عن أنجع الوسائل لمنع التحريض الذى يخشى منه من جانب تجار النخاسة ، بسبب حركة التمرد (المهدية) وسحب السلطنة المصرية من البلاد .

« وسوف تكون خاضعاً لتعليمات معتمد جلالة الملكة وقنصلها العام فى مصر ، الذى عن طريقه ترسل تقاريرك لحكومة جلالة الملكة مختومة بالشمع الأحمر .

« وعليك أن تعلم أنه قد خول لك — وتكلف بالقيام باية مأموريات أخرى ، كما ترى الحكومة المصرية ، والتى يجب أن ترسل إليك عن طريق السير افلن بارنج ، وسوف يسافر فى رفقتك الكولونيل استيوارت ، الذى سوف يساعدك على انجاز المهام التى توكل إليك .

« وبعد وصولك إلى مصر ، عليك أن تتصل بالسير افلن بارنج ، الذى سوف يحدد موعداً لمقابلتك ، ليبحث معك مسألة سفرك إلى سواكن مباشرة ، أو انك تذهب بنفسك أو يذهب معك الكولونيل استيوارت إلى الخرطوم عن طريق النيل .

ومما لاشك فيه أن هذه التعليمات التى كتبها أصلا اللورد جرانفيل[71] قدصيغت

---

(٧٠) تعدلت لفظة سواكن لتقرأ مصر وذلك فى الكتاب الأزرق — ورثام ص ٢٧٨

(٧١) ذكر النن ص ٣٤٠ — ان اللورد مورلى قد ذكر خطأ فى كتابه عن ترجمة حياة غلادستون ان هذه التعليمات قد وضع صيغتها غوردون . والأصل مازال محفوظا بخط جرانفيل .

فى حذق ومهارة ، وذلك لابعاد المسئولية فيما يختص بالاخلاء أو الترك ، عن عاتق الحكومة البريطانية ، وقد قال غلادستون رئيس الوزراء انه أى الحكومة البريطانية لا تلتزم بأية مسئولية ، وكان أن أعدت الحكومة المصرية الفرمان الخاص بمأمورية غوردون ، كطلب المعتمد البريطانى ، الذى كان صاحب الأمر والنهى الفعلى فى مصر ، وان رفض تنفيذ ما يشير به من نصيحة — كما تواضع فى تسميتها — معناه ترك كرسى الحكم .

وفى الوقت الذى كان فيه غوردون يقطع صحراء العطمور ، بين كرسكو وأبو حمد في طريقه إلى الخرطوم التى وصلها فى صبيحة يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م كانت قوات فالنتين بيكر باشا ، وقوامها من الجندرمة المصرية ، قد أصيبت بهزيمة منكرة فى موقعة التيب فى شرق السودان . ومما لا شك فيه ان هذه الهزيمة قد كان لها أثرها المباشر على مركز غوردون ومأموريته إلى السودان . كما أنها أذكت الشعور المحلى العام ، ولا يخفى ان الشعور العام فى البلد قد تزايدت كراهيته لحكامه من الأجانب ، بسبب ما أصابهم على يد هؤلاء من عسف وظلم منذ ولايتهم للمناصب الرئيسية فى حكمدارية غوردون ١٨٧٧ / ١٨٧٩ . وقد وجد الأهالى فى الهزائم المتتابعة التى منيت بها قوات الحكومة فرصة ذهبية للخلاص من نيرها بعد أن ضاعت هيبتها وقوتها وصارت من الضعف بمكان ، وكان طبيعياً والحالة هذه أن يتعاون السكان مع الامام المهدى فى حركته ، التى كانت قد وصلت إلى مرحلة المقاومة بالسلاح ، وذلك بعد سقوط الابيض .

ونجد فيما ذكره جراهام (Graham) الذى رافق غوردون فى رحلته الأخيرة حتى كرسكو ، ان غوردون كان يتصرف تصرفات متناقضة ، الأمر الذى جعل جراهام يتخيل انه فى صحبة رجل قد حكم عليه بالموت ، فهو تارة يتحدث عن الأماكن المقدسة ، وأخرى عن جوز الهند ، ثم ينتقل الى مشروعاته المستقبلة فى السودان ، وبخاصة عن خططه لتسليم مديريتى خط الاستواء وبحر الغزال إلى الملك ليوبولد الثانى ، وعن ذهابه إلى تلك المنطقة لادارتها باسم ملك الكونغو الحرة ليوبولد [٧٢]

ولم يكن مستغربا وحالته هذه التى وصفها جراهام ، أن يتحدث إلى أعيان مدينة بربر عن مأموريته ، وانفصال السودان عن مصر ، ورأيه فى الرقيق ، وتعطيل الاتفاقية

---

(٧٢) التن ٣٦٣

التى أبرمت فى عام ١٨٧٧ م بالنسبة للسودان،فهو بهذا التصرف الذى تنقصه الكياسة قد شجع عناصر الفوضى ، وزاد العراقيل فى طريقه ، على عكس ما كان ينتظر من مؤازرة الأهالى له وتبين لنا هذه التصرفات مدى الخطأ الذى ارتكبه غوردون ودفع ثمنه غالياً ، غوردون كان يؤمن من قرارة نفسه بضرورة انتهاء زعامة مصر للسودان كما ذكر لضيفه لورنس اليفانت (Lawarnce Oliphant) (٧٣) الذى زاره فى منزله فى سفح جبل الكرمل .

أمر غوردون بعد وصوله إلى الخرطوم بهدم الحصون،التى عززها عبد القادر باشا حلمى حول الخرطوم ، كما أمر بحرق السجلات الحكومية ، وحمل غوردون معه إلى الخرطوم من الريالات القشلى ما بلغت قيمته المائتى ألف جنيه ، وقد ضربت هذه الريالات خصيصاً فى تريستا (إيطاليا) (٧٤) وهى تحمل صورة (ماريا تريزا) وهى من العملات المتداولة فى السودان وأثيوبيا منذ زمن بعيد . ويبدو ان هذه العملة كان مقدراً لها أن تحل محل العملة المصرية المتداولة قانوناً فى السودان .

وقد أثارت تصرفات غوردون بشأن الرقيق موجة من الدهشة فى الصحف البريطانية التى أرسلت عدداً من البرقيات إلى غوردون تستفسر منه عن حقيقة موقفه وقد أجاب غوردون فى برقيته بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٨٨٤ م انه سوف لا يقوم بتنفيذ المعاهدة فى عام ١٨٨٩ م وانه إذا نظر إلى ما قررته حكومة جلالة الملكة بشأن مصير السودان (الاخلاء والفصل عن مصر) فان المعاهدة لا تحتــاج إلى إيضاح وأضاف بقوله « ان المسألة هى أحد أمرين، الرقيق الموجود فى حيازة أصحابه أو اصطياده من مواطنه وفى رأيى ان معاهدة ١٨٧٧ م سوف لا تنفذ فى القاهرة فيما يختص بالرقيق الموجود تحت يد أصحابه » وعلق السير هنرى غوردون على ذلك فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٤ كالآتى « ان المعاهدة تشير إلى الاحتفاظ بالرقيق الموجود ولا تشمل إضافة رقيق جديد ، وقد اعتبر الرقيق فى بريطانيا فى عام ١٨٠٧ م كعمل من أعمال القرصنة ، إلا ان الرقيق لم يسترد حريته إلا فى عام ١٨٢٩ م بعد أن دفعت الحكومة البريطانية تعويضاً لأصحابه بلغ حوالى العشرين مليوناً من الجنيهات اعتبرت مصر فى ١٨٧٧م إدخال الرقيق جريمة عقابها الموت وان بيع الرقيق جريمة

---

(٧٣) بيتى ٢٢٠ ـ الن ص ٣٧ .

(٧٤) مذكرات الماجور جنرال منتيج ستوارت ورتلى ـ فى مجلة السودان رسائل ومدونات مجلد ٣٤ ص ٤١ .

عقابها الموت وان بيع الرقيق من شخص إلى آخر ينتهى فى مصر فى ١٢ أغسطس من سنة ١٨٨٤ وفى السودان فى عام ١٨٨٩ م ومن هذا يتبين ان الرقيق سوف يبقى على هذا الحال على أن لا يباع بل يجب أن يستمر فى خدمة أصحابه . فالرقيق « مال » وإذا حرر الرقيق دون أن يدفع عنه تعويض لأصحابه ، وقد دفعت انجلترا تعويضاً لرعاياها ، فان ذلك يكون نوعاً من النهب والسلب . لهذا فانه طبقاً للقوانين القائمة يحق لأصحاب الرقيق فى السودان أن يتعاملوا فيما يملكون منه حتى عام ١٨٨٩ وهذا ما قاله غوردون لأهل السودان عندما أعلن انه لم يأت إلى السودان لنقض القانون ومصادرة أملاكهم (٧٥) .

فشل سياسة الاخلاء

وحاول أن يعالج الموقف ليخرج من ورطته ، ولم يمض عليه فى الخرطوم إلا أيام قليلة ، وذلك بأن طلب من بارنج السماح للزبير بالسفر إلى السودان ليخلفه فى منصبه ، ويذهب هو إلى الكونغو ، وأرسل بارنج إلى جرانفيل بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤م للموافقة على عودة الزبير، على أن يمنح نيشان القديسين ميخائيل وجورج الذى يخول حامله لقب سير وعضو فى الامبراطورية البريطانية من درجة فارس ، وأن يعطى له مبلغ من المال ليستعين به فى تدبير شئون ولايته الجديدة المستقلة عن مصر ، كما يمنح إعانة سنوية مقدارها خمسون ألفا من الجنيهات ، وأن يستمر دفع هذه الاعانة لمدة خمسة سنوات على أن يتوقف صرف هذه الاعانة السنوية على مدى سلوكه فى إدارته الجديدة ولم توافق الحكومة البريطانية على هذا الطلب، لا لأن الزبير كان تاجراً للرقيق، الأمر الذى سوف تثيره المعارضة البرلمانية الانجليزية وجماعات منع الرقيق ، ولكن لخشيتها من صلابة عوده وعدم انقياده لتنفيذ السياسة البريطانية ، التى كانت تهدف من ولايته إقامة سرواك أخرى فى السودان ، تنتقل تدريجياً إلى أملاك التاج البريطانى فالزبير قد لاقى منذ حضوره إلى مصر مختلف وسائل الاضطهاد والنفى ، وما كان ذلك إلا لصهره فى قالب جديد لخدمتها ، غير أنه لم يتأثر بكل ذلك ، واحتفظ باستمساكه بمبادئه وتقاليده ، فحق لوادى النيل أن يفخر ببطولته .

---

(٧٥) كتاب المهدية فى السودان لمؤلفه رجيناك ونجت باشا ص ٥٥٤/٥٥٥ بالانكليزية .

وكان طبيعياً والأمور تسير على هـذا النحو أن يشتد الحصار على الخرطوم . الذى بدأ فى الثالث عشر من مارس سنة ١٨٨٤م، وأن تتعطل المواصلات وتسقط المدن الواحدة تلو الأخرى ، وأن يبدأ الامام المهدى فى الزحف صوب الخرطوم ، بعد أن بسط سيطرته على كردفان ودارفور وبحر الغزال ، فأمن بذلك ظهره وجناحه الأيسر ، وفى الأسبوع الأخير من يونيه أرسل الدراويش جيوسي كوتسى الايطالى ، الذى وقع فى الأسر بعد سقوط بربر ، يحمل رسالة إلى غوردون للتسليم ، التى رفضها ، وكان غوردون ينتظر وصول الحملة البريطانية لانقاذ الخرطوم ، وبعد أن ساءت الأحوال وطال الانتظار بارحت الحملة مصر فى طريقها إلى الخرطوم ، وفى خلال تلك الفترة أرسل الدراويش جيوسي كوتسى مرة أخرى إلى غوردون للتسليم فرفض الطلب ، كما طلب الامام المهدى من سلاتين[٧٦] الذى كان أسيراً أيضاً فى معسكر الدراويش ليكتب إلى غوردون للتسليم حقنـاً للدماء وحفظاً على حياته ، غير أنه لم يرد على هـذه الرسالة واكتفى بأن أوضح فى يومياته بتاريخ ١٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤م « ليس لدى ما أكتبه من ملاحظات على رسالة سلاتين ، ولا أعلم ماهى الدوافع وراء هذه الخطوة منه بالكتابة إلى ، وعلى أى حال إذا كان (سلاتين) سيخرج من أسره ، فاننى سوف آخذه معى إلى الكونغو ، لكنه يحتاج إلى بعض التطهير[٧٧] » والتطهير المشار اليه فى رأينا من ناحية اعتناق سلاتين للاسلام . وقد أبدى غوردون فى أكثر من موضع اعتبار من ترك مسيحيته وصار مسلماً كنبوذ لايجوز التعامل معه وغوردون كما هو معروف ، يمثل طبقة مسيحية أرسطقراطية ، التى تميز بها عصر الملكة فكتوريا .

اخفاق حملة انقاذ غوردون

وقد أرسل قائد الحملة اللورد ولسلى كتابا إلى غوردون تاريخه ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٤م جاء فيه « . . . . وأفضل أن تنتهى المسألة سلمياً ، وذلك بمسامحة محمد احمد فيما مضى وجعله سلطاناً مستقلا على كردفان ، ويكون الملك له ولأولاده من بعده ، وبتأسيس

---

(٧٦) سلاتين س ٣١٩ وما بعدها ـ كان جيوسي كوتسى المشـار اليه وكيل غوردون الشخصى فى بربر كما كان قنصل انجلترا فى تلك المدينة وقد تسمى بعد اسلامه محمد يوسف وهو إيطالى ولد ١٨٤٣ وتوفى ١٩٢٣ ـ راجع ترجمته فى هل س ١٠٧

(٧٧) ورنام س ٣١١

حكومة وطنية فى الخرطوم يكون الحاكم فيها مستقلا عن مصر، وحكمه وراثى، فيملك دنقله وبربر والخرطوم وتعود أنت إلى انكلترا (٧٨) . . . . ، وقد أسقط ولسلى درافور وسنار وبحر الغزل ، وخط الاستواء وشرق السودان . وقد يكون الاهمال مغتفراً لولا أن اللورد ولسلي كان مطلعاً على دخائل السياسة العليا البريطانية وخططها نحو السودان ، إن لم يكن أحد صانعيها، وقد قام بدور هام عندما طلب إلى غوردون السفر إلى السودان ، كما أوضحنا من قبل .

قامت الحملة من كورتى فى الثلاثين من ديسمبر سنة ١٨٨٤م فى فرقتين إحداهما بقيادة السير هربرت استيوارت عبر صحراء البيوصة ، والثانية بقيادة الجنرال أرل عن طريق النيل إلى أبو حمد وبربر ، والغرض من الحملة الثانية حماية جناح الحملة الأولى واسترداد بربر لتأمين الموصلات .

وبعد أن وصلت الحملة الأولى إلى آبار الجكدول فى الثانى من يناير سنة ١٨٨٥م ترك قوة صغيرة مكونة من ٤٢٢ صف وعساكر ، وعاد إلى كورتى فى نفس اليوم ووصلها فى ظهر اليوم الخامس من يناير ، وبارحها ثانية فى اليوم الثامن من يناير ووصل الجكدول بكامل قوته فى صباح اليوم الثانى عشر وفى اليوم السابع عشر اشتبك مع الدراويش فى معركة أبو طليح ، شمالى المتمة وبالرغم من أن هذه الحملة قد حازت نصراً على الدراويش فان القوة البريطانية قد لاقت مصاعب كثيرة كادت أن تودى بجميع الحملة ، وذلك أن بعض الأسلحة والمدافع قد أصابها العطل أثناء القتال إلى الحد الذى تمكنت معه قوات الدراويش الكثيرة العدد من الوصول إلى قلب الحملة ، ولو لم تتدارك الموقف سرية نزلت إلى الميدان فى الوقت المناسب لكانت النتيجة فناء الحملة تماما كما حدث فى شرق السودان . ولا يخفى أن هذه الحملة البريطانية كانت أول تجربة فى حرب صحراوية ، بعيدة عن البحر بأكثر من ألف ميل وفى ظروف قاسية . ومما تجدر الاشارة اليه أن هذه الحملة قد أضاعت حوالى العشرة أيام بين الذهاب والإياب .

ولأسباب لم تعرف بعد على وجه التحديد ، ويعتقد أنها بسبب مقاومة فرنسا لانجلترا فى الميدان الدولى ، أن أرسل الخديو توفيق تلغرافا إلى غوردون فى نوفمبر سنة ١٨٨٤ جاء فيه « . . . . نحيطك علماً بأنه قد حدثت تطورات كبيرة منذ أن أوصت الحكومة البريطانية باخلاء السودان وانقطاع المواصلات معكم . . . وأيضاً

(٧٨) نعوم شقير جزء ٣ ص ٢٧٤ .

صار من الضرورى إدخال تعديلات على الفرمان الذى أصدر إليكم ، ولهـذا تبقى سلطاتكم كمدير للسودان الذى يشتمل على الخرطوم وسنار وبربر فى حدودها الحالية (٧٩) .

وذكر نصحى باشا فى « جرنال الحوادث » الذى سجل فيه يومياته خلال الفترة التى أمضاها فى منطقة شندى لمقابلة القوات البريطانية ، وذلك عن حوادث يوم الأحد ٢٤ ربيع أول (١١ يناير سنة ١٨٨٥م) ما يأتى :

وفيوم (فى يوم) الأحد الموافق ٢٤ منه فى الساعة ستة و١٥ دقيقة ورد لنا جواب من الفقيه مصطفى أمير شنبات الغرب المجاورة للخرطوم المحضر يومين تاريخه بالبر الغربى مقابلا لجزيرة نمرى الموجودين نحن بها مع ادمية (امرأة من الرقيق) وهذه صورته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الولى الكبير والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه احمد المصطفى ابن الفقيه الأمين إلى سعادة لوا قومندان وابورات السفرية محمد نصحى باشا أما بعد لايخفاكم إبلاغ السلام منا وإلينا ولكن نعلمكم أنه لكل أجل كتاب ولكل مملكة حد وزوال ودولة التورك (الترك) هذه كانوا أخذوها من ناس غيرهم ومثبوت أن ملكهم يزولوا (يزيله) المهدى عليه السلام فمن حاربه هلك ومن تبعه سلم ومن الجملة أن الانجليز أخذوا الملك من الخديوى وسيروه جسم بلا روح واستلموا مصر ونحن وأنتم اخوان فى الدين ولا يجوز لكم أن تعصبوا الكفر على المسلمين ولا طاقة لكم بذلك إلا أن تهلكوا أنفسكم على غير دين الله فطالع جواب خشم الموس بيك تجد حقيقة ماهو كائن فى الخرطوم فاقنع .

ولا سبيل إلى وصول الانجليز إليكم فان سلمتم فلكم مالنا وعليكم ما علينا ورحاكم (أرحامكم) وجناكم (أولادكم) ومالكم محرمة علينا فان سلمت فأنت وأولادك ومالك فى ذمتى أن ضاعت لكم ابرة تدفع لكم من بيت المال وعليك وعلى كافة الضباط الذين معك امان الله ورسوله ومهديه وان تعدى عليكم أحداً

(٧٩) ونجت مقال حصار الخرطوم وسقوطها مجلة السودان فى رسائل ومدونات مجلد ١٣ ص ٦٤ .

(أحد) فيصير ما يصير عليه كالمناشير الصادرة من الامام وان صممتم فسوف ترون مايحل بكم فشأنكم ولكن كررت لكم يا أيها الباشا أنت ومن معك وأموالك وأولادك فى ذمتى فان كنت لم تعرفنى فسأل اخوانك الذين معك يفهموك وفاء معهم وانى رجل أشفق على العبد الغريب كالقريب والناس كلهم اخوانى فى الدين ولا عدم (عدو) لى إلا الكافر فاحضر مسلماً مرحباً بمن معك ولا بأس عليك ولا ضرر إلا هذا الحرب والسلام (٨٠).

حاشية

ثم ويا حضرة الباشا ان هذا الجواب ورد علينا امبارح فى اثنى (أثناء) العشا من البقعة الشريفة والاخوان عرفونا ان الغوردون يوم الخميس الماضى أول أمس(٨٠) أرسل جواب إلى سيد الجميع الامام عليه السلام ، يقول له يا سيدى أعطيك عشرين ألف جنيه ودعنى أتوجه بلدى ، واترك لك الخرطوم ، فحرر له الإمام عليه السلام على ذات الجواب يقول « احضر بمالك واحقن دماء المسلمين ، ولا حاجة لنا بجنيهاتك(٨١) . وقد جاء هذا القول الخاص برغبة غوردون ترك الخرطوم وتسليمها للإمام المهدى نظير عشرين ألف من الجنيهات يفدى بها نفسه ليخرج من البلد ، قد جاء من جانب واحد ، وليس لدينا ما يؤيده أو ينفيه ، والمعروف أن حصار الخرطوم كان قد دخل فى مرحلتيه النهائية بالعزلة التامة وقلة المواد الغذائية .

واننا لا نعلم الدوافع التى جعلت الإمام المهدى يرفض استلام الخرطوم دون حرب عندما عرض عليه غوردون ذلك فى خطابه المشار إليه آنفاً ، فى الوقت الذى وصلت إليه أخبار الحملة الانجليزية من دنقله واشتباكها مع الدراويش فى موقعة « أبو طليح » . وكان لانتصار هذه القوة على جموع الدراويش الكثيرة العدد أثرها فى معسكر الإمام المهدى ، الذى عقد مجلساً من الأمراء ليتخذ قراره فى البقاء على حصار الخرطوم أو الهجرة إلى كردفان . وقد طلب أحد الأمراء ضرورة الاسراع فى احتلال الخرطوم حتى تضيع الفرصة على حملة الأنقاذ ، وكان الهجوم على المدينة

(٨٠) يوم الخميس المشار اليه يوافق الثامن من يناير سنة ١٨٨٥ م .

(٨١) جورنال الحوادث الذى كتبه نصحي باشا . صورة شمسية مودعة بمكتبه معهد الدراسات السودانية — كلية الآداب جامعة القاهرة . جاء فى مقال وبحث عن حصار وسقوط الخرطوم مجلة السودان فى رسائل ومدونات جزء ١٣ ص ٨٠ ما يفيد ان الباخرة اسماعيلية كانت معدة على تمام الاستعداد منذ الفجر (من يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م) لركوب غوردون وهربه .

وسقوطها ومقتل غوردون وعشرات الآلاف من أهلها، وذلك فى صبيحة اليوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٨٥م. وضاعت الفرصة على حملة الانقاذ التى عادت أدراجها وبقيت بعض الوقت فى دنقلة، حيث اتخذتها مركزاً لها.

وقد تأثر موقف الحملة بالأحداث السياسية الدولية بسبب نشاط فرنسا وروسيا المعادى لسياسة انجلترا، وقد كان مقدراً أن تقام حكومة فى تلك المنطقة يتولى إدارتها ضباط من الانجليز، كما أن اللورد ولسلى قائد الحملة قد أرسل تلغرافا إلى الوزارة البريطانية بتاريخ ١١ مارس سنة ١٨٨٥ جاء فيه «... أحيطوا اللورد جرانفيل علماً بانى لاأستطيع الانتظار وقتاً أطول، وأرى من واجبى أن أصدر اعلانا بوصفى حاكم السودان العام، وفى حالة عدم وصول الرد على هذا الاخطار حتى اليوم الرابع عشر من مارس، سوف أصدر هذا الاعلان فى حدود سلطاتى[٨٢]. ومن الطبيعى أن يكون اعلانه بتنصيب نفسه مقاليد الحاكم العام للسودان باسم حكومته «انجلترا» لا باسم مصر، وذلك لأن انجلترا وهى الدولة التى تحتل مصر حينذاك وتهيمن على شئونها قد عطلت سفر الأمير حسن[٨٣] أخ توفيق إلى دنقله، ليتفقد الحالة ولتدعيم سلطة الادارة المصرية. ويبدو من صيغة تلغراف ولسلى انه مزودا بالتعليمات اللازمة لمواجهة مختلف التطورات السياسية، وهى فى مجموعها تهدف نحو فصل السودان وعزله عن شمال الوادى وربطه بطريقة أو أخرى مع المناطق الواقعة تحت النفوذ البريطانى فى خط الاستواء، غير أن المشاكل الدولية واشتداد الصراع بين المعسكرين المتنافسين انجلترا وفرنسا قد حال دون تنفيذ تلك السياسة وجعل بريطانيا تلمس طرق ووسائل أخرى فى هذا السبيل. فنجدها فى عام ١٨٨٥م تثير مسألة الجلاء عن مصر بعد الانتهاء من مؤتمر برلين ١٨٨٤ — ١٨٨٥م ويذهب درمند ولف للمفاوضة مع الباب العالى، ويسافر المندوب البريطانى بصحبة المندوب العثمانى مختار باشا إلى مصر، وكل هذا كسبا للوقت ومراقبة التطورات الدولية وبخاصة بعد سقوط الخرطوم وانسحاب القوات إلى وادى حلفا، وقد ترك

---

(٨٢) جوين جزء ثالث ص ١١٤

(٨٣) مذكرات الماجور جنرال منتيج استوارت ورتلى — مجلة السودان فى رسائل ومدونات بند ٣٤ ص١٧٢.

انسحاب القوات من دنقله إلى وادى حلفا المنطقة بين الشلال الثالث وادى حلفا ، التى كانت جزءاً من النوبة منذ قرون عديدة قبل قيام الكشاف العثمانيين بحكمها فى أعقاب فتح السلطان سليم لمصر .

وفى الوقت الذى كان فيه درمند ولف يتأهب للسفر من انجلترا إلى الآستانة طلب من ولفرد سكاون بلنت أن يجمعه مع السيد جمال الدين الأفغانى ، وكان اهتمام ولف فى حديثه مع السيد مركزاً فى استطلاع رأيه فيما إذا كان من المستطاع الحصول على اعتراف الدراويش بخلافة السلطان العثمانى كما أنه أوضح للسيد اهتمام بريطانيا بمسألة احلال السلام مع السودانيين وقيام حكومة مستقلة فى دنقلة تدخل فى اتفاق مع الباب العالى(٨٤) ، وربما كان هذا المنصب ، منصب سلطان دنقلة ، هو الذى أرادت الوزارة البريطانية اسناده إلى السيد جمال الدين الأفغانى ، الذى رفض العرض بسبب أن بريطانيا لا تملك حق التصرف فى أرض ليست من أملاكها .

وفى أغسطس من تلك السنة كانت بريطانيا تتفاوض عن طريق وكلائها غير الرسميين ومنهم ولفرد سكاون بلنت للوصول مع الدراويش فى مفاوضات على أساس نقاط ثمان ، وكان طبيعياً أن تنتهى المفاوضات بالاعتراف بالدولة الجديدة بعد قيامها على الصورة الشكلية التى أرادتها بريطانيا . وكانت هذه النقاط الثمان هى :

١) اخلاء سبيل الأسرى .
٢) تأمين القبائل التى اشتركت فى القتال ضد الحركة المهدية .
٣) انسحاب القوات المصرية والانجليزية إلى وادى حلفا وسواكن .
٤) اخلاء سواكن ومصوع وتسليمها للباب العالى .
٥) الاعتراف للإمام المهدى بالسيادة داخل حدوده .
٦) انشاء علاقات سياسية مع انجلترا .
٧) حرية التجارة .
٨) الوصول إلى اتفاق لتحديد تجارة الرقيق اذا كان ذلك ممكنا (٨٥) .

وقد صيغت هذه الأسس لتجعل من السودان محمية بريطانية ، فالبند الثالث يقترح انسحاب القوات الى وادى حلفا وسواكن والبند الرابع يسلم سواكن

---

(٨٤) بلنت – ص ٤٧٤ / ٤٧٦

(٨٥) نفس المصدر ص ٥٩٦ / ٥٩٧ ملخص خطاب سرى من بلنت الى غلادستون.

ومصوع للباب العالى ولم يذكر شيئاً عن وجود القوات الانكليزية فى سواكن بعد انتقالها للباب العالى . والبند الخامس يعترف بالسيادة للدراويش داخل الحدود — أى أن العلاقات الخارجية سوف تكون بيد الغير ، وذلك الغير هو انجلترا كما جاء فى البند السادس .

وعطلت بريطانيا الأمر العالى الذى أصدرته مصر فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٥ الى بيكر باشا فى شأن حفظ خط المواصلات بين بربر وسواكن وجاء فى هذا الأمر ما يأتى « . . . وسينضم اليكم أورط سودانيون تحت قومندانية الزبير باشا الذى لكم الرياسة عليه مباشرة فلا شك فى أنه يسهل عليكم اجتناء ثمرات ما للباشا المومى اليه على القبائل من النفوذ المشهور[٨٦]

تفاوض درمند ولف بعد وصوله الاستانة مع الباب العالى لعقد معاهدة لتنظيم المسألة المصرية والوصول الى حل بشأن الجلاء البريطانى عن مصر ، ولم يكن هذا الاتجاه من بريطانيا نحو مشكلات حوض وادى النيل إلا امتداداً للسياسة التى كان على بريطانيا الأخذ بها بعد الصلاحيات التى تمت فى مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ م ، وقد تم الوصول الى اتفاق تمهيدى ثم التوقيع عليه فى اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٨٥ م ، من كل من محمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية عن الباب العالى ، والسرهنرى درمند ولف عن بريطانيا وصارت هذه الاتفاقية نافذة المفعول بعد ذلك مباشرة ، وقد جاءت هذه الاتفاقية فى سبع مواد بعد الديباجة ، وتحققت معها المرحلة الأولى للسياسة الانجليزية وذلك بحصولها على اعتراف الباب العالى — وهو صاحب السيادة على مصر والأقاليم التابعة لها — حينذاك — بشرعية احتلال بريطانيا لمصر وأشارت فى الوقت ذاته بطرف خفى الى مسألة السودان .

وتعين بموجب هذه الاتفاقية مندوبين ساميين للسفر الى مصر للتعاون مع الخديو بشأن اعادة تنظيم الجيش المصرى ، ولمصالحة حالة السودان ، واجراء مباحثات لتسوية المسائل المصرية بعامة ، وقد جاء المندوبان الساميان الى مصر وقدم كل من مختار باشا المندوب السامى العثمانى والسر درمند ولف المندوب السامى البريطانى ، تقريره الى حكومته[٨٧] . وبدأت بعد ذلك مفاوضات بين تركيا وبريطانيا لوضع

---

(٨٦) قاموس الادارة والقضاء — فليب جلاد المجلد الثانى ص ٣٠٦
(٨٧) الوثائق الفرنسية المصرية عام ١٨٩٣/١٨٨٤ — ص ٧١/٤٣

صيغة الاتفاق النهائى ، الذى تم فى سبع مواد بعد الديباجة ومعه بروتوكولين وملحق ، تم التوقيع عليها فى الاستانة فى الثاني والعشرين من مايو سنة ١٨٨٧ م من محمد كامل باشا الصدر الأعظم ومحمد سعيد باشا وزير الخارجية عن تركيا والسر درمند ولف عن بريطانيا .

وقد فقدت هذه الاتفاقية النهائية صلاحياتها بسبب توقف الباب العالى عن التصديق عليها ، وفقاً لما جاء فى المادة السابعة ، تحت ضغط فرنسا وروسيا اللتان هددتا باحتلال فرنسا للشام وروسيا لأرمينيا . وفى الحقيقةوواقع الأمرأن بريطانيا لم تخسر شيئا بسبب التوقف عن التصديق على هذه الاتفاقية ، وقد ذكر كرومر فى كتابه مصر الحديثة فى هذا الصدد ما يأتى : « انه بالرغم من فشل هذه الاتفاقية فى تحقيق أهدافها فان الحكومة البريطانية قدصارت فى مركزدبلوماسى ، عند نهاية هذه المفاوضات ، أحسن مما كانت عليه عند بدئها ، فقد تحقق لها الحصول على اعتراف الباب العثمانى بشرعية احتلال مصر ، كما انه قد برزت معها مسألة السودان فى كيان خاص يحتاج الى مصالحة .

وقد أشارت المادة الرابعة من الاتفاقية النهائية الى الوضع فى السودان وما فيه من ثورة تهدد أمن مصر الداخلى ، وأن هذا الوضع يتطلب اجراءات استثنائية للمحافظة على الحدود الجنوبية — عند وادى حلفا — خوفا من تسرب الدراويش الى شمالى تلك المنطقة ، وأخذت بريطانيا على عاتقها مسئولية القيام بهذه الاجراءات للمحافظةعلى الحدود إلى أن يحين الوقت الذى يتكون فيه الجيش المصرى الجديد ويتم جلاء القوات البريطانية عن مصر .

وإذا قارنا ما جاء فى الاتفاقيتين التمهيدية فى عام ١٨٨٥ والنهائية فىعام ١٨٨٧م مع ماجاء فى العرض البريطانى الذى قدمته لمندوب المهدية والذى أشرنا اليه من قبل ليكون أساساً للمفاوضات بينهما ، نجد أن بريطانيا كانت تهدف أولا الى تثبيت شرعية وجودها فى مصر ، ثانياً الدخول فى مفاوضات مع الدراويش بشأن تسوية الموقف على أساس النقاط الثمان التى سبق ايضاحها . ولو كان قد قدر لهذه الاتفاقية النهائية النفاذ لاستطاعت بريطانيا أن تواجه فرنسا وروسيا فى مركز أقوى ، وأن هذا الفشل الجزئى جعل بريطانيا تعمل على تهدئة الحالة الدولية وأخذت فى معالجة الموقف بعقد المؤتمرات الدولية ، واشتد الصراع بين فرنسا وانجلترا فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى كما سنبينه فى القسم التالى .

وقد يكون أول ما نعنى به ، بعد أن أوضحنا فيما سبق الدور الذى لعبته تلك الحركة من تطور فى مركز البلاد ، أن نتوفر على دراسة هذه الدعوة بالقدر الذى يتطلبه موضوع البحث ، الذى يتلخص فى تقصى الأسباب والعوامل الأساسية التى دفعت الى ما وصل اليه المجتمع فى الثلاثين عاما الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم تكن تلك الأسباب والعوامل مجتمعة إلاظاهرة اجتماعية تشابكت أطرافها وقد استجمعت عناصرها من الحياة اليومية وتقاليدها الموروثة عن أقدم العصور . ولم تكن حالة المجتمع المحلى فى الثمانين عاما التى تلت نهاية السلطنة السنارية إلا امتداداً لحياة المجتمع فى ماضيه القريب والبعيد ، متأثراً بما دخل البلاد من نظم واراء مستحدثة فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ويشمل موضوع البحث . الظروف التى مهدت لقيام الحركة ثم ماهية الحركة وما دخل على طبيعتها من تطورات انتقلت بها من مرحلة الى مرحلة مع ترجمة لحياة زعيمها وخليفته وينتهى البحث بدراسة عن مركز البلاد فى الصراع الدولى الذى اشتد فى الأعوام العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى وامتد لأربع سنوات من أول القرن العشرين حيث استطاعت الدول من تصفية مشاكلها .

ا ــ الدعوة المهدية وظروفها

لقد أوضحنا أن السودان قد أخذ فى الاستقرار نوعا ما فى نهاية الخمسين عاما الأولى من امتداد الادارة المصرية إلى البلاد ، كما أوضحنا الظروف الدولية التى أخذت فى التدخل فى شئون حوض النيل متذرعة بهذا السبب أو ذاك ، ومنذ ذلك الحين بدأت نقطة التحول فى تاريخ السودان . فقد جاء الى خط الاستواء صمويل بيكر باشا فى ١٨٦٩م وتولى إدارته باسم الادارة المصرية ، وخلفه غوردون باشا من ١٨٧٤ الى ١٨٧٧م ثم تسلم غوردون حكمدارية السودان وأقاليمه من ١٨٧٧ الى ١٨٧٩ م وكانت السياسة التى اتبعها بيكر وغوردون أثرها العميق فى الانتقال باداة الحكم ، من طريقها الذى كان يتمشى مع حياة البلاد والأخذ بيدها الى التدرج فى مضمار التقدم ، الى ما كان على العكس من ذلك . فانتكست حالة البلد ورجعت القهقرى وبرزت مقومات المجتمع وتقاليده التى قد كانت فى طريقها الى الاختفاء أمام ما أقامته الادارة المصرية فى السنوات الخمسين الأولى من

أعمالها فى السودان . فالسياسة التى اتبعها غوردون وبخاصة بعد أن اسرف فى تعيين الأجانب من مختلف الجنسيات فى المراكز الرئيسية . وقد عمل هؤلاء وهم يجهلون أو يتجاهلون الأوضاع المحلية وما تتطلبه من صفات خاصة لمعالجة مشاكلها ، على التنكيل بالسكان وتجاوزوا الحدود فى تنفيذ القوانين الصارمة الخاصة بالرقيق ، بالرغم عما جاء فى اتفاقية الرقيق بشأن تصفية هذه المشكلة ، كما تدخل هؤلاء بالعبث بالتقاليد والقيم الاخلاقية بدعوى نشر الحرية ، كما عملوا أيضاً على تقويض الأسس الاقتصادية الأمر الذى تعطلت معه الحياة اليومية ، وأحدث فجوة عميقة الغور فى المجتمع الذى تميز بطابعه الدينى الصارم ، ولم يكن من الهين الانتقال به فجأة من حال إلى حال وفى سرعة لا تتمشى مع طبيعة الأشياء ، وقد كان من اليسير على الأهلين أن يتقبلوا اسناد مقاليدهم إلى جماعات من غير المسلمين لو أخلص هؤلاء فى رعاية مرافق الشعب والمحافظة على تقاليده ، متسامحين لا يتدخلون فى المشاعر الدينية والحياة اليومية . فقد سبق أن تولى مديرية الخرطوم أراكيل بك وتذمر بعض الزعماء من ولاية نصرانى ، فقال لهم إذا كان تعيينى لا يرضيكم فأنا أترك البلاد ، فأعجب الزعماء بشجاعته واطمأنوا لاتجاهته وبقى فى مركزه مرموقا بالمحبة والاحترام ، غير أن الحال يختلف بتعيين غوردون الذى تميز بطابعه المسيحى المتزمت ، شأنه فى ذلك شأن معاصريه فى العصر الفكتورى ، الذى تأثر برواسب ماضى بلاده ، وكان غوردون ومعاونوه من الأجانب لهم نظرتهم الخاصة فى معاملة الأهالى الذين كانوا يرون انهم فى مستوى دون مستوى الأوروبى ، وان للأوروبى رسالة يتحتم على السكان قبولها ، فاندفعوا فى تشديدهم وصرامتهم اندفاعا كانت من نتيجته خلق روح التذمر ، وتوالت الأحداث فى مختلف صورها وألوانها مما زاد فى حالة القلق التى جعلت السكان يتطلعون إلى من يخلصهم من محنتهم التى امتدت إلى الدين كما تعطلت معها الحياة اليومية ، ولم تكن الحرية التى أرادها غوردون وأعوانه نشرها إلا تمهيداً لخروج المجتمع عن قيمه الدينية ، ليتقبل التبشير بالمسيحية عندما تتمكن المدينة الأوروبية من تثبيت أقدامها والسيطرة على مصير البلد . ويقدم لنا الحديث الذى دار بين غوردون والمطران دكتور تميل على اتجاه غوردون نحو التبشير ، فقد تكلم غوردون مع المطران عند مقابلتهما فى اكستر عن مسألة التبشير والصعوبات التى تواجهها بسبب عدم السماح بتعدد الزوجات وسأل المطران عما اذا كانت الديانة المسيحية تصرح للمسلمين الذين يتركون دينهم ويعتنقوا النصرانية بالاحتفاظ بعدد

من الزوجات يبلغ ثلاث بدلا من أربع يجيزها الاسلام ، وكان رد المطران بأن القوانين الكنسية لا تسمح بهذا التجاوز (٨٨) .

وقد بلغت حالة القلق مرحلة حاسمة عندما انهى غوردون حكمداريته فى ١٨٧٩م بمقتل سليمان الزبير ورجاله بعد أن قبلوا عرض غوردون لتسليم واستسلموا فعلا الى جسى باشا ، الذى أعدمهم رمياً بالرصاص فى دم بارد تنفيذاً لأمر غوردون ، الذى بنى حكمه على سند لم يستطع أن يقدمه الي الزبير باشا عند مقابلتهما فى مصر كما أوضحنا من قبل، ولكن غوردون قد استطاع التخلص من سليمان حتى لا تتعطل السياسة التى رسمها ، وهكذا تجمعت الزوبعة من عناصرها المحلية ، وزادت عليها نهاية الحركة الوطنية فى مصر وتشريد زعمائها عرابى ورفاقه .

وكان لزاما أن يخرج الزعيم من بين صفوف الشعب لقيادة الحركة كما كان لزاما أن يكون لذاك الزعيم مقامه الدينى ، الذى يعد بثواب الجنة . ومقام الشهداء الأبرار الذين جاهدوا فى سبيل نصرة الدين ، وقد وجد الشعب ذلك الزعيم فى شخص فقيه أخذ قسطاً من العلوم الدينية ، تجاوبت مشاعره مع إحساس الأهلين ، وكان ذلك الزعيم هو الامام محمد احمد الذى تغلبت عليه حياة الزهد والتصوف والاعتكاف وكان مقصد أصحاب الشكاوى والمظلومين ليشفى جراحهم ، فذاع صيته بين الشعب القلق المتذمر بسبب الخلاف الذى قام بينه وبين شيخه الشيخ محمد شريف نور الدايم ومما يجدر ذكره أن الامام المهدى قد صرح لشيخه المذكور فى عام ١٨٧٨م بأنه المهـــدى المنتظر ، فجاء إليه تاجر، اتهم بتجارة الرقيق أو فى تجارة مشروعة وألهب جسده بالسياط وصودرت أمواله ، ومواطن عادى ، ألقيت على كاهله أعباء أموال الحكومة التى وزعت توزيعاً غير عادل بسبب الاعفاءات التى منحها غوردون لبعض الجماعات على حساب المجموعة من السكان. وأوصدت أبواب العدالة فى وجه أصحاب الشكاوى ، ووجد الأهلون فى هذا الفقيه متنفساً لكربتهم ولتحقيق الانتقام والأخذ بالثأر لما أصابهم على يد غوردون ومن ظاهره فى إدارته ، وقد اعتبر كل من تعاون مع غوردون خارجا عن الدين وجبت محاربته ، وهذه الحالة تصور لنا مدى الأثر الذى تركه الظلم فى النفوس وهكذا أخرج الشعب الامام المهدى إلى العمل بعد أن

---

(٨٨) ورثام ص ٢٧٦ .

تهيأت الظروف المواتية لذلك . وبطبيعة الحال لم يسبق الامام المهدى الاحداث ويوجهها تحقيقاً لرسالته ، والحقيقة وواقع الأمر ان الأحداث هي التي وجهته وخلقت منه زعامته .

وكانت الدعوة ، التي ظهرت في الثوب الديني التقليدي الذي يتمشى مع طبيعة البيئة المحلية ، قد تسلمها الزعيم المرتقب، وليس لنا في هذا الموضع أن نناقش الفكرة فكرة المهـــدى من ناحيتها الدينية الباطنية ، فهذه الفكرة قديمة ترجع إلى أقدم العصور ، وقد دخلت هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي ، وأخذت في الظهور ، بين الفينة والفينة ، متكيفة بالظروف المحيطة بها ، وكانت ركناً أساسياً في الشيعة ، قامت عليها فكرة الامام المختفى « أو المكتوم » وقد عرف هذا الامام « بالمهدى » ليتمشى في ذلك مع التكليف الذي حض عليه الاسلام بالدعوة إلى اتباع الدين ، التي تقوم على بناء مجتمع سليم راسخ القواعد ، يؤدي رسالته في الحياة على الوجه الذي حددته الرسالة الاسلامية . وقد حض الدين قادة الرأي من العلماء وغيرهم بأن فرض عليهم القيام بهذا الواجب حيث جاء في الكتاب الكريم « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (آل عمران) .

ومن هذا يتضح لنا ان دعوة الامام المهدى في السودان لم تكن إلا استجابة لمشاعر الأهلين التي انطبعت بما تركه حكم الأوروبيين من أثر سيء ، وكان لتلك المشاعر انعكاساتها التي تمثلت في شخصية الامام المهدى وطبيعته الدينية . فالتفوا حوله وناصروه وبخاصة في المناطق الواقعة في دار غرب والنيل الأزرق وهي المناطق التي كانت تعتمد اعتماداً كلياً في اقتصادياتها على الرقيق في القيام على الأرض والرعي والخدمة البيتية ألخ ألخ . ولم يكن من السهل معالجة الرقيق دون أن تعطى للمجتمع الفرصة الكافية لتعديل نظمه . وقد طاف الامام المهدى البلاد من أقصاها إلى أقصاها ولمس ما اختلج في قلوب الأهلين من روح التذمر واليأس على يد أولئك الفرنجة ، ومن عاونهم من الوصوليين ، ومن هؤلاء من وصل إلى رتب عسكرية عالية بحكم الوظائف الادارية التي أوكلت إليهم ، وكان لهذا الخليط العجيب أثره في أضعاف الجهاز الإداري وتسرب الفساد إلى صميمه ، مما جعله عاجزاً عن القيام بواجباته من المحافظة على أمن البلاد ورفاهيتها ، فتهيأت بذلك الفرصة المناســبة ليعلن الامام المهدى رسالته لمحاربة الادارة الأوروبية ، وما كان للحركة المهدية أن تسلك طريق

العنف لولا الظروف السيئة التي جعلت مقاليد الحكم في يد الفرنج ، مما جعلها تنحرف عن طريقها الديني إلى العنف والقتال . ولو كانت في البلاد إدارة تقدر الظروف المحلية وتهدف في أعمالها إلى خدمة الشعب لكان لها أن تستنفذ أهـــدافها في طريق سلمى ، والدليل على ذلك قائم فيما سبق أن ذكرناه عن الفترتين اللتين كانت فيها تقاليد الحكم في يد السلطة السنارية وفي الخمسين عاما الأولى من امتـــداد الادارة المصرية إلى السودان .

وقصة الحركة المهدية في السودان التي نادى بها الأمام محمد احمد في حاجة قوية لدراستها دراسة عميقة لما لها من صلة بالمجتمع الاسلامى بصفة عامة وبالسودان بصفة خاصة . فهذه الحركة لها طابعها الخاص ولها ظروفها المحلية التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند معالجتها . وما زالت تنقصنا الوثائق المحلية الأصليـة لتحقيقها تحقيقاً علمياً سليماً وتنقيتها من الشوائب التي قد لحقت بها من أقلام الكتاب من الأوروبيين، الذين عملوا على تصوير تلك الحركة بما كان يدور في أفكارهم التي لم تكن في حالة من الأحوال تعبر صادقة عن الحال . وقد أضفى هؤلاء الكتاب على هذه الحركة من خيالهم الأمر الذي ترك أثره في أذهان الكثيرين بأنها كانت قطيعة بين شطرى الوادى ، وهذا لم يكن له وجود في تفكير الأمام المهدى ، بل بالعكس كان يهدف نحو تحرير دار الاسلام من النفوذ الاوروبي (٨٩) والتعاون بين المسلمين . وهنالك وثائق كثيرة مبعثرة هنا وهناك (٩٠) . ونعتقد ان الوقت قد حان لجمعها لتكون في متناول الباحثين ، ليتمكنوا من كتابة تاريخ صحيح له ماله وعليه ما عليه ، وللافادة من ذلك في معالجة مشاكلنا الكثيرة ، فالمنشورات التي أصدرها الأمام المهدى لم تجمع

---

(٨٩) جاء في جورنال الحوادث الذى كتبه اللواء محمد نصحى باشا عندما كان في شندى في انتظار حملة أنقذ غوردون ، ما يأتى في حوادث الخميس ١١ محرم سنة ١٣٠٢ هـ « ... فلا يليق بأيمانكم أن تجعلوا أمامكم الغردون الكافر الذى لا شبهة في كفره وأنتم مغرورين به ، ومنتظرون المدد من الانجليز ، وهم أعداء الله ورسوله وأعــداء المؤمنين مع علمكم بيعدهم عنكم ... ويا حضرة الباشا ومعشر الضباط والعساكر ان كنتم الجميع من بر مصر فتذكروا عدوان الأنجليز اليكم وما جرا لعرابى معهم وتملكهم على بلادكم وأراضيكم وخراجاتكم ... » هذه قد وردت ضمن الكتاب الذى وجهه امراء المهدية الذين كانوا في منطقة شندى إلى اللواء محمد نصحى باشا.

(٩٠) دائرة المعارف الاسلامية طبعة سنة ١٩٥٣ ـ الكراسة الأولى ـ ترجمة الخليفة عبدالله التعايشى بقلم هللسون الذي أوضح أن توجد حوالى الخمسمائة والألفين من الوثائق الخاصة بالمهدية والتى وضعت عليها إدارة السودان يدها بعد موقعة أم درمان .

بعد فى صورة كاملة مرتبة ترتيباً زمنياً وتعمل لها قوائم موضوعية ، توضح لنا مراحل تطور طبيعة الرسالة والظروف التى أحاطت بكل حالة ، وهذه سوف تترجم لنا فى صورة واضحة الأحداث والملابسات .

والأمام المهدى كما هو معروف لم يعمر طويلا بعد وصوله إلى الخرطوم واتخاذه أم درمان مركزاً لإدارة أعماله ، فلم تتح له الفرصة الكاملة لارساء قواعد جديدة لرسالته ، وانتقلت ولاية الدعوة من بعده إلى يد الخليفة عبد الله التعايشى الذى واجه أكثر من مشكلة اقتنصت كل جهوده ونشاطه لمعالجتها ، ولا يفوتنا أن نذكر أن الحركة المهدية قد أثارت حفائظ الكثيرين من رجال القبائل وغيرهم ، وقد لعب بعض هؤلاء دوراً هاماً فى أذكاء الفتنة والدسائس كما عملوا على توسيع شقة الخلاف بين الخليفة عبد الله وأقارب المهدى . وفى الواقع ان هذه الدسائس لم تكن إلا مظهراً من مظاهر الصراع الخفى بين المهدية والكارهين لتنظيماتها ، التى حرمتهم الكثير مما كانوا يزاولونه من نشاط .

وهنالك مسألة العلاقات الخارجية ، فقد كانت بريطانيا كما ذكر بلنت فى كتابه « غوردون فى الخرطوم [91] » كانت مهتمة بهذه القضية على طريقتها التقليدية لاكتساب الوقت ومراقبة الحال وتطوراته عن كثب بما تستجمعه من معلومات من مبعوثى المهدية ، وقد بدأت المفاوضات فعلا عن طريق السيد جمال الدين الأفغانى وان شروطاً قد عرضت لتكون أساساً للمفاوضات للوصول إلى اتفاق على النحو الذى سبق أن أشرنا اليه ، وكانت هنالك علاقات بين النجاشى منليك - أمبراطور أثيوبيا والخليفة عبد الله وكانت وراء أثيوبيا فرنسا كما سنتعرض له فى القسم الثانى. كما ان ملك الأنيورو قد أرسل بعثة إلى السودان [92] عندما وصلت اليه أخبار انتصارات زعيم البلاد على الرجل الأبيض (الانجليز) وكان هدف هذه البعثة الحصول على مساعدة ذلك الزعيم لطرد الانكليز من أوغندا ، وقد حجز هذه البعثة عامل الخليفة عربى دفع الله فى الرجاف وكانت الحال فى السودان قد قاربت نهايتها.

---

(٩١) بلنت ص ٥٩٦

(٩٢) تقرير المخابرات السودانية رقم ٩٦ - نقلا عن مجلة أوغندا مجلد ١٩ مارس سنة ١٩٥٥ / ٩٤

الامام المهــــدى

اختلفت الرواية فى تاريخ مولده (٩٢) ، فنعوم شـقير يقول انه قد ولد بجزيرة « لبب » (فى دنقـلة) فى عام ١٨٤٢ م وذكر ابراهيم فوزى ولد المهدى فى عام ١٨٣٤ م بجزيرة الخناق ، وفى قول يؤيده السيد عبد الرحمن المهــــدى ان الأمام المهدى قد ولد فى الأسبوع الثانى من شهر أغسطس سنة ١٨٤٤ م وينتمى الى بيت الولى نجم الدين (المدفون فى القاهرة) وقد خرج من هذه الأسرة أكثر من فقيه اشتهروا بالعلم والولاية أضرحتهم ما زالت قائمة وبخاصة فى أسـوان وبلاد النوبة السفلى وتعرف الشعبة التى ينتمى اليها بالعون اللاب نسبة الي « عون الله » ، وهوالابن المباشر لنجم الدين ـ ويسكن هؤلاء فى شمال النوبة السفلى وفى أسوان ولا يعلم على وجه التحديد الظروف التى دفعت هؤلاء الى الانتشـار جنوبا ، وفى أى الفترات ، وكان والد الامام المهدى يشتغل بالنجارة فى صناعة المراكب والسواقى ، وقد أنجب خمسة أبناء منهم أنثى واحدة وأربعة ذكور اشتغل ثلاثة منهم فى صناعة المراكب أما رابعهم فهو « محمد احمد » فقد ذهب الى الـكتاب وحفظ القرآن ودرس الفقه والتوحيد والتصوف فى خلوة (كـتاب) الفقيه الهاشمى بالقرب من كررى (شمال أم درمان) ثم انتقل الى خلوة الشيخ محمد الشنقيطى ثم الى خلوة الشيخ الأمـين الصويلح بمسيد (مسجد) ود عيسى ، ثم إلى خلوة الشيخ الأمير ، وذهب بعد ذلك الى الفقيه الشيخ محمد الضكير (استبدله المهدى بالخير) فى الغبش (فى بربر) نخرط فيما بعد فى سلك تلاميذ الشيخ محمد شريف نور الدايم فى عام ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ / ١٨٦١) ، وبقى حواراً (تلميذاً) لهذا الشيخ ما يقرب من العشرين عاماً .

فقد جاء فى قصيدة نظمها الشيخ محمد شريف نور الدايم ما يلى : ـ

لقد جاء فى عام زع (٩٣) لموضع   على جبل السلطان (٩٤) فى شاطىء البحر

---

(٩٢) قال الامام المهدى في نسبه الآتى :

محمد المهدي بن عبد الله بن عبد الله بن فحل بن عبد الولى بن عبد الله بن محمد بن حاج شريف ابن على بن احمد بن على بن حسب النبى بن صبير بن النصر بن عبد الـكريم بن حسـين بن عون الله ابن نجم الدين (المدفون في القاهرة) بن عثمان بن موسى بن ابى العباس بن يونس بن عثمان بن يعقوب ابن عبد القادر بن الحسن العسكرى بن علوان بن عبد الباقى بن صخرة بن يعقوب بن الحسن السبط ابن الأمام على بن أبى طالب .

(٩٣) عام زع بحساب الأبجدية ٧٧ (١٢) هـ (١٨٦٠ / ١٨٦١) م

(٩٤) جبل السلطان شمالى كررى ــ أم درمان .

يروم الصراط المستقيم على يدى فبايعته عهداً على النهى والأمر
فقام على نهج الهداية مخلصاً وقد لازم الاذكار فى السر والجهر

الى أن يقول :

وكان لدينا عيشة صدقاتنا وخادمنا عشرين عاماً من العمر
الى الخمس والتسعين (٩٥) أدركه القضاء على ماضى فى سابق العلم بالشر
بصحبة شيطان من الجن ايس وشيطان انس وافقاه على الضر

وقال :

فقال أنا المهدى فقلت له استقم فهذا مقام فى الطريق لمن يدرى
وخادعنى بالقول كالمهد ابنكم ومحسوبكم في الحب فى عالم الذر
فقم بى لنصر الدين نقتل من عصا فأنت لك الكرسى ولى دول الغير (٩٦)

* * *

وقد أكد الشيخ محمد شريف مقرر الدايم لنعوم شقير فى عام ١٨٩٨ م (بعد فتح أم درمان) ان سبب العداء بينه ومحمد احمد مرجعه الى أن قد نهاه عن دعوته بالمهدية وقد أنكر أنصار المهدى هذا القول كما ذكر شقير ويقولون ان أصل العداء هو انصراف الناس عن محمد شريف وميلهم الى محمد احمد بالعقيدة والاتباع ويبدو ان القول بأن سبب الخلاف بينهما بسبب الأفراح التى أقامها الشيخ محمد شريف بمناسبة ختان أولاد والرقص والموسيقى يحتاج إلى دليل . وسواء كان هذا أو ذاك فان الشيخ القرشى من مشايخ السمانية(٩٨) المناوئين للشيخ محمد شريف،قد اجتذب محمد احمد اليه وأكرم وفادته ، واشاع ان محمد احمد قد انفصل عن شيخه الذى خالف الشريعة والسنة ، لما بين الشيخين من جفاء .

ومما تقدم ذكره نجد ان فكرة الدعوى المهدية ، قد راودت محمد احمد فى عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨م) وتميزت هذه السنة بالذات بمكاشفة صاحب الدعوة لشيخه محمد شريف نور الدايم بأنه المهدى ، وقد نهاه شيخه عن ذلك ، كما تميزت بقيام

(٩٥) عام ١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨ م .
(٩٦) أنظر القصيدة بأكملها فى نعوم شقير جزء ثالث ص ١١٦ / ١١٧
(٩٧) أنظر المصدر السابق ص ١١٨ .
(٩٨) مؤسسها الشيخ الطيب ود البصير وكانت بينه وبين الشيخ محمد شريف مودة مفقودة .

الفقيه إدريس ومعه جماعة من أنصاره باعلان العصيان على الحكومة ، التى أرسلت باخرة حربية فتكت به وشتت رجاله وقتل الفقيه فى القراصة (على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم) ثم أرسل غوردون لأخته بما يفيد ان السودان قد بدأ يتهيأ للخلاص من الحكومة واسترداد حريته - وغوردون كما معلوم كان حكمداراً للسودان من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩ م . وان الخطة التى سار عليها فى حكومته فى تلك الفترة قد هيأت التربة الصالحة لظهور الدعوة الاصلاحية وقد ذكر الشيخ محمد شريف فى قصيدته آنفة الذكر ان الامام المهدى طلب من شيخه المعونة لنصرة الدين وعرض على شيخه أن يكون له الكرسى الرئاسة) ويقوم هو بالعمل - ومن هنا بدأ جانب من الصراع الذى أشرنا اليه من قبل .

وإذا رجعنا إلى الكتاب الأول ، كما أجمعت الروايات المحلية ، والذى وزعه الامام سراً بين أصحابه والأخصاء من رجال القبائل والفقهاء ، نجد انه قد صرح بدعواه بالمهدية وطلب إليهم الهجرة والانضمام الية فى حركته الاصلاحية الدينية ، ومبايعته على الجهاد فى سبيل ذلك وكان ذلك الكتاب فى التاسع والعشرين من يونيو من عام ١٨٨١ م أى بعد ثلاثة أعوام تقريباً من أول حديث له مع شيخه عن مهديته أما هذه الدعوة فقد أخذت مظهرها العلنى بعد لقائه بالسيد عبد الله التعايشى الذى قال له يا سيدى أنا عبد بن محمد تورشين من قبيلة التعايشة البقارة ، وقد سمعت بصلاحك فى دار الغرب فجئت لأخذ الطريقة عنك ، وكان لى أب صالح من أهل الكشف وقد قال قبل وفاته انك ستقابل المهدى وتكون وزيره ، وقد اخبرنى بعلامات المهدى وصفاته ، فلما وقع نظرى عليك رأيت فيك العلامات التى أخبرنى بها والدى بعينها ، فابتهج قلبى لرؤية مهدى الله وخليفة رسوله (٩٩) ، فالحركة المهدية بدأت فى أولى مراحلها كظاهرة اجتماعية تحكم فيها الطابع المحلى للمجتمع ، إلا أن هذه الحركة قد تأثرت بالأحوال السياسية العامة وبمجريات الأحداث فى السودان وما أصاب الأهالى من تنكيل وصرامة فى تنفيذ القوانين والطلبة (تسخير الأهالى للقيام بأعمال لسداد مال المالى وإلى ما غير ذلك) .

رأى الامام المهدى من نفسه القيام بدعوته الاصلاحية واشتبك مع شيخه فى نزاع فى هذا الصدد وانفصل عنه فى ذلك العام . وذهب إلى الشيخ القرشى ود الزين

---

(٩٩) نعوم شقير تاريخ السودان ج ٣ ص ١٣٠ وما بعدها .

وهو من المشايخ لطريقة السمانية أيضاً . وقد توفى هذا الشيخ بعد زمن وجيز من زيارة الامام المهدى له . وخرج الامام فى طوافه فى البلاد السودانية ، وكان لما رآه من تدهور بالغ الأثر فى نفسه ما اهتزت معه مشاعره ولما عاد لبناء قبة شيخه الشيخ للقرشى تقابل مع السيد عبد الله التعايشى كما أشرنا من قبل ، واختار الامام الجزيرة « أبا » التى اتخذ فيه غاراً للعبادة مركزاً لدعوته الجديدة ويرجع اختياره لهذه الجزيرة الى موقعها بالنسبة لغرب السودان (كردفان) وفيها الموطن الصالح لنشر دعوته لأن هذه كانت بيئة بدائية وأصاب المجتمع فيها الكثير من المحن بسبب النخاسة وما إقترن بها من تنكيل واضطهاد وإرهاب الأهلين .

وقد بدأ الامام المهدى رسالته بوصفه « مهدى رسول الله » ثم صار « المهدى المنتظر » ثم انتهى إلى « أمام الزمان » وجاء بعد وفاته آدم محمد البرقاوى فى عام ١٨٨٧ وادعى انه « نبى الله عيسى » وظهر من بعده « النبى عيسى » فى دار تامة فى عام ١٨٩٥ م وتأتى مرتبة نبى الله عيسى بعد ظهور المهدى المنتظر .

وكانت أولى الهزائم الحكومة فى الجزيرة « أبا » نقطة تحول فى الحركة المهدية فقد ترك الجزيرة إلى مهجره فى جبل قدير (جنوبى شرقى كردفان) واتخذ من هذه المنطقة مركزاً لادارة حركته . وهى الملجأ الطبيعى لبسط نفوذه ونشر دعوته وهنالك التف حوله المناوئون للحكومة .

وبقى الامام المهدى فى منطقة جبل قدير فترة من الزمن يرتب فيها شئون رسالته، ويرسل الدعاة إلى مختلف المناطق والأقاليم ، كما كان يرقب نشاط الحكومة المركزية التى كان فى غاية من الضعف والخور بسبب تطور الأحداث فى مصر والتى انتهت بالحركة العرابية ونزول الانجليز فى البلاد وصار ضغطها على رجال الحكومة فى مصر أمراً واجب التنفيذ وكانت الادارة فى السودان لا تقدر الموقف وخطورته وصارت تعالجه فى صورة أن دلت على شىء فانها تدل على جهل فاضح فكانت ترسل التجريدات دون أن تعنى بدراسة تفصيلية لما قد تواجهه تلك الحملات من صعوبات ووضع الخطط الكفيلة بمواجهة تلك الصعوبات فكان طبيعياً أن ينتهى أمر تلك الحملات إلى الفناء .

وعمل الامام المهدى بعد توطيد سيطرته فى تلك المنطقة على تنظيف الجيوب المعادية لحركته فى داخل نطاق هذه المنطقة وهى جبل الجرادة الذى رفض أهله قبول الدعوة فى أول الأمر ، ثم باره والطيارة وغيرها من المراكز التى كانت فيها

حاميات مصرية ، والدلنج التى كانت فيها محطة تبشيرية مسيحية واتجه بعد ذلك صوب الأبيض التى استولى عليها بعد قتال مرير فى ١٧ يناير سنة ١٨٨٣ م . كما انه راسل السيد محمد المهدى السنوسى ليقبل دعوته وليشغل كرسى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وطلب منه الحضور إلى السودان أوالقيام فى جهته والغارة على مصر. وقد أرسل السنوسى رسولا من قبله ليستطلع جلية الأمر وعاد الرسول بعد مقابلة الامام المهدى فى الأبيض . ولم تسمع شيئاً بعد ذلك عن علاقته مع السنوسى . كما ان الامام قد أرسل إلى السلطان رابح فضل الله (١٠٠) طالباً منه العودة من بلاد الغرب إلى السودان . وحدثت مشاكل داخلية بين كبار رجال المعسكر المهدى منها ما حصل مع ود المنة وغيره من الزعماء المحليين ومقتلهم . وقد اختلفت الرواية فى أسباب مقتل ود المنة فابراهيم فوزى يقول ان الامام والخليفة عبد الله قد خشيا من مطامعه فتخلصا منه بتدبير قتله (١٠١) وفى قول مندوب الخديو توفيق الأميرالاى أحمد بك حمدى،ان ود المنة قد أغار على القافلة التى كانت محملة بغنائم الأبيض والتى كانت فى طريقها إلى جبل قدير (١٠٢) لأنه وجد أن الامام المهدى لم يعطه نصيباً منها .

وأخذ الامام المهدى فى إعداد جيوشه إستعداداً لمواجهته ما قد ترسله الحكومة من قوات لقتال ، واشتبك مع هكس فى موقعة شيكان التى هزمت فيها الحملة وفنيت عن آخرها ، وبعدها استسلم سلاتين مدير دارفور وفى أوائل عام ١٨٨٤ م استسلم لبتن مدير بحر الغزال ، وأرسل قوة لمناوشة أمين باشا فى خط الاستواء ، وبعد أن استتب له الأمر فى كردفان ودارفور وبحر الغزال ، وبعد ما اطمأن من ناحية خط الاستواء أعد حملته إلى الخرطوم . وقد انتقلت الحركة المهدية بعد سقوط الخرطوم إلى نهاية المرحلة الأولى وبداءة مرحلة جديدة ، وهى مرحلة تأسيس جهاز للادارة . وكما سبق أن أشرنا أن التنظيمات التى فرضها الامام المهدى لارساء قواعد رسالته ، قد أثارت حفائظ بعض زعماء القبائل وغيرهم ، ودخل بذلك فى صراع خفى لم تشتد وطأته إلا بعد انتقال الامام المهدى إلى الرفيق الأعلى،وتسلم الخليفة التعايشى أمر الرسالة ، فبدأت الغيرة والحسد كمظهر من مظاهر الصراع الخفى ، تثير الفتن

---

(١٠٠) جاء السلطان رابح فعلا غير انه رجع بعد وصوله الى حدود دارفور عندما سمع بوفاة الامام المهدى .

(١٠١) فوزى جزء ثان ص ١٦٥ .

(١٠٢) يوميات الأميرالاى احمد بك حمدى .

والشكوك ، وانقسمت الصفوف واشتد الكرب والمجاعات وتفشت الأمراض ، وصار الخليفة يواجه كل يوم مشاكل جديدة ، اختفى معها الهدوء والاستقرار ، فاستعان الخليفة بأهله من البقارة وقد زاد هذا الاجراء الأمور تعقيداً وكثرت القلاقل ، وبدأت خيوط الاستعمار فى العمل ، وانجلترا كانت تخشى إنهياراً مفاجئاً لسيطرة الخليفة قبل أن تستعد مصر - على حد قول السياسة البريطانية لاعادة الأمن والنظام فى السودان ، وكانت هنالك أيضاً أتيوبيا تحاول التحالف مع الخليفة ومن ورائها فرنسا ، وهدف هذا التحالف مقاومة تقدم الانجليز نحو حوض النيل الأعلى وأرسلت فرنسا حملاتها المتتابعة إلى حوض بحر الغزال لاحتلاله والاتصال بالخليفة وحكومته فى تحالف يربطه بفرنسا . وكانت انجلترا ترقب هذا النشاط الفرنسى الأتيوبى الذى زادت خطورته على مصلحتها بعد هزيمة الطليان فى عدوة . وقد حطمت هذه الهزيمة الجناح الذى أقامته انجلترا من الطليان فى شرق السودان وشمال أتيوبيا ، فصار الطريق معبداً أمام فرنسا وحلفائها للتوغل فى حوض النيل الأعلى وفى أتيوبيا ولتحقيق هدفها فى إقامة حائط يشق أفريقيا الوسطى من المحيط الأطلسى إلى البحر الاحمر يعترض الخطة البريطانية التى كانت تريد امتداد سيطرتها من الجنوب إلى حوض وادى النيل - فأسرعت بأرسال الحملة المصرية إلى السودان ووادى النيل باسم مصر ، وانتهى القرن التاسع عشر الميلادى بانهيار سيطرة الخليفة ومقتله وقيام حكومة إدارية من نوع آخر ، وقد شهدت السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر نهاية صراع طويل مرير بين فرنسا وانجلترا كما سنبينه فى القسم التالى .



مركز السودان والصراع الدولى

فى

حـــوض وادى النيـــل

تمهيد :

أوضحنا فى أكثر من موضع فيما سبق مركز حوض النيل فى الاستراتيجية الدولية وصراع الدول الاستعمارية لتنفرد إحداها بالسيطرة على هذا الجزء من القارة الافريقية ، الذى كان وثيق الصلات بين الشرق والغرب بعـــامة وبين أقاليم البحر الأبيض المتوسط بخاصة ، وترجع تلك العلاقات إلى أقدم العصور التاريخية . ويهمنا فى دراستنا هذه أن نتعرف على مراحل التطور فى الصراع بين الدول واتجاهها نحو القارة الافريقية ، فقد بدأ الصراع مرحلته الأولى فى القرون الست التى سبقت القرن التاسع عشر الميلادى مستمداً جذوره من الحروب الصليبية والتطور الزراعى وماتبع ذلك من نمو الدول الأوروبية وتقدم الصناعات . وقد تميز التوسع الأوروبى بالطابع الذى اختفى بين جنباته العوامل الاقتصادية لانتزاع الاحتكار التجارى من يد المماليك فى مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط ، وهما حلقة الاتصال بين الشرق والغرب .

اتجه الأوروبيون من الفرنسسكان والدومنيكان خلال القرن الثالث عشر الميلادى صوب أفريقيا الصغرى «تونس والجزائر ومراكش» حيث تسامح المسلمون القائمون على الأمر وأذنوا لهم بتأسيس مراكز للتبشير . وكان ذلك والحروب الصليبية تدور رحاها فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ويبدو أن هذه الجماعات التبشيرية قد جاءت إلى هذه الديار وتخفى وراءها أغراضاً سياسية أكثر منها تبشيرية . والغالب على الظن أنهم كانوا يعنون فى الابقاء على القطيعة والفرقة بين مسلمى هذه المنطقة وبين مسلمى شرق البحر الأبيض المتوسط حتى لاتتكتل القوى لمقاومة السيطرة الأوروبية التى حمل لواءها البابوات .

وجاءت فى أعقاب المبشرين جماعات من التجار الأوروبيين من المسيحيين واليهود واشتغلوا فى تجارة الذهب والعاج وغيرها من السلع التى تنقلها القوافل عبر الصحراء إلى موانىء البحر الأبيض المتوسط فى أفريقيا الصغرى . ويصور لنا تسامح المسلمين لوناً من الفرقة المذهبية والاجتماعية التى جعلت المجموعات الاسلامية فى الجانب الغربى من أفريقيا فى عزلة عن مجريات الأحداث فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهـذه الأوضاع العميقة الجذور فى المجتمع الاسلامى جديرة بالبحث والتحقيق . فالدين الاسلامى لم يكن فى حال من الأحوال مسئولا عن هذه الأوضاع لكنها هى

الطبيعة البشرية فى مقوماتها القبلية التى لم تتأثر بالروح الاسلامية التى تدعو إلى الوحدة المتماسكة .

وتوالت بعد دخول المبشرين والتجار البعثات المتلاحقة للكشف عن ساحل أفريقيا الغربى لغرض تحويل التجارة بعيداً عن الشرق الأوسط (شرق البحر الأبيض المتوسط) وللوصول إلى أتيوبيا الدولة المسيحية التى ترامت أخبارها إلى أوروبا . وكانت المسيحية الأوروبية تهدف من وراء وصولها إلى أتيوبيا إلى توطيد العلاقات لعقد محالفات دينية مسيحية لمحاربة المماليك المسلمين فى مصر والدولة العثمانية فيما بعد(١) .

وقد أصاب النشاط الكشفى فى أفريقيا جمود نسبي خلال القرن الثامن عشر الميلادى بسبب منافسات الأوروبيين فى السباق للسيطرة على الأراضى الأمريكية لاستغلالها فى الزراعة . واشتد الطلب على الأيادى العاملة للقيام بالزراعة فى الممتلكات الجديدة عبر المحيط الأطلسى ، وقامت على الشاطىء الغربى لأفريقيا سلسلة من المحطات لصيد الرقيق وتصديره وقد بلغت هذه التجارة الشائنة ذروتها فى ذلك القرن وبدأت بعض الدول الأوروبية تشعر بوخز الضمير ، ومن ورائه العوامل السياسية كما أوضحناه من قبل .

وشهد القرن التاسع عشر الميلادى تطوراً فى الاتجاهات نحو التوسع تحت ضغط التقدم الصناعى والاقتصادى ، وتدفق الأموال الأوروبية ، وبرزت عناصر جديدة فى الحقلين الاقتصادى والسياسى ، فالسلطة كانت وقفاً على طبقة الاشراف والنبلاء ودخلت مع تقدم الصناعة طبقة من العامة ارتفعت بثرائها ، كنتيجة لنشاطها الصناعى إلى مستوى اضطرت معها حكوماتها لكى تفسح المجال أمام المجدين من الطبقة الجديدة للدخول فى سلك الوظائف العامة الكبرى ، التى كانوا محرومين منها فى الماضى ، كما أنها سهلت لهم الوصول إلى مراتب النبلاء والأشراف . ونجد هذا الاتجاه بارزاً فى بريطانيا .

وقد تأثر التوسع الأوروبى إلى حد كبير فى طبيعته وفى سيكولوجيته بما ورثته كل من الدول الأوروبية عن ماضيها القريب والبعيد ، ومما اكتسبته فى تطاحنها مع

---

(١) راجع ص ١٢ ومابعدها من الكتاب الأول من هذه الدراسة .

منافسيها خلال القرون التى سبقت القرن الثامن عشر ونجد أثر الكنيسة واضحاً فى المراحل الأولى من التوسع الذى قام بالتمهيد له نفر من رجال الدين والمغامرين الذين اتخذوا من الدين ستاراً لهم ، وقد تبلورت الأفكار فيما بعد واصطبغت بالحاجة الاقتصادية التى اكتسبتها من التوسع الصناعى وظهور طبقة جديدة من أصحاب الثراء متأثرة فى ذلك بعوامل ثلاث هامة ظهرت بين الدول الاوروبية وهى «أولا» التطور الصناعى واستخدام البخار والكهرباء ، ثانياً ظهور القوميات والملكيات ، ثالثاً إشراك الشعوب فى الحكم - الديموقراطية . وقد تطورت هذه العناصر بالاوضاع القديمة ، فأخرجت الأمم من تعريفها الضيق ، الذى كانت تراعي فيه مصلحة النبلاء والاشراف وغيرهم من أصحاب الاقطاع إلى المجال الدولى ، واستخدمت الوسائل العلمية فى استثمار الأرض وغلاتها وأخذت التقاليد القديمة فى الزراعة فى الاختفاء ، وأخذ النشاط الصناعى فى الازدياد .

وقد كانت بداءة مراحل الصراع الحديث بنشاط بريطانيا لمقاومة الروح الثورية التى نشرتها فرنسا فى القارتين الأوروبية والامريكية الامر الذى سبب متاعب لتلك الدولة ، فكان أن عملت على تبديد أحلام فرنسا فى بسط نفوذها في الاراضى الواطئة[٢] فاتجهت فرنسا إلى الشرق الاوسط لتضرب انجلترا ضربة قوية بتهديد مواصلاتها التجارية مع الشرق وكانت الخطة التى جاءت الحملة الفرنسية لتنفيذها تتلخص فى احتلال مصر ، شق قناة بين البحرين الاحمر والابيض المتوسط ، لبسط سيطرة فرنسا على حوض البحر الاحمر وجعله خالصاً للملاحة الفرنسية ، واستطاعت انجلترا بقوة أسطولها البحرى ووسائلها الدبلوماسية إخراج الفرنسيين من مصر بعد احتلالها بما يقرب من الثلاث سنوات ، وهكذا استطاعت انجلترا أن تبدد أحلام فرنسا مرة أخرى .

ومن الجدير بالملاحظة أن فرنسا قد نزلت فى أرض مصر فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وخرجت منها فى السنة الأولى من القرن التاسع عشر ، وظهرت فرنسا فى مثل التاريخ من نهاية القرن التاسع عشر فى حوض النيل الأعلى وخرجت منه أيضاً بعد ذلك بثلاث سنوات تقريباً وذلك عندما خرجت حملة مارشان فى نهاية القرن التاسع عشر وحملة تونكود خرجت من شامى فى السنة الأولى من القرن

---

(٢) كوبان ـ السفراء والبعثات السرية يقدم لنا دراسة عن الوسائل والأساليب التى اتبعتها انجلترا في صراعها الخفى لوقف النفوذ الفرنسى .

العشرين . وقد طويت صفحة هذا الصراع بين انجلترا وفرنسا فى حوض النيل والذى استمر أكثر من قرن من الزمان ، بالوفاق الودى الذى تم توقيعه فى عام ١٩٠٤ وقد أعلنت انجلترا فى هذا الوفاق أنها لاتنوى إدخال أى تعديل على الوضع السياسى لمصر ، وأعلنت فرنسا من جانبها « أن تتوقف عن نشاطها بمطالبة انجلترا لتحديد فترة احتلالها لمصر » .

وكان الصراع فى خلال القرن التاسع عشر بين انجلترا وفرنسا حلقة متشابكة الأطراف والنزعات مرتبطة بعضها بالبعض بالرغم من اختلاف المظاهر بعض الشىء متأثرة فى ذلك بالظروف الخاصة وانقسمت الدول الأوروبية معسكرات يناهض بعضها البعض ، وقد تزعمت انجلترا كتلة من هذه الدول لمحاربة فرنسا التى قادت معسكراً ثانياً ، وانتقلت بين هذين العسكرين هذه الدولة أو تلك حسبما أملته سياستها الخاصة لتحقيق أمانيها مستغلة فى ذلك العداء المستحكم بين الدولتين الكبيرتين ، وكانت فرنسا تحاول جاهدة أضعاف انجلترا والتفوق عليها فى جميع الميادين السياسية والاقتصادية . وكانت انجلترا بدورها تعمل على الحد من انتشار الأفكار الثورية الجديدة التى نادت بها فرنسا والتى سببت لها متاعب كثيرة وبخاصة فى أمريكا ، كما سبق أن أشرنا .

وقد أثار احتلال فرنسا لمصر مخاوف بريطانيا بالنسبة إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الذى يجرى فيه شريان مواصلاتها مع الشرق القريب والبعيد وكانت انجلترا فى خشية من عودة الفرنسيين إلى مصر ثانية ، كما كانت فى خوف من أن تعمد فرنسا إلى قفل البحر الأبيض المتوسط فى وجه الأسطول الانجليزى بحكم موقعها عليه وبسلطانها على إيطاليا ، لذلك نجد أن بريطانيا قد أخذت فى فتح طريق لها إلى وادى النيل من ساحل البحر الأحمر بعيداً عن متناول الأسطول الفرنسى ، فجاءت عن هذا الطريق بثلاث أورط هندية تحت قيادة السير دافيد بيرد الذى نزل فى القصير ومنها إلى النيل وسافرت بالمراكب إلى رشيد التى وصلتها فى نهاية أغسطس سنة ١٨٠١م ، ويتبين لنا مدى خوف انجلترا من عودة فرنسا إلى مصر أنها قد بقيت فى أرض مصر لأكثر من عام بعد خروج الفرنسيين وتوقيع معاهدة أميان فى ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢م التى لم تكن إلا هدنة مؤقتة بين الدولتين ، فالحرب قد نشبت فعلا بينهما فى ١٦ مايو سنة ١٨٠٣م وبالرغم من المشاكل التى كانت تواجهها انجلترا فى أوروبا بسبب تكتل الدول ضدها بزعامة نابليون الذى أصدر قرار برلين بتحريم التجارة بين دول أوروبا

الخاضعة لنفوذ فرنسا وبين انجلترا سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فان انجلترا لم تغفل الوضع فى حوض النيل وكانت تستعد لمواجهة ما قد يحدث فيه من تطورات بتدخل الفرنسيين ومن ذلك أنها أرسلت بعثة إلى أتيوبيا برآسة اللورد فلنشيا ومعه هنرى صولت القنصل الانجليزى فى مصر ، للاتفاق مع النجاشى على منح قواعد حربية فى أرض الدناكل لاستخدامها لنزول الجنود البريطانية الهندية إذا دعت الظروف إلى ذلك فى حالة عودة الفرنسيين إلى مصر ، وجاءت هذه الفترة حملة فريزر لمساعدة المماليك ضد سلطة الباب العالى وكان عملها هذا مناقضاً لما جاء فى معاهدة أميان بشأن إعادة مصر لسلطة الباب العالى . وقد باءت هذه الحملة بالفشل.

وبعد حوالى الستين عاما من خروج فرنسا من مصر عرض نابليون الثالث على انجلترا مقترحه بشأن تقسيم شمال أفريقيا على أن تكون مصر من نصيب انجلترا ، غير ان اللورد بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا حينذاك رفض هذا العرض ومرجع هذا الرفض انه قد وجد ان بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية هو خير ضمان لمصلحتهم ثانياً انها (أى انكلترا) لم تر داعياً فى ذلك الحين لتتحمل أعباء مالية بسبب بسط حكمها على مصر ، وهنالك نقطة هامة أخرى كان لها أثرها وهى أن الفكرة الاستعمارية فى ذلك الحين لم تكن قد تبلورت بعد وكانت بريطانيا فى موقف المترقب الحذر حتى تنجلى مطامع غيرها من الدول ، لكنها لم تكن لتغمض عينها عن نشاط فرنسا وغيرها فى هذه المنطقة ، واتخذت من الاحتياطات ما تواجه به التطورات الدولية بعد افتتاح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ م الأمر الذى ازدادت معه أهمية مصر فى الاستراتيجية البريطانية ، لذلك نجد ان حملة نابيير على أتيوبيا فى ١٨٦٧ / ١٨٦٨ م لم تكن فى واقع الأمر إلا تجربة قامت به قوات عسكرية للافادة من نتائجها فى حالة العودة لاستخدام هذا الشاطىء لغزو مصر إذ جاء إليها الفرنسيون .

وجاءت الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا بعد أن اتخذت انجلترا موقفاً سلبياً من تطورات الأحداث التى انتهت باعلان فرنسا الحرب على ألمانيا ، وكان من مصلحة انجلترا أن تدخل فرنسا فى عراك يبعدها عن الميدان الدولى لفترة من الزمن ، قد تطول أو تقصر ، وقد تركت هذه الحرب تقدما فى الفنون العسكرية والصناعية ، فزاد القلق بين دول أوروبا التي اهتمت بتأمين سلامتها بالدخول فى محالفات ، التى تنتهى عادة بالحرب بين المعسكرين المتنافرين ، وقد أبعدت الهزيمة التى حلت بفرنسا ، هذه الدولة من ميدان الصراع مع انجلترا لفترة بلغت ما يقرب من العشرين عاماً أخذت

فى خلالها المنتجات الصناعية فى الازدياد ، كما أخذت رؤوس الأموال الأوروبية فى التدفق خارج مواطنها للاستثمار بطريقة أو أخرى وللحصول على المواد الخام الضرورية للصناعات ، وعملت الدول الأوروبية على حماية منتجاتها . الأمر الذى كانت من نتائجه عزل الجزائر البريطانية وحرمانها من أسواق القارة الأوروبية . واتجهت أنظار الدول صوب التوسع فى أفريقيا لفتح أسواق جـديدة لتصريف المنتجات وللحصول على المواد الأولية اللازمة للمصانع ، وكانت فرنسا قد أخذت فى استعادة قوتها بعد هزيمتها فى الحرب السبعينية ، واتجهت بدورها نحو أفريقيا لإنشاء فرنسا الجديدة » كما حاولت ألمانيا أن تؤسس فى هذه القارة « ألمانيا الجديدة » أما روسيا فقد كان اهتمامها موجهاً إلى آسيا ، وأن كل ما قامت به من نشاط فى أثيوبيا كان مساندة منها لفرنسا فى صراعها لاضعاف مركز بريطانيا . وإذا نظرنا إلى خريطة أفريقيا نجد صورة واضحة للتسابق بين بريطانيا وفرنسـا بصفة خاصة فشاطىء أفريقيا الغربى يكاد أن يكون سلسلة من المستعمرات التى تسيطر عليها بريطانيا وفرنسا، فهذه فرنسية وجارتها بريطانية ثم فرنسية وبريطانية وهكذا وتقوم فى خلف هذا الشاطىء الصحراء الكبرى وتسيطر عليها فرنسا .

٢ — تطور الصراع بين الدول :

شهدت النيف والستون عاما الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى تطورات خطيرة فى اتجاهات الأوروبية بعامة وفرنسا وانجلترا بخاصة ، وقد سارت هـذه الاتجاهات قدماً مع التقدم الزراعى والصناعى ، الذى كان له أثره فى نظم الحكم ، كما كان لهذا التقدم انطباعاته التى شكلت أهداف الدول ، وقد خضعت تلك الأهداف بادى ذى بدء لتحقيق مطالب أصحاب السلطان ورجال المال وكان هؤلاء قلة تتحكم فى موارد الدول وتدخل فى محالفات ، انقسمت معها أوروبا معسكرات جمع كل منهـا أصحاب المصلحة المتقاربة ، وبالرغم من أن الدوافع التى حركت هؤلاء لبسط سيطرتهم كانت عاطفية غايتها تحقيق النفع لتلك الطبقة ولاظهار قوة هيبتها وتفوقها على منافسيها فى الميدان الدولى ، فان أولئك النفر من أصحاب السلطان ورجال المال كانوا يهدفون نحو تأمين طرق الملاحة البحرية وسلامة محطات تموينها وكان طبيعياً والحالة هذه أن يحدث الاصطدام بين الدول بسبب التسابق للسيطرة على الأماكن الاستراتيجية التى تتحكم فى طرق الملاحة وموارد الخامات . ولم تشترك الشعوب مع

طبقة السلطان والمال فى أهدافها لأن حالة الشعوب فى ذلك الحين لم تكن قد بلغت الدرجة التى شعرت معها بالحاجة إلى أسواق جديدة لتصريف المنتجات المتزايدة ، وللحصول على المواد الخام بأسعار تمكنها من المحافظة على أسواقها ومستوى صناعاتها أمام منافسة غيرها من الدول . ولهذا بقى التنافس فى الفترة الأولى من القرن التاسع عشر قائماً بين أصحاب السلطان والمال فى مختلف الدول وقد كمنت وراء هذا التنافس العاطفة الشخصية ومطامعها المشوبة بالحسد والغيرة وحب الظهور بالقوة والنفوذ ،وقد بدأ التنافس بين الدولتين اللتين تصدرتا التنازع وهما انجلترا وفرنسا فى حوض البحر الأبيض المتوسط وشواطىء غرب أفريقيا فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى، ولم يتطور هذا التنافس إلى المرحلة التىأضفت عليه المظهرالاقتصادى إلا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى ، عندما أخذت الشعوب فى المساهمة فى هذه الاتجاهات عن طريق أموالها التى دفعت بها إلى خارج بلادها لاستثمارها والهجرة وإلى ماغير ذلك .

وقد أخفى المظهر الاقتصادى بين طياته أكثر من عنصر انتقلت من جيل إلى جيل مع رواسب الماضى ، وكانت الدعوة إلى التبشير من أبرز العناصر التى تخلفت عن العصور الماضية ، والتى استمد منها التوسع الاقليمى قوته ، وسار التبشيرجنباً إلى جنب مع العنصر الاقتصادى وصاركل منهما متمماً للآخر فى تحقيق مطامع الدول التى أخذت فى الازدياد إلى درجة أصيبت معها الدول بحالات من الصرع أفقدتها قيمها الانسانية .

وقد تميز مسلك كل من فرنسا وانجلترا بطابع المجتمع فى كل من البلدين ، فالانكليزى يؤمن بطبيعته ، عن وعى وعن غريزة ، بمصلحته فى البحار وغايته فى أن يحتفظ بقوة بحرية تتفوق على غيرها مهما كان الثمن على حساب الغير ، ولم يكن للانكليزى أصدقاء أبداً أو أعداء أبداً بل كانت الأبدية لمصلحته أولا وقبل كل شىء فهو يقاوم غيره بكافة الوسائل الدبلوماسية أو بالحرب إذا اضطره الامر للاحتفاظ بتوازن القوة البحرية ، وقد اكتسب الانكليزى من عراكه الطويل فى البحار بالكثير من الصفات ما عاونته فى المشاكل الاقتصادية وكان لجموده وبرود طبيعته الأثر الاول فى مغالبة الشدائد .

أما الفرنسى فقد تأثر بالحروب الطويلة التى خاض غمارها ضد النبلاء والاقطاع والكنيسة وقد جعله كل ذلك سريع العاطفية، تصدر قراراته دون تمحيص ودون أن

يدخل فى حسابه المكسب أو الخسارة كما يفعل الانكليزى شأنه فى ذلك شأن شعوب البحر الأبيض المتوسط ، لذلك قد أفادت بريطانيا من أخطائه وصبرت عليه حتى يستنفذ طاقته فتتغلب عليه ، والبريطانى بطبيعته تطورى والفرنسى ثورى .

وكان لمصر نصيبها الذى أسهمت به فى الصراع بين الدولتين ، فقد كانت قاعدة المحور الذى دار حوله التطاحن لأكثر من قرن من الزمان ، وحاولت بريطانيا أن تستقطع من مصر أجزاءها الجنوبية باتهامها إياها بأنها ترغب فى التوسع واستغلال الغير ، والحقيقة وواقع الأمر ينفيان هذا الاتهام نفياً قاطعاً . فمصر فى تاريخها القديم والحديث لم تحاول استعماراً كما عمل الأوروبى على تحقيقه ، لأن الشعب المصرى بطبيعته لا يميل إلى ذلك ولم يشترك الشعب فى عهوده المختلفة إلا قليلا فى الحروب التى شنها حكامه الذين استخدموا المرتزقة من الجند الأجانب ، وحتى فى اشتراكه فى بعض الحروب التى دفعت اليها ظروف قاهرة فانه قد أعطى البلد الذى وصل اليه كامل حقوقه وعمل جاهداً لرفع مستواه فى مختلف أوجه نشاط الحياة .

* * *

انتقل التسابق بين الدولتين بعد خروج فرنسا من مصر إلى شمال وغرب أفريقيا وصارت تنتقل المناورات والمداورات من نقطة إلى نقطة وكلها تهدف إلى منع انجلترا من تثبيت أقدامها أو بسط نفوذها فى صورة أو أخرى على حوض وادى النيل ، وكانت انجلترا تعمل بدورها على تحطيم الخطط الفرنسية ويتبين لنا من الجدول المرفق مع هذا نشاط الدولتين فى هذا المضمار ونرجو أن نستميح القارىء عذراً فى تكرار ما سبق أن تعرضنا له بالقدر الذى يتطلبه البحث استكمالا لعناصر الموضوع .

وبينما نجد ان بريطانيا كانت تحاول تصفية مشاكلها مع فرنسا بعد خروجها من مصر بعقد معاهدة اميان التى تعهدت فيها بريطانيا فيما تعهدت به من إعادة ممتلكات للدول ، بعدم احداث تغيير فى وضع مصر وعلاقاتها بالباب العالى ، فانها ـ أى بريطانيا ـ كانت تخشى قيام فرنسا بغزو لمصر مرة ثانية ـ لذا أرسلت حملة فريزر فى سنة ١٨٠٧ م لمناصرة المماليك وإعادة سلطانها على مصر والارتباط معهم بمعاهدة ، وقد فشلت هذه الحملة ـ وبعد ذلك أرسلت انجلترا بعثة إلى الحبشة من اللورد فلنشيا وهنرى صولت للحصول على قواعد فى أرض الدناكل لنزول قواتها للزحف على مصر إذا قامت فرنسا منفردة أو مع بعض الدول المناصرة لها ، على قفل البحر الأبيض

المتوسط فى وجه بريطانيا ، وعقدت بريطانيا معاهدة ٣٠ مايو سنة ١٨١٤ م مع فرنسا اعادت بموجبها افرنسا ممتلكاتها ومؤسساتها ومصانعها فى غرب أفريقيا ، ولم يمض طويل وقت حتى نزلت فرنسا فى الجزائر فى عام ١٨٢٠ م . وتنتقل من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى أتيوبيا لعقد معاهدة صداقة وتجارة فى سنة ١٨٤٣ م مع يوحنا نجاشي شوا فى أعقاب معاهدة ١٦ نوفمبر سنة ١٨٤١ التى عقدتها بريطانيا مع النجاشي وقد جددت بريطانيا هذه المعاهدة فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٩ ارتبط فيها النجاشي وخلفاؤه من بعده بصداقة بريطانيا .

واتجهت بعد ذلك قوى التسابق بين انجلترا وفرنسا إلى شرق أفريقيا وجزيرة مدغشقر ، فبريطانيا كانت تهدف نحو منع فرنسا من تلك المنطقة وأصدرت فى عام ١٨٦١ م قراراً بتحكيمها فى الخلاف بين ابنى السلطان سعيد الذى كان يحكم زنزبار من مسقط (فى جنوب شرق الجزيرة العربية) وذلك بتقسيم المملكة قسمين ، وكان الجزء الأفريقى ويشمل زنزبار من نصيب السلطان مجيد وتولى الابن الثانى للسلطان سعيد الجانب الاسيوى فى مسقط ، وفى ١٠ مارس سنة ١٨٦٢ أعلنت فرنسا وانجلترا اتفاقهما على المحافظة على استقلال كل من مسقط وزنزبار وتركت بريطانيا مدغشقر لفرنسا وتبع ذلك ظهور النشاط الفرنسى عند مدخل البحر الأحمر حيث عقدت هذه الدولة معاهدة مع زعماء الدناكل فى ١١ مارس سنة ١٨٦٢ م تخلى بموجبها هؤلاء الزعماء عن منطقة « أوبوك » ، وبهذا حصلت فرنسا على نقطة أمامية لها خطرها على مدخل البحر الاحمر يبدأ منها الحزام الأفريقى الذى يمتد من شاطىء البحر الأحمر ويشمل منطقة حوض بحر الغزال وينتهى عند المحيط الأطلسى وكانت فرنسا تهدف من اقامة هذا الحزام ليكون حاجزاً أمام التوسع البريطانى شمالا إلى حوض النيل وهكذا كانت لفرنسا نقطتان استراتيجيتان أحدهما فى البحر الأبيض المتوسط بعد احتلالها للجزائر والثانية عند مدخل البحر الأحمر فى « اوبوك » .

وبعد ذلك بسنوات قليلة حدث أن احتجز النجاشي تيودور بعض الرعايا البريطانيين فى محبسه فأرسلت الحكومة البريطانية حملة الجنرال روبرت نابيير فى ١٨٦٧م لانقاذ هؤلاء الرعايا ، ومما يسترعى الالتفات ان هذه الحملة قد غادرت البلاد الأتيوبية بعد انتصارها على النجاشي الذى انتحر أثر هزيمته ، ولم تحاول أن تحصل على مغنم كما أنها لم تفرض عقوبات بل تركت الزعماء المحليين يتطاحنون حول العرش الأمر الذى استمر حتى ١٨٧٢ م عندما استطاع يوحنا حاكم التيجرى أن يعلن نفسه نجاشياً،

وفى الواقع ان بريطانيا قد اكتسبت هدفين من خروجها على هذه الصورة من أتيوبيا أولا أنها تركت البلاد فى حالة من الفوضى فصارت نهأ لصيد المغامرين ، وثانياً انها كانت تخشى أن تفرض عقوبات أو التزامات على دولة مسيحية ، وتركت الأمر للزمن ، ولا ننسى ان بريطانيا قد اكتسبت خبرة حربية قد تفيدها اذا ما جاء الفرنسيون الى مصر مرة أخرى . وجاءت إيطاليا إلى حوض البحر الأحمر ولم تكن لها حينذاك فى ذلك مصلحة فحصلت على منطقة عصب، وذلك فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٦٩م أى قبيل افتتاح قناة السويس بأيام قليلة ، وقد كان لافتتاح هذه القناة أثرها البالغ فى انعكاساته على الصراع الدولى ، وأخذت بعد ذلك إيطاليا فى تثبيت أقدامها فى منطقة عصب، وعادت بريطانيا إلى سياستها التقليدية التى اكتسبتها من خبرتها الطويلة فهى بينما تظهر عدم الاهتمام بمنطقة ما وتسعى جاهدة لمنح هذه المنطقة استقلالا تعترف به هى ومنافستها فرنسا أو غيرها ، وتدخل فى اتفاقات دولية بشأن الحدود، وانها بنشاطها هذا إنما ترمى الى الاحتفاظ بهذه المنطقة فى حمى القانون الدولى ، وتترك المسألة بعض الزمن فتبتلعها لقمة سائغة كما حدث فى قضيتى زنزبار ومصر ، فقد أوضحنا من قبل مسألة التحكيم فى تقسيم سلطنة السيد سعيد ومعاهدة انجلترا وفرنسا فى ١٨٦٢ م اما فى مصر فقد عقدت اتفاقا فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ بشأن ساحل السومال ، وأصدر الباب العالى فرمانا فى ٢ أغسطس سنة ١٨٧٩ بعدم السماح لمصر بالتنازل عن أى جزء من الأراضى التابعة لها ولم يكن كل ذلك إلا توطئة للسيطرة على تلك الأجزاء بعد أن أجبرت مصر على الانسحاب من منطقة ساحل البحر الاحمر فى ١٨٨٤ م .

وفى الفترة التى سبقت انسحاب مصر من البحر الأحمر ازداد النشاط الإيطالى الذى بدأ فى عام ١٨٦٩ م فاستولت شركة روباتينو الايطالية على رهيطه والجزائر الساحلية . ولم يكن دخول إيطاليا إلى هذه المنطقة إلا إيذاناً بدخول قوى تستطيع بريطانيا استغلالها لمصلحتها في المحافظة على ذلك الجناح الخطير الأهمية بالنسبة لحوض النيل الأوسط والأعلى.

وأخذ الصراع يسير فى خطى سريعة من عام ١٨٨٠م الذى أصدرت فرنسا فى نهايته إعلانا (بتاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٠ م) أوضحت فيه حدود منطقة أوبوك، وتبع ذلك احتلال فرنسا لتونس فى سنة ١٨٨١ م بموجب معاهدة « قصر سعيد » وكانت هذه المعاهدة من الناحية الواقعية اقتراب الخطر الفرنسى على مصر عن طريق

الساحل الأفريقى فلم تكن تفصل بينهما - مصر وتونس - إلا مسافة قصيرة نسبياً كما كان لفرنسا أن تتحكم على الطريق البحرى ، وقد شعرت بريطانيا بالخطر الذى يهدد مصالحها التى كانت تدعيها لنفسها فى حوض وادى النيل ، والتى كانت تسعى جاهدة نحو تحقيقها . وتبع ذلك احتلال مصر فى ١٨٨٢ م ، وعملت انجلترا بطرقها الخاصة ، التى سنتعرض لها فيما بعد لتثبيت أقدامها فى منطقة وادى النيل ، واشتد لذلك الصراع بين الدولتين واستطاعت فرنسا كسب الجولات الأولى فى الصراع وكان ذلك نتيجة لدخول ألمانيا فى الميدان وما حدث بينها وبين انجلترا من جفوة ، فتكونت كتلة لتحد من المطامع البريطانية فى هذا الجانب من أفريقيا .

وبدأت رقعة النضال تضيق شيئاً فشيئاً حتى انكمشت حول منطقة حوض وادى النيل والمنطقتين شمال وجنوب أتيوبيا وساحل البحر الأحمر الأفريقى ومنطقة أوغندا ، وهذه جميعها تكون وحدة وادى النيل التى امتدت إليها الادارة المصرية وفتحت أبوابها للمدنية وللتجارة . واتخذت القوات التى اشتركت فى الصراع قواعد لها فى الأراضى المجاورة ، عملت منها كل من الدولتين المتنافرتين للوصول قبل الأخرى إلى حوض النيل الأعلى ووضع يدها عليه . وتنقسم المناطق التى اتخذ الصراع فيها مراكز زحفه ، ثلاث قواعد أساسية وهى :-

١ - المنطقة الشمالية . حوض وادى النيل الأدنى والأوسط .

٢ - المنطقة الشرقية . أتيوبيا والقرن الأفريقى وأوغندا وكينيا من الشرق والجنوب الشرقى.

٣ - المنطقة الغربية . الأملاك الفرنسية والكونغو من الغرب والجنوب الغربى.

وظاهرت إيطاليا وشركات شرق أفريقيا البريطانية والكونغو الحرة السياسية البريطانية بينما عملت فى جانب فرنسا كل من أتيوبيا وروسيا وترددت ألمانيا وبلجيكا بين المعسكرين.

ولم يكن هنالك من مفر بعد أن اشتد النشاط أن تلتقى الدولتان المتنافرتان وجهاً لوجه لتصفية موقفهما الذى بلغ ذروة أزمته فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى . التى سبقها نشاط كل الدولتين لتدعيم قواعدها فى المراكز الخلفية المتنازع عليها كما عملت كل منهما على تأمين موقفها من الناحية الدبلوماسية.

المنطقة الشمالية :

لعل أوضح ما تميزت به هذه الرقعة انها كانت الهـــدف الأول الذى اختارته فرنسا لاحتلاله فى سنة ١٧٩٨ م لتتخذ منها مركزاً تبسط منه سيطرتها على الطرق الملاحية فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ، ولتفرض سلطانها على الطرق البرية، كما اتخذت من هذه المنطقة قاعدة لنشاط شحناتها السرية للعمـــل فى الشرق الأدنى والأقصى على أثارة الفتن والقلاقل وكان مقصدها من كل ذلك ازعاج منافستها انجلترا فى طرق مواصلاتها ونفوذها،ويرجع اختيار الفرنسيين للسيطرة على مصر إلى وضعها الأقليمى من ناحية المناخ وسهولة مواصلاتها الداخلية ومواردها الزراعية،وسيطرتها على ساحلى البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط الشرقى .

وقد نبت فى هذه المنطقة الغرس الأول الذى انفلقت عنه المسألة الشرقية - مصر - وحوض البحر الأبيض المتوسط ، وحول هذه المنطقة اشتد الصراع بين الدولتين الأمر الذى استمر أكثر من مائة عام وامتد ميدانه واتسع حتى شمل جميع أفريقيا شمال خط الاستواء ، وشمل فى نهايته رقعة واسعة جنوبى ذلك الخط مباشرة.

ولم يكن لبريطانيا أن تتقبل هذه الضربة القاصمة لما كانت تدعيه لنفسها من مصالح فى هذا الجزء من شمال شرق أفريقيا ، دون أن تنتقم من غريمتها . فالاسطول الانكليزى قد تعقب السفن الفرنسية التى لم تكن وجهتها معروفة فى بادىء الامر ، وجاءت القطع الانكليزية بقيادة نلسن وهاجمت المراكب الفرنسية بعد أن ألقت مراسيها في مياه خليج أبو قير وأنزل بها خسارة فادحة وكان ذلك بعد اسبوع تقريباً من نزول الحملة الفرنسية فى مصر بقيادة نابليون بونابرت ،وأخذت بعد ذلك البحرية الانكليزية فى فرض حصارها على الشاطىء المصرى لمنع وصول الامدادات من فرنسا ونشطت فى نفس الوقت لدى الباب العالى لعقد حلف تتعاون بموجبه الدولتان على إخراج الفرنسيين من مصر ، وكانت روسيا تسعى لدى الباب العالى لنفس الغرض ، وتم فعلا الوصول إلى اتفاق بين روسيا وتركيا فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ م وتلاه ترقيع الحلف التركى والبرطانى فى يناير سنة ١٧٩٩ م .

ومما يسترعى الالتفات ان الحلف العثمانى البريطانى قد ألزم تركيا بتقديم جيش مائة ألف من الجنود تشترك معه جميع القطع الحربية البحرية العثمانية فى حرب الفرنسيين ، وتعهدت بريطانيا بالاحتفاظ بعدد مناسب من قطع أسطولها فى شرق

البحر الابيض المتوسط، وأن لا تضع انجلترا سلاحها إلا بعد تأمين أجزاء الامبراطورية العثمانية ، وهكذا استطاعت بريطانيا أن تقذف بالجيش العثمانى وبحريته فى الصف الاول للقتال فيتلقى بذلك الضربة الاولى ، وتبقى فى الصفوف الخلفية إلى أن يضعف الطرفان فرنسا وتركيا ، ويتبين لنا هدف بريطانيا من هذا الاتجاه بما أصاب الحملة التركية التى نزلت فى أبو قير فى يوليه سنة ١٧٩٩ م من هزيمة منكرة ، وقد كان مع هذه القوة السير سيدنى سمث فى سفينته تيجره (الدجله) واضطرت الحملة التركية إلى مغادرة المياه المصرية ، ومما تجدر الاشارة اليه أنه بينما كانت أهداف روسيا وانجلترا هى طرد الفرنسيين من مصر فانهما لم يوقعا حلفا ثلاثيا ـ روسيا ـ انجلترا وتركيا ـ بل عقدت كل من الدولتين حلفا منفصلا مع الدولة العثمانية . ويبدو أن السبب فى ذلك ترجع إلى تفادى اصطدام مصالح الدولتين والى ان ارتباط انجلترا فى حلف تشترك فيه دولة أوروبية من شأنه أن يحد من أغراضها ، وقد أوضحها وزير الحربية البريطانية حينذاك فى قوله « ان امتلاك أية قوة مستقلة لمصر سوف يكون ظرفاً سيئاً بالنسبة لمصالح انجلترا » (١) .

وأخذت القوات العثمانية تشق طريقها إلى مصر حتى وصلت العريش وفى خلال ذلك كانت المفاوضات جارية لجلاء الفرنسيين عن مصر وتم الوصول إلى الاتفاق الذى عرف « باتفاق العريش » . لكن انجلترا قد تباطأت فى إعلان موافقتها على هذا الاتفاق لخوفها من عودة الجيش الفرنسى ، بعد الجلاء عن مصر ، إلى فرنسا فيزيد من قوة فرنسا . وجاءت قوة بريطانيا بحرية وأخرى من الهند عن طريق القصير إلى قنا ومنها عن طريق النيل إلى رشيد وبقيت القوات التركية والانجليزية فى أرض مصر بعد خروج الفرنسيين فى سنة ١٨٠١ ولجأت انجلترا إلى وسائلها للبقاء فى مصر، غير ان الدول الأوروبية ومنها مندوب روسيا فى مؤتمر اميان أصرت على انسحاب انجلترا فى مصر وإعادتها لسلطان الباب العالى ووجدت انجلترا نفسها مضطرة إلى ترك البلاد لتطور الاحوال فى القارة الأوروبية . كما أنها وجدت إن المماليك وهم عملاءها قد اتصلوا بالفرنسيين ، وبالرغم من مشاكل انجلترا فى حربها مع فرنسا فى أوروبا فانها كانت تخشى ظهور الفرنسيين على أرض مصر ثانية ، لذلك أصلحت ما بينها وبين زعماء المماليك لتتذرع بهم كوسيلة للتدخل فى شئون مصر

---

(٣) مارلو ص ١٥

وغزوها ، وفعلا أرسلت حملة فريزر فى سنة ١٨٠٧ لمساعدة المماليك ولتفويض سلطة الباب العالى غير ان هذه الخطة قد فشلت وانسحبت الحملة . وأرسلت اللورد فلنشيا وهنرى صولت إلى النجاشى للحصول على موافقته على منح بريطانيا قاعدة عسكرية فى أرض الدناكل تستخدمها الجنود البريطانية الهندية لغزو وادى النيل إذا دعت الضرورة لذلك .

واتجهت بعد ذلك بريطانيا إلى سياستها التقليدية بالتدخل تدريجياً فى شئون مصر حتى تكتسب مع مضى الزمن حقوقا تنتقل بها من مرحلة إلى مرحلة حتى تصل مرتبة استخدام تلك الحقوق كوسيلة للضغط السياسى الذى يتبعه استخدام القوة العسكرية وكانت مسألة الرقيق من أولى الادوات التى استخدمتها للضغط على مصر وبخاصة بعد أن حصلت على فرمانات الباب العالى ، وموافقة مؤتمر فينا على التوصية بإلغاء النخاسة ، وأخذت الظروف تتطور من صورة إلى أخرى حتى انتهت ، كما سبق أن أوضحناها بنزول القوات البريطانية فى مصر فى سنة ١٨٨٢م

وقد بدأت مع هذا الاحتلال مرحلة جديدة فى العلاقات البريطانية المصرية بعامة وبالسودان بخاصة ، فاستغلت الأزمة المالية بالاضافة إلى قواتها المحتلة للسيطرة على جهاز إدارة البلاد وملحقاتها وصارت كلمتها هى العليا الواجبة التنفيذ . وكان الموقف المالى حجة تذرعت بها لمنع مصر من عملياتها فى السودان لاعادة الأحوال إلى مجاريها الطبيعية ، كما أن ذلك الموقف بعد أن هيأت له ظروفه فى السودان بعد هزيمة هكس جعلها تنفذ الخطوة التالية وهى إخلاء السودان على يد غوردون ، وانسحاب حملة الانقاذ بعد سقوط الخرطوم(٤) ، أعلنت أنها غير مسئولة عن إنقاذ القوات المصرية الموجودة حينذاك فى دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وشرق السودان (٥) ، وقد ذكر لوجارد « إن الاطلاع على كتاب عشرة أعوام مع المهدى ، والمقال الذى كتب فى المجلة الأهلية فى فبراير سنة ١٨٩٣ يجعل القارىء يشعر بالعار بسبب الدور الخطير الذى لعبناه فى تاريخ أفريقيا وذلك باخلاء السودان وما ترتب على ذلك من إراقة الدماء(٦).

---

(٤) وافقت الملكة فكتوريا بتاريخ ١٨ أبريل سنة ١٨٨٥م على انسحاب القوات البريطانية من السودان مع الاحتفاظ بحق حرية العمل فى المستقبل . جوين ص ١١٨

(٥) الثن ص ٣٥٧

(٦) لوجارد جزء ٢ ص ٥٧٢

وأخذت الأحوال تزداد سوءاً بالنسبة لمصر فى عام ١٨٨٤م عندما بدأت بريطانيا فى تنفيذ سياستها الرامية إلى اقتطاع أجزاء وادى النيل ، ففى يونيه من عام ١٨٨٤م عقدت معاهدة مع أتيوبيا باسم بريطانيا ومصر، وقد وقعها النجاشى، والرير ادميرال السير وليم هيوت قائد الوحدات البريطانية فى الهند الشرقية نيابة عن حكومة جلالة الملكة ، وميسون بك حاكم مصوع نيابة عن مصر . وتسلمت أتيوبيا بموجب هذه المعاهدة منطقة البوغوص وجميع مابها من المبان والمهمات والأسلحة التى تترك بعد انسحاب القوات المصرية من كسلا وأماديب وسنهيت ، وجاء فى المادة الرابعة من هذه المعاهدة إعطاء الحق للنجاشى فى تعيين مطران الكنيسة الاتيوبية وهى فى ذلك قد سلبت حق البطريرك المصرى تمهيداً لفصل الكنيسة الأتيوبية عن أمها الكرازة المرقسية ، وجاء فى المادة السادسة أن جلالة النجاشى قد وافق على أن يقدم شكاواه عن مايحدث من خلاف مع خديو مصر وذلك بعد توقيع المعاهدة ، إلى الحكومة البريطانية لتسويتها » . وهذه صورة من محاولات انجلترا لتنفيذ خططها وتعزيز مركزها فى حوض وادى النيل ، الأمر الذى كانت تعارضه وتقاومه روسيا وفرنسا بكل قوة فى الميدان الدولى . وقد أضعف هذا النشاط موقف بريطانيا وخشيت معه أن تتطور المسألة فى غير مصلحتها وبخاصة فى السودان حيث أخذ مركز غوردون فى التدهور وتحقق فشله فى مهمته وازداد خوفها أن ينتقل الزمام إلى يد أجنبية - فرنسا - لذلك عمدت بريطانيا إلى وسائلها الدبلوماسية لتقوية موقفها فى مصر والسودان ، وكان أن عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥م للنظر فى الشئون الأفريقية ، ووصلت الدول إلى اتفاق على الأسس التى يقوم عليها بسط السلطان على المناطق الأفريقية وما تجب مراعاته فى مختلف الشئون وشملت قرارات هذا المؤتمر ضمن ما اشتملت عليه عن التجارة والملاحة الخ الخ ، النواة التى قامت عليها النظرية التى تفسر « الاحتلال الفعلى » فقد جاء فى التصريح الخاص بالشروط الأساسية الواجب مراعاتها لتحقيق شرعية احتلال أية دولة لمنطقة ما على الساحل الأفريقى . حيث جاء فى المادة الرابعة والثلاثين أن « أية دولة تستولى من الآن فصاعداً على أرض من ساحل القارة الافريقية من غير ممتلكاتها عند توقيع المعاهدة ، والتى لا يملكها أحد ، فانه يتحتم على تلك الدولة ، أو الدولة التى تبسط حمايتها ، أن يتبع احتلالها أو بسط حمايتها إعلان الدول الموقعة على قرارات المؤتمر تعلنها فيه بما وضعت يدها عليه - امتلاكا أو حماية - وبذلك يتسنى بموجب هذا الاخطار للدولة ذات الشأن والمصلحة

أن تطالب بحقوقها إذا كانت لها حقوق ، . ولما كان هذا النص قد ترك مسألة مصر دون تسوية فان بريطانيا لجأت بعد انتهاء المؤتمر بفترة وجيزة إلى مفاوضة الباب العالى على أساس ما كر ظاهره بحث مسألة الجلاء عن مصر ، وباطنه الحصول على اعتراف من الباب العالى بشرعية الاحتلال وقد عقد فعلا الاتفاق الأولى فى عام ١٨٨٥م ، كما خرجت بموجب هذا الاتفاق مسألة السودان بجعلها مادة تبحث مصالحاتها ، وجاءت بعد هذه الاتفاقية المعاهدة النهائية بعد قيام المندوبين الساميين العثمانى والبريطانى لبحث المسألة ، وذلك فى عام ١٨٨٧م ولم تنفذ تلك المعاهدة ، كما سبق أن أوضحنا لتدخل فرنسا ورسيا. ولم تكن هذه المعاهدة فى الواقع إلا امتداداً للاتفاق الأولى الذى تم فى سنة ١٨٨٥م .

وعلى هذه الأسس نسجت السياسة البريطانية خيوطها حول وادى النيل لفصل شماله عن جنوبه ، وحاولت أن تجعل منه « أرضاً مباحا » وتعطلت بسبب هذا الاجراء التجارة وصار السودان فى شبه عزلة تامة عن العالم الخارجى . الأمر الذى جعل رجال الأعمال من البريطانيين يطالبون بفتح التعامل التجارى مع السودان ورفع الحصار الذى فرضته وزارة الحربية المصرية التى صار السودان تابعاً لها وفق الأمر الخديوى العالى بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٨٨٤م وظلت شئونه من اختصاص هذه الوزارة حتى السنوات الأولى من القرن العشرين . وحاول رجال المال من الانجليز تأسيس شركة بريطانية لاحتكار تجارة السودان ومركزها سواكن على غرار شركة شرق أفريقيا وغيرها من الشركات البريطانية التى تقوم بالتمهيد لضم البلد الذى تحتكر تجارته إلى أملاك الدولة ، غير أن الباب العالى ومصر قد عارضتا فى هذا الاحتكار ، ولم تكن الظروف الدولية بالنسبة لمركز السودان لتسمح بهذا الامتياز.

ولما كانت بريطانيا تواجه المشاكل التى تثيرها فرنسا وروسيا وغيرها منفردة ، فقد جاءت بإيطاليا وسهلت لها احتلال مصوع التى اتخذت منها قاعدة للتوسع فى داخلية المنطقة وهدفها من ذلك أن تقوم إيطاليا بحماية القطاع الممتد على ساحل البحر الأحمر الأفريقى الذى يتكون منه جناح حركاتها فى حوض النيل . وعملت فرنسا جاهدة لتوطيد قواعدها فى مدخل البحر الأحمر وبخاصة بعد أن نقلت انجلترا ميناء عدن ومنعت السفن الحربية الفرنسية من أخذ حاجتها من الفحم فى عام ١٨٨٣م عندما كانت مشتبكة فى حربها مع الصين فسببت لها المتاعب وفى عام ١٨٨٧ أنشأت ميناء جيبوتى وأعدته إعداداً كاملا ليستقبل البواخر وحاولت بريطانية الحد من

التوسع الفرنسى فى هذه المنطقة فعقدت معها معاهدة ١٨٨٨م التى تشير بوجه خاص الى هرر والتى ستتعرض لها فيما بعد .

ازداد نشاط الطليان فى القطاع الشرقى بعد توقيع معاهدة أوتشيالى فى سنة ١٨٨٩ والذى يهمنا من نشاطها أنها كانت تهدف الى احتلال كسلا الأمر الذى تضايقت معه انجلترا وعارضته معارضة شديدة لخوفها من أن يقوم الطليان بإقامة خزانات على روافد المياه - القاش والعطبرة الذى يتصل بالنيل وبعد مفاوضات دامت ما يقرب من العامين توصلت بريطانيا وايطاليا من الوصول الى اتفاق اعترفت فيه ايطاليا بحق مصر فى أعالى النيل بمافيه كسلا ، وبعد أن تم التوقيع على المعاهدة فى ١٥ ابريل سنة ١٨٩١م ، وافقت بريطانيا - لا مصر - على احتلال ايطاليا لهذه المنطقة اذا دعت الضرورات العسكرية مع الاحتفاظ بحق مصر . ولم يكن استخدامها لحق مصر فى هذه المعاهدة أو غيرها للمحافظة على حقوق مصر لمصر فعلا بل بالعكس لم يكن ذلك إلا وسيلة لابعاد المنافسين فى عقود دولية وتستولى هى على تلك الحقوق عندما تحين الفرصة المناسبة وكل مايهم بريطانيا الحصول على توثيق منعاً للشاكل الدولية .

واشتد النشاط الفرنسى وشعرت بريطانيا بخطورة الموقف ومايتنظر من تطورات لذا أمرت سردار الجيش المصرى كتشنر باشا دون سابق علم الحكومة المصرية بالاستعداد لقيام الحملة إلى السودان لاعادة الحياة إلى طبيعتها ، وسارعت بفتح الاعتمادات اللازمة للحملة بعد أن رفض المندوبان الفرنسى والروسى فى صندوق الدين الموافقة على المصروفات . وكانت هذه الاعتمادات سلفة لحساب مصر ، وقد زودت انجلترا كتشنر باشا بتعليماتها السرية التى لم يسمح له بفض أختامها إلا بعد وصوله الخرطوم والاستيلاء على أم درمان . وكانت هذه التعليمات تتضمن مايتبع بعد سقوط أم درمان من تسليم القيادة والسفر إلى أعالى النيل لتحقيق وجود الحملة الفرنسية التى قادها مارشان واخطاره بمغادرة البلاد باسم مصر. وذكر لوجارد بصدد حقوق مصر :

«لقد تركت مصر السودان بناء على أمر بريطانيا ،وكان من المعتقد أنها قد تنازلت عن جميع حقوقها على هذه الرقعة من الارض ، غير أن تصريحاً حديثاً من تيجران باشا جاء فيها » أن مصر تحتفظ بكامل حقوقها على جميع المناطق التى كونت جزءاً من مديرية خط الاستواء المصرية واستمر لوجارد يقول » ان هذا القول الذى ألق كالقنبلة لايمكن قبوله إذا نظرنا إلى ماقاله المستر هاردنج بالنيابة عن الحكومة المصرية

« إن مصر لاتتحمل أية مسئولية بشأن الأهالى فى تلك المديريات التى تركتها مصر أى من وادى حلفا وجنوبها ، وأنها تقبل فقط المسئولية عن الأشخاص الذين ولدوا شمال تلك المحطة (حلفا) ، ويضيف لوجارد « وبتطبيق نظرية الاحتلال الفعلى ، فان مصر ليست لها حقوق على السودان الجنوبى بسبب أن أقرب نقطة تسيطر عليها (تقيم فيها الأمن ، تباشر فيها رعاية الأهالى ، وتحافظ على ممتلكات الأجانب تبعد بحوالى الألفين ميل وقد بقيت على ذلك خلاء السنوات التسع الماضية[٧] ».

وأرسلت بريطانيا بعثة تحت رئاسة رنل رود لعقد معاهدة مع النجاشى . وقد فشلت هذه البعثة فى مسعاها لتحويل النجاشى عن صداقته للفرنسيين ، وصار أمراً لامفر منه أن تلتقى فرنسا وانجلترا وجها لوجه فى أعالى النيل ، ولما كانت فرنسا لم تعترف بمركز انجلترا فى حوض النيل وظلت تقاومه ما يقرب من المائة عام ، وأن زحفها على منطقة بحر الغزال واحتلال مارشان لفاشودة وتونكود لشامبى كان يهدف الى ابطال حجة انجلترا فى ادعاءاتها باحتلال مصر لتحقق أحلامها فى ربط مصر مع الكاب وشرق أفريقيا من جهة ومع غرب أفريقيا وشركة النيجر البريطانية من جهة أخرى على حد قول الجنرال مانجان [٨] لذلك أسرعت بريطانيا بارسال الحملة المصرية بقيادة كتشنر باشا سردارها ، ولم تشترك القوات البريطانية فى المرحلة الأولى من أعمال الحملة .

ونتنقل الآن إلى النشاط فى القاعدتين الشرقية والغربية والتى برز منها الصراع فى صورته السافرة على أرض فاشودة .

---

(٧) لوجارو جزء ٢ ٥٧٢/٥٧١
تصريح تيجران باشا فى مطبوعات البرلمان البريطانى ٧٣٠ بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٨٩٢ ، وتصريح هاردنج بتاريخ ٧ أغسطس سنة ١٨٩٢ م .
(٨) لانقر س ٥٣٨

● **المنطقة الشرقية :**

تنقسم هذه المنطقة ، بالنسبة لموضوع البحث ، ثلاث أقسام ، أولها أتيوبيـــا ـ الهضبة الحبشية الخالصة ، ثانيهما القرن الأفريقي وهو الجزء الذى يطل على خليج عدن وشاطيء المحيط الهندى ـ بحر الزنج ـ الواقع جنوبى خليج عدن حتى مصب نهر الجوبا وثالثها شرق أفريقيا وكينيا وأوغنده وقد كانت مصر تسيطر على الجانب الأكبر من هذه المنطقة فيما عدا أتيوبيا، التى تحتل مركزاً ممتازاً بين جاراتها، التقت فيها الهجرات من جنوبى غرب آسيا والمجموعات الافريقية من مختلف مناطقها الدانية والقاصية ، كما امتدت إليها المدنية المصرية منذ فجر التاريخ ، وتأثرت بتطور الحياة فى شمـــال الوادى ـ مصر ـ فى مختلف العصور ،وقد ازدادت أهمية أتيوبيا فى استرتيجية حوض وادى النيل بعد افتتاح قناة السويس الأمر الذى أدخل هذه القلعة الأفريقية فى نطاق السياسة الدولية ، وجعلها عنصراً له خطورته فى اعتبارات الجغرافيـة السياسية (الجيوبولوتكس) لهذا الجزء من شمال شرقى أفريقيا ، وبينما تمتاز هـذه المنطقة فى مجموعها بوجود منابع النيل وروافده فى أراضيها فان أتيوبيا ـ الهضبة الحبشية ـ تسيطر على الجانب الأكبر من موارد المياه التى تمد نهر النيل بالماء والطمى ، فمنها يخرج السوباط والنيل الأزرق بروافديه الدندر والرهد ، والعطبرة وتلتقى هذه بمجرى النيل الرئيسى ، كما يخرج منها القاش وخور بركه وهما لا يتصلان بالنيل إلا أن لهما أهمية فى اقتصاديات شرق السودان ـ فى زراعته ومياهه الجوفية بخاصة فى البطانة وبالاضافة إلى ذلك فان أتيوبيا تطل ، وهى فى وضعها الأقليمى الطبيعى ، على الجـانب الجنوبى الغربى لحوض البحر الأحمر ، وتمتد سيطرتها على الساحل الأفريقى لخليج عدن وبحر الزنج ـ من المحيط الهندى ـ إلى نقطة عند مصب نهر الجوبا ، فهى بذلك تتحكم على جزء كبير من الطريق الملاحي عبر البحر الأحمر وعلى مدخله الجنوبى ـ بوغاز باب المندب وخليج عدن ـ ويشكل هـذا الوضع الاقليمى على منافذ التجارة ، العنصر الحساس فى السياسة الدولية بعد أن صار حوض البحر الأحمر ممراً تجارياً بحرياً بعد افتتاح قناة السويس ، وقد أكسبت هـذه المميزات الاقليمية الساحلية نشاطاً بحرياً اشتغل به الاتيوبيون فى الأزمنة الماضية ، وكان لهذه السيطرة ولهذا النشاط أثرهما فى توجيه السياسة الأوروبية ، فبالرغم من أنها دولة مسيحية كانت الدول المسيحية فى الغرب تسعى إليها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر لتوثيق عرى الروابط وللتعاون على حرب المسلمين كما سبق أن أشرنا فى الكتاب الأول ، فان السياسة

الدولية الحديثة التي تؤمن بمصلحتها الاقتصادية وبرسالتها لنشر المدنية بين الشعوب الأخرى غير الأوربية ،قد تعاملت مع أتيوبيا على أساس أنها دولة شرقية متخلفة يجب أن تخضع كغيرها لرسالة الأوروبي فتتقبل ما يسمح لها به من مدنيته في نطاق مصلحة الأوروبي وأقامت هذه الدول مناطق على طول ساحلها خضعت لسيطرتها فعزلت بذلك اتيوبيا عن حوض البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي، وقد تقاسمت هذه المناطق ايطاليا وفرنسا وبريطانيا - الارتيريا - السومال الفرنسي - السومال البريطاني والسومال الايطالي ، وصارت تجارتها الخارجية لا تمر إلا عبر هذا الحاجز وبخاصة المنطقة الفرنسية التي يخرج منها خط السكة الحديد جيبوتي - أديس أبابا ، ويبدو أن هذا الحاجز قد أقيم أساساً ليخدم مصلحة هذه الدول في مسألة الرقيق ومنع استيراد الأسلحة والذخائر التي قد تتسرب في كميات كبيرة الى المناطق الأفريقية الأخرى فتخلق قلقاً للمستعمرين ، وبالاضافة الى ذلك فان الدول تهدف الى حرمان أتيوبيا من السيطرة على ساحلها حتى لا تتجدد لها أمجادها البحرية ولكي تحافظ على اقتصاديات في مستوى بدائي هزيل ، ولحرمانها من استغلال مواردها المعدنية الغنية .

• ارتباط أتيوبيا بحوض النيل :

وقد اتصلت أتيوبيا ، في مختلف أوضاعها الاقليمية ، بتطورات الحوادث في حوض النيل ويهمنا في بحثنا هذا التعرض لهذه التطورات التي حدثت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ، وقد أشرنا في الكتاب الأول الى العلاقات في الفترة من الزمن التي سبقت القرن الثامن عشر ، فقد اتجهت اليها السياسة البريطانية لتتخذ منها قاعدة تتحرك منها قواتها العسكرية لغزو مصر إذا عادت فرنسا لاحتلالها بعد خروجها منها في سنة ١٨٠١م وجاءت اليها حملة نابيير قبيل افتتاح قناة السويس وخرجت منها بعد إخلاء سبيل البريطانيين الذين احتجزهم النجاشي تيودوروس في سجنه كما سبق أن أوضحنا ، هذا من ناحية بريطانيا في خططها لمقاومة النفوذ الفرنسي ومن ناحية أخرى بدأت الدول بما فيها بريطانيا في محاولاتها في تثبيت أقدامها في حمى الصراع وذلك بالحصول على معاهدات ووثائق من الزعماء المحليين يكسبون بموجبها ملكية لبعض هذه الأقاليم التي أخذت رقعتها في الاتساع شيئاً فشيئاً ، ولم تكن هذه المعاهدات والوثائق لقاء ثمن معقول ، بل بالعكس كانت تارة عن طريق التخويف وطوراً نظير هدايا زهيدة القيمة من قماش وخمر ، وقد فرضت هذه

المعاهدات فرضاً على الزعماء المحليين سواء رضى هؤلاء أو لم يقبلوا وكان مافى يد الأوروبيين من وثائق هو الحجة التى يلتزم بها الزعماء لفرض الحماية والدخول بلادهم ضمن مناطق النفوذ ، والامتيازات ، وقبول النصيحة . وكل هذه تهدف إلى تحطيم النظم السياسية والاجتماعية فى تلك المنطقة كما فى غيرها من المناطق الأفريقية لتخضعها لخدمة الاستعمارية ، ومع الأسف فان هذا المسلك لايعدو عن كونه سرقة منظمة استعملت فى الحصول عليها وسائل قانونية زائفة فى أحط درجات التدليس والتزوير .

وقد اتخذت منها كل من فرنسا وبريطانيا قواعد لنشاطهما نحو وادى النيل ، كما كان لأتيوبيا نفسها دور هام فى الصراع بين الدولتين المتنافستين وقد حاولت أن توطد علاقاتها مع زعماء المهدية وبخاصة فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى عندما اشتد الصراع ودخل فى مرحلته الفاصلة . ويهمنا أن نتعرف على الوضع فى هذه المنطقة فى الفترة التى سبقت الحركة المهدية وعلى تطور العلاقات والأحداث التى تسببت فى انسحاب مصر من شاطىء البحر الأحمر والمناطق التى كانت تسيطر عليها الادارة المصرية .

تقسيم المناطق المصرية فى حوض البحر الاحمر :

النشاط البريطانى :

امتدت إدارة مصر على ساحل البحر الأحمر حتى رأس غورد فواى وذلك فى السنوات ١٨٧٢/١٨٧٤م واحتلت هرر فى سنة ١٨٧٥ ، وأرسلت حملة الجوبا فى سنة ١٨٧٥م ، ودخلت مصر فى حرب مع أتيوبيا فى عامى ١٨٧٥ و ١٨٧٦م انتهت بهزيمة ساحقة للقوات المصرية التى دخلت البلاد من أكثر من جهة تحت قيادة ضباط من الفرنج ، فقد كان الخديو وتؤيده انجلترا يتعقب منافذ تجارة الرقيق إرضاء للدول الأوروبية ، وقد دفعه إلى هذا المسلك رغبته فى الحصول على معاونة تلك الدول فى أزمته المالية ، ومما يؤسف له أنه تقبل نصيحة مستشاريه من الفرنج وأسقط مصلحة بلده من حسابه ، وفاته أن المطامع الاستعمارية كانت تخفى وراء تأييدها له فى توسعه خطة ترمى إلى استنزاف آخر قطرة من دم مصر لتصبح عاجزة يثقل كاهلها الدين فيسهل على الدول وبخاصة انجلترا أن تستولى على المناطق التى تديرها مصر ، وقد اتخذت هذه الدولة من الخديو مشعلا أنار لها الطريق ومهده لدخولها واحترق بعد

أن استنفذ طاقته واحترق فكان خلعه عن عرش مصر . وجاء الاحتلال البريطانى لمصر فى سنة ١٨٨٢ وكانت من نتائجه أن أجبرت مصر على الانسحاب من شاطىء البحر الأحمر الافريقى واستولت بريطانيا على النقاط الاستراتيجية وأعلنت حمايتها على ساحل السومال وميناء زيلع ، ومما يجدر ذكره أن بريطانيا قد مهدت لهذا باتفاقية ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ بين مصر وبريطانيا ، وبالرغم من أن هذه الاتفاقية قد فقدت صلاحيتها لأن الباب العالى لم يصدق عليها طبقاً للمادة الخامسة فان بريطانيا اتخذت منها حجراً فى بناء سياستها .

واشتد النشاط الفرنسى فى منطقة أوبوك التى أخذت فى الاتساع حتى تكونت منها مستعمرة السومال الفرنسى ، وخشيت بريطانيا من أن يكون هدف فرنسا بسط سيطرتها فى صورة ما على هرر ، وبخاصة بعد أن أنشأت فرنسا ميناء جيبوتى التى افتتحت فى عام ١٨٨٧م وتقع هذا الميناء فى خليج تاجورة الذى تخرج منه القوافل إلى هرر ، وبعد مفاوضات توصلت الدولتان إلى أن التزمت كل منهما بعدم القيام بمحاولة ضم هرر أو بسط الحماية عليها ، كما أوضحت الدولتان فى إعلانهما أنهما لايتنازلان عن حقهما فى معارضة أية محاولة من جانب حكومة أخرى لامتلاك هرر أو المطالبة بأى حق عليها ، وكان ذلك فى الخطابين اللذين تبادلها السفير الفرنسى فى لندن المسيو وادنجتون واللورد سالسبرى بوصفه وزير الخارجية البريطانية فى ٢و٩ فبراير سنة ١٨٨٨ على التوالى ، كما أن الوزير البريطانى قد أخطر السفير الفرنسى بكتابه بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٨٨ أنه قد أكد للسفير العثمانى بأن الحكومة البريطانية لاتتدخل لافى الماضى ولا فى المستقبل فى حقوق السلطان المشروعة ، ويأمل الوزير البريطانى أن تكون الجمهورية الفرنسية فى نفس الوضع (٩) . وقد فهمت فرنسا هذا البند على صورة تختلف عما كان يجول فى ذهن رجال السياسة البريطانيين ، الذين اغفلوا نشر الوثيقتين حتى عام ١٨٩٤م حتى لا تعرقل مساعى إيطاليا فى بسط نفوذها على اتيوبيا وكانت إيطاليا التى احتلت مصوع فى ٣ فبراير سنة ١٨٨٥م بمساندة من بريطانيا قد أخذت فى التوسع فى الداخل . وعقدت معاهدة أوتشيالى فى ٢ مايو سنة ١٨٨٩م ، وحاولت أن تفسر البند السابع عشر بما يفيد أن النجاشى قد وافق على أن تتولى إيطاليا المسائل الاتيوبية الخارجية وكان معنى ذلك أن أتيوبيا قد صارت محمية إيطالية ،

(٩) هرتسلت جزء ٢ ص ٧٢٦/٧٢٨ ، ولف ص ١٦٧ وما بعدها .

ونظراً لأهمية هذه النقطة لما نتج عنها من تطور فى الأوضاع نذكر فيما يلى الاختلاف فى تفسير هذا البند ، كما جاء فى النصين الأمهرى والايطالى :

النص الأمهرى : البند ١٧ — سوف يكون لجلالة ملك ملوك أتيوبيا الحرية فى أن يستعين بالحكومة الايطالية فى أية مفاوضات مع الحكومات الأخرى .

النص الايطالى : البند ١٧ — سوف يكون جلالة ملك ملوك أتيوبيا ملزماً بأن يستعين بالحكومة الايطالية . . .

أو « أن جلالة ملك ملوك أثيوبيا يوافق على أن يستعين . . . »

وقد أخطرت ايطاليا الدول الاوروبية بصورة من هذه المعاهدة فى نصها الايطالى لإثبات حقوقها على أتيوبيا طبقاً لقرارات مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥م وحاولت فرنسا استغلال الموقف لتسوية مشاكلها مع ايطاليا فى تونس بتنازل ايطاليا عن تلك المطالب نظير اعتراف فرنسا بمعاهدة ١٨٨٩ ، غير أن المفاوضة لم تنجح ، فبادرت فرنسا بعد نشر ايطاليا للكتاب الاخضر الذى احتوى على معاهدة ١٨٨٩م وذلك فى عام ١٨٩٠م ، بتحذير النجاشى بمضمون البند ١٧ كما جاء فى النص الايطالى فبادر النجاشى باخطار الدول بعدم اعترافه بالتفسير الايطالى الخاطىء والذى لا يتفق مع النص الامهرى — وهو الذى يرجع اليه فى حالات الاختلاف ، وكان هذا الاخطار فى فبراير سنة ١٨٩١م . وأخذت العلاقات بين البلدين فى التدهور الذى انتهى الى اعداد ايطاليا حملة لغزو الحبشة لأخضاعها بالقوة لقبول التفسير الايطالى. وقد منيت القوات الايطالية بهزيمة منكرة فى موقعة عدوة فى مارس سنة ١٨٩٦م الأمر الذى أزعج بريطانيا ، لأن انهيار إيطاليا فى هذا الجانب من حوض النيل معناه ترك الباب مفتوحا أمام فرنسا ، وعقدت إيطاليا معاهدة مع أتيوبيا فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ اعترفت فيها باستقلال أتيوبيا . وكانت إيطاليا بعـــد هذه الهزيمة تفكر فى إخلاء الأرتيريا وانتهز هـذه الفرصة الملك ليوبولد الثانى ملك البلجيك وصاحب الكونغو الحرة وأرسل وكلاءه إلى روما لمفاوضة الحكومة الايطالية للوصول إلى عقد اتفاق تبقى بموجبه مصوع فى يد الطليان وتنتقل الأرتيريا ومناطق النفوذ الايطالية الموضحة فى معاهدة ١٨٩١ التى عقدت بين إيطاليا وانجلترا ، إلى شركة الكونغو للاستعمار والاستثمار على أن يكون دخل هذه المنطقة مناصفة بين الدولتين إيطاليا والكونغو الحرة . وقد رفضت إيطاليا هذا المشروع .

وكانت ايطاليا قدعقدت معاهدة ثانية مع النجاشي بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٨٨٩م منحت ايطاليا بموجبها قرضاً قدره أربعة ملايين ليرة للنجاشي بضمان إيراد جمارك هرر وقد سقط هذا الدين وفق البند الثاني من معاهدة ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ م الذى أشار بإلغاء معاهدة ٢ مايو سنة ١٨٨٩م التى كانت معاهدة أول أكتوبر سنة ١٨٨٩م تكملة لها كما نص البند الثالث من معاهدة أكتوبر .

ويبدو أن ايطاليا بعد توقيعها معاهدة أوتشيالى فى سنة ١٨٨٩ م كانت تهتم بالحصول على تأييد بريطانيا التى كانت بدورها تخشى من امتداد الحماية الايطالية على أتيوبيا الى السودان وبخاصة منطقة كسلا التى كانت ايطاليا تطمع فى امتلاكها ، وكانت بريطانيا تخشى أيضاً أن يطالب النجاشي بضم القسم المتاخم لحدوده من السودان الى بلاده لذلك دخلت انجلترا فى مفاوضة مع ايطاليا لتحديد موقفها بالنسبة لحوض النيل وقد توصلت الدولتان الى عقد بروتوكولين بتاريخ ٢٤ مارس و١٥ أبريل على التوالى توضحت فيهما منطقة نفوذ ايطاليا وهى تبدأ من مصب نهر الجوبا وتمتد الى الجزء الأعلى من حوض النيل الأزرق ويمتد الخط شمالا شرقياً وينحرف من جنوبى كسلا الى رأس كسار على البحر الأحمر ولم تدخل فى المنطقة النفوذ هذه كسلا والجزء من نهر العطبرة وسمحت بريطانيا لايطاليا باحتلال كسلا اذا مادعت الضرورة العسكرية الى ذلك على أن لا تقوم ايطاليا بأى عمل على روافد المياه من شأنه أن يتدخل فى مياه النيل لمصر وأوضحت بريطانيا حق مصر فى استرداد هذه المنطقة (منطقة كسلا إذا ما احتلتها إيطاليا) عندما تحين الفرصة لمصر .

العلاقات بين أتيوبيا وايطاليا والمهدية :

كانت لمصر فى أوائل عام ١٨٨٥م قوات عسكرية على الحدود الاتيوبية السودانية فى محطتى القلابات والجيرة وقد اتفقت الحكومة البريطانية مع النجاشي يوحنا على انسحاب هذه القوات وعودتها إلى مصر عن طريق أتيوبيا بسبب أن طريق النيل كان فى قبضة الدراويش ، وقد أخلت هذه القوات مراكزها فى الأيام الأخيرة من شهر فبراير سنة ١٨٨٥م بعد أن تركت أسلحتها وذخائرها ومهماتها كما نص الاتفاق الذى تم بين النجاشي والأميرال هيوت وماسون بك ، ولم تمض إلا بضعة أيام من انسحابها حتى دخلت القلابات الحملة التى أرسلها الامام المهدى لاحتلال القلابات تحت

أمرة عامله محمد ود الأرباب . ومما تجدر الاشارة إليه أن الايطاليين قد احتلوا مصوع فى اليوم الثالث من فبراير سنة ١٨٨٥م وأخذوا بعد ذلك فى التوسع فى داخلية المنطقة ، ولم يكن مجيء الايطاليين إلى مصوع ، التى كانت تديرها مصر ، إلا بتحريض من انجلترا التى أرادت أن تتخذ من الطليان درعا لها لمقاومة المهدية من ناحية والنشاط الفرنسى فى أتيوبيا من ناحية أخرى مستغلة فى ذلك مابين الفرنسيين والطليان من منافسة فى تونس ، واستطاعت بريطانيا بمسلكها هذا أن تصيب عصفورين ، ايطاليا وفرنسا ، بحجر واحد ، فهى تعلم بمطامع الطليان فى المنطقة الساحلية إلى كسلا وتعلم أن فرنسا تحاول بسط نفوذها على أتيوبيا ، فإيطاليا ستقاوم تقدم الفرنسيين كما ستكون شوكة فى جنب المهدية ، وتعمل فى الجانب الاتيوبى على جعل هذه البلاد منطقة نفوذ لها ، وبدخول الدولتين فى صراع فى هذه المنطقة من أفريقيا يتهيأ لبريطانيا بعض الوقت لتواجه مشاكلها الاخرى ، وتستكمل عدتها .

وقد ترك نزول الطليان فى مصوع أثره السيء فى نفس النجاشى يوحنا الذى أخذت مخاوفه وشكوكه فى الازدياد ، فقد كان النجاشى يأمل فى ضم مصوع إلى سلطانه ، وجد فى تسليم انجلترا لإيطاليـــا باحتلال مصوع مخالفة للاتفاق الذى عقده مع الأميرال هيوت ، كما وجد أن الطليان قد أخذوا فى معاونة منافسه منليك حاكم شوا وتزويده بالأسلحة ، وبينما كان النجاشى قلقـاً بسبب التعاون بين منليك والطليان ، كانت هنالك قلاقل فى حدوده الغربية عند القلابات . فقد حدث أن طلبت أتيوبيـا من عامل المهدية تسليم قاطع طريق يدعى الحاج على الذى التجأ إلى القلابات ، فلم يجبه العامل ، فأعد جيشاً بقيادة الراس عدار الذى هجم على القلابات فأحرقها وقتل عاملها محمد ود الأرباب ، وعين الخليفة عبد الله يونس الدكيم عاملا جديداً وزوده بجيش كبير ، كما أرسل إلى النجاشى كتابا يدعوه فيه إلى الاستجابة للدعوة المهدية ، ولمـا لم يجبه شرع يونس فى إرسال الغزوات إلى داخل البلاد الأتيوبية(١٠) فأحدثت الأضرار والخسارة فى المـال والأرواح وفى أماكن العبادة مما دفع النجاشى إلى إعداد جيش لغزو القلابات ، وأخذ الرأس عدار فى تجهيز القوات وأرسل الخليفة حمدان أبو عنجه فى جيش كبير إلى القلابات استعداداً لمواجهة تطورات الموقف ، وحمل أبو عنجه

---

(١٠) أرشيف السكرتير الادارى بالسودان ـ المهدية ـ ملف ١٢ ـ من الخليفة عبد الله إلى منليك رداً على رسالة شفوية لتلاحق بمجلة السودان في وسائل ومدونات مجلد ٣٥ عدد ١ ص ٦٥.

كتابا ثانياً من الخليفة إلى النجاشي يدعوه فيه إلى الطاعة ولما لم يجبه دخل أبو عنجه الأراضي الأثيوبية ، وأرسل النجاشي خطابا إلى أبو عنجه يدعوه فيه إلى الصلح وذلك في ديسمبر سنة ١٨٨٨ وكان رد أبو عنجه قاسي الألفاظ ، أغضب النجاشي إلى الحد الذي دفعه إلى أخذ العدة لحرب الدراويش بالرغم من مشغوليته بسبب نشاط الطليان في الشمال . ووصلت الجيوش الأثيوبية إلى القلابات في ٩ مارس سنة ١٨٨٩م واشتبك الفريقان في موقعة انتصر فيها الاثيوبيون في أول الأمر ، إلا أن الانتصار قد انقلب هزيمة كبرى عندما أصيب النجاشي يوحنا بجراح مميتة، وانتهز الطليان موت يوحنا وساعدوا منليك لتولي العرش وعقدوا معه معاهدة أوتشيالي التي سبق الحديث عنها ، وانتقل النشاط السياسي إلى داخل أثيوبيا وعقدت بريطانيا وإيطاليا اتفاقات ٢٤ مارس و١٥ إبريل سنة ١٨٩١ و ٥ مايو سنة ١٨٩٤ الخاصة بمناطق النفوذ التي وضعت أثيوبيا بما فيها هرر في دائرة النفوذ الايطالي .

* * *

وكان الخلاف بين أثيوبيا وايطاليا بشأن تفسير المادة السابعة عشر من معاهدة أوتشيالي وما تبعها من استعداد الفريقين،وحاول النجاشي منليك تحت ضغط الزحف الإيطالي الاتصال بالخليفة عبد الله التعايشي للوصول إلى اتفاق على عمل مشترك لمقاومة النفوذ الاوروبي ، وقد كان رد الخليفة مقتضباً وفي حذر (١١) . وقد بقيت المسألة معلقة إلى نهاية معركة عدوه وانتصار النجاشي ، الذي كتب للخليفة مبديا رغبته في التفاهم ، وقد رد عليه الخليفة طالباً منه كعربون للصداقة التي يريدها أن يطرد جميع الأوروبيين من السياح والتجار الموجودين في أثيوبيا وبالرغم من أن النجاشي لم يقبل هذا العرض فان العلاقات بينهما قد تحسنت وفي منتصف عام ١٨٩٧ أبدى الخليفة استعداده للتعاون في حدود معينة ، وعمل للنجاشي على احاطة الخليفة عبد الله علماً بتحركات القوات الأثيوبية في المنطقة المتاخمة للحدود بينهما ، لمنع ما قد يحصل من حوادث بسبب أواخر ولا يعلم ما تم بصدد مطالب النجاشي الاقليمية في السودان التي أوضحها في كتابه الى الدول الأوروبية في ابريل سنة ١٨٩١ م والذي جاء فية بأن الحدود الفعلية لبلاده من ناحية الغرب والجنوب تبدأ من كركوج (على النيل الأزرق جنوبي سنار) وتنتهي عند نقطة التقاء نهر السوباط مع النيل الرئيسي ، ويسير خط

---

(١١) المصدر آنف الذكر جواب منليك الى الخليفة بتاريخ ١٥ ابريل سنة ١٨٩٦ ورد الخليفة بتاريخ ١١ يونيه سنة ١٨٩٦ مجلة السودان في رسائل ومدونات مجلد ٣٥ عدد ١ ص ٩٥

الحدود محاذيا لمجرى السوباط حتى يصل إلى بحيرة سامبورا (رودلف) وجاء فى هذا الاعلان ما يفيد بعزم النجاشى على اعادة حدود أثيوبيا الى أوضاعها القديمة وهى فى ذلك تمتد حتى الخرطوم ، وقد وعدت الحكومة الفرنسية بتعضيد النجاشى فى مطالبهُ الاقليمية لإعادة حدوده إلى الوضع الذى زعمه . وأن إرسال النجاشى لهذا الاعلان يتمشى مع الصلاحيات التى قررها مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥/١٨٨٤ بشأن إثبات حق التملك الفعلى ، وقد أرسل النجاشى حملتين إلى النيل الأبيض للعمل مع مارشان كما سنوضحه فيما بعد ، كما أرسل حملة أخرى صوب النيل الأزرق .

العلاقات بين أثيوبيا وفرنسا :

أوضحنا من قبل الدور الذى لعبته فرنسا فى تحذير النجاشى بما جاء فى تفسير إيطاليا للبند السابع عشر من معاهدة أوتشيالى ، واستعدادها لتأييد النجاشى فى مطالبه الاقليمية ، ويرجع نشاطها هذا الى رغبتها فى انشاء علاقات صداقة تربط بينها والخليفة عبد الله الامر الذى كانت تهدف اليه لنجاح حملة مارشان ، وقد حاول النجاشى فى عام ١٨٩٥ م فتح باب المفاوضة مع فرنسا لاقامة علاقات سياسية وتجارية على دعائم أقوى مما كانت عليه فى معاهدة سنة ١٨٤٣ م التى عقدت بين لويس فيليب وملك شوا ، الا أن فرنسا قد أبدت تحفظاً بسبب حالة التوتر التى كانت قائمة بين منليك والطليان قبيل موقعة عدوة ، وبعد أن انجلى الموقف بانتصار أثيوبيا واستردادها لحقوقها أبدى الرئيس الفرنسى فيلكس فور استعداده للدخول فى المفاوضة لعقد المعاهدة المشار اليها ، وتكونت فعلا بعثة دبلوماسية فرنسية للسفر الى أديس أبابا وتعين لاجارد رئيساً لها ، وقد وصلت هذه البعثة الى أوبوك فى ديسمبر سنة ١٨٩٦ م . وأرسل وزير المستعمرات الفرنسى اندر ليبون بعثة أخرى تولى أمرها بونفالي - بونشان لاعداد حملة من أديس أبابا الى النيل الأبيض ، لتقوم بمعاونة حملة مارشان واعدادها ، وقد طلب ليبون من لاجارد أن يتعاون مع هذه الحملة لضمان نجاح مارشان ، غير ان لاجارد كانت له شخصية من طراز خاص ، فقد تجاهل وجود هذه البعثة وحاول ان يعد بنفسه حملة أخرى لتسبق الحملة التى أرسلها وزير المستعمرات ، وكان لمسلك لاجارد أثره فى فشل هذه الحملة فى بلوغ الغرض الذى كونت من أجله ، وحاول لاجارد من ناحية أخرى تحريض النجاشى للقيام باحتلال فعلى لمناطق النيل الابيض التى أوضحها فى إعلانه للدول فى ١٨٩١م

وقد لاقى النجاشى الأمرين من السياسة الغربية وخداعها ، لذا أراد أن يتفادى ماقد يقوم فى المستقبل من عقبات لو أرسلت حملة فرنسية خالصة فأعد حملة أتيوبية صحبها بونشان الفرنسى ورجال بعثته عدا بولفالى الذى عاد إلى بلاده ومعهم المغامر الروسى ارتامنوف وقد وصلت الحملة الى السوباط فى ديسمبر سنة ١٨٩٧ م عند نقطة تبعد حوالى مائة ميل جنوبى فاشودة ، ولم تستطع الانتظار بسبب قلة الاغذية والمتاعب الأخرى وعادت أدراجها الى أديس أبابا ، وأرسلت حملة ثانية وصلت إلى النيل الابيض فى ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٨ م وعادت أدراجها قبل وصول حملة مارشان إلى فاشوده بأسابيع قليلة .

ويبدو ان النجاشى كان يشعر بالتزامه بمعاونة فرنسا فى تحقيق أهدافها السياسية فى حوض النيل الاعلى ، ففى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ وقع النجاشى اتفاقية سرية مع لاجارد ممثل فرنسا بخصوص السيطرة على حوض النيل الابيض التى صدق رئيس الجمهورية الفرنسية على هذه الاتفاقية فى ٢٤ مايو سنة ١٨٩٧ ومما يجدر ذكره أن هذه الاتفاقية قد تم توقيعها فى نفس اليوم الذى تم التوقيع فيه على الاتفاقية الفرنسية الاتيوبية بشأن مسألة الحدود بين المنطقة الساحلية الفرنسية وبين أتيوبيا ويخيل لى ان هذه الاتفاقية لم تكن الا ستاراً لإخفاء الاتفاقية السرية .

وقد جاء فى البند الأول من الاتفاقية السرية تعهد فرنسا بتأييد النجاشى بقدر المستطاع ليتمكن من المحافظة على سيطرته على ضفة النيل ، وجاء فى هذا البند أيضاً « انه بينما يتمكن النجاشى من تثبيت سيطرته على الضفة اليمنى للنيل الأبيض فى المنطقة جنوبى خط عرض شمال ١٤ فانه يعاون بقدر الطاقة معتمدى الحكومة الفرنسية الموجودين فى المنطقة الواقعة على الضفة اليسرى للنيل الأبيض بين خطى عرض شمال ١٤ و ٣٠ر٥ وجاء فى البند الثانى الاتفاق على رفع العلم الفرنسى على الشاطىء الأيسر كما يرفع النجاشى علمه على الشاطىء الأيمن ، وجاء فى البند الثالث . ما يمنع الفرنسيين من احتلال أى منطقة من شرق النيل الأبيض ، وانه لا يحق لهم أن يدخلوا تلك المنطقة إلا إذا دعت الضرورة فقط (١٢) .

وقد ذكر السيد محمد عثمان الحاج خالد فى أقواله أمام ضابط المخابرات للقوات المصرية الانجليزية رذلك بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٨ م . ان مندوبين قد وصلا

---

(١٢) نص الاتفاقية السرية فى كتاب الوثائق الدبلوماسية الفرنسية جزء ١٣ ص ٢٧٨ / ٩ كما ذكره ساندرس فى مقاله عن الأمير سليمان ابن انجر عبد الله .

إلى الخليفة يحملان خطابات من النجاشى.وكان أحد الرسولين يدعى السيد محمدالطيب وهو من مسلمى الجبرته ويعمل فى خدمة النجاشى . وثانيهما رسول الخليفة الخاص ويدعى السيد محمد البشرى ، وأوضح السيد محمد عثمان ان السيد محمد الطيب قدأحضر إلى الخليفة علماً صغيراً مكوناً من ثلاثة ألوان وذكر ان هذا العلم قد تسلم اليه فى أديس أبابا بحضور القنصل الفرنسى لاجارد وطلب منه منايلك أن يبلغ الخليفة انه فى حالة تقدم الانجليز لمحاربته فعليه أن يرفع هذا العلم لوقف تقدمهم كما طلب اليه أن يرفع العلم إذا جاءت قوة فرنسية إلى بلاده فانها سوف لا تسبب له ضرراً،وقدرفض الخليفة بشدة أن يتقبل حماية دولة أوروبية (١٣) . ومن هذا يتضح أن المعاهدة التى قيل انها قد عقدت بين النجاشى والخليفة لاتقوم على أساس (١٤)

ومما لا شك فيه ان النفوذ الفرنسى كان قويا فى أديس أبابا فى السنوات القليلة من نهاية القرن التاسع عشر الميلادى . وقد استطاعت أن تعرقل مساعى بعثة رنل رود ـ ونجت باشا التى ذهبت إلى أديس أبابا فى مايو سنة ١٨٩٧ فى محاولة لاقناع النجاشى لتخطيط الحدود الأتيوبية السودانية ولتطلب من النجاشى سحب مطالبه بالمنطقة الواقعة على الضفة اليمنى للنيل الأبيض وقد رفض منليك لاستجابة لمقترحات البعثة ، وقد قنعت البعثة بالحصول على وعد من النجاشى بمنع إرسال الأسلحة إلى الدراويش (١٥) وكانت فرنسا متهمة بامدادهم بالأسلحة . وقد طلبت البعثة تأجيل بحث هذه المسائل إلى ما بعد فتح أم درمان وهى تضمر فى نفسها أنه يمكن استخدام قطع نيلية قوية على النيل الأبيض وسوف يكون لها أثرها فى تثبيت حقوق مصر وبريطانيا (١٦) .

---

(١٣) نقلا عن مقال ساندرسن عن الأمير سليمان ابن انجر عبد الله ـ مجلة السودان فى رسائل ومدونات مجلد ٣٥ جزء أول ص ٥٩ / ٦٠

(١٤) اشار الى المعاهدة عبد الله حسين فى ص ٢٥١

(١٥) مذكرة ونجت وكلانجن المرفقة مع كتاب رود إلى سالسبرى ـ أوراق دار المحفوظات العامة البريطانية ـ وزارة الخارجية /١/ ٣٢ نقلا عن مقال ساندرسن مجلة السودان رسائل ومدونات مجلة ٣٥ جزء أول ص ٦٤ .

(١٦) نفس المصدر آنف الذكر ويلاحظ هنا ان بريطانيا قد أوضحت ان لها حقوقا .

النشاط الروسى فى أتيوبيا :

اشتد نشاط الروس فى أتيوبيا فى صورة واضحة منذ يناير سنة ١٨٩٥ م وذلك لشد أزر فرنسا في الصراع بينها وبين انجلترا ، وقد اتخذ النشاط الروسى مظاهر غايتها الاهتمام بالمسائل الجغرافية والدينية ، وجاء إلى أديس أبابا مغامر روسى يدعى ليونتيف فى أوائل عام ١٨٩٥ م ومعه هدايا غالية للنجاشى ، ورد النجاشى على ذلك بإرسال بعثة إلى القيصر الروسى لتقديم التحية . وعاد ليونتيف إلى أديس أبابا فى نهاية العام ويعتقد انه قد قاد المدفعية الأتيوبية فى موقعة حدوده . وأصدر النجاشى أمره بتعيين ليونتيف هذا حاكما لمديريات خط الاستواء الأتيوبية ومعه البرنس هنرى دى اورليانس الفرنسى كمساعد له .

وحاول الضابط الروسى أشاكوف أن يربط بين الكنيسة الأتيوبية وبين الكنيسة المسكوفية . وكان هنالك روسى آخر يدعى بولا توفيك ومعه عدد من القوزاق وبعض الفرنسيين وقد رافقوا حملة الراس ولد جيورجيوس .

وقد أخذ النشاط الروسى فى الخمود بعد انتهاء الصراع الفرنسى البريطانى وما كان له أن يستمر وليست لروسيا مطامع فى هذه المنطقة أكثر من معاونة صديقتها فرنسا ضد انجلترا .

النشاط البلجيكى فى أتيوبيا :

أوضحنا فيما سبق محاولة الملك ليوبولد الثانى الاستيلاء على الأرتيريا عدا مصوع التى تترك للطليان ، وعلى منطقة نفوذ إيطاليا التى تشمل أتيوبيا وإدارة هذه المنطقة بشركة الكونغو للاستعمار والاستثمار وقد فشلت المفاوضة بعد أن تمت صياغة الاتفاقية وكان ذلك فى نهاية عام ١٨٩٦ م . وجاء فى عام ١٨٩٧ م البرنس هنرى دىأورليانس لانشاء شركة رأس مالها ١٫٨٠٠٫٠٠٠ فرنك لأغراض التعمير وقد كان ليوبولد الثانى مهتما الاهتمام كله بهذه الشركة التى كانت مؤسسة بلجيكية وبالرغم من أن هذا المشروع لم يقدر له النجاح فانه يعطينا صورة من النشاط البلجيكى الذى يهدف إلى ربط الكونغو مع أتيوبيا وبالتالى مع البحر الأحمر .

شرق افريقيا ، كينيا ، أوغنده :

يختلف هذا الجزء الثالث من المنطقة الشرقية فى أكثر من ناحية ، فبينما نجد أن سكان القسمين الأول والثانى - أتيوبيا والقرن الأفريقى - يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالمنطقة الأولى ، التى تشمل حوض النيل فى شطريه مصر والسودان ، فى الحضارة والمدنية على درجاتها المختلفة نسبياً ، فان هذا القسم الثالث تسكنه أقلية لها ماض حضارى ، وأن غالبية سكانه من مجموعات من الأفريقيين الذين تفاوتت درجات أفريقيتهم ، وهم فى صورة عامة يعتمدون اعتماداً أساسياً على الزراعة والرعى ، لذلك قد وجد فيهم الأوروبى مجالا لم يصطدم فيه بتقاليد ووراثات قديمة تناصبه العداء بين الفينة والفينة ، كما أن الأوروبى قد استطاع استغلال ضعف هؤلاء فى السيطرة عليهم وتسخيرهم لخدمته فى الزراعة وموارد الثروة المعدنية ، مخالفاً فى ذلك تلك الأسطورة الكبرى التى ادعى الأوروبى أنه قد جاء لتحقيقها وفى مقدمة ذلك خرافة الرقيق ، والعمل على رفاهية السكان المحليين ، وترويضهم على قبول رسالة المدنية الأوروبية ، وهذه هى الأسس التى اتفقت الدول على مراعاتها فى قرارات مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥م وبروكسل عام ١٨٩٠م . فالرقيق قد اتخذ وسيلة لامتلاك أراضى الوطنيين ، وأن استيلاء الاوروبى على أرض الوطنى التى هى عماد حياته ، معناه أن يكون الوطنى مستعبداً اقتصادياً يسعى لخدمة الاجنبى لقاء فتات العيش الذى يتركه له ، وأصدر المستعمر الاوروبى القوانين والتشريعات الخاصة باستخدام الاهالى كل فى منطقته وتحرم عليه الانتقال من سيد إلى سيد ، وينقل الوطنى من مكان إلى مكان للخدمة فى المناجم والمصانع ويفرض عليه أن يعيش فى الحدود التى ترسم له ، فأجوره غاية من الغبن ، معيشته ومسكنه من أحط الدركات ، وكل هذه تهدف إلى تحطيم النظم الاجتماعية المحلية وهدم الاسرة ، ولم تختلف دولة عن أخرى من الأسس التى قامت عليها تنظيمات العمل والتى لم يقصد منها أصلا إلا منع المنافسة بين المزارعين الاوروبيين لتخفيض التكاليف فى الانتاج . ولو ترك أمر العمل لحرية الوطنى لكان التنافس والهجرات من منطقة إلى أخرى بل من ولاية إلى أخرى وفى هذا مافيه من سبل يجتمع فيها الوطنيون فى حرية يتشاورن ومن هنا تبدأ مرحلة التطلع إلى المزيد وهذا مايخشاه الاوروبى ، ويعمل على منعه ولو إلى حين . وقد تجاوزت بعض الدول - إن لم تكن كلها فى صورة أو أخرى - القيم الانسانية فى معاملتها للأهلين وتسخيرهم للعمل الآلى تحت ظروف قاسية - من تغذية سيئة وحرمان من

العلاج فتفشت بينهم الأمراض المختلفة، وزادت على ذلك بالقتل والتعذيب لأقل الاسباب، كما حدث على نطاق واسع فى الكونغو الحرة، الأمر الذى أثارت فضائحه الرأى العام الاوروبى، وتصور لنا القسوة التى مارسها الأوروبى بين الشعوب التى جاء لتمدينها ورفاهيتها الأكذوبة الكبرى التى قامت عليها رسالته التى اتخذها معبراً لتحقيق سيادته التى تهدف نحو الحصول على مغانم مادية اختص بها لنفسه فقط وجعل من الوطنى منبوذاً لا يرتقى إلى مستوى الأوروبى، وبالرغم من ضآلة الجهود التى بذلها المبشرون لتعليم الوطنى إذا قورنت بما يصرف على الأوروبيين المستوطنين فى البلاد الافريقية، والتى رسمت مناهجه لخدمة الحكومات، فان ذلك قد دفع بالوطنى الى اليقظة بعد أن أخذت الصدمة النفسية التى تركها فى نفسيته دخول الرجل الأبيض الذى اعتقد فيه فى بادى الأمر أنه الرجل المختار الذى جاء لرعايته.

* * *

وقد بدأ الصراع فى مرحلته الاولى بين الأوروبيين والمجموعات من العرب الى استوطنت ساحل أفريقيا الشرقى ـ بحر الزنج ـ وكانت فيها سلطنة زنجبار (برالزنج) واشتد بعد ذلك التطاحن بين انجلترا وألمانيا وعمل وكلاء البلدين على الحصول على معاهدات ومواثيق من الزعماء المحليين فى البلاد بطريقة أو أخرى، وتأسست الشركات التجارية البريطانية والألمانية، وجاءت البعثات التبشيرية، وكل يعمل فى ميدانه الخاص لتحقيق هدف موحد هو بسط السيطرة، فرجال الشركات قد حصلوا على امتيازات لإنشاء المزارع واستغلال المناجم وفرض تنظيمات لخدمة مصالحهم، وأخذوا ينفذون رويداً رويداً حتى أتموا تقويض الزعامات المحلية وتحطيم المجتمع كما تم لهم اغتصاب السيادة، والسيادة فى نظر الأوروبى معناها تعطيل جميع الأجهزة القائمة وتسخيرها على الوجه الذى تراه ـ دون اعتبار للقيم الانسانية والأخلاقية ـ وبالرغم من أن حكومتى بريطانيا وألمانيا لم تظهرا اهتماماً بنشاط وكلاء كل منها فى بادى الأمر فان عدم الاهتمام هذا قد انقلب بعد وقت قصير الى حماس شديد أقرب صورة الى الصرع، ولم يكن ذلك التعفف إلا مرحلة رياضة الفكر والرأى العام، وامتدت سيطرة الدولة الدولة وحمايتها أو سيادتها فى سرعة فائقة على الممتلكات التى حصل عليها أولئك الأفراد الذين لم يكن نشاطهم موضع اهتمام دولتهم.

واشتد السباق فى التوسع بين الدولتين، فألمانيا كانت تحاول أن يمتد سلطانها على منابع النيل والأقاليم المجاورة، وأن تقيم حزاما يبدأ من الشاطىء الأفريقى على

المحيط الهندى وينتهى فى الجانب الغربى المطل على المحيط الأطلسى ، وكانت هذه الأطماع صورة لما كانت تفكر فيه فرنسا . ويبدو أن ألمانيا لم تكن في مركز يسمح بالمبادءة بالعداء لانكلترا لأنها كانت تعتقد أن بريطانيا سوف تعاونها فى تثبيت أقدامها فى القارة الأفريقية نظير المساعدة التى قدمتها ألمانيا لانكلترا فى المشاكل الدولية وفى مقدمتها مسألة احتلال مصر .

وقد توغل المغامر الألمانى كارل بيترز إلى حوض النيل الأعلى طمعاً فى وضع يده على خط الاستواء الذى كان يحكمه باسم مصر أمين باشا (ادوارد شنيتزر الألمانى) . وكانت انجلترا قد دبرت حملة إنقاذ أمين باشا لاخراجه من مديريته ، وجعلها أرضاً مباحا ، بينما كانت موارده المحلية تكفيه للاحتفاظ بولايته التى شملت رقعة واسعة من الارض ضمنها المادى ، واللاتوكا والاشولى والمورى والمكراكة الجزء الشمالى من الانيورو ، وتنتهى حدودها الجنوبية فى نقطة شمالى بحيرة فكتوريا ، ويتاخمها من الشمال مديرية بحر الغزال .

وقد أسهم فى حملة الانقاذ ولجنتها أباطرة الاستعمار ، الفرسان الثلاثة ليوبولد الثانى ملك البلجيك وصاحب الكونغو الحرة،ووليم ماكينون مدير الشركةالبريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا،وهنرى استانلى الرحالة المعروف،الذى عمل فى الكونغو لحساب ليوبولد الثانى ، وكان يعتقد ان الكونغو الحرة سوف تنتزعها بريطانيا فى يوم ما تضمها إلى أملاكها الافريقية . وقد جمع استانلى لهذه الرحلة ١١٫٥٠٠ جنيهاً وحصل من مصر على ١٠٫٠٠٠ جنيه فصارت جملة المبلغ ٢١٥٠٠ جنيهاً وتزودت الحملة بخطابات من مصر إلى عاملها أمين باشا ، وكانت لجنة الانقاذ ورجالها الثلاثة ينظرون إلى مغنم كبير يعوض لهم المبالغ التى صرفوها ، فقد كان لدى أمين باشا حوالى الخمسة والسبعين طناً من سن الفيل فى محطة وادلاى ، قدر ثمنها بحوالى الستين ألفاً من الجنيهات .

وأخذ المستعمرون بعد خروج أمين باشا قوة واقتداراً ثم مقتله على يد جماعة من الكنغين ، على تقسيم أراضى المديرية فيما بينهم . ولم يكن من اليسير على المستعمر أن يستبق الاوضاع التى عملت الادارة المصرية على انشائها لتقدم البلاد ورفع المستوى المعيشى فقد حملت شعلة العلم والمدنية دون شرط أو قيد لجنس أو لون كما فعل الأوروبى ، كما انها أدخلت زراعة البيضاء والقطن والأرز والخضراوات واستوردت

أشجار الفاكهة من الهند وغيرها لزراعتها لمصلحة الأهالى لأنه لم تكن حينذاك وسائل للنقل سريعة لتصديرها إلى الخارج وشجعت الادارة المصرية على غزل الدمور من القطن المحلى . وقد عمل الأوروبى على مطاردة العرب والتنكيل بهم واضهاد الزعماء المحليين الذين فتحوا بلادهم للتجار من العرب ، وأنزلوهم عن سلطانهم ورفعوا من سار فى ركابهم ، وحتى تيبوتب (حامد بن محمد من كبار تجار زنجبار) الذى استعان بنفوذه الفرنجة فى الكونغو والأوغنده لم ينج من محاولة الغدر به ، كما اضطهد سليم بك مطر الضابط المصرى وأجبر على السفر وهو فى حالة المرض الشديد (١٧) وغيرهما كثير ، ولم تكن التهم التى وجهت إليهم ومنها الخيانة ، ولم تكن هنالك خيانة فى معناها الصحيح بل أنهم كانوا يمثلون الرسالة الاسلامية التى تقض مضاجع الاستعمار (١٨)، واستخدم المستعمر الجنود من السودانيين الذين كانوا فى خدمة الجيش المصرى وبقوا فى خط الاستواء ، لإخضاع القبائل وأساء المستعمر إليهم بعد أن وصل إلى أغراضه فكان تمردهم .

* * *

وقامت على الساحل الأفريقى ، أفريقيا الشرقية البريطانية وأفريقيا الشرقية الألمانية وذلك فى مناطق النفوذ التى تقاسمتها الدولتان بمقتضى اتفاقيتى أكتوبر/نوفمبر سنة ١٨٨٦ وأول يوليه سنة ١٨٩٠م . وحاول وليم مكينون مدير الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا عقد معاهدة مع الملك ليوبولد الثانى بوصفه صاحب السيادة على الكونغو الحرة وقد تم الوصول إلى صيغتها النهائية فى ٢٤ مايو سنة ١٨٩٠م إلا أن الحكومة البريطانية لم توافق عليها وبقيت معلقة حتى عام ١٨٩٤م الذى اتفقت فيه الحكومتان الانجليزية والكونغو الحرة على عقد معاهدة استمدت خطوطها العريضة من معاهدة ماكينون ليوبولد كما سنبينه فى القسم التالى من البحث الخاص بالمنطقة الغربية .

وكانت بريطانيا مهتمة باقامه حاجز حول حوض النيل الأعلى فى حدوده الجنوبية ليكون سداً أمام منافسيها وبخاصة فرنسا التى كانت انجلترا تخشى وصولها إلى حوض

---

(١٧) مات فى الطريق فى منتصف ليلة ١٦ أغسطس ١٨٩٣ م . وقد اثنى عليه لوجارد ثناء عاطراً واتهم مكدونالد بعدم فهمه للرجال ـ لوجارد جزء ٢ ص ٤٨٨ / ٤٧٩ .

(١٨) جون . السرجون ملتر فى مقاله عن تيبوتب بمجلة أوغنده مجلد ١٩ جـزء أول مارس ١٩٥٥ .

النيل وتثبيت أقدامها فتنتقل بذلك المشكلة المصرية فى حوض النيل إلى المجال الدولى ولفرنسا فيه الكثير من المناصرين . وفى الوقت الذى كانت فيه انجلترا تعالج المشاكل عن الطريق الدبلوماسى كانت تعد عدتها لتقوية أسطولها البحرى للساعة الفاصلة بينها وبين فرنسا ومناصريها من الروسيا وألمانيا وقد كفت الدولة الأخيرة عن مساندة انجلترا بعد أن خاب أملها فيها .

وكان نصيب هذا القسم الثالث من المنطقة الشرقية قاصراً على حماية ذلك المدخل الجنوبى الشرقى إلى حوض النيل الأعلى وخرجت حملات مكدونالد واستن الخ .

المنطقة الغربية :

جاء الفرنسيون ووكلاء ليوبولد إلى منطقتى خط الاستواء وبحر الغزال وازداد نشاط وكلائهما فى التسعة العاشرة من القرن الماضى ، وبدأ الزحف لبسط السيطرة عن الطريق الذى سلكته الدول فى الحصول على معاهدات ومواثيق من الزعماء المحليين وكان ذلك المسلك هو الطابع الذى تميزت به العشرين عاما الأخيرة من القرن الماضى التى اشتد فيها التطاحن وبخاصة فى العشرة سنوات الأخيرة . فقد كانت الكونغو الحرة دولة اعترفت بها الدول وهى وإن كانت قد سدت فراغا فى الحزام الذى كانت تعمل بريطانيا على إقامته حول حوض النيل الأعلى كما أشرنا من قبل ، فان الجانب الشمالى الغربى من هذا القطاع قد بقى فى حاجة إلى تدعيمه وربطه مع بقية الحلقة التى بدأت بايطاليا على ساحل البحر الأحمر وأثيوبيا ، وانجلترا فى شرق أفريقيا والكونغو الحرة فى الجنوب ومنطقة نفوذ ألمانيا شرقى بحيرة تشاد . وكانت لفرنسا منطقة نفوذها بموجب إعلان فرنسا وبريطانيا بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٩٠م الذى تحددت فيه هذه المنطقه فى الصحراء الكبرى وحدود منطقة النفوذ البريطانى بين النيجر وبحيرة تشاد ، واعترفت بريطانيا فى إعلانها بحماية فرنسا على مدغشقر .

وكانت منطقة النفوذ الألمانية التى أشرنا إليها قد تم الوصول إليها بين الدولتين فى الخامس عشر من نوفمبر سنة ١٨٩٣م . ومما جاء فى البند الرابع من هذه الاتفاقية « أن النفوذ الألمانى لايمتد بعد حوض نهر شارى وأن دارفور وكردفان وبحر الغزال سوف لاتدخل فى نطاق النفوذ الألمانى حتى ولوكان أحد روافد نهر شارى يخرج من هذه المناطق . غير أن طمأنينة انجلترا بعد أن أتمت حزامها حول حوض النيل الأعلى قد انقلبت إلى قلق وذعر عندما تنازلت ألمانيا عن منطقة نفوذها هذه إلى فرنسا وذلك

بالاتفاق الفرنسى الألمانى بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٨٩٤م ، الذى حصلت منه فرنسا على منفذ إلى حوض النيل الأعلى فسارعت بريطانيا إلى عقد معاهدة مع الكونغو الحرة بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ لمنع توغل الفرنسيين ودخولهم إلى حوض بحر الغزال ، وبموجب هذا الاتفاق أعطت إلى ليوبولد الثانى لمدى حياته منطقة اللادو (غرب النيل وبحر الجبل شرق خط طول ٣٠) وتبدأ جنوبا من بحيرة البرت إلى فاشوده شمالا كما أعطت ليوبولد الثانى ولخلفائه من بعده المنطقة الواقعة مابين خطى طول ٢٥ و ٣٠ وتحد شمالا بخط عرض شمالا ١٠ ، ومنحت الكونغو انجلترا ممرآ عرضه خمسة وعشرين كيلو متراً بين بحيرة تنجانيقا وبحيرة البرت أدوارد وقد لقى هذا هذا الاتفاق معارضة شديدة من ألمانيا فى احتجاجها وتهديدات فرنسا مما اضطر معه ليوبولد على تغيير موقفه ، وقد عقد اتفاقية مع فرنسا بتاريخ ١٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ أوضح فيها الحدود بين ولايته فى الكونغو الحرة وبين مستعمرة الكونغو الفرنسية ، وقد التزم ليوبولد الثانى فى المادة الرابعة من هذه الاتفاقية بتنازله عن احتلال أى جزء أو مزاولة أى نشاط سياسى فى المستقبل فى منطقة حوض بحر الغزال داخل الحدود التى أوضحتها الاتفاقية (١٩) .

وكانت فرنسا فى نفس الوقت قد استعدت لارسال حملتها لاحتلال محطة فاشودة التى وقع عليها الاختيار بالنسبة لموقعها الاستراتيجى الخطير على مجرى النيل الرئيسى بعد خروجه من حوض بحر الغزال والتقائه بالسوباط وجاءت الحملة الفرنسية إلى هذه المحطة فى يوليه سنة ١٨٩٨ ، ووصلت بعدها حملة صغيرة استقرت فى شامبى ولم يكن قائدها يعلم شيئا عن تحركات مارشان قائد حملة فاشودة . وقد سبق وأوضحنا الفشل الذى أصاب الحملة التى أرسلت عن طريق أتيوبيا ، وبقى مارشان فى فاشودة إلى أن جاءه كتشنر قائد حملة السودان وطلب منه الخروج من المحطه بوصفها بلدة سودانية تابعة للسودان الذى استعادته مصر . وبعد مشاورات سياسية بين انجلترا وفرنسا أخطرت فرنسا إلى إخلاء فاشودة والانسحاب من تلك المنطقة ويرجع هذا التقهقر من جانب إلى ضعف أسطولهـــا البحرى بالنسبة للأسطول البريطانى الذى استكمل عدته وصار على استعداد لمواجهة التطورات . وخرج مارشان من فاشودة فى عام ١٨٩٩ وعاد إلى بلاده عن طريق أتيوبيا وبقيت حملة شامبى التى قادها الضابط تنكودك وقوامها حوالى الثلاثين من الجنود السنغاليين ، وقد وصلت إلى شامبى فى ٢٠ مارس

---

(١٩) هرتسلت ص ٥٦٩ / ٥٧٠ نص الاتفاقية .

سنة ١٨٩٩ (٢٠) بقيت فى محطتهـــا حتى تسلمت أوامر الحكومة الفرنسية بالانسحاب .

وهكذا انتهت مرحلة الصراع البريطانى الفرنسى الذى استمر أكثر من مائة عام فى هذا الجزء من القارة الأوروبية ، وقد اتخذ خلالها مظاهر مختلفة وانتقل من مكان إلى مكان ، وتصور لنا هذه الأحداث السياسية الأساليب والوسائل التى اتبعتها بريطانيا فى معالجة مشاكلها فى صبر وجلد غير عابئة باللطمات وما أصابها من فشل فى أكثر من موقف .

انسحبت فرنسا من حوض النيل بعد هذا العراك الطويل الذى كانت تهدف من ورائه مضايقة انجلترا وإخراج مسألة احتلالها لمصر الى الحقل للدولى ، الأمر الذى يزعج انجلترا الازعاج كله ، وقد بقيت بعد إخلاء الفرنسيين لفاشودة مشاكل كثيرة بين فرنسا وبريطانيا وبين أتيوبيا وبريطانيا لما كانت تدعيه الأخيرة لنفسها من حقوق فى حوض وادى النيل. أما عن فرنسا فقد عقدت معها الاتفاق الودى فى عام ١٩٠٤م الذى التزمت الدولتان فى مادته الاولى : ان بريطانيا تعلن أنها ليست لها فيه فى تعديل مركز مصر السياسى ، وأعلنت فرنسا من جانبها أنها لا نوى اتخاذ أى إجراء من شأنه عرقلة أعمال بريطانيا فى مصر وذلك بطلب تحديد مدة احتلال انجلترا لمصر . وشملت المواد الاخرى تبادل المنافع الخ الخ (٢١) ، وبدأت الدولتان صفحة جديدة فى التعاون فى الميدان الدولى . أما أتيوبيا ومطالبها فى حوض النيل الابيض وغيره من مناطق السودان فقد تحددت فى معاهدات عقدت فى هذا الشأن . وخسر السودان جزءاً كبيراً من أراضيه الجنوبية والغربية والجنوبية الشرقية ، التى انتزعتها بريطانيا وضمتها الى الاقطار المجاورة وفى مقدمتها الكونغو البلجيكية وأوغنده ، كما فقدت أسطورة الرقيق قيمتها كأداة للضغط السياسى. وبقيت مشكلتان وهما التبشير والاستعمار

* * *

هذه كلمة موجزة عن الصراع فى حوض وادى النيل بين الدولتين وما تخلف عنه من مشاكل كثيرة وبخاصة بعد أن انفردت بريطانيا بفرض سياستها وسيطرتها ، تحققت معها بداءة مرحلة جديدة أساسها اتفاقية سنة ١٨٩٩م ، وهذه تتطلب دراسة أكثر عمقاً وتفصيلا لتحقيق العناصر الخفية . ونرجوا مخلصين أن تستهوى هذه الدراسة من يتوفر عليها .

---

(٢٠) مقال البريجادير جنرل قبج ــ قطع السدود ، مجلة السودان فى رسائل ومدونات مجلد عدد ص ٨ ومابعدها .

(٢١) هرتسلت ص ٨٢٠ / ٨٢٢ .

جدول مختصر عن النشاط الدولى

١٧٩٨		نزلت القوات الفرنسية أرض مصر.
١٨٠٠	٢٤ يناير	توقيع اتفاقية العريش بشأن جلاء الفرنسيين عن مصر
١٨٠١	سبتمبر	جلاء للقوات الفرنسية عن مصر .
١٨٠٢	٢٧ مارس	معاهدة اميان بين انجلترا فرنسا واسبانيا وهولنده الخ .
١٨٠٣	مارس	جلاء القوات البريطانية عن مصر.
١٨٠٥		محمد على واليا على مصر.
١٨٠٧	١٧ مارس	نزول حملة فريزر أرض مصر .
	١٤ سبتمبر	خروج حملة فريزر من مصر بعد هزيمتها .
١٨١١ / ١٨١٩		حرب الوهابيين ـ مصر فى جزيرة العرب .
١٨١٢ / ١٨١٤		بورخارد فى رحلته إلى النوبة
١٨١٥		مؤتمر فينا الذى اقترح على الدول منع الرقيق .
١٨٢٠ / ١٨٢١		امتداد الادارة المصرية إلى السودان .
١٨٢٧		وصل لينان دى بلفون إلى أعالى النيل .
١٨٢٨ / ١٨٣١		وصل الكاشف ابراهيم إلى ما وراء الخط العاشر عرض شمالا
١٨٣٠	٥ يوليه	اتفاقية بين فرنسا والجزائر ـ احتلال الجزائر .
	٨ أغسطس	معاهدة بين فرنسا وتونس .
١٨٣١ / ١٨٣٣		زار روبل أتيوبيا .
١٨٣٣ / ١٨٣٤		أعلنت بريطانيا تحرير الرقيق .
١٨٣٣ / ١٨٣٧		حرب بين الأمير عبد القادر الجزائرى والفرنسيين .
١٨٣٧	٣٠ مايو	اعتراف الأمير عبد القادر بالسيادة الفرنسية .
١٨٣٨		دفعت بريطانيا تعويضاً للمزارعين الانجليز عن الرقيق .
١٨٣٩		حملة سليم قبودان لكشف أعالى النيل .
١٨٤٠	١٥ يوليه	اتفاقية بين بريطانيا والدول بشأن مصر .
	١٩ أغسطس	وثيقة بيع جزيرة موسى فى خليج تاجوره لبريطانيا .
	٢٧ أغسطس	وثيقة بيع جزيرة باب فى خليج تاجوره لبريطانيا .
	٣ سبتمبر	معاهدة تنازل بموجبها السيد محمد حاكم زيلع عن جزيرة اوباد القريبة من زيلع لبريطانيا .

١٨٤١	١٣ فبراير	فرمانات تركية عن حدود مصر ، (لمحمد علي باشا) .
	١٦ نوفمبر	معاهدة بين بريطانيا وحاكم شوا (أثيوبيا) .
١٨٤٢	٢٨ يناير	أخطرت فرنسا الدول باحتلالها للجزائر .
١٨٤٣		معاهدة تجارية وصداقة بين ملك شوا وفرنسا .
١٨٤٩	٣ نوفمبر	معاهدة بين بريطانيا وأثيوبيا .
١٨٤٩		لفنجستون فى حوض الزمبيزى :
١٨٤٩ / ١٨٥٣		بارت وزميله فى رحلة من طرابلس إلى النيجر .
١٨٥٣ / ١٨٥٦		اخترق لفنجستون أفريقيا من الزمبيزى إلى لوانده .
١٨٥٥ / ١٨٥٩		صراع بين انجلترا والولايات الأمريكية بسبب التجارة فى شرق أفريقيا وخليج العجم .
١٨٥٨ / ١٨٥٩		ريتشارد بيرتون وسبيك يكتشفان بحيرة تنجانيقا وفكتوريا نيانزا .
١٨٥٨ / ١٨٦١		رحلة لفنجستون الثالثة فى أفريقيا .
١٨٥٩	١٠ فبراير	معاهدة تجارية بين سردينيا وأثيوبيا .
١٨٦٠ / ١٨٦٣		سبيك وجرانت ـ سافرا عبر أوغنده إلى غندوكرو ، قابلا السير صمويل بيكر فى سنة ١٨٦٣ .
١٨٦٣ / ١٨٦٤		بيكر يكشف بحيرة البرت .
١٨٦١	٢ ابريل	تحكيم بريطانيا بشأن استقلال كل من مسقط وزنزبار .
١٨٦٢	١٠ مارس	اعلان كل من فرنسا وانجلترا عن استقلال زنزبار .
١٨٦٢	١١ مارس	تنازل زعماء الدناكل عن أبوك بفرنسا
١٨٦٥	مايو	فرمان تركى عن مصوع وسواكن .
١٧٦٦ / ١٨٧١		لفنجستون فى تنجانيقا .
١٨٦٦ / ١٨٧١		شفينفورت . سافر من الخرطوم إلى نيام نيام وكشفه لنهر أويل .

١٨٦٩ / ١٨٧٣		صمويل بيكر فى خدمة مصر . حاكما على المناطق الجنوبية من السودان .
١٨٦٩	١٧ نوفبر	افتتاح قناة السويس .
١٨٦٩	١٥ نوفبر	اتفاقية عن بيع عصب لإيطاليا .
١٨٧٠	١١ مارس	
١٨٧٠		كشف ناختجال منطقة بحيرة تشاد .
١٨٧١		ستانلى يبحث عن لفنجستون لانقاذه
١٨٧٤ / ١٨٧٧		ستانلى فى الكونغو بالنيابة عن ليوبولد الثانى .
١٨٧٤ / ١٨٧٦		غوردون فى خط الاستواء بدلا من صمويل بيكر .
١٨٧٥		دى برازا الفرنسى فى حوض الكونغو الأدنى .
١٨٧٦		تأسيس الجمعية الدولية لكشف أفريقيا .
١٨٧٧	٧ سبتمبر	إتفاقية بين مصر وبريطانيا بشأن ساحل السومال .
١٨٧٧ / ١٨٧٩		غوردون حكمداراً لعموم السودان .
١٨٧٩	٢ أغسطس	فرمان تركى لا يسمح لمصر بالتنازل عن أى جزء من ساحل السومال لأية دولة أجنبية ، فرمان تولية الخديو توفيق .
١٨٧٩	٣٠ ديسمبر	اتفاقية بين سلطان رهيطة وشركة روباتينو الإيطالية يتنازل فيها عن جزائر أم البشار ورأس الرمل ودرماشيه .
١٨٨٠	١٥ مارس	اتفاقية بين سلطان رهيطة يتنازل فيها عن للشاطىء والجزائر فى خليج عصب بين رأس لومه ورأس سنتيار .
١٨٨٠	٢٠ سبتمبر	اتفاقية حماية إيطالية على رهيطة .
	٢٥ ديسمبر	إعلان من فرنسا عن حدود أبوك .
١٨٨١	١٢ مايو	معاهدة احتلال فرنسا لتونس .
	٣٠ نوفبر	دكريتو مصرى بشأن شرق السودان ويشمل مديريات التاكه، ومحافظتى سواكن ومصوع ، وسنهيت والقلابات ، وتوابعها بما فيهم قبيلة الضباينة .

١٨٨٢	١٠ مارس	إتفاقية بين الحكومة الايطاليـة وشركة روباتينو انتقلت بموجبها أملاك الشركة إلى الحكومة .
	١١ يوليو	بريطانيا تضرب الاسكندرية . موقعة التل الكبير ، واحتلال مصر .
١٨٨٣	١٥ مارس	معاهدة بين إيطاليا وسلطان عصب بشأن عصب صدق عليها ملك شوا بتاريخ ٢٢ مايو سنة ١٨٨٣ .
	١٢ مارس	معاهدة بين إيطاليا وشوا عن الحدود .
١٨٨٤	٢٢ ابريل	اعتراف الولايات المتحدة بالكونغو الحرة :
	٢٣/٢٤ ابريل	فرنسا والكونغو تتفقان على حق فرنسـا فى الاستيـلاء على الكونغو فى حالة إخلائه .
١٨٨٤	٣ يونيه	معاهدة بين بريطانيا وأتيوبيا ومصر بشأن منطقة البوغوص والمسائل المتفرعة واعتراف النجاشى بحق بريطانيا فى الفصل فى المشاكل بينه وبين مصر بعد هذا التاريخ ، وحق النجاشى فى تعيين المطران لكرسى الحبشة .
	٢١ سبتمبر	معاهدة بين فرنسا وسلطان تاجوره حامد بن محمد يتنازل عن قبة خراب ، وتعهد السلطان بأن لا يدخل فى معاهدات مع الدول الأجنبية قبل الحصول على موافقة حاكم ابوك الفرنسى ، وفى هذه المعاهدة مخالفة لما جاء فى المادتين السادسة والسابعة من معاهدة ١٨٤٠ بين السلطان وبريطانيا .
١٨٨٤	١٥ نوفمبر	مؤتمر برلين للمسائل الأفريقية .
١٨٨٥	٢٦ فبراير	
	١٨ أكتوبر	إقرار تنازل عن قبة خراب لفرنسا .
	٨ نوفمبر	اعتراف ألمانيا بالكونغو الحرة .
	١٤ ديسمبر	إقرار تنازل لفرنسا من اديلاى إلى امبادو .
	١٦ ديسمبر	اعتراف بريطانيا بالكونغو الحرة .

	١٦ ديسمبر	اتفاقية بين بريطانيا والكونغو الحرة بشأن الاختصاص القنصلي وغيره .
	١٩ ديسمبر	اعتراف إيطاليا بالكونغو الحرة .
	٢٧ ديسمبر	اعتراف هولنده بالكونغو الحرة .
	نوفمبر-ديسمبر	معاهدات بين جمعية شرق أفريقيا الألمانية مع الزعماء المحليين
١٨٨٢ / ١٨٨٥		معاهدات بين بلجيكا والزعماء المحليين فى أعالى نهر الكونغو.
١٨٨٤ / ١٨٨٥		عودة غوردون لاخلاء السودان
	٢ يناير	معاهدة بين فرنسا وزعماء العيسى فى الصومال - حماية .
	٧ يناير	اعتراف اسبانيا بالكونغو الحرة .
	٢٦ يناير	سقوط الخرطوم فى يد الدراويش ومقتل غوردون .
	٣ فبراير	احتلال إيطاليا لمصوع .
	٥ فبراير	اعتراف فرنسا بالكونغو الحرة .
	٥ فبراير	اتفاقية بين فرنسا والكونغو الحرة بشأن المحطات الخاصة والممتلكات .
	٥ فبراير	اعتراف روسيا بالكونغو الحرة .
	١٠ «	اعتراف السويد والنرويج بالكونغو الحره .
١٨٨٥	١١ فبراير	اعلان فرنسا حمايتها على المنطقة من رأس على إلى قبة خراب
	١٤ فبراير	اعتراف البرتغال بالكونغو الحرة
	٢٣ فبراير	إعلان بلجيكا اعترافها بالكونغو الحرة
	٢٣ «	اعتراف الدانمارك بالكونغو الحرة
	٢٧ «	وثيقة الشركة الاستعمارية الألمانية .
	٢٦ مارس	معاهدة فرنسا بحمايتها على ساحل الصومال
	١ أغسطس	اعلان من البلجيك عن تأسيس الكونغو الحرة ، تولى سيادتها ليوبولد الثانى .
	٢٤ أكتوبر	اتفاقية بين الباب العالى وبريطانيا بشأن الجلاء عن مصر الخ

١٨٨٦	٢٩ أكتوبر } ١ نوفمبر }	اتفاقية بين بريطانيا وألمانيا عن حدود زنزبار .
١٨٨٦/١٨٨٤		معاهدات بين بريطانيا وزعماء ساحل السومال ـ حماية
١٨٨٧	مارس	معاهدة بين بريطانيا وألمانيا ـ مناطق النفوذ فى شرق أفريقيا .
	٢٢-٢٩ ابريل	مذكرات بين الكونغو وفرنسا بشأن حق الاستيلاء .
	٢٩ ابريل	بروتوكول بين فرنسا والكونغو عن الأوبانجى .
	٢٤ مايو	امتيازات الشركة البريطانية لشرق أفريقيا فى زنزبار
	٢٤-٣١ مايو	مذكرات بين بريطانيا وإيطاليا بتحديد مناطق النفوذ من رأس كسار على البحر الأحمر .
	٧ يوليه	اتفاق بين إيطاليا وزعماء الدناكل عن أوسه .
	٢٠ يوليه	إعلان بريطانيا حمايتها على ساحل السومال من رأس جيبوتى إلى بندر زيادة .
	يوليه	اتفاق بين ألمانيا وبريطانيا بشأن عدم ضم أية ممتلكات تقع تقع خلف حدود مناطق النفوذ فى شرق أفريقيا .
١٨٨٧	٢٠ أكتوبر	اتفاقية تحالف بين ايطاليا شوا .
١٨٨٨	٢-٩ فبراير	اتفاق بين بريطانيا وفرنسا عن خليج ناجوره وهرر الخ الخ
	٩ ديسمبر	معاهدة بسيادة إيطاليا على الدناكل
١٨٨٩	٢ مايو	معاهدة أوتشيالى بين أتيوبيا وايطاليا
	٢ أغسطس	وصية الملك ليوبولد الثانى بانتقال حقوق سيادته على الكونغو الحرة إلى البلجيك وذلك فى حالة وفاته .
	٣١ أغسطس	اتفاق عن حكر للشركة البريطانية فى شرق أفريقيا في زنزبار .
	أول أكتوبر	اتفاقية بشأن قرض من إيطاليا لأتيوبيا بضمان جمارك هرر
١٨٩٠	٢٤ مايو	اتفاقية ماكنون وليوبولد التى لم توافق عليها بريطانيا
	١٤ يونيه	اتفاق بريطانيا وزنزبار ـ الحماية البريطانية .
	١ يوليه	اتفاق بريطانيا وألمانيا بخصوص مناطق النفوذ

	٢ يوليه	قرار بروكسل بشأن الرقيق .
	٤ نوفبر	إخطار بريطانيا للدول عن حمايتها لزنزبار
١٨٨٤/١٨٩٠		مذكرات بشأن محميات ألمانيا فى شرق أفريقيا
١٨٩١	٥ مارس	اتفاق بين زنزبار وشركة أفريقيا الشرقية البريطانية بشأن موانى بنادر
	٢٤ مارس	بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بشأن منطقة النفوذ الايطالية من الجوبا إلى النيل الأزرق .
	١٠ أبريل	أرسل النجاشى خطابا دورياً إلى الدول الأوروبية يعلن عن مطالبته بجميع حدوده القديمة على النيل إلى بحيرة رودلف .
	١٥ ابريل	بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بخصوص منطقة النفوذ الايطالية من رأس كسار إلى النيل الأزرق .
	٢٠ أغسطس	أعلنت الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا عزمها على اخلاء اوغنده
١٨٩٢	٢٢ مارس	فرمان سلطانى بولاية عباس موضحاً فيه حدود مصر .
	٣٠ مارس	اتفاق لوجارد مع ملك اوغنده
	٢٢ يونيه	اخطار بريطانيا بوضع محميتها زنزبار فى نطاق مواد التجارة الحرة التى وردت فى قرارات برلين .
١٨٩٣	١٢ أغسطس	معاهدة بين زنزبار وإيطاليا بشأن بنادر
	٢٩ مايو	معاهدة مؤقتة بين بورتال وملك اوغنده لسد الفراغ بانسحاب الشركة البريطانية .
	١٥ نوفبر	اتفاق بين انجلترا وألمانيا عن مناطق النفوذ فى غرب أفريقيا
	١٥ مارس	اتفاقية بين فرنسا وألمانيا تنازلت لفرنسا عن جزء من منطقة نفوذ ألمانيا سنة ١٨٩٣ الموضحة باتفاق انجلترا
١٨٩٤	٥ مايو	بروتوكول بين بريطانيا وايطاليا بشأن شرق أفريقيا وهرر
	١٢ مايو	اتفاقية بين بريطانيا والكونغو بشأن مناطق النفوذ وحوض بحر الغزال واللادو .
	٢٢ يونيه	إخطار بسحب البند الثالث من اتفاقية ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ بين بريطانيا والكونغو .

	١٤ أغسطس	اتفاقية بين فرنسا والكونغو عن الحدود .
	٢٧ أغسطس	اتفاق كولفيل وملك اوغنده
١٨٩٥	٥ فبراير	اتفاق بين فرنســا والبلجيك بشأن الشفعة فى أملاك الحكومة الحرة .
	٢٥ يونيه } ٧ يوليه }	اتفاق مصر وإيطاليا بشأن الحدود بين خور بركة والبحر الأحمر
	١٤ ديسمبر	اتفاق بين بريطانيا وزنزبار بخصوص الادارة البريطانية على الساحل والجزائر فيما عدا زنزبار وبمبا .
١٨٩٦	١ مارس	واقعة عدوه التى هزمت فيها إيطاليا .
	٢٦ أكتوبر	معاهدة بين إيطاليــا وأتيوبيـا اعترفت فيهــا إيطاليـا باستقلال أتيوبيا .
١٨٩٧	٢٠ مارس	اتفاقية بين فرنسا وأتيوبيا بشأن الحدود بين أتيوبيا والمنطقة الساحلية الفرنسية .
	٢٠ مارس	اتفاقية بين فرنسا وأتيوبيا (سرية) بخصوص امتداد نفوذ الدولتين إلى حوض النيل الأبيض .
١٨٩٧	١٤ مايو	تبادل مذكرات بين بريطانيا وأتيوبيا بشأن معاملة السوماليين الذين يقبلون الرعوية الاتيوبية .
١٨٩٧	٣٠ أغسطس	مذكرة بين بريطانيا واتيوبيا بتوثيق معاهدة ١٤ مايو سنة ١٨٩٧ .
	٢٥ ديسمبر	إقرار تنازل من إيطاليا لمصر عن قلعة كسلا
١٨٩٨	٧ ديسمبر	اتفاقية بين مصر وإيطاليا بخصوص ضرائب الرعى المطلوبة لادارة أرتيريا .
	٧ ديسمبر	اتفاق بين مصر وإيطاليا بشأن الحدود الشمالية لأرتيريا
١٨٩٩	١٩ يناير	اتفاقية السودان ثم اتفاقية ضم حلفا وسواكن للسودان
	٢١ مارس	اعلان متمم للاتفاقية التى عقدت بين بريطانيا وفرنسا فى ١٤ يونيه سنة ١٨٩٨ عن مناطق النفوذ .

« الملاحق والوثائق »



الملحق الأول

وثيـــقة الفقيه محمد أبو دليق[1]

بيان حامد بن صالح الدليقابى قد توضح أفكار الزمان . والزمان وارثاً لكل مكان سنة ستمائة واثنين وسبعين من هجرة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام أن من أهل الشروق الألسنة العربية ١٣ طائفة نزلت بدار دميس وما من أبحار النيل أربع هلالية واثنان من بنى مخزوم واثنان من كنانة وواحدة خزرجية من بنى النجار واثنان من بنى أمية واثنان من بنو هاشم فتفرقوا من الاياتم إلى تونسه العلام بعد فتوح الاسلامى النورانى بالقسمة السهمية وقسمة هلاله لأجل المساعى من شبيكة كار إلى تونسه العلام وكنانة وبنو مخزوم من جبل أودون إلى جبال الذهب برور وبحار وبنى أميـــة على شاطىء البحرين الفشتين مابين أتبره وبربر ومابين مرج البحرين الأبيض والأسود والعباسية من حجر العسل إلى جبل أبو نقاقير مشرقا وغربا وبعضاً منهما مع الخزرجية من ملواد إلى البحيرة (بالقطر المصرى) .

ثم بعد ذلك أولاد سرار سمار وسمرة وسميرة الهاشميـة مع أعمامهم كامل واحمد ولميمها من القوم أول ما نزلوا من الشرق استقروا ليمانى الكاسنجر وعمهم حاسن مع أهله نزلوا بأم غيره بمعاشم جديدة نحو بربر وقد انتقلنا برور الغرب إلى بحر الغزال استغرقنا فيه أربعة خلفات ومنه انتقلنا إلى وادى مقدم من جبرة إلى أم طوب وقد ورثنا فيه خلفتان وكلت الديار من مشاهى المساعى قد توجهوا هنا أولاد محمدأبودليق عبد الله وعلى وصالح إلى شرق هوات سلمى فى سرور شهر رجب سنة ١٠٠٠ ينقضى ثلاثة أعوام ووسمهم على الإبل والبقر والغنم على اليمين نار فوق الأذن مطرق وشاهد وانتقل منه سالم بن معارف إلى الصعيد هو وأولاده حكار وسليمان فاختلطوا مع الجمع ومدرروكون فى السجل وانتقلوا النقارة إلى كويمات النوق (دنقلة) دار مناها سبعة وعشرين[2] خلفنا فيهـــا خلفه واحدة ومحمد وارث الدين أبو دليق وماسى

---

(١) نقلت هذه الوثيقة عن مخطوطة محتفظ بها الشيخ يس أحمد أبو دليق بواد مدني . ويكتب الاسم أيضاً أبو « دلق » ومصغرها « دلبق » = الحرقة البالية .

(٢) دار مناها سبعة وعشرين . يقصد دار مناها سبعة وعشرين درجة التى للمسجد = ويشير بذلك إلى أن دار كويمات النوق التى هى دنقلة هى نهاية ما تتمنى الجماعة من امتلاكها فى الدنيا .

أبو دليق كان بالتعليم قد حصل عراؤه بالمساجد والزمن وأحل لاميسرة بيد أبيه صلاح الاراية الاسلام الوارثها[٣] من جده عبد الله ابن العباس المنقسمة إليه من التسعة رايات المؤيدات بالنصرة - أنشأها صلى الله عليه وسلم بعد دخوله المدينة اثنان لأخواله أولاد عم آمنة بنت عبد الله ابن جابر الاوسى وأخيه عامر وواحدة لشقيقه جابر بن عبد الله الخزرجي وواحدة لصديقه أبي بكر وواحدة لسيدنا عمر وواحدة لسيدنا عثمان وواحدة لسيدنا علي وواحدة لعمه حمزه وواحدة عبدالله ابن العباس. ثم أن صلاح لما هم[٤] من عراء ولده كساه الراية وأمده بباجها وحفظها تكون ورثة لصاحب المقام وجرادة لمن يقدم بدينه إلى محلنا فبذلك تأثر اسم شاهر بالدليقاب. ثم نبين لك أولاد محمد وارث الدين ستة ضريس وكروم وعلى وناصر وعوض الله وحامد وأولاد ضريس شرق جبل أبو نعوق وكروم وعلى ناصر الأشقة هما بالتوقد وعوض الله وحامد فارقوا أهلهما فى النوق إلى دار الغرب بمليط (دارفور) وأولاد كروم سليم وسال وعايد وأما ناصر وأولاده أربعة صالح وصبح الله وسجاد وأمين وان صالح بن ناصر امه كنزيه وفارق النقارة وقارن المواكه[٥] فى وادى عريس وله ولدين واحد صبح الله وأخيه حامد وصبح الله وولده حمد تنير ولد كوكو وكوكو ولد عبيد الله ولد الضو وحامد وأخيه ولد صالح وصالح ولد الطيب والطيب ولد محمد ومحمد ولد الحسين والحسين ولد صالح فاختلطوا مع المواكه ومدروكين بالسجل ثم أن الوسم على الابل أربعة وجوه نار الدليقاب أولاد ضريس ومن معه القلادة على الشمال والطوق على الورك اليمين وأولاد الملك ناصر القلادة على اليمين والخرار على الشمال عميد كغنز وأولاد كروم والقلادة على الشمال والخرار على اليمين والسامع وأولاد ادريس ولد عايد سكنوا وادى القعب[٦] باللقيه بالشابط وتم تبين أهل الله من الدليقاب على وابن أخيه عبد الله بالهواد[٧] وحامد بمقرات واحمد أبو دليق لشرق جبل ابنعوف (ابن عوف) الملقب بقادى أمه زوانى بنت حسن القناوى الحسن حيدر وسليمان المعقور بن احمد بدارفور

---

(٣) الوارثها = التي ورثها

(٤) لماهم = عندما خالجته الهموم

(٥) المواكه = الهواوير

(٦) القعب = شمال دنقله.

(٧) الهواد = شرق أبو دليق بالبطانة.

رئيساً بها وسالة[8] بالارتل وصالح بجراوة وارقو والشيخ ابراهيم بأرض مصر وعبد الكريم باليمن ثم نبين لكم الوارثون . قد انتقلت من النوق إلى وادى مريخ جزيرة قشاب[9] استقررنا بها صاحب السجادة حامد بن صالح ابن عابد بن كروم بين محمد أبو دليق إلى صلاح بن ساجد الملقب بدير بن سوان بن شرع الدين ابن أبو مرخة بن سعد الدين بن سمار ابن كروم بن حمد الحجازى بن قضاعة بن الرافع ابن مصرف بن سقف بن أمان بن حرقان بن كوثر بن موسى بن ابراهيم بن سعد الدين ابن عبد الله الفضل بن عبد الله بن العباس ثم النبي صلى الله عليه وسلم .

بيان حامد بن صالح الدليقابى والله أعلم بالصواب ياغفار اغفر ذنبي بالله .

(تعليق)

آثرنا نشر هذه الوثيقة بكاملها إتماماً للفائدة . فهى تبين لنا صورة من صور الحياة بعد دخول العرب فى هجرتهم إلى بلاد السودان وقد جاءت ترجمة حياة الشيخ أبو دليق فى كتاب الطبقات والوثيقة مكتوبة بحبر العمارة الأسود القاتم اللون على ورق المعروف باسمه « أبو شباك » الذى يستعمل فى كتابة الوثائق .

---

(٨) سالة = ينطق بفتح السين واللام والتاء .

(٩) قشاب = المعروفة باسم قوشابى . أو غوشابى فى دنقله.

الملحق الثانى

وثيقة عن حفريات أثرية فى حوض خو بركه بالارتيريا [١]

كتبها كارلو كونتى روسيتى [٢]

قام الضابط الايطالى لويجى تالامونتى [٣] برحلة تفتيشية فى حوض خور بركة - فى المنطقة بين بلدة أغوردات إلى ملتق هـذا الخور برافده (Ambacta) وكان ذلك فى شهر يونيه من عام ١٩٠٢ الميلادى - وقد لاحظ هـذا الضابط أن بعض المواقع لها قيمة أثرية من شأنها أن تساعد على توضيح تاريخ الارتيريا والمناطق المجاورة من أتيوبيا والسودان . وقد بعث إلى هذا الضابط بمذكراته عن هذه المواقع لتحقيقها وأرى من المفيد أن أنشر ماوصلت إليه من نتائج للحفريات التى قمت بها فى هذه المنطقة التى لم يكشف عنها من قبل .

مقابر الفونج :

هناك مجموعات من البنايات الصغيرة الحجم منتشرة على طول السهل الواقع فى واد الرافد (Lacreb.) وتمتد على خور بركه فى اتجاه شمالى حتى تقترب من ميناء سواكن . وتعرف هذه البنايات بمقابر الفونج الذين أسسوا ملكا فى سنار فى القرن الخامس عشر الميلادى والتى امتدت حدودهـا جنوبا وشرقا حتى شارفت على البحر الأحمر .

وهذه البنايات صغيرة مربعة فى حجمها ولايعرف هذا النوع من فن البناء فى هذه المنطقة فى الوقت الحاضر . ويتكون البناء من أحجار كبيرة منتظمة الشكل الخارجى معقودة فوق بعضها متماسكة بطبقة طينية بين الأحجار . وهنالك أحجار طويلة متشابكة الأطراف تربط بين الأجزاء العليا للبناية وتقوم على هذه الأحجار « قبة »

---

(١) روسيتى مقال ١٩٠٣ ص ١٣٤ ـ ١٥٠

(٢) أنظر مقال الدكتور مراد كامل عن ترجمة حياة روسيتى (٢٥) ابريل سنة ١٨٧٢ - ٢١ أغسطس سنة ١٩٤٩) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ١١ جزء ١ ص ١٥١/١٥٨

(٣) كان موظفاً بالادارة الايطالية لارتيريا .

من الحجر والطين . وفى البناية نافذة صغيرة فى كل من الجوانب الأربع وتقع فى منتصف المسافة من سطح الأرض لاعلى البناء . وتطل على السهل المحيط بها وأرضية البناء فى كل الحالات أعلى من مستوى السهل .

وقد قمت بفتح إحدى هذه البنايات المنتشرة فى أعداد قليلة منعزلة أوفى مجموعات كبيرة . وكانت تلك البناية التى نبشت من المجموعة القائمة فى وادى لنقيب (Langeb) بين تأمينات وآبار إداردى . وقد وجدت على عمق خمسين سنتيمتر من سطح الأرض بقايا عظام بشرية تحول هيكلها إلى مسحوق أبيض اللون . ولم أعثر على أوعية أو كتابات فى داخل المدفن وأضيف على ماتقدم ذكره أن عدداً كبيراً من هذه البنايات موجود من « دور طه » .

ويقال أن الفونج قد أصيبوا بهزيمة منكرة كما تذكر الرواية التى يتناقلها الأهالى أن الجماعة المعروفة بالقدين Al Gheden ترجع فى أصلها إلى الفونج التى هاجرت بعد الموقعة الفاصلة .

* * *

هذا هو التقرير الذى نشره الأستاذ روسينى عن هذه الحفريات ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير إلى ما كتبه مادجان مساعد جيولوجى إدارة السودان الذى زار منطقة البحر الأحمر شمالى بورسودان فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ وإلى تعليق كروفرت على هذا المقال والذى حاول فيه أن يحدد تاريخ تلك المبانى وقد أنهى كروفوت تعليقه بأنه « يربط باطمئنان بين هذه القباب وبين الجماعات من البشا المستعربين الذين اتصلوا عن طريق القوافل بين بلدة قوص أو أسوان وعيذاب فى القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . » أنظر مجلة السودان فى مدونات ورسائل (S.N. & R.) الجزء الخامس ص ٧٨ / ٨٢ مقال Madigan C.J. عن وصف الحصون شمالى بورسودان .

ومما لاجدال فيه أن هذه المسألة تتطلب المزيد من البحث الذى يتحتم قيامه فى منطقة البحر الأحمر من حوض خور بركة وعلى طول طرق القوافل عبر الصحراء الشرقية . وهذه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ مملكة البلى الاسلامية وحروبها التى انتهت باضعاف هذه المملكة وتفرق أصلها إلى مجموعات صغيرة امتصتها قبائل أخرى كما ذكره لوبو وكتاب فتوح الحبشة الذى نشره رينيه باسيه . وكتاب قبائل البجا الذى كتبه بول (Pavl, A.) سنة ١٩٥٤ .

الملحق الثالث

ملخص تاريخ أربجى[1]

أول من أسس المدينة المذكورة هوحجازى ولد معين وذلك فىعام ٨٨٠(هجرية) ثم من بعد المدينة المذكورة أسست مدينة سنار بواسطة الملك عمارة دنقس وذلك بمعينة (معاونه) الشيخ عبد الله جماع جد العبد لاب ثم بعد انتظام وتعمير مدينة أربجى فاول شيخ تعين للمدينة المذكورة الشيخ نور محمد ولد رحيمه فى عام ٩١٣ ﻫ وقتل فى غزوة محمود ولد كوينه حينما غزا الجعليين خرب ادريس ود ملك الجعليين حينما عصى ملك سنار . وتعين بعده شيخاً لاربجى ابنه محمد نور وتعين بعده ابنه الشيخ شمبول محمد ولد نور الذى جمع بين المشيخة ووزارة ملك سنار بادى ود رجب وكان ذلك قبل خروج الملك بادى لحرب الشكرية الذين خرجوا عن الطاعة وعين الوزير شمبول ود محمد نور لخدمة العريان جهة الداخلة الشلال ثم لما رجع الملك بادى من حرب الشكرية باتنيرة[2] واستقراره برفاعه[3] وكان من عادة ملوك سنار يعملون عرضات ويرمحون بالخيل أمام الملك وكان أول من رجح بالحصان أحد إخوانه أبناء عمه محمد ناجى وعادة أهل الخيل يقفون على بعد من الملك والمذكور (محمد ناجى) طلق الحصان حتى قرب من الملك وعلا الغبار على رأس الملك بادى فامتلأ قلبه غيظاً منه وأمر أن يضرب بالسياط لإساءته الأدب فلما ألقى على الأرض لم يثبت للضرب وعظم ذلك على إخوانه لعدم صبره وتجلده لأن عادة أهل السودان التجلد والصبر على المكاره وكانوا اخوان الرجل المضروب استأذنوا من الملك ليحملوه إلى سنار للمعالجة فاذن لهم بحمله وكان الملك بادى قبل قيامه لحرب الشكرية عزل الشيخ الأمين مسمار والشيخ احمد على ولد هيفه شيخ الكماتير والمذكور من

---

(١) هذه المخطوطة من الأصل الذى يحتفظ بيت ولد شمبول بالسلمية (بين ولد مدنى والحصحيصا على النيل الأزرق) وقد تفضل بالاشراف على نقلها الأستاذ يوسف أحيمر بسكك حديد السودان .

(٢) حوض العطبرة أو الأتبرة.

(٣) رفاعه تقع شرق النيل الأزرق بالقرب من الحصحيصا .

كبار أهل الطواق (٤) وكان أولاد عم الرجل المضروب تعصبوا (٥) واضمروا على قتل الملك هم وعشيرتهم وبعضاً من الطواقى كالشيخ أمين مسمار والشيخ احمد على هيفه وحلفوا على قتل الملك بادى ثم ان اخوان المضروب كانوا تحت قبضة الملك فصار كلا منهم يستأذن الملك للتوجه إلى سنار من رفاعة لأجل مناظرة أخوهم (أخيهم المضروب) حتى تكاملوا بسنار جميعهم وقويت شوكتهم وسعوا فى كيفية حرب الملك بادى . وكان الوزير إذ ذاك شمبول ود محمد نور الذى كان خليفة الملك على سنار لأجل خدمة العربان بالداخلة . فتوجهوا إليه وقتلوه وشاع الخبر إلى الملك برفاعه وقام الملك بادى من حينه بالجيوش وتوجه لسنار للحرب معهم فلما وصل إليهم قابلوه واصطفت الصفوف ثم أن الملك أمر ابنه دوس (٦) أن يفتتح معهم الحرب فنازلهم وبعد قليل ولى منهم هاربا ثم بعد ماهرب ابنه دوس تقدم الملك بنفسه للحرب فبرز الشيخ الأمين مسمار من مشائخ طاقية العبدلاب (٧) فضرب الأمين مسمار الملك بادى بالسيف على رقبته فقطع وريده ثم ان الضربة قد أذت الملك بادى وأما الملك بادى عاقب الشيخ الأمين مسمار بالضرب بالحقه ستة ضربات بالسيف فلم تؤثر فيه ضربة واحدة ثم أن الملك لما أحس بالألم وعرف أنه هالك أمر أولاد عمه بأن يقتلوه بسيوفهم لأجل مايقولوا (٨) قتله الشيخ الأمين مسمار وهو عار عليه وقد كان ضربوه بسيوفهم وقتل على هذه الكيفية . ثم بعد قتل الشيخ شمبول ود محمد نور تعين ابنه الشيخ مدنى ود شمبول فى أربجى أعظم مشيخة وكانت أيامه فى معظم عمارة أربجى وفى أيامه كان أحد الفقراء المشاهير الفقيه محمد علقم ثم أن الفقيه نفسه توجه إلى ملك سنار وفى ذلك الوقت كان ملك سنار محمد ولد ناصر وبعد وصوله إليه والوقوف بين يديه طلب من الملك جاها إلى حلته (٩) بمعنى خدمة جميع البلد تعطى إليه لأن عادة ملوك السودان يعطون الفقهاء فى ذاك الزمن الأعشار وقد مضى له بأعشار حلته وصار يخدم حلته بنفسه خاصة وبدون أمر

---

(٤) طواق مفردها طاقية وهى غطاء الرأس الرسمى لشارة الحكم وتعرف بالطاقية أم قرين (قرن) أنظر صفحة ١٢٣ .

(٥) تعصبوا = جمعوا أهل عصبيتهم .

(٦) دوس = تنطق بضم الدال وفتح السين ــ والكلمة أصلا ترجع الى المصرية القديمة

(٧) مشائخ طاقية العبد لاب = أى مشائخ مانجليكية العبد لاب .

(٨) لأجل ما يقولوا = حتى لا يقولوا .

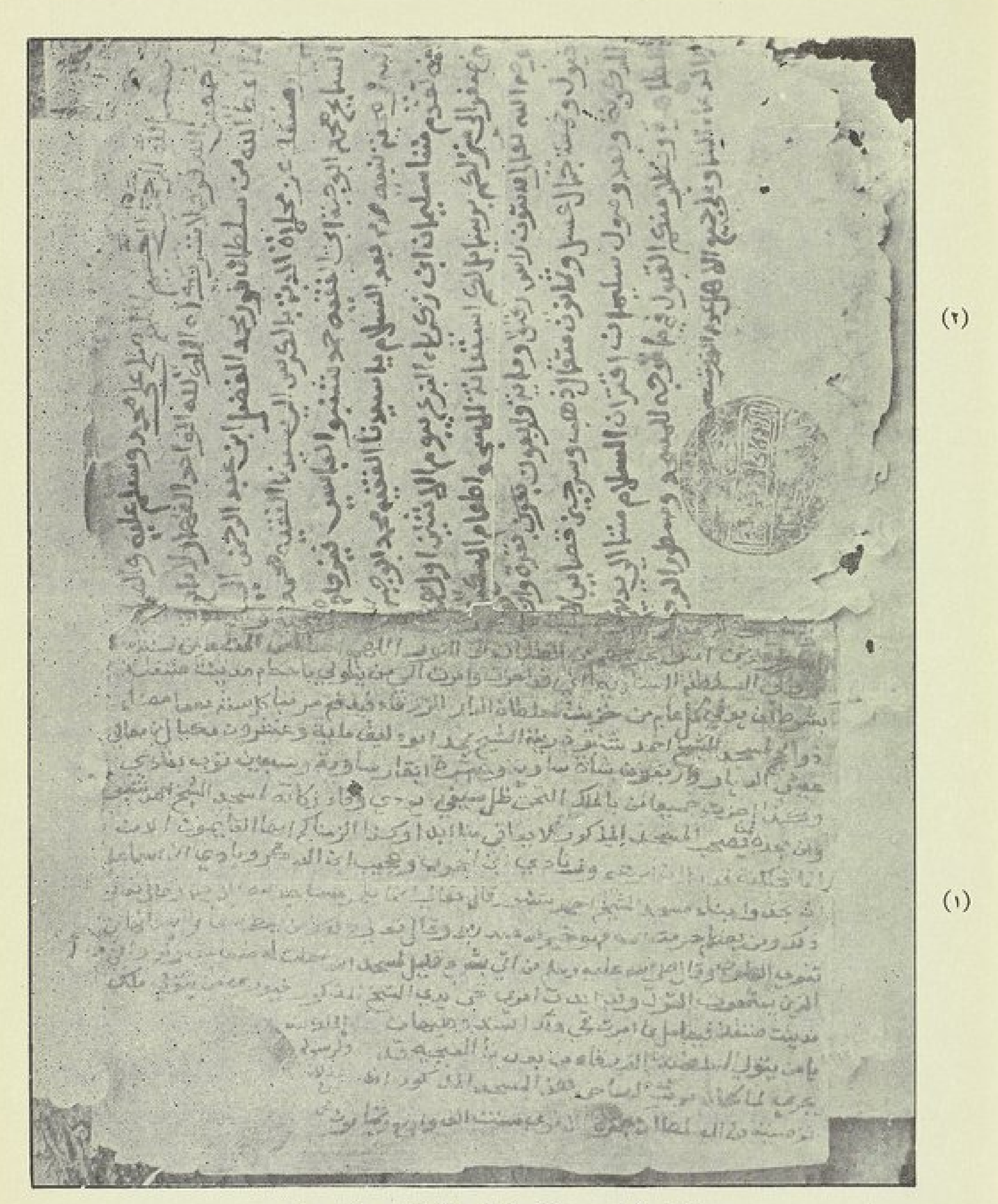
(٩) حلة = قرية .

الشيخ مدنى وبعد ما أمضى له الملك لم تكن للشيخ مدنى ود شمبول سلطة عليه ولا على أهل الحلة التى بها الفقيه ود علقم وبهذا السبب الشيخ مدنى شيخ أربجى قتل الفقيه ولد علقم وجميع أهل الحلة التى كانت تخدم الفقيه ود علقم فلما سمع ملك سنار بذلك غضب غضباً شديداً وعزل الشيخ مدنى ود شمبول عن شياخة أربجى وعين بدله لأربجى محمد ود النو من دناقلة أربجي وأهلها القدام وكان من أهل الغناء المشهورين بأربجى وكان بعد ماعزل الشيخ شمبول توجه هو(١٠) وجميع جيشه إلى جبال العطيش وأقام هناك مدة سبعة سنوات والشيخ محمد النو الذى تعين بدله مقيما بأربجى وبعد حضور الشيخ مدنى من جبال العطيش بسنار هو وأخواته وجميع الجيوش والعوائل والعشيرة التى معه قاصدين جهة السلمية ليكونوا بها فلما سمع الشيخ محمد النو أن الشيخ مدنى شمبول أخذ معه الخواص من أولاد عمه وتوجه بهم إلى سنار لمقابلة الملك ليلتمس رضاه فلما سمع الشيخ ود النو ان الشيخ مدنى ود شمبول شيخ أربجى المعزول سابقاً توجه لسنار خشى منه أن يتفق مع الملك ويرجع شيخاً على أربجى ثانياً وأن الشيخ المذكور محمد ود النو أخذ خيولا وعبيداً وجواريا وذهباً كثيراً ليعطيه للملك لبقائه على شياخة أربجى فلما قرب من سنار قابله الشيخ مدنى الذى كان يخافه خارجا من سنار بعد أخذه الاذن من الملك ثم ان الشيخ مدنى بادر على قتل الشيخ محمد ود النو وذهب بجميع ما جاء به للملك من خدم وعبيد وخيول وذهب ورجع به للملك وأخبره الخبر فلما سمع منه الملك ذلك غضب غضباً شديداً وهم بقتل الشيخ مدنى شمبول ثم ان أكابر رجال الدولة والأعيان دخلوا على الملك ليشفعوا للشيخ مدنى من القتل وقالوا هذا الرجل من بيوت الملك وأن أبناءه لهم عند الملك جاها وكانوا من أعظم شجعانه ولهم مزايا كثيرة وقد انحل غضب وقال للشيخ مدنى قد عفوت عنك فمن وقتها قد قام الشيخ مدنى لوطنه المسلمية وصار جميع عمار أربجى تحته وكان خراب أربجى سنة ١٠٤٠ (هجرية) وتعمرت المسلمية وكان بلال ود بله من أهل شورة الملك وكانت تصدر منه كلمات فى حق الشيخ مدنى ومنها كلمة قالها قال سأجيب مشيخة الشيخ مدنى وأعطيها إلى أحد عبيدى ولما بلغ الشيخ مدنى هذا الكلام بهذه الصفة اغتاظ على بلال ودبله وكان احمد ابراهيم من قبيلة البساتنة وهو من التجار المشهورين بأربجى والمذكور كان سافر إلى أرض المخا (مخا ـ باليمن) وأحضر معه بضائع نفيسة تليق بالملك ـ سيوف ودروع عظيمة . ولما بلغ ذلك ملك

(١٠) الشيخ شمبول .

سنار قد أرسل إلى الشيخ مدنى شمبول بان يشترى له منه سيوف ودروع بالثمن وقد أخذ الشيخ مدنى السيوف والدروع وكان مقدراً قيمة الجميع ٢٥ أوقيـة ذهب وأن الملك تأخر فى ردها إلى الشيخ مدنى شمبول وطال الزمن بعد وصول الأشياء إلى الملك وصار التاجر يلح على الشيخ مدنى شمبول بالمطالبة وأن الشيخ مـدنى عرف التاجر بأن الملك لم يرسل إليه الذهب ولما طالت المدة وكرر التاجر إلحاحه بالمطالبة على الشيخ مدنى وأخيراً التجأ إلى بلال ودبله مستنجداً به للخلاص من الشيخ مدنى وتداخل بلال ودبله بين الشيخ مدنى والتاجر وعرفه أن أصل المال له لذلك صـار بلال يطالب بالمال وأخيراً اشتكى لملك سنار وقال له ان الشيخ مدنى ود شمبول قد أكل ذهبي ظلماً فلذلك ملك سنار طلب الشيخ مدنى ولما حضر عنده أمره بدفع المبلغ إلى بلال ولما اتضح للشيخ مدنى الأمر استأذن الملك فى الرجوع إلى المسلمية وبعـد مارجع للمسلمية استعد بآلة الحرب إلى بلال ودبله فى رحلتـه وكانت بالقرب من المسلمية وقتله هو ومن معه من أولاده وعشيرته ثم ان الشيخ مدنى عصا على ملك سنار وطلبه ملك سنار ليحضر عنده ولم يحضر عنده فقال له الوزراء ان هذا الرجل إلا نحتال على قبضه بدون حرب فقاموا من وقتهم وتوجهوا إلى المسلمية وقالوا له ان ملك سنار حلف يميناً لا يعافيك بشيء مطلقاً وحلف الوزراء أمام الشيخ مدنى المسلمية على كتاب الله وقالوا له قد قتلت قبله الشيخ محمد النو بستار قريباً من كرسى الملك فلم يحصل لك شيئاً وان هذا هو وأهله لم يؤخذ له الملك فيهم بشيء فلـما سمع منهم الشيخ مدنى هذا الكلام توجه هو وأخواته إلى سنار فلما بلغ الملك قدومهم إلى سنار قال اعملوا حيلة عليهم واقبضوهم بدون شوشرة فبوقتها قد عين الملك جيشا قبل وصولهم حلة طيبة قندلاوى فوقفوا على الشيخ مدنى أربعة أنفار وألقوا عليه القبض ووضعوا فيه الحديد وكذلك أخيه الشيخ عدلان فى محله قبض وكذلك بقية أخواته توجهوا إليهم أنفار وألق فيهم الحديد ثم ان الشيخ مدنى اجتهد مع الوزراء والرؤساء بالمبالصة (الرشوة) فى فك أخيه الشيخ عدلان وقال ان أنفك الشيخ عدلان وبق فى العقب (الأهل) لم تخرب دار شمبول ما دام هو فيهاوقال للوزراء قولوا له أن أخيك مدنى توجه للشرق ولم تعرف له جهة ومن وقتها قام الشيخ عدلان وهرب منهم وخرج بالشرق وان الشيخ مدنى شمبول هو وأخواته أدخلوهم على الملك فى الحين أمر الملك بقتلهم وقتـلوا بسيف الشيخ محمد ناصر ضحى وأما ما كان من أمر الشيخ عدلان قد طلبه الملك وأحضره لديه وعفا عنه وأعطاه المشيخة وصار شيخاً (واستمرت المشيخة فى بيت شمبول إلى أن حل ركاب حكومة العصملية

(العثمانية) وعصت الجعليون وقتلوا ود الباشا (الأمير اسماعيل كامل) وحرقه بالنار وكان الحاج شمبول قد قدم من أرض الحجاز بصفة تاجر ولما وجد ود الباشا والأكابر الذين مقتولين معه وكانت الحكومة قد جردت العساكر لمحاربة الملك نمر لأن الملك نمر تجهز لحرب الحكومة وكان ما كان من أمره إلى أن قام من بلده ولما طلبت الحكومة المشائخ المعينين وجاءت الكشاف وكان مركزهم أبو فروع وكان إذ ذاك الشيخ شمبول فاستمر شيخاً إلى ١٢٥٦ هـ وتعين بدله ولده عبد القادر شمبول أربعة سنين وبعدها عزلته الحكومة وتعين مساعد عبد القادر عام ١٢٦٠ هـ ثم بعد وفاة الشيخ مساعد ولد عبد القادر تعين الشيخ مدنى ود عبد القادر وقد عزل وتعين بعده شيخا الشيخ احمد أبو الروس أبوام كثير من قبيلة الجوادكيك وبعد وفاته تعين الشيخ مدنى شمبول ود مدنى ود شمبول وقد عزل وتعين مأمور إدارة المسلمية وتعين بدله شيخا الشيخ بخيت عبد الصادق الشيخ عدلان شمبول وتعين بعده الشيخ مدنى شمبول مأمور إدارة المسلمية وعزل وتعين بعده الشيخ بادى ود بخيت ود إدريس وعزل من المشيخة ثانياً وتعين الشيخ مدنى شمبول سنجق واستمر بيك باشا (بكباشى) الريسة (الرؤساء) الى أن قتل فى أول ثورة المهدية بشات هو وأخواته فهم عبدالقادر بيك باشا والعوض شمبول بيك باشا وكتور شمبول بيك باشا ومدنى عبد القادر شمبول وعبد الصادق احمد شمبول ثم تعين بعده الشيخ عبد القادر مساعد سبعة عشر يوماً فى المشيخة وحلت المهدية.وقد تم نظام المشائخ المتقدم ذكرهم فى سنة ١٢٩٩هـ.



(٢)

(١)

الملحق الرابع ـ (١) خطاب السلطان عدلان بن محمد

(٢) خطاب السلطان الغور محمد الفضل

الملحق الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم وصليت على محمد خير وآله وصحبه و (سلم)
الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور أللهم اجعلنا من المعتصمين بسنة . . .

ومن والى السلطنة السنارية انى قد أجزت وأمرت إلى من يتولى بأحكام مدينت ضنقلة بشرط أن يوفى كل عام من خزينت سلطان الدار الزرقاء فيدفع مرتباً كل سنة بعد إمضاء ذو الحج لمسجد الشيخ أحمد شنبو خليفة الشيخ محمد أبو دليق مائة وعشرون مكيال من معالى عيش الدينار وأربعون شاه ساوية وعشرة أبقار ساوية وسبعين ثوب بنادى وكذا أجزت جميعاً من بالملك التحت ظل سيفى يؤدى وفاء زكاته لمسجد الشيخ احمد شنبو ومن بعده لمن يصحب المسجد المذكور لا يعافى منا أبداً وكذا ألزمناكم أيها القايمون الآن بالمانجلكيه قنديل بن ابراهيم وزنادى ابن الجرى وعجيب ابن الذكروبادى بن اسماعيل ان تجددوا بناء مسجد الشيخ احمد شنبو وقال تعالى إنما يعمر مساجد الله الآية وقال تعالى ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند وقال تعالى ذلك من يعظم شعاير الله فانها من تقوى القلوب وقال صلى الله عليه وسلم من أتى بشيء قليل لمسجد الله حلت له شفاعتى وكونوا من الذين يستمعون القول وقد أبدت أمرى تحت يدى الشيخ المذكور فيؤدى من يتولى ملك مدينت ضنقلة فيعامل بما أمرت فى ذلك السند وهيهات يا من يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد المذكور انه توصيت من السلطان جره الأموى سنة ألف وأربع وثمانون .

الملك لله ولرسوله

عدلان ابن محمد

ختم السلطان

ملحق نمرة ٥

١ – بيان التقسيمات الزراعية – ب والمعاملات

١ – التقسيمات الزراعية:

١) الأراضي النهرية:

جزائر – وتشمل الأراضي التي يفصلها الفيضان العالي عن الشاطيء .

رمال – شاطيء النهر الرملي .

براية – (Barraya) الأرض المنحدرة من الشاطيء حتى شاطيء النهر الرملي وتعرف أيضاً بالسلوكه (Seluka) .

القيف – (Qeif) الجزء الأعلى من شاطيء النهر .

القرير – (Qerer) الجزء من الأرض من طرف القيف الأعلى وتمتد إلى حدود الغابة . أو الأرض الزراعية السوداء المعروفة بالتربة القطنية وتشمل أرض القرير الجرف المطرى إذا كانت زراعية بالأمطار والجرف الحى إذا كانت الزراعة بالري الصناعي .

ميعه – (Ma'ya) أو فراش وهي الأراضي المنخفضة وتقع بالقرب من النهر وتحيطها غالباً أشجار السنط .

٢) الأراضي التي تعتمد في زراعتها على الأمطار :

تعرف بأرض « الضهاري » وهي تبدأ من نهاية أرض القرير النهرية وتشمل الضهاري (مفردها ضهره : ظهر) .

١ – العزازه (Azaza) وهي الأرض الصلبة والرملية وتصلح لزراعة الدخن أو لاقامة مباني القرية (الحلة) .

٢ – البادوبه (Badoba) وهي الأرض المشققة وهي التربة القطنية وإذا كانت تتشرب المياه بسرعة تعرف بالفوده (Foudah) وإذا كانت المياه تبقى على سطحها فتعرف بام جميده (Baom Gemeida) ومحصول هذه قليل رغم ان الزراعة تنمو فيها بسرعة .

٣ — حريق — وهى الأرض التى ينبت فيها فى فصل الأمطار (الخريف) نوع من القش يزيد ارتفاعه عن القامة. وتشتعل فيه النار قبيل الزراعة ويكون الرماد المتخلف عن الحريق سماداً كبير القيمة وتختص المناطق الآتية لهذا النوع من الزراعة :—

دار الاحامدة : جنوبى كوستى
منطقة جبل مويارجبل اولي : غربى سنار
منطقة الدندر : وتشمل حوض الدندر والرهد.
« البطانة : القسم جنوب غرب وشمال شرق القصارف.

وفى المناطق التى ينمو فيها القش القصير فانه يترك للنمل الابيض المعروف بالأرضة أو أم رصاص والمتخلف منها يترك على الأرض لتسميدها.

ويستخدم الشادوف أو النبروه (الاسم المحلى للشادوف) لرى الاراضى التى على النيل. كما تقام الساقية على النهر لزراعة الأراض العالية على شاطىء النهر. وتحفر الآبار التى تعرف محلياً باسم المتره (Matara) لاستخراج المياه الجوفية لرى الأراضى البعيدة عن النهر.

هناك مصطلحات أخرى وهى :
البور — (الغفار — القفار) وهى الأرض التى لا تزرع.
حداب — وهى الأرض الصخرية على شاطىء النهر ولا تصلح للزراعة.
هدام — أرض الشاطىء التى تتآكل من المياة.
قرض — وهى الأرض الصخرية التى تغطيها طبقة طينية وتقوم عليها بعض الشجيرات.

حرام — وهى الأرض التى تفصل بين مزرعتين ويكون عرض هذه المنطقة على مسافة « رمى الفاس ».

نقاده — الأرض الزراعية قريباً من الحلة.
مغورة — (Maghura) التى تقع بين المساكن وتقوم على زراعتها النساء.
بلاد — أو بلدات الأرض التى تزرع أذرة.

ب) المصطلحات المحلية فى المعاملات الزراعية - الجبايات ألخ :
العشور — وهى العشر الذى يدفع عينا من محصول الأذرة.

قدح — يدفع بواقع أربعة أرباع من الأردب من زراعة السمسم (الأردب ٤٢٢ رطلا والربع يساوى واحد على عشرين.

دقافه — (Dagaga) (القاف صعيدية) يدفع صاحب القطية (محل السكن : البيت) عشرة قروش سنويا لصاحب الأرض (صاحب الأصل). ويستولى صاحب الأرض على قطعتين أو ثلاثة من أثواب الدمور من زارع الجروف بصرف النظر عن مساحة الأرض المزروعة.

وفى زراعة أرض السلوك (البراية) يستولى صاحب الأرض على ثلث أو نصف المحصول حسب الاتفاق وذلك فى حالة قيام صاحب الأرض بتقديم التقاوى.

دقندى — (Dugundi) المبلغ الذى يحصله صاحب الأرض من المستأجر الجديد فى حالة ما تكون قطعة الأرض قد أصلحها المستأجر السابق وتقدر القيمة بالاتفاق.

ضحوه — (Dahwa) جرت العادة على أن يستخدم صاحب الأرض الرجال وهم غالباً من الرقيق فى العمل نصف اليوم لاصلاح الأرض وتنظيفها للزراعة وهذه تحدث عند إنشاء قرية جديدة وفى الحالات التى يعجز فيها الرجال عن العمل عند صاحب الأرض بسبب أعمالهم الخاصة فان على كل شخص أن يدفع قرشاً أو قرشين بدلا عن شغله شخصياً. ومما يجدر ذكره أن هؤلاء الأشخاص المطلوب منهم العمل هم « الرقيق ».

خيرية — ريال صغير. ويؤخذ عن تأجير الأرض لمالك الأرض وهذه متعارف عليها بصفة خاصة فى دار الحسانية والحسينات.

قيراط — مايحصله رئيس القبيلة عيناً من الزراعة التى يقوم بها الأجانب فى دار البقارة.

وهناك جبايات أخرى تحصل وتعرف بالفطرة والزكاة وهى كالرسم الآتى :-

١ — الفطرة :

تحصل بواقع ½ ٥ أرطال عن الشخص - رقيق أو حر - طالما يعيش فى كنف العائلة وتدفع هذه سنوياً فى أول عيد رمضان الذى يعرف باسم شهر الفطرة فاذا كان لرجل زوجتين وخمسة أولاد وثلاثة من الرقيق يدفع رب العائلة ثلاثة وخمسين رطلا وثلث الرطل عن أهل بيته العشرة.

٢ — الزكاة :

ا) زكاة النقود : تدفع بواقع خمسة فى المائة من المال أو ثمن الذهب والفضة.

ب) زكاة العيش (الحبوب)

تؤخذ عن الزراعات التى تنتج ١٦٠٠ رطلا فأكثر. ولايحصل شيئاً عن

الزراعات التي تنتج أقل من ١٦٠٠ رطلا .

جـ) زكاة المال عن الحيوان

وتقدر هذه وفق نوع الماشية كالآتى :ـ

الغنم والماعز :

رأس واحد عن كل أربعين أو زيادة إلى ١٢١ وعند ذلك يدفع صاحبها رأسين وإذا زاد العدد عن ١٢١ فتؤخذ رأس عن كل مائة .

المواشي :

من ٣٠ إلى ٤٠ : يدفع عجل صغير
« ٤٠ « ٥٠ : يدفع عجل عمره من سنه إلى سنتين ويعرف بالتنى
« ٥٠ « ٦٠ : يدفع عجل واحد عمره ثلاثة إلى أربعة سنين ويعرف بالربع
« ٦٠ « ٧٠ : يدفع اثنين من العجول الصغيرة
« ٧٠ « ٨٠ : يدفع عجل واحد صغير وواحد تنى
« ٨٠ « ٩٠ : يدفع اثنين من العجل التنى

وبعد ذلك يؤخذ عن كل ثلاثين رأس عجل صغير وعن كل أربعين عجل تنى أى أن تسعين رأساً تساوى ثلاثة وحدات كل منها ثلاثين يؤخذ عنها ثلاثة عجول صغيرة ـ أيضاً ماية وعشرة من الماشية تساوى أربعين زائداً أربعين زائداً ثلاثين تؤخذ عنها عجل صغير واثنين تنى .

الجمــــال :

من ٥ إلى ٢٠ : شاة عن كل خمسة جمال
« ٢٥ « ٣٦ : جمل صغير أو ناقة صغيرة
من ٣٦ « ٤٦ : جمل لبن
« ٤٦ « ٥٦ : جمل عمره من سنتين إلى ثلاثة سنين
« ٤٦ « ٧٠ : جمل عمره من أربعة إلى خمسة سنوات
« ٧٠ « ٨٠ : جملين لبن
« ٨٠ « ٩٠ : جملين لبن وعدد اثنين من الغنم وهكذا كلما تم العدد ٣٥ جملا يدفع جمل لبن أى أن ١٢٠ جملا تساوى ٣٥ + ٣٥ + ٣٥ + ١٥ يدفع عنها ثلاثة جمال لبن وثلاثة أغنام .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده

من حضرت من نهاب الرجال وتحتمي من صولتها الابطال
يوم الحرب والنزال الواثق بالله الديان الشيخ محمد بن
المرحوم الوزير الشيخ عدلان نصره الله امين الى حضرت
الفقيه احمد ولد الفقيه ابراهيم الفرضي وكافة الفقرا
الفرضيين نسلم عليكم جزيل السلام فالذي نعرفكم به
نحن زماننا هذا كله ما طلبنا القبايل قاعدين في الجزيرة
وعمارها تعبوا او جسوا ونظرنا في حالهم رقابهم
والوقت هذا قطعنا يقينا في الدشد وطالبين
قبايل الشرق والعربان وانتم ابايكم مرتبتنا وفقرانا
والسباد دعونا الصالحة وشركا في الخير والشر
بعد وصول جوابي جاكم انتم وجملة فقراكم

الملحق السادس ــ خطاب الوزير محمد ابن الوزير عدلان

الملحق السادس

صورة خطاب من الشيخ محمد ابن المرحوم الوزير الشيخ عدلان إلى الفقيه احمد ابراهيم الفرضى

بسم الله الرحمن الرحيم

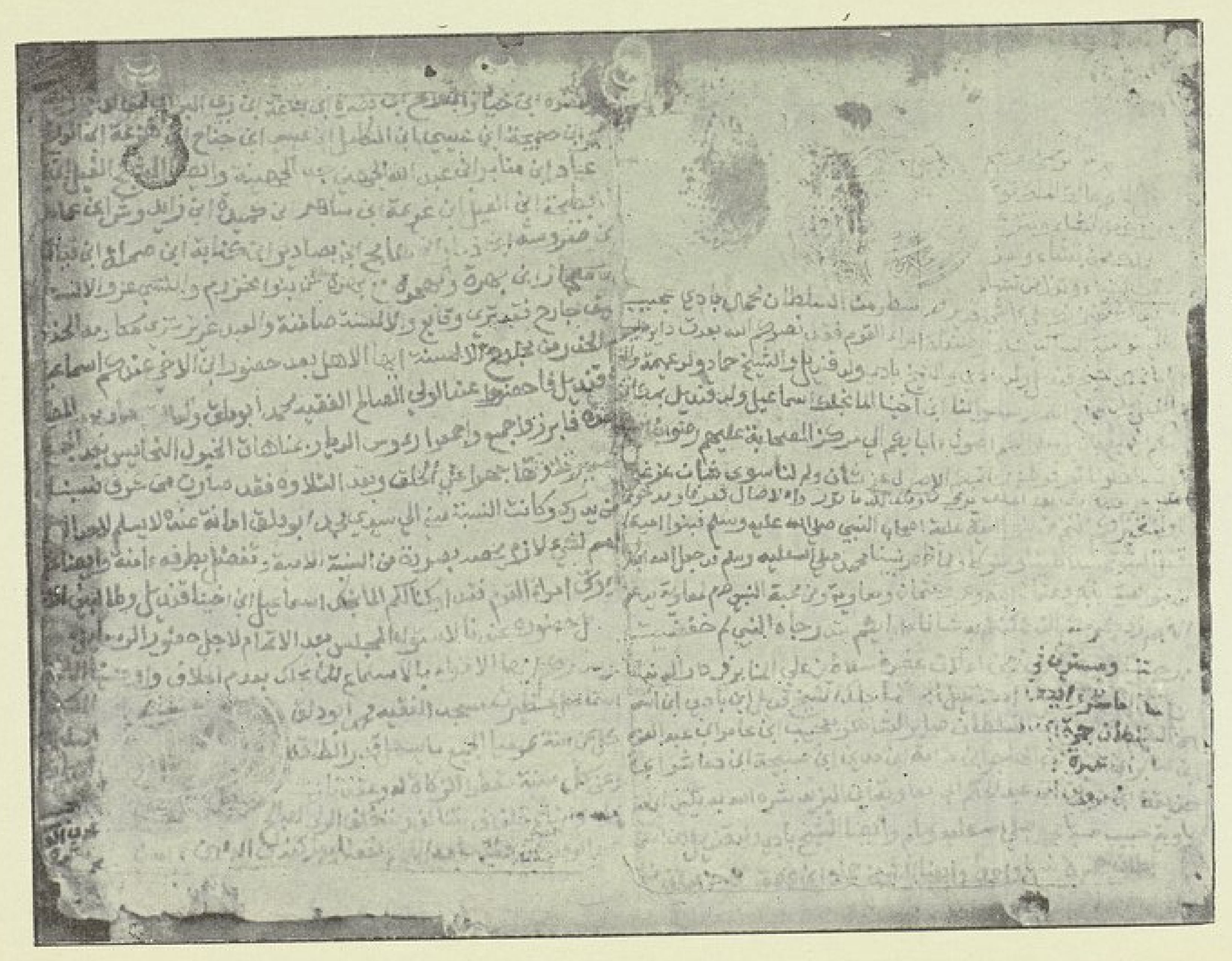
الحمد لله وحده
محمد لانبي بعده

(ختم) (الشيخ محمد بن الوزير الشيخ عدلان)
١٢٣١ (ه)

×(١) من حضرت من تهابه الرجال وتخشى من صولته الأبطال .
(٢) يوم الحرب والنزال الواثق بالله الديان الشيخ محمد بن
(٣) المرحوم الوزير عدلان نصره الله أمين إلى حضرت
(٤) الفقيه ولد الفقيه ابراهيم الفرضى وكافة الفقرا (٥) الفرضيين يسلم عليكم جزيل السلام فالذى نعرفكم به (٦) نحن زماننا هذا كله ماطلبنا القبايل قاعدين فى الجزيرة (٧) وعمارها تعبوا[٣] ونظرنا فى حالهم رفقاً بهم (٨) والوقت هذا بقينا[٤] فى الدندر طالبين (٩) قبايل الشرق والعريان وأنتم إياكم مرتبتنا وفقرانا[٥] (١٠) وأسباب دعوتنا الصالحة وشركانا فى الخير والشر (١١) بعد وصول جوابى أنتم وجملة فقراكم (١٢) جدوا واجتهدوا واتعبوا بسوال الله (٣) على نيه قضا حاجتنابهمة عالية (١٤) ونية صادقة لا يكون منكم غفلة ولاتهاون (١٥) ولافترة[٦] وإن سألتم عن الترك سلطنة (١٦) مصر بلغنا خبر قدومهم فى ماية وثمانين (١٧) ألف وهذا شيا قاسى على كافة المسلمين (١٨) اتركوا جميع أموركم واصرفوا همتكم بالسؤال (١٩) إن شاء الله ربنا يبطل سفرهم ويرجعون (٢٠) إلى محلهم كونهم مايعرفوا مرتبة ولاغيره (٢١) ولاعندهم اعتبار فى خاص ولا عام لانى واثق بذلك

× النمر الموضوعة بين قوسين تشير الى ترتيب السطور فى الخطاب المذكور الذى لايحمل تاريخاً

(١) أنظر كتاب الطبقات ص ٢٢ ترجمة الشيخ ابراهيم بن عبودى الفرضى
(٢) ما طلبنا القبايل أى اننا لم نطلب القبائل الموجودة فى الجزيرة .
(٣) تعبوا = أصابهم اليأس .
(٤) نزلنا فى الدندر .
(٥) يقصد أنتم سندنا ووسيلتنا إلى الله ـ فقرانا جمع فقير أى فقيه .
(٦) لا تفتروا وتتكاسلوا



سطر من السلطان محمد بادي عجيب

الملحق السابع ــ خطاب السلطان محمد بادى عجيب

الملحق السابع

خطاب السلطان محمد بادى عجيب

(ختم السلطان)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير . هذا مسطر من السلطان محمد بادى عجيب الى بنوا أمية الساكنين دار ضنقلة امراء القوم فقد نصركم الله بعون دائم . الى المانجلك الشيخ قنديل ولد بادى والشيخ بادى ولد قنديل والشيخ حماد ولد تميمه والشيخ الفيل ولد الحجاج انكم ارسلتو لنا ابن أخينا المانجلك اسماعيل ولد قنديل بمكاتبة منكم الجميع بان يرسلوا لكم اصول ابايكم الى مركز الصحابه عليهم رضوان الله . . . . . .

فان يا أهلونا تعرفونا فى كتابتكم الأصول عز شان ولم لنا سوى شان عز غير ذلك من ماتوروا الأصال

أولا نخبركم أنتم من بنو أمية علية أصحاب

النبي صلى الله عليه وسلم فبنوا أمية قبل النبوة سلاطينا وملوكا ولما ظهر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد جعل الله أبكارا من بنوا أمية أبا بكر وعثمان ابنه وعمر وعثمان ومعاوية ومن محبة النبى ص. م لمعاوية يدعو اللهم زد كرمكم الذى كنتم به شانا ابايكم بقدر جاه النبي لم خفضت درجتنا ومستوين فى زمن اه لان عشرة سلاطين على المنابر فى دار الدنيا فانا العاشر وأيضاً اسماعيل ابن المانجلك الشيخ قنديل ابن بادى ابن اسماعيل ابن السلطان جمرة ابن السلطان صابر الشاهر بعجيب ابن عامر ابن عبد العزير ابن صابر ابن عميره ابن الهاجر ابن مرامه ابن مدين ابن صبيحة ابن دهاشر ابن حذيفة ابن مروان ابن عبد الحكيم ابن معاوية ابن اليزيد شره الله به يكيد ابن . . . . معاوية حبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأيضاً الشيخ بادى ولد قنديل ابن اسماعيل . . . . سلطان جمرة وأيضاً الشيخ حماد ابن عيمة ....

ابن عيسى ابن الكامل ابن عيسى ....

ابن جناح ابن هزيمة ابن الولى عياد ابن منار ابن عبد الله الجهنى جد الجهينة وايضاً الشيخ الفيل ابن . . . ابن بطيحه ابن الفيل ابن غريمة ابن شاهر ابن كيدة ابن زايد وش ابن عما . . . . . . ابن ضفروسة ابن دياب ابن هاج ابن بصادير ابن كنانة ابن صملة ابن قيا ابن حجاز ابن بهرة والهجرة مع بهرة من بنوا مخزوم والنسب عز والا . . . . سف جارح فقد ترى وقايع والألسنة صامتة والعبد عزيز ترى مكارمه الحذر من مجارح الألسنة أيها الاهل بعد حضور ابن الأخى عندكم اسماعيل ابن قنديل فاحضروا عند الولى الصالح الفقيه محمد ابو دلق . . . . بعده فابرزوا جميع وأجمعوا رؤوس الديار بمناهات الخيول النحايس بعد الجمع يصير تلاوتها جهرا على الخلق وبعد التلاوة فقد صارت من شرف نسبنا من يدرك وكانت النسبة منى الى سيدى محمد ابو دلق امانة عنده لا يسلم لأحد . . . . . . اسم لشىء لازم يحضر بصورة من للنسبة الأمية وتفضل بطرفه امنة وايضا . . . . من أمراء القوم فقد وكلنا لكم المانجلك اسماعيل ابن أخينا قنديل وطالبين . . . . حضوره عندنا لاستواء المجلس بعد الاتمام لأجل حضور الرسايل . . . . منكم اليها الأمراء بالاستماع للمانجلك بعدم الخلاف واوصينا المانجلك اسماعيل لحظيرت مسجد الفقيه محمد ابو دلق كل عن بيته عموميا الجميع ما يسهل قدر الطاقة وعن كل سنة تعطوا الزكاة له وعقدنا نيتنا عليه واتباع خلف ذريتنا لذرية خلف الولى الصالح محمد أبودلق ابن الفقيه . . . . نفعنا الله ببركته فى الدارين آمين .

(ختم السلطان)　　　المكاتبة من السلطان

محمد بادي عجيب

ملحق رقم ٨

احمـــد ممتـــاز باشـــا

مدير عموم قبلي السودان

قد يتساءل المرء عن سبب اختيار هذه الشخصية من بين الشخصيات التى تولت حكمدارية السودان فى الفترة من ١٨٢٠م الى ١٨٨٥م وبينهم من اثبت جدارته وكفاءته وحسن ادارته . أما أحمد ممتاز باشا فقد اكتنفته ظروف غامضة حاولت أن تطمس معالم نشاطه وجهوده لرفاهية السودان وتقدمه الاقتصادى على أسس سليمة . وتبين لنا التقارير والمكاتبات التى ننشرها فى نهاية هذا الملحق مدى اهتمامه بالزراعه بخاصة القطن وعمله على رفع مستوى المعيشة وتحسين البلدان باعادة تخطيطها وتوفير مياه الشرب وادخال تعديلات على الضرائب بما يتمشى مع حالة الأهالى . كل ذلك قد خلق له أعداء وحاسدين وجدوا فيه منافسا قويا سوف يضعف من مركزهم وحظوتهم لدى الخديو المتعطش للمال وحتى لا تضيع عليهم فرص مطامعهم التى أغرقت البلاد فى الديون التى ذهبت ضحيتها مصر والسودان فمصر احتلها الأجنبى والسودان ترك فى ايدى الأجانب من الموظفين الذين عمدوا الى هدم كل أثر للاصلاح الذى قامت به الادارة المصرية ، لكى تعود به الى حالة بدائية حتى يصبح أرضاً بلا صاحب فتسهل سيطرة المستعمر بطريق أو آخر . ولذلك لجأ منافسوه الى دس الوشايات فى صورة شكاوى أرسلت تباعا الى الخديو كما سنتعرض له فيما يلى .

* * *

عين ممتاز افندى محافظاً لمصوع بعد أن كان فى ضبطية مصر واسندت اليه الرتبة الثانية (١) وقد تلقى علومه فى المانيا وتخصص فى الهندسة العسكرية وذلك بعد تخرجه من مدرسة المفروزة (٢) التى انشاها عباس الأول فى مارس سنة ١٨٤٨ م .

---

(١) انظر مكاتبة رقم ١ صفحة ٦٦ دفتر ٥٣٧ (تركى) عابدين المعية وتاريخه ١٦ يونيه سنة ١٨٦٥م (١٤محرم سنة ١٢٨٤ هـ) نقلا عن كتاب الحكم المصري في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ٢٥١ .

(٢) انظر سرهنك فى كتابه « حقائق الأخبار فى دول البحار » ج ٢ ص ٢٧٤ .

وقد عين ياورا للسلطان عبد العزيز خلال زيارته لمصر فى مارس سنة ١٨٦٣ م وشغل منصب محافظ البحر الأحمر وعمل على ادخال تحسينات فى سواكن كما اقام خزانا عند الشاطه (٣) لحفظ مياه الأمطار لتوفير مياه الشرب للميناء .

كما وضع مشروعات لزراعة القطن فى دلتا القاش وخور بركة عند طوكر وانشا قنوات للرى فى دنقله مازالت أثارها باقية الى اليوم وطلب من الخديو انشاء خط حديدى يربط بين البحر الأحمر وبربر بدلا من شندى وقد كافاه الخديو برتبة الباشوية وبتعيينه محافظاً لشرق السودان وشمل اختصاصه موانى ء سواكن وقطاع مصوع وساحل الصومال ومديرية التاكه وامتد نشاطه الى تعمير حوض خور القاش وحوض نهر العطبرة باستغلال الأراضى الصالحة لزراعة القطن التى جعل زراعتها اجبارية عندما تولى منصب مدير عموم قبلى السودان فى ١٨٧١ م لموسم زراعى واحد وكان غرضه من ذلك التكليف أن يتعرف على الطاقة الانتاجية للفدان الواحد بالنسبة للمزارعين وقد أقامت الحكومة محلجا للقطن فى كسلا بلغت تكاليفه نحو الثلاثين الف جنيه وذلك استجابة لطلب أحمد ممتاز باشا . الذى يرجع اهتمامه بالتوسع الزراعى للغلال وزراعة القطن بالذات الى رغبته فى بناء مجتمع جديد يقوم على ممارسة الزراعة وبعض الصناعات فتستقر الحياه ويرتفع المستوى المعيشى وبذلك تزداد طاقتهم على دفع الأموال الأميرية فى يسر وسهولة واقترح ممتاز باشا فى تقريره أن تحصل الجبايات عينية من المحصول كما اقترح أن يحلج قطن الأهالى فى كسلا ويرسل لسواكن حيث يباع بالسعر الجارى فى تلك الميناء . وكان السعر اثنى عشر ريالا ونصف الريال للقنطار ويحمل الجمل بالتين (وزن البالة قنطارين) وكان من رأيه أن ينقل القطن الذى تجمعه الحكومة على صالات للقاهرة فى أيام الفيضان حيث أن سعره فى القاهرة أعلى من سعر سواكن وهنالك عامل آخر لايقل أهمية عن العامل السابق ذكره عن اهتمام ممتاز بالتوسع الزراعى وبخاصة القطن — الا وهو العجز فى انتاج القطن العالمى الذى تسبب عن الحروب الأمريكية وكان طبيعياً أن يحاول ممتاز باشا استغلال هذه الفرصة لتنمية الموارد المالية وقد بذل الخديو كل معونة لممتاز لتنفيذ مشروعاته لأنه كان يأمل أن يدخل عليه القطن أموالا تساعده فى مشكلاته المالية .

---

(٣) تقع الشاطة بجوار سواكن مباشرة .

(٤) عباره عن مجموعة من الأشجار تضم الى بعضها وتستخدم لحمل القطن أو غيره بأقل التكاليف وفي نفس الوقت فان الأشجار تباع بعد وصولها غايتها لاستعمالها فى المبانى وغير ذلك .

وقد دخل ممتاز بسبب نشاطه فى مشاكل دفعت إليها الغيرة والحسد فى قلوب رجال اسماعيل المقربين وعلى رأسهم اسماعيل صديق المفتش . فمدير التاكه يعرقل جهود ممتاز ويعطل توزيع بذرة تقاوى القطن وأرسل هذا المدير شكوى للخديو . واشتبك مع جعفر باشا مظهر حكمدار السودان حينذاك ورفع الأمر إلى الخديو الذى استدعى جعفر باشا مظهر بعد أن قام شاهين باشا كنج بالتفتيش على أعمال ممتاز فى شرق السودان ورفع تقريراً للخديو مثنياً على جهوده وحسن إدارته وكان ذلك حوالى ١٨٧٠/١٨٧١م .

* * *

عين ممتاز باشا مديراً لعموم قبلى السودان لما عهد فيه من كفاءة وجدارة وخبرة بشئون السودان الاقتصادية والإدارية . ودخلت فى اختصاصه مديريات الخرطوم وسنار والنيل الأبيض وفازوغلى[٥] . وفى المدة القصيرة التى قضاها فى مركزه هذا وجه اهتمامه نحو خفض موارد الميزانية ومصروفاتها . وعمل على معادلتها أوعلى الأقل تخفيف ماتدفعه الخزانة العامة لتغطية عجز ميزانية مديريات السودان لذلك أوقف الاحسانات التى كانت تدفع للعلماء . كما أدخل تعديلات على الضرائب التى رفعها سلفه جعفر باشا مظهر بما يقرب من الخمسين فى المائة لغير ماسبب أكثر من أنه أراد أن يعرف ماستكون عليه حالة دافع الضرائب وعند ذلك ينظر فى تعديلها . كما رفع ممتاز عن أهالى النيل الأبيض وغيرهم المبالغ الاضافية التى فرضها جعفر باشا لسداد قيمة نصف استحقاق ومرتبات سوارى وعسكر المعينين للمحافظة على الأمن . وقد جعل ممتاز جباية الضرائب تقوم على أساس مقدرة الفرد المالية . فكان على الأغنياء أن يدفعوا أموالا أكثر مما كانوا يدفعونه فى الماضى الذى كان فيه المواطن العادى يتحمل أكثر العبء . ومن هذا يتبين لنا مدى ما كانت عليه السياسة المالية من تخبط بسبب الارتجال وفقدان الكفايات والخبراء . فأثارت هذه التعديلات التى أجراها ممتاز باشا الطبقة الغنية صاحبة النفوذ ومن هنا بدأت الدسائس تدبر للخلاص من ممتاز باشا وقد تزعم هذه الحركة معنى بك الشامى[٦] وكيل مديرية الخرطوم صنيعة اسماعيل باشا صديق المفتش الذى كان عدواً لدوداً لممتاز باشا بسبب خشيته من ازدياد نفوذ ممتاز لنشاطه وقدرته على معالجة مشاكل السودان المالية والادارية لذلك كان

---

(٥) أمضى ممتاز فى منصبه كمدير عموم قبلى السودان حوالى عشرة أشهر .

(٦) أنظر سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار عن دول البحار جزء ٢ ص ٢٧٤

اسماعيل باشا صديق اليد الخفية التى تلعب لاعداد الشكاوى وإرسالها للخديو عن تصرفات ممتاز باشا التى صورت بأنها تزوير فى السجلات وادعى البعض كما تناقلته الروايات « أنه تقبل الرشاوى » ولم يكن من العسير فى زمن ساد فيه الانحلال أن يذهب ممتاز ضحية منافسيه من رجال السلطة فى مصر الذين كان يهمهم اختفاء أمثال ممتاز وإقصائهم عن مراكزهم والقضاء عليهم ليخلو لهم الطريق للوصول إلى تحقيق مطامعهم الذاتية .

وكان من نتيجة هذه الشكاوى التى صاحبها الرسل يحملون الهدايا ومنهم معنى بك الشامى . أن تعطلت المشروعات التى بدأها ممتاز لمعارضة المديرين لتنفيذها لأسباب غير معروفة . كما ألقى القبض على ممتاز عند وصوله إلى القاهرة ووضع فى السجن فى القلعة بالقاهرة حيث أمضى حوالى الشهر حتى ظهرت براءته وأطلق سراحه . وقد كافأه الخديو باهدائه عزبتين مساحة كل منها ٢٥٠ فدان إحداها فى دار البقر فى المحلة الكبرى والثانية فى كفر الدوار . وقد حزت فى نفسه حالة القبض عليه وإيداعه السجن بسبب الوشايات وعز عليه أن يعامل بمثل هذه المعاملة بعد جهود المضنية التى بذلها لرفاهية السودان وتقدمه الاقتصادى . وعاد إلى الخرطوم بمفرده بعد أن ترك عائلته فى القاهرة . ولا شك أن طول مدة السفر قد ضاعف من هواجسه حتى وصل إلى الخرطوم فى حالة نفسية غير طبيعية وبينما كان متأهباً لاستقبال المهنئين فى إحدى المناسبات المعتادة وجد أنه قد خرج مبكراً عن الموعد المحدد فاستلقى على أريكة ليستريح قليلا وطلب من خادمه الخاص أن ينبهه عند اقتراب الموعد ولما ذهب اليه وجد أنه قد فارق الحياة وله من العمر ما يزيد قليلا عن الخمسة والاربعين عاما . وهذا ماذكره خادمه الخاص نقلا عن حفيده الأستاذ ابراهيم رياض المحامى . وقد أيد هذه الرواية أكثر من شخص من المعمرين . وطويت بوفاته صفحة شخصية قدمت للبلاد أجل الخدمات فى الوقت الذى وصل فيه الانحلال إلى مرحلة خطيرة وأراد الخديو اسماعيل أن يرسل ابنه الوحيد محمود فى بعثة الى الخارج مع البرنس حسن غير أن والدته قد رفضت أن يفارقها وحيدها الذى استمر فى صرف معاشه عن والده ممتاز باشا حتى وفاته فى سبتمبر سنة ١٩٤٢ (ولد حوالى ١٨٦٧م) وله من العمر خمسة وسبعين عاما ويرجع استمرار المعاش طوال هذه المدة لعاهة فى احدى العينين وقد أنجب ممتاز ابنتين تزوجت واحدة المرحوم محمد بك فهمى الغمراوى والثانية من المرحوم محمد بك توفيق وبعد وفاة ممتاز تزوجت أرملته من الاميرالاى

محمد بك رسثم - وتزوجت ابنـــة خال أرملته من محمود باشا خليل والد السيد محمد محمود خليل .

وهكذا يتبين لنا أثر الشائعات التى استطاعت أن تقلب الحقائق وتزورها وقد جاء فيها أن ممتاز قد حبس فى الخرطوم لأكثر من خمسة أعوام فى انتظار هيئة المحاكمة برئاسة خالد باشا .

وقالوا ان أملاكه قد صودرت . وأنه مات مسموماً . وكل هذا لانصيب له من الصحة . فأبن ممتاز تقاضى معاشه حتى وفاته فى سنة ١٩٤٢ والأطيان التى أعطاها له الخديو بقيت حتى زواج ابنتيه . وخالد باشا ذهب الى السودان فى ١٨٧٥/١٨٧٤ م وشغل منصب وكيل الحكمدار اسماعيل باشا أيوب . وقد اعفى خالد باشا من أعماله ونقل الى مصر بسبب عدم رضاء اسماعيل باشا أيوب عن أعماله . وجاء فى خطاب آدم باشا العريفى مأمور ادارة عموم قبلى السودان الذى استلم أعمال المديرية بعد وفاة ممتاز باشا مايفيد بأن وفاته قد حدثت فى أواخر عام ١٨٧٢م[١٦] .

---

(١٦) أنظر وثيقة ٣٤ حيث جاء فيها .... تحصيل الأموال والبقايا (يقصد المتأخرات) من عهد حضوره لغاية قيامه وقد حاولنـــا أن نراجع هذه الـكلمة الأخيرة فلم نعثر على الأصل ويرجح ان قيامه ، قد كتبت بدلا من « وفاته » .

١ ٦ دفتر ١٩٢٤ أوامر عربى. صورة الأمر رقم ٨ ص ١٤ بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٨٧ هـ. بشأن نزع محافظات سواكن ومصوع والتاكه وباقى سواحل البحر الأحمر لحد بربره. وجعلها محافظة مستقلة تحت اسم «محافظة سواحل البحر الأحمر»، وتعيين احمد ممتاز باشا محافظا عليها.

٢ ١٧ دفتر ١٨٤٩ وارد معه صورة رقم ١ ص ٨ و ٩ بتاريخ ٩ جمادى الثانى سنة ١٢٨٧. من مديرية التاكه إلى المعية السنية بشأن الاهتمام بزراعة القطن فى أراضى المديرية.

٣ دفتر ١٨٤٧ معيه عربى، صورة المكاتبة العربية رقم ٨ ص ٥٢ بتاريخ ٢٩ رجب سنة ١٢٨٧. من محافظة سواحل البحر الأحمر إلى المعية السنية عن زراعة القطن واعتراضات مدير التاكه.

٤ دفتر ١٨٤٧ معية عربى، صورة المكاتبة العربية نمرة ٧ ص ٥٢ فى ٢٩ رجب سنة ١٢٨٧هـ من محافظة سواحل البحر الأحمر إلى المعية السنية عن زراعة القطن.

٥ دفتر ٣٩١٠ معية صادر سواحل البحر الأحمر. صورة المكاتبة العربية نمرة ٨ ص ١٧٨ فى ٢٩ رجب ١٢٨٧. إلى المعية السنية عن زراعة القطن.

٦ ٢٦ دفتر ٣٩١٠ صادر سواحل البحر الأحمر. صورة المكاتبة العربية نمرة ٧ ص ١٦٩ فى ١٦٩ فى ٢٩ رجب ١٢٨٧. من محافظة سواحل البحر الأحمر إلى المعية السنية. تقرير عن امكانيات التوسع فى زراعة القطن فى حوض القاش. وتفنيد اعتراضات مدير التاكه.

٧ دفتر نمرة ١٩٣٥ (أوامر كرام) صورة أمر كريم صادر إلى محافظة سواكن نمرة ٤٤ ص ٥٩ فى ٢٣ شعبان سنة ١٢٨٧ هـ - شكر المحافظ لما بذله من مسعى للتوسع فى زراعة القطن لما يترتب عليه من التقدم والرفاهية للسكان المحليين.

٨ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربى. صورة أمر رقم ٣ ص ٣٦ فى ١٦ شوال سنة ١٢٨٧ إلى محافظة سواحل البحر الأحمر. بشأن الموافقة على رفع عبد الرازق بك مدير التاكه ووكيله وتعيين الأميرالاى ألماس بك مديراً والبكباشى

فرج افندى وكيلا للتاكه وارسال ثلاثة آلاف أردب بذرة قطن لتوزيعها على الأهالى .

٩ دفتر ١٨٤٩ وارد معية عربى ، صورة المكاتبة العربية نمرة ٣ ص ٨ بتاريخ ٢٥ شوال سنة سنة ١٢٨٧ هـ . من مديرية التاكه الى المعية السنة - شكوى مدير التاكه بسبب ما يلاقيه من محافظ سواحل البحر الأحمر .

١٠ ٣٣ دفتر ٣٩١٢ جزء رابع صادر ، سواحل البحر الأحمر ، صورة المكاتبة العربية رقم ١٦ ص ٤٨ بتاريخ ١٢ ذى الحجة سنة ١٢٨٧ هـ من محافظة سواحل البحر الأحمر الى المعية السنية - عن زيارة المحافظ لساحل البحر الاحمر .

١١ ٤ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربى نمرة ٥ ص ٩٤ بتاريخ ٩ محرم سنة ١٢٨٨ أمر كريم الى محافظ سواحل البحر الأحمر . أمر كريم بشأن أقليم « سمهر » التابع الى مصوع .

١٢ ٥ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربى رقم ١١ نمرة ١٤٦ بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٨٨ أمر كريم إلى محافظة سواحل البحر - بشأن طابية حرقيقو .

١٣ ٦ دفتر ١٩٣٥ أمر عربى رقم ٦ ص ٩٤ بتاريخ ٩ محرم سنة ١٢٨٨ أمر إلى محافظة سواحل البحر الأحمر ، بشأن الموافقة على تشكيل مجلس مخصص للنظر فى القضايا والدعاوى ، وان أعضاء من نظار الأقسام بمديرية التاكه .

١٤ ٧ دفتر ١٩٣٥ ، أوامر عربى رقم ١٢ ص ١٤٦ بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٨٨ هـ ، من المعية الى محافظة سواحل البحر الأحمر . بشأن الموافقة على تخفيض المربوط على أهالى دهلك الى النصف .

١٥ ١٢ دفتر ١٨٤٨ معية مكاتبة عربية رقم ٩ ص ٢١ بتاريخ ١٨ ربيع أول من محافظة مصوع للمعية السنية .

١٦ ١٥ دفتر ١٩٣٦ أوامر عربى جزء ثان رقم ٤٢ ص ٢١ بتاريخ ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٢٨٨ هـ الى محافظة مصوع . بشأن الموافقة على إنشاء سد على

خور بتلك الجهة ، لحفظ المياه للزراعة ، وتعيين المهندس الفرنسى بولان لهذا العمل .

١٧ ١٦ دفتر ١٩٥٣ . أوامر صورة أمر كريم صادر رقم ١٤ ص ١٥١ بتاريخ ١٥ ربيع أول سنة ١٢٨٨ هـ إلى محافظة سواحل البحر الأحمر - بشأن تشكيل مجالس محلية فى التاكه ، وسواكن ، ومصوع ، للنظر فى شكاوى الأهالى المدنية والجنائية والتجارية والفصل فيها .

١٨ ٤٠ دفتر رقم ١ (بدون نمرة معية) ترجمة الوثيقة التركية نمرة ٢ ص ٤ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٨٨ هـ - إرادة سنية الى رئيس المجلس المخصوص - بشأن إلغاء حكمدارية السودان وتعيين ممتاز مديراً عاما لمديريات الخرطوم وسنار وفازوغلى والبحر الأبيض . وتعيين علاء الدين بك مـــدير التاكه ، على المناطق الشرقية من السودان والممتدة أراضيها الى حدود الحبشة وسواكن وجعلت هـــذه المنطقة أدارة مستقلة ، وتعيين حسين خليفة مديراً على مديريتى دنقلة وبربر ، كما أوضحت الوثيقة توزيع القوات العسكرية فى مختلف المديريات .

١٩ دفتر ١٨٥٩ معية عربى . صورة المكاتبة رقم ١ مرور ص ٢٥ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٨٨ هـ من مدير عموم قبلى السودان إلى المعية السنية . بشأن مقابلة ممتاز فى أسيوط للمهندس المكلف بكشف الطريق إلى شندى لانشاء سكة حديد ويذكر بعض المقترحات .

٢٠ دفتر ١٨٥٩ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٣ ص ٢٥ بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ . من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية . بشأن تعيين أورطة لأشغال قطع الأخشاب .

٢١ دفتر ١٨٥٢ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٥١ ص ٤٢ بتاريخ ١٤ رمضان سنة ١٢٨٨هـ من المعية ، بختم المهردار ، لارسال مائتى أردب تقاوى نيلة مع الآلات المهمات الأخرى .

٢٢ دفتر ١٨٥٢ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٢٣ ص ٤٣ بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٢٨٨هـ من المعية الى نظارة المالية لارسال تقاوى قطن

من صنف الأشمونى، كذا عشرة أرادب من بذرة سيلان؛

٢٣ دفتر ١٨٥٩ معية عربى رقم ٩ ص ٤٢ بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨ من مديرية عموم قبلى السودان، الى المعية السنية، بشأن زراعة القصب واستخراج العسل الاسود للاستهلاك المحلى.

٢٤ دفتر ١٨٥٢ معية عربى رقم ١٠ ص ٤٣ بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨ من مديرية عموم قبلى السودان، الى المعية السنية، بشأن الاهتمام بالتوسع الزراعى, القطن، النخيل، والفواكه والخضروات، وأقترح المدير تحويل ماكينات بعض البواخر للنيلية لحلج وكبس القطن.

٢٥ دفتر ١٨٥٩ معية عربى صورة المكاتبة رقم ١٨ ص ٥٠ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٨٨ﻫ. من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية — يؤكد فيه ضرورة الماكينات اللازمة لحلج القطن ويطلب ارسال تلامذة من مدرسة الخرطوم، أو من غيرهم، الى القاهرة لتعليمهم بمدارس العمليات الميكانيكية والزراعة، وبعد تمام تعليمهم يرسلوا الى السودان، للعمل فى المناطق اللازمة.

٢٦ دفتر ١٨٥٩ معية عربى صورة المكاتبة العربية رقم ٢٤ ص ٥٣٧ بتاريخ ٢٩ شوال ١٢٨٨ﻫ. من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية، يقترح انشاء مديرية جديدة مركزها القضارف وتضم مناطق القضارف وراشد ودوكة وكنجاره وما يجاورهم من الأهالى والبلدان التابعة لمديرية سنار وفازوغلى — كما يطلب تشجيع زراعة القطن والنيلة.

٢٧ دفتر ١٨٥٩ معية عربى، صورة الوثيقة العربية رقم ٢٨ ص ٥٦ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٨٨ﻫ من مدير عموم قبلى السودان إلى المعية السنية، يذكر فيه أن الأموال المتأخرة فى مديريتى سنار والخرطوم لغاية ١٢٨٨ تبلغ ١٤ بارة و ٢١١ قرش و ٩٦٧١٦ كيسه، ويرجع أسباب التأخير إلى اهمال التوسع الرراعى.

٢٨ دفتر ١٨٥٣ معية عربى رقم ٤ ص ٢٥ بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ﻫ

من المعية السنية إلى ممتاز باشا مدير عموم قبلي السودان ، بشأن ارسال عمال لمراقبة زراعة النيلة .

٢٩ دفتر ١٨٥٣ معية عربي . صورة الوثيقة العربية رقم ٦ ص ٢٥ بتاريخ ٢٥ ذي الحجة سنة ١٢٨٨ من المعية السنية إلى ممتاز باشا مدير عموم قبلي السودان ، بخصوص أطيان جفلك الدائرة السنية .

٣٠ دفتر ١٨٥٢ معية عربي رقم ١١٨ ص ١٤٩ بتاريخ ٧ جمادى ثان سنة ١٢٨٩هـ من المعية السنية إلى المالية ، وهو عبارة عن :

اخطار عن تعيين اسماعيل أيوب باشا مديراً إلى عموم قبلي السودان بدلا من ممتاز باشا .

٣١ دفتر ١ بدون نمرة أمر نمرة ٤٤ ص ٣٤ بتاريخ ٣ جمادى ثان سنة ١٢٨٩هـ من المعية إلى اسماعيل أيوب باشا ، تبليغه أمر تعيينه مديراً للسودان القبلي.

٣٢ دفتر ١٨٥٢ معية عربي رقم ٥٧ ص ١٥١ بتاريخ ٣ جمادى آخر سنة ١٢٨٩هـ من المعية السنية إلى المجلس المخصوص ، أخطاراً بتعيين اسماعيل أيوب باشا مديراً على عموم قبلي السودان ، بدلا من ممتاز باشا الذى صار انفصاله من هذه المأمورية .

٣٣ دفتر ١٨٦٤ معية رقم ٣٩ ص ٤ بتاريخ ٢١ جمادى ثان سنة ١٢٨٩ من آدم باشا مأمور إدارة مديرية عموم قبلي السودان — يذكر فيه أن ممتاز باشا قد أدخل تعديلات فى التنظيمات والمقررات وانه لم يهتم بتحصيل الأموال من عهد حضوره لغاية قيامه (وفاته - التى حصلت بالخرطوم).

٣٤ دفتر ١٨٦٤ رقم ٤٠ ص ١٤ بتاريخ ٢٤ جمادى آخر سنة ١٢٨٩هـ من سعادة آدم باشا مدير عموم قبلي السودان (مأمور ادارة مديرية عموم قبلي السودان وقائم بأعمال المدير المتوفى) إلى المعية السنية يذكر فيه أن الأموال المتأخرة لغاية حضور ممتاز باشا كالآتى :

بارة	قرش	كيس	
١٧	١٢	١٨٠٥٤	متأخرات الأموال
١٩	٢٧٩	١٥٣٦٧	الأموال المربوطة عن سنة ١٢٨٨
٣٦	٢٩١	٣٣٤٢١	
٢٥	١٨٠	٣٩٨٨	الأموال التى تحصلت فى فترة ادارة ممتاز باشا
١١	١١١	٢٩٤٣٣	

المبالغ التى أمر ممتاز باشا بخصمها

بارة	قرش	كيس	
٣٠	٨٣	١٠٧٤	نصف استحقاق الجنود التى كانت مفروضة على قبائل النيل الأبيض .
٢٥	٤١	٥٣٧	خصم من زمام القسم .
٠٠	٠٠	٢٠٠	الغرامة التى حكم بها على أهالى النيل الأبيض .
٢٠	١٨١	٤٥٩	خصم من زمام عربان رفاعه الهوى لعدم مقدرتهم على الدفع .
٣٥	٣٠٦	٢٢٧٠	جملة الخصومات
١٦	٣٠٤	٢٧١٦٢	المبالغ المتأخرة

ملحوظة : الوثيقة عن ٢٧ توضح أن الأموال المتأخرة عن مديريتى سنار والخرطوم لغاية سنة ١٢٨٨هـ هى ١٤ بارة و ١١١ قرش و ٩٦٧١٦ كيس ، ومما لاشك فيه أن المسألة الضريبية فى حاجة إلى دراسة تفصيلية للكشف عن أوجه الضعف ، فيها وان لاتركن إلى القول أن المسألة مجرد اهمال شخص معين ، فهى فى الواقع أبعد عمقا عن مثل هذه الأقوال .

F. A. Brockhaus Esq

34 De Vere Gardens
Jan. 27th 1890

My dear Friend

A number of Germans and Austrians write to me in the course of a week but unfortunately they write to me in their own language — which I — to my shame be it said — do not know a word. When I am married to a certain fair lady I shall be better able to appreciate their sentiments — for she is almost as great a linguist as Emin. until then I must be content with dropping German efforts [illegible]

order to stimulate a healthy rapid interest in Africa. Both nations should agree [illegible] they — the process of attrition each upon each would produce what I as a lover of Africa [illegible] dearly love to see. England for instance [illegible] care in the least for the Congo State because she has no share in it & cannot have — and [illegible] driven out of East Africa she will not care for it. and the Germans will then cease to take that keen interest in it which their pride [illegible] would otherwise have in the neighbourhood of a rich powerful & enterprising Power. Yours faithfully [illegible]

الملحق التاسع — خطاب هنري ستانلي الى بروكهوس

الملحق التاسع

خطاب هنرى ستانلى الى بروكلهوس

« ٣٤ حدائق دى فيبى »

صـــديق العزيز

يكتب إلى فى كل أسبوع عدد من الألمـان والنمساويين فى لغتهم ، التى لا أعرف منها مع الأسف كلمة واحدة ، وربما أكون فى موقف أحسن أقدر فيه ما تحمله إلى هذه الرسائل من عواطف ، وذلك عند ما يتم زواجى بسيدة معينة تعرف عدداً من اللغات منها الألمـانية ، وحتى يحين ذلك الوقت فإنى قانع بإهمال هـذا العدد من الرسائل ، ولا أعلم ما تحمله إليـه من تمنيات أو لعنات .

(ويستطرد فى حديثه عن المشاكل الخـاصة بأمين باشا مدير خط الاستواء ، وعن المنافسة بين البريطانيين والألمـان فى شرق أفريقيا) .

ثم يقول فى الصفحة السادسة من خطابه ما يأتى : —

« إذا كان المستعمرون من الألمـان يعتقدون انهم سوف يجدون مالا كثيراً عندما يطردون الانجليز من شرق أفريقيا ، فانهم يقعون فى خطأ عظيم .

ان التنافس بين الانجليز والألمان يجعل قيمة لشرق أفريقيا ، وان خروج البريطانيين من هذه المنطقة فى صورة مزرية سوف يحدث انعكاساته على المصالح الألمانية فى القارة الأوروبية واذا حدث وخرج الألمان من شرق أفريقيا فى مثل هذه الظروف فإن المصالح البريطانية سوف تنعدم .

وانى أود أن تصل الدولتان إلى اتفاق مناسب تتوفر معه لكل من الدولتين الامكانيات لاستغلال المناطق التى تسيطر عليها كل منهما وتجنى ثمار جهودها . وأرجوا أن تفكر قليلا فى هذا الموضوع فإنك سوف تجد نفسك قد وصلت إلى نفس النتيجة التى وصلت إليها .

أن جميع القارة الافريقية لا تساوى شيئاً فى نظر بريطانيا اذا قورن ذلك بما سيكلفه النزاع مع ألمانيا ، وان القارة الأوروبية لا تساوى شيئاً بالنسبة إلى ألمانيا اذا انقطعت العلاقات بين الدولتين فالخير كل الخير أن تتفق الدولتان على تخطيط الحدود بينهما ، وليكن بينهما التنافس فى البناء والتقدم الامر الذى أتمنى أن أراه فى أفريقيا التى هى موضع اهتمامى .

...... وان حماس الألمان سوف يموت إذا خرج الانجليز من شرق أفريقيا لأنهم سوف يفقدون جارة غنية وقوية .

المخلص

هنرى م . ستانلى

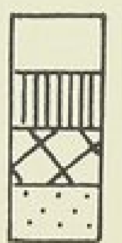
ملحوظة — :

المرسل إليه هذا الخطاب هو ف . ا . بروكلهوس صحفى ألمـــانى من عائلة بروكلهوس الشهيرة .

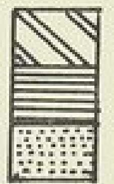
خريطة رقم ٢

حدود
الشلال الثالث
أم درمان
البحر الأحمر
تانا
أثيوبيا

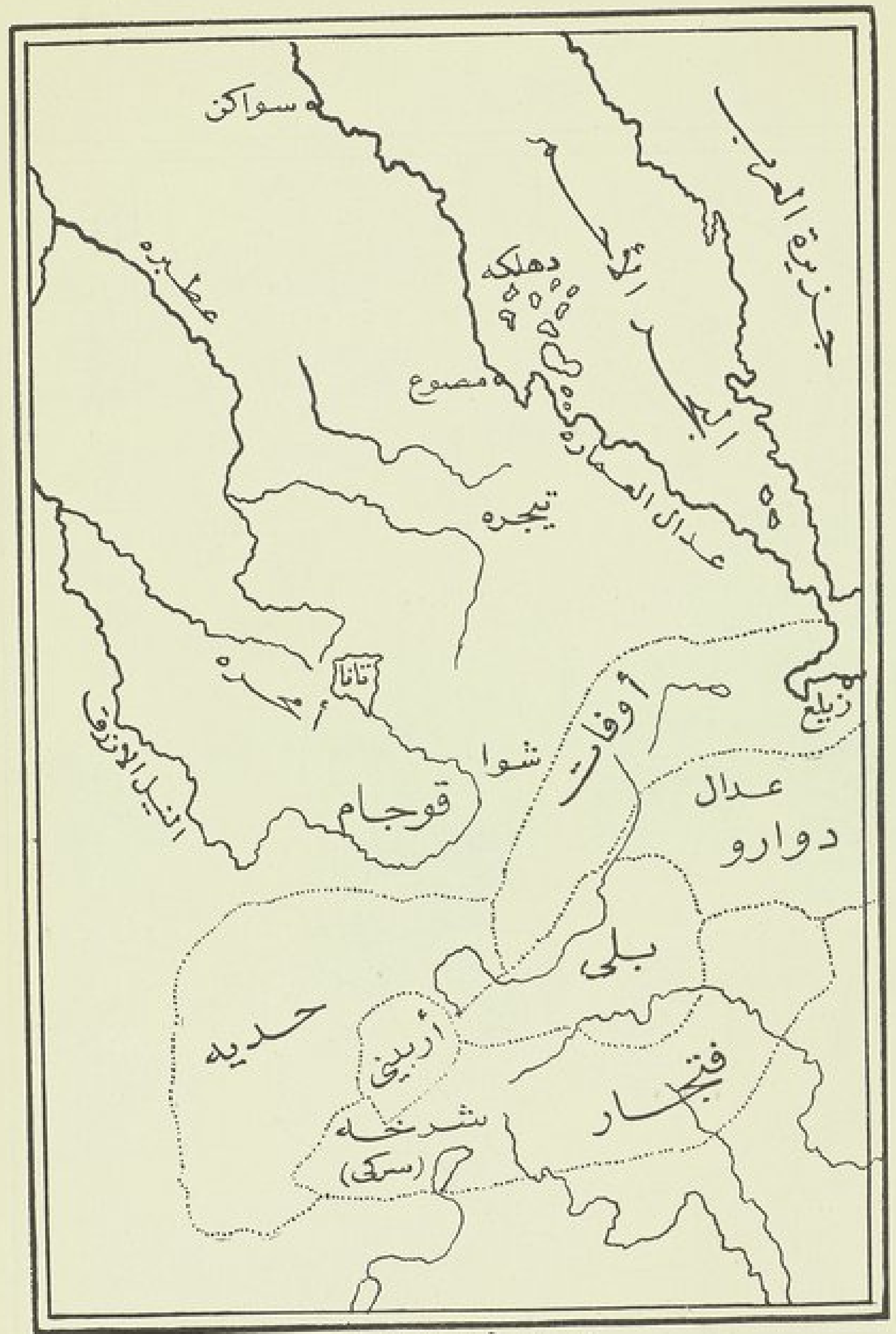
المناطق المختلفة كما يعرفها أهل البلاد



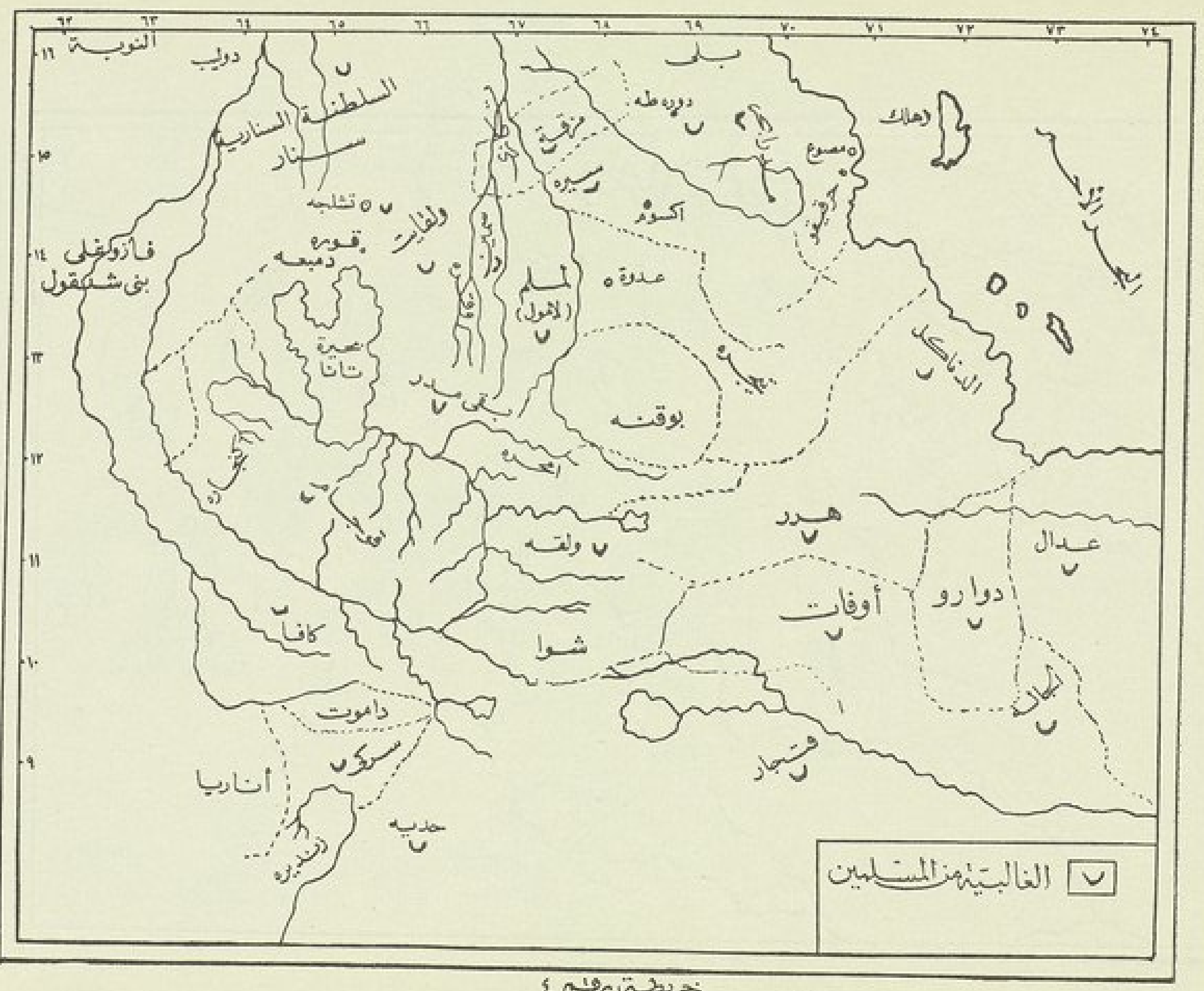
عطمور
الصعيد
الجنوب
دار غرب



دار صباح
أرض الكنوز
الساقل

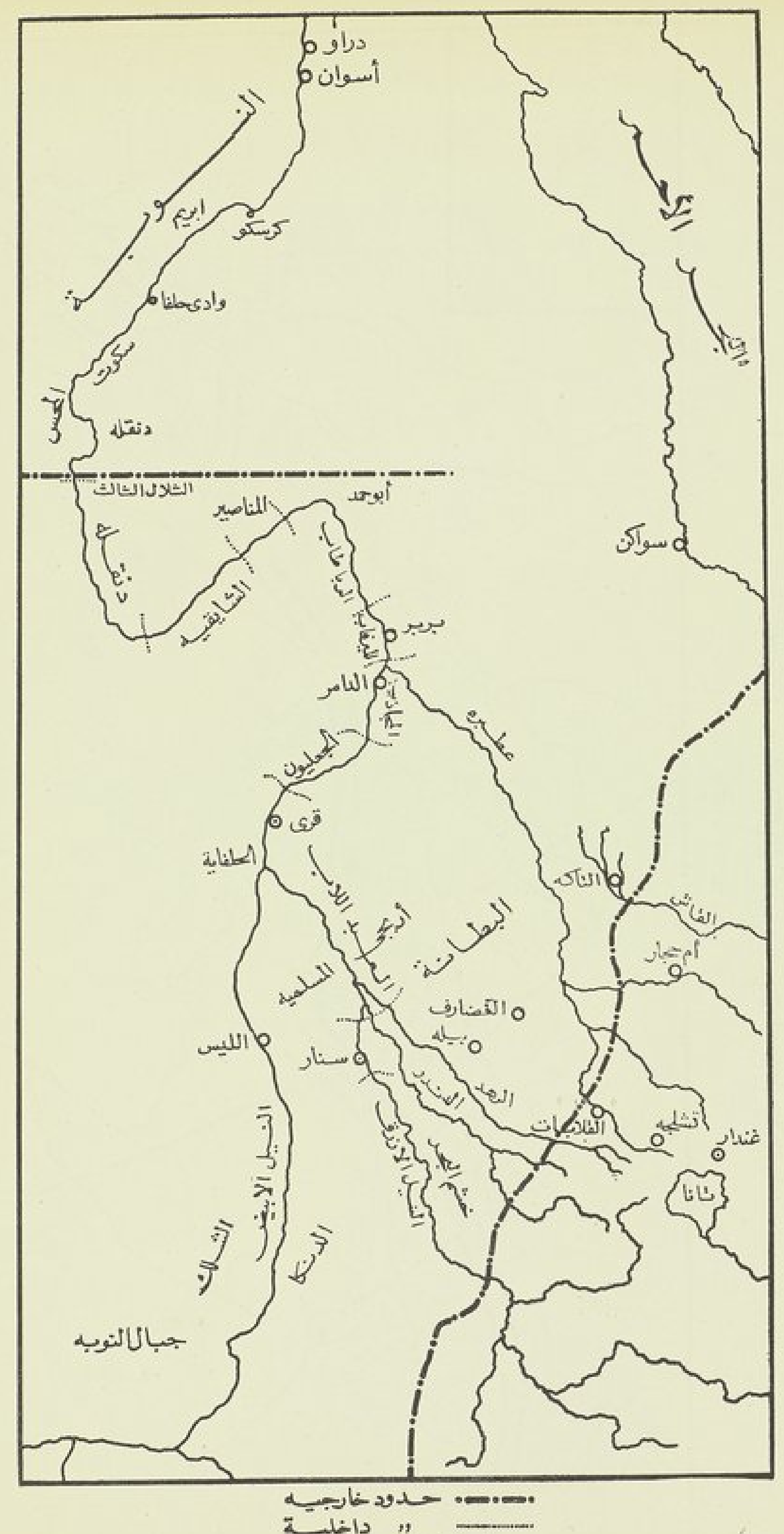


خريطة رقم ٣
السلطنات الإسلامية فى أتيوبيا فى القرن الثالث عشر الميلادى



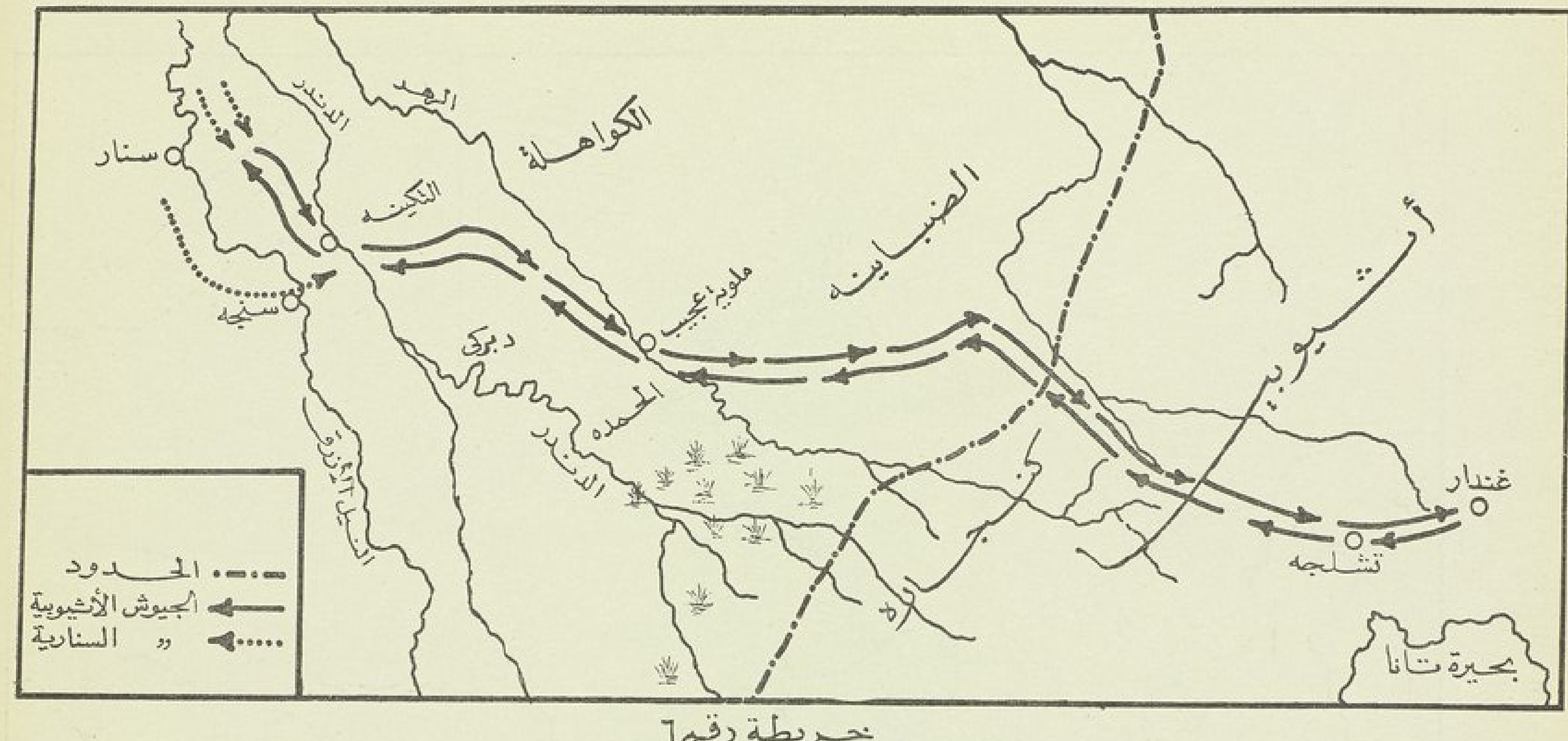
خريطة رقم ٤

أثيوبيا فى القرن السابع عشر كما رسمها لودلفس

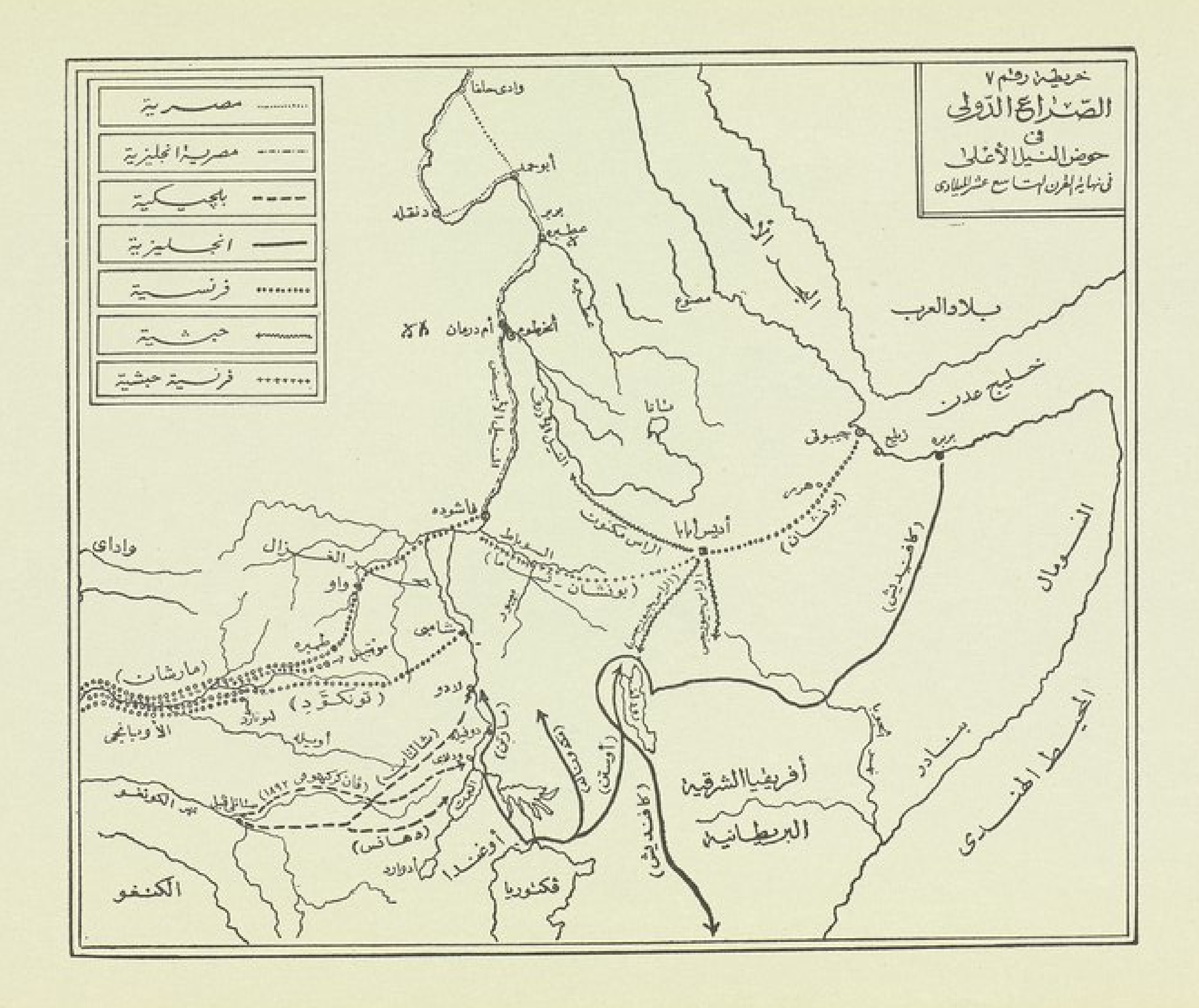


خريطة رقم ٥

الديار القبلية التى تكون منها الحلف السنارى



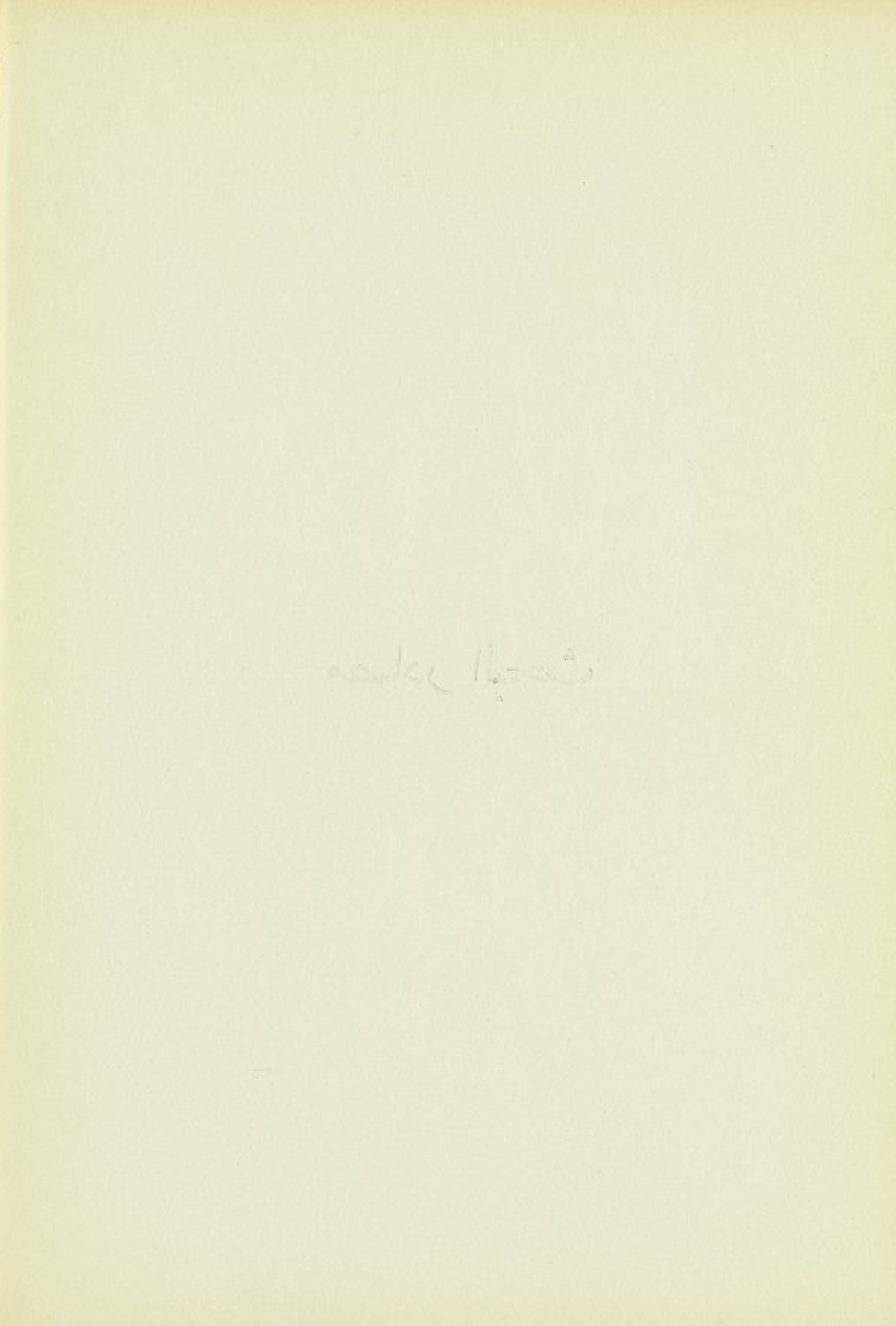
خريطة رقم ٦
موقعة التكيتة - أو الزكيات - ٧ أبريل سنة ١٧٤٤ م



خريطة رقم ٧
الصراع الدولي
في
حوض النيل الأعلى
في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي
مصرية
مصرية انجليزية
بلجيكية
انجليزية
فرنسية
حبشية
فرنسية حبشية
وادي حلفا
أبوحمد
دنقلة
بربر
عطبرة
مصوع
أم درمان
الخرطوم
بلاد العرب
خليج عدن
تانا
جيبوتي
زيلع
بربرة
أديس أبابا
هرر
فاشوده
واداى
واو
شامبي
لادو
الكنغو
فكتوريا
أوغندا
أفريقيا الشرقية
البريطانية
بنادر
الصومال
المحيط الهندي
(مارشان)
(تونكود)
(بونشان)
(كافنديش)
(أوستن)
(دهانس)



مصادر البحث



مصادر البحث

١ – مخطوطات – لم تنشر بعد

دار الكتب المصرية القاهرة :

أ) تاريخ مدينة سنار لكاتب مجهول . تحت رقم ١٨ م – كاتب المخطوطة كما هو مذكور فى المتن هو أحمد ابن الحاج أبو على – المشهور بكاتب الشونة – وقد كان موظفاً فى الديوان العام فى الخرطوم .

ب) تاريخ ملوك الفونج والسودان وأقاليمه . تحت رقم ٢٥٤٧ مصورة عن النسخة المحفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس .

– مخطوطة تاريخ قلاوون .

المكتبة الأهلية – فينا – النمسا :

ج) تاريخ السلطنة السنارية – وهى القسم الأول من مخطوطة تاريخ مدينة سنار ، وقد نقلها أحد الفقهاء فى الخرطوم كطلب المبشر اجنازكنوبلخر الذى أودعت باسمه فى المكتبة الأهلية فى فينا . وتشمل تاريخ السلطنة السنارية حتى نهايتها – وفيها بعض زيادات سقطت من النسخة الموجودة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٨ م .

المتحف البريطانى – لندره :

د) تاريخ ملوك الفونج – وتنتهى بالفترة التى سبقت حكمدارية غوردون – وقد أودعها غوردون فى هذه المكتبة .

هـ) نسخة أخرى من (ج) أرسلها غوردون للدايرة السنية وهى باسم تاريخ مختص بأراضى النوبة ومن ملكها منذ ملوك الفونج .

وثائق نقلها المؤلف من السودان :

انساب الركابية

انساب أولاد جابر

• مخطوطة الشيخ أبو دلق

كتاب مفيد الايمان فى بيان من سكن من قريش فى أرض السودان .

- تاريخ أربجى .
- خطابات من سلاطين سنار .
- خطاب الوزير الشيخ محمد ابن الوزير الشيخ عدلان .

- منشورة ضمن ملاحق الكتاب .

٢ ــ مخطوطات منشورة

تاريخ ملوك السودان ـ وقد نشره الدكتور مكى شبيكة تحت رقم ١ تاريخ من مطبوعات كلية الخرطوم الجامعية .

٣ ــ مطبوعات عربية

ابراهيم صديق ــ الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء القاهرة ١٩٣٠ م .

ابراهيم فوزى ــ السودان بين يدى غوردون وكتشنر القاهرة سنة ١٣١٩ﻫ جزءان .

اسماعيل سرهنك باشا ــ حقائق الأخبار عن دول البحار بولاق مصر سنة ١٣١٢ﻫ

ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة . دار الكتب المصرية .

أبن حوقل ــ كتاب صورة الأرض . طبع لندن سنة ١٩٣٩ أنظر كرامر

الشاطر بصيلى عبدالجليل ــ على اطلال مدينة سنار . القاهرة ١٩٣٥ .

« « « « « ــ تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل .

جزء أول القاهرة ١٩٥٠ .

سليمان داود منديل ــ كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ـ الخرطوم ١٩٣٠

شهاب الدين ابن الشيخ احمد بن عبد القادر .

المعروف بعرب فقيه أنظر باسيه Basset, R.

شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقى نخبة الدهر فى عجايب البر والبحر . أنظر ميرن .

ضيف الله ــ أنظر ابراهيم صديق وسليمان داود .

عبد الرحمن زكى — يوميات عباس بك . المجلة التاريخية المصرية اكتوبر ١٩٥١
دكتور عبد العزيز عبد المجيد — التربية فى السودان فى القرن التاسع عشر .
جزءان ـ القاهرة .
عرب فقيه — أنظر شهاب الدين بن احمد بن عبد القادر .
عمر محمد على — أتيوبيا ـ القاهرة ١٩٥٤
العمرى ابن فضل الله — كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ـ ترجمة فرنسية طبع باريس ١٩٢٧ .
أنظر Gaudefrory Demmlynes
الطبرى — أنظر مقال استانلى لين بول
فيليب جلاد — قاموس الادارة والقضاء . الاسكندرية سنة ١٨٩١ م .
دكتور محمد فؤاد شكرى — الحكم المصرى فى السودان القاهرة
المقريزى — المواعظ والاعتبار نشره فييت
المعهد الفرنسى للآثار الشرقية .
— الالمام بأخبار من أرض الحبشة عن ملوك الاسلام
مطبعة التأليف القاهرة سنة ١٨٩٥ م
محمود طلعت — غرائب الزمان فى فتح السودان .
مطبعة الاسلام بالقاهرة سنة ١٨٩٦ م .
محمود القبانى — السودان المصرى والانجليز ـ طبع جريدة الأهرام
مجموعة مقالات نشرت أصلا فى جريدة الأهرام

نعوم شقير ـ تاريخ السودان القديم والحديث ـ القاهرة ـ مطبعة المعارف ١٩٠٤
اليعقوبى ـ تاريخ نشره هوتسما طبع ليدن سنة ١٨٨٥ م

BOOKS OF REFERENCE

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
Etiopia I.	Teodosio Somigli De S. Detole, Fr., O.F.M., Biblioteca Bio-Bibliografia della Terra Santa del'-Oriente Francescana, Tome I, Quarachi presso Firenze, 1928.
Etiopia II.	Giovanni Maria Montano, Dr.,O.F.M., Biblioteca-Bio- Bibliografia Della Terre Santa Del'Oriente Francescana, Tome II, Firenze, 1948.
Hill, I.	A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan up to 1937 Hill, R. L.,
Hill, II.	Hill, R.L., A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, Oxford 1951
Ministere	Documents Diplomatiques Affaires d'Egypte, 1884-1893 (Ministere des Affaires Etranger) Paris 1893.
Parliamentary	Parliamentary papers relating to Egypt in Blue books since 1877 onwards.
Stewart	Stewart,C.E., Col., Report on the Egyptian Provinces of the Sudan, Blue Book, London 1883.

PUBLISHED SOURCES IN OTHER THAN ARABIC

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
ابو صالح	Abu Salih, trans. by Evetts, Churches and Monasteries of Egypt, Oxford, 1895.
ادلر	Adler, Elkan, Jewish Travellers, Broadway, London, 1931.
الملكف	Almkvists, Nubische Studien, Leipzig, 1911
الفارز	Alvarez, F., Ed. by Lord Stanley of Alderley, Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia, Haklayt Society, London, 1881
امير على	Ameer Ali, Spirit of Islam, London,
اركل	Arkell, A.J., An Outline History of the Sudan, Khartoum, 1945.
اركل (٢)	Arkell; A.J., A History of the Sudan up to 1821 A.D. London, 1955.
اوليا	See Evliya.
بيكر	Baker, Sir Samuel, The Nile Tributaries of Abyssinia London. 1867.
بيكر (٢)	Baker, Sir Samuel, Ismailia, London, 1874.
باسيه	Basset, R., Histoire de la conquéte de l'Abyssinie, Chehab El Din Ahmed Ben Abd El Qader. Paris, 1897.
بكارى	Beccari, Rerum Aethiopicarum, Roma, 1904/17.
بير	Beer, G.L., Ed. Gray, B.H, African Questions at the Paris Peace Conference, New York, 1923.
بيبر	Biberfeld, E., Der Reiseb. des David Reubeni, Berlin, 1892.
بلنت	Blunt, W.S., Gordon at Khartoum, second edition, London, 1912.
بصيلى	Bosayley, C., The Greek Influence in the Valley of the Blue Nile, Khartoum, 1945.
برون	Browne, W.G., Travels in Africa, Egypt and Syria, 1797-9, London, 1806.
بروس	Bruce, J., Travels to discover the sources of the Nile, Edinburgh, 1805.
برون - روليت	Brun-Rollet, N., Le Nil Blanc et le Soudan, Cairo, 1855.
بكل	Buckle, G.E., Letters of Queen Victoria, New York, 1926.

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
بدج	Budge, E.A.W., The Egyptian Sudan, London 1907
بدج (٢)	Budge. E.A.W., The Book of the Saints of the Ethiopian Church, London, 1928.
بدج (٣)	Budge, E.A.W.,A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, London, 1928.
بورخارد	Burchardt, J.L., Travels in Nubia, London, 1819
بيرتون	Burtun, R.F., First Footsteps in East Africa, London 1856.
كايو	Cailliaud, Fred., Voyage à Meroé au Fleuve Blanc, ou dela dela de Fazoqqi dans le midi da Royaume de Sennar, Paris, 1825.
تشرشل	Churchill, W., River War, London, 1949.
كوبان	Cobban, A., Ambassadors and Secret Missions, London, 1954.
كونسلمان	Conzelman, W.E., Chroniques de Galawdéus, Paris, 1895.
كروفورد	Crawford, O.G.S., The Fung Kingdom of Sennar, Glous., 1951.
ديسى	Dicey, E., England and Egypt, London, 1881.
ديسى (٢)	Dicey, E., The Story of the Khediviate, London, 1902.
دوان	Douin, G., Histoire du Soudan Egyptien, Cairo, 1944.
دريو	Driault, E., La Formation de l'Empire de Mohd Ali (1814-1823), Cairo, 1927.
التن	Elton, Lord, General Gordon, London, 1954.
انجلش	English, G.B., Narrative of the Expedition to Dongola and Sennaar under the Command of His Excellency Ismail Pasha, Boston, 1823.
اوليا	Evliya, Chelebi, Seyahatnemesi, Misr, Sudan Habesh, 1672-1680. Vol.X, Istanbul, 1938.
ابن فضل	Ibn Fadl Allah Al Omari, Masalik el Absar Fi Mamalik El Amsar, trans. by Gaudefroy Demombynes, Paris, 1927.
فيلد	Field, Henry, The Anthropology of Iraq, Chicago, 1840.
جودفرى	See Ibn Fadl Allah el Omari.
جسى	Gessi, R., Seven Years in the Sudan, London, 1892.

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
جبن	Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, London,...
جليخن	Gleechen, Count, With the Mission to Menelik, London, 1898.
جرايتز	Graetz, H., Gesch. der Judan. Leipzig,
جريفث	Griffith, F. LL., Studies presented to London, 1932
جون	Gwyn, S., and Tuckwell, G.M., The Life of the Right Honourable Sir Charles Dilke, London 1918.
جراى	See Beer.
هيك	Hake, H.E., The Journal of Major-General C. G. Gordon, C.B., at Khartoum London, 1885.
هرتسلت	Hertslet, Sir Edward, see Map of Africa Bytreat 3rd Edition, 1909.
هنبرى	See Waddington.
ابن حوقل	See Kramers.
هومل	Hommel, F., Ethnologie, Geog. des alten Oreints, Munchen, 1926.
هوسكن	Hoskins, G.A., Travels in Ethiopia above the second Cataract of the Nile, London, 1835.
ابن جبير	Ibn Jubayr, Travels ed. Goeje, M.J.de, Gibb Memorial Volum V.
ارون	Erwin, Eyles, A series of Adventures in the course of a voyage up the Red Sea on the coasts of Arabia and of a Route through the Deserts of Thebais in the year M.DCC.LZXVII. London, 1780.
جكسن	Jackson, H.C., Tooth of Fire, London 1912.
جزاى	Jackson, JAMES GREY, an account of the Empire of Morocco, donda, 1811.
كاميرر	Kammerer, A., Essai sur l'histoire Antique d'Abyssinie Paris. 1926.
كاميرر (٢)	Kammerer, A., Le Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite, Cairo, 1929
كرمب	Krump, T., Hoher und Fruchtbnrer translated in the Fung Kingdom of Sennar, by Grawford.
لاجراقنس	Lagercrantz, Stüre, Contribution to the Ethnography of Africa, Upsala, 1950.
لانقر	Langer, W.L., European Alliances and Alignments, 2nd edition, New York, 1950.

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
لانقر (٢)	Langer, W.L., Diplomacy of Imperialism, 2nd Ed. New York, 1950.
لبسيوس	Lepsuis, R., Discoveries in Egypt, Ethiopia and the Peninsula of Sinai in the years 1842-5, London, 1853
لو	Low, Sydney, Egypt in Transition, New York 1914.
لوكاس	Lucas, Sir Charles, The Story of the Empire Vol.II, London. 1924.
لودلفس	Ludolphus, J., A New History of Ethiopia, London, 1684.
مكميكل	MacMichael, H.A., A History of the Arabs in the Sudan, Cambridge, 1922.
ماجنوس	Magnus, Ph., Gladstone, a biography, London, 1954
ميك	Meek; C.K., Tribal Studies in Northern Nigeria, London. 1931.
ميك (٢)	Meek, C.K. Sudanese Kingdom, London. ...
ميرن	Mehren,A.F.,Manuel de la Cosmogrpaphie du Moyan Age, traduit de l'Arabe de Shams Ed Din Abu Abou Abdallah Mohd de Damas, 1874.
مرى	Murray. G.W.,A An English-Nubian Comparative Dictionary Harvard African Studies Vol. IV. Oxford University Press, 1923.
مرى (٢)	Murray; G.W., Sons of Ishmael; London.
مفضل	Moufazzal Ibn Abil Fazail, Histoire des Sultans Mamloukes, Texte Arabe publié et traduit en Français par Blochet, E., Patr. Or. T. XII.
نكلس	Nicholls, W., The Shayikiya, Dublin, 1913.
اوروالدز	Ohrwalder, J., Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp, English edition by Wingate.
العمرى	See Ibn Fadl Allah and Gaudefroy-Demmombynes.
بادمور	Padmore, G., Africa Britain's Third Empire, London, 1949.
بالمر	Palmer, Sir Richmond, The Bornu Sahara and the Sudan, London, 1936
بول	Paul, A., The Beja Tribes, London, 1954
برهام	Perham; Margery, Native Administration in Nigeria, London.
بتريك	Petherick, John, Egypt, the Soudan and Central Africa, London, 1861.

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
بونسيه	Poncet, Jaques, The Red Sea and adjacent countries at the close of the Seventeenth Century, Hakluyt Society London, 1949.
رنل	Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1884-91 London, 1923.
رى	Rey, C.F., In the Country of the Blue Nile, London 1927.
رى (٢)	Rey, C.E., The Romance of the Portuguese in Abyssinia London, 1929.
روز	Rose, J.H., Life of Napoleon, London 1913.
روسيني	Rossini, C.C., Storia d'Etiopia, Milan, 1928.
روبل	Rüppel, E., Reisin in Nubein, Kordofan und dem feträischen Arabien, 1829.
روسل	Russell, Henry, The Ruin of the Soudan, London, 1892.
سولت	Salt, H., H., A Voyage to Abyssinia, London 1814.
سلجمان	Seligman and Brenda, Z., Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, 1932
شبيكة	Shebeika, M., The British Policy in the Sudan, 1882-1902, London, 1952.
شكرى	Shukri, M.F., Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, Cairo, 1937.
سلاتين	Slatin, R., Fire and Sword in the Sudan, English edition by Wingate, London, 1896.
ستانلى	Stanley, Lord, see Alvarez.
ستراشى	Strachey, Lord Lytton, Eminent Victorians, London 1949 (Penguin Series Book No. 649)
تريمو	Tremaux, P., Rapport sur le voyage au Soudan oriental Paris, 1853.
تريمو (٢)	Tremaux, P., Voyage en Ethiopia au Soudan Oriental Paris 1862.
ترمنجهام	Trimmingham, J.S., Islam in the Sudan, London, 1949.
ترمنجهام (٢)	Trimmingham; J.S., Islam in Ethiopia, London, 1952.

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
فيلارد	Villard, Moneret de, Storia della Nubie Cristiana, Roma, 1938.
وادنجتون	Waddington and Hunbury, B., Journal of a visit to some parts of Ethiopia, London 1822.
وسترمان	Westermann, D., The Shilluk People, Philadelphia, 1912.
وسترمان (٢)	Westermann, D., African Today and Tomorrow, London.
ونجت	Wingate, R., Mahdism and the Egyptian Sudan, London 1891.
ونجت (٢)	Wingate, R., Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp by Chrwalder, ed in English. London 1892.
ونجت (٣)	Wingate, R., Fire and Sword in the Sudan, 1879-1895, ed in English. London 1896.
ولف	Woolf, L., Empire and Commerce in Africa, London, 1922.
ورثام	Wortham ; H. E., Gordon an intimate Portrait, London, 1933.
وايش	Wyche, Sir Peter, A Short relation of the river Nile, London, 1669.

Encyclop œdia of Islam, Vol.I; Fasc.I.Leiden 1954

Periodicals :

Abbas Bey, عباس بك	Diary of, found with a Dervish who was killed in the battle of Omdurman in 1898. S.N. & R.Vol.XXXII.p.179-196. See Zaki
Arkell, A.J., اركل	King Badi wad Nol, granting land, S.N. & R. Vol.XV.p; 248—50.
Arkell, A.J., اركل (٢)	Fung Origins, S.N. & R. Vol.XV.p 201—250
Arkell, A.J., اركل (٣)	More about Fung Origins, S.N. & R. Vol.XXVII,p 87—97.
Arkell, A.J., اركل (٤)	Fung, correspondence, S.N. & R. Vol.XXXIII,p 181—182.
Bloss, J.F.E., بلوس	The Story of Suakin, S.N. & R. Vol.XIX;p 272-300(286-287)

Periodicals (contd.)

Cerulli, Enrico, شيرولى	Document arabi per la storia dell'Etiopia, R.Accadamia Nazionale dei Lencei, classe de Scienze morali, momorie, Vol; II. serie,p 39—101.
Chataway, J.D.P., شتاواى	Note on the History of the Fung, S.N. & R. Vol. XIII, 247—250
Chataway ,J.D.P., شتاواى	Archaeology in the Souther Sudan, S.N. & R., Vol. XIII,p 288—91.
Chataway, J.D.P., شتاواى	Fung Origins, S.N. & R. Vol.XVII.p III—117.
Crawford, O.G.S , كروفورد	Tagia umm Qerein, S.N. & R., Vol. XVI. pp333—334
Crawford, O.G.S., كروفورد	Lul; « « « « 335—6
Crowfoot, J.W., كروفوت	Some Red Sea Ports in the Anglo Egyptian Sudan, Geographical Journal, May 1911.
Crowfoot, J.W., كروفوت	Christian Nubia, Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XIII. p 141—50.
Cumming, D.C., كمنج	The History of Kassala and the Province of Taka, S.N. & R., Vol.XX.,p 1—45 (4.9)
Disney, A.W.M, ديزنى	The Coronation of the Fung King of Fazoghli, S.N. & R., Vol. XXVI.,p 37—42.
Elles, R.J, الس	The Kingdom of Tegali, S.N. & R. Vol. XVIII, p 1—35 (10—12)
Evans-Pritchard, E.E., ايفانس برتشارد	Ethnological Observations in Dar Fung. S.N. & R. Vol., XV., 1—61 (57)
Gray, Sir John, جراى	East Africa and America, Tanganyika Notes & Records, 1946
Griffith, F.L.L., جريفث	Christian Documents from Nubia, Proceedings of the British Academy, Vol.XIV. pp 117 ff, 1928.
Guidi, جويدى	Giom. della Societa Asiatica Italiana Tomes III

Periodicals (contd.)

Hebbert, H.E., هبرت	El Rih, a Red Sea Island, S.N. & R., Vol. XVIII, 308
Henderson, K.D.D., هندرسن	Fung Origins, S.N. & R., Vol. XVIII,p 149—154.
Henderson, K.D.D., هندرسن	Fung Origins, S.N. & R..Vol. XXXII,p 174—175
Henderson; K.D.D., هندرسن	Fung Origins, S.N. & R., Vol. XXXIV,p 315—316.
Hillelson, S., هللسون	David Reubini, an early visitor to Sennar, S.N. & R., Vol.XVI,p 55—66
Holt, P.M. هولت	Mahdiya, S.N. & R. Vol; XXXIII,p 182-186.
Jackson, H.C., جكسن	The Nuer of the Upper Nile Province. S.N. & R. Vol. VI.,p 69—70
Kirwan, L.P., كروان	Note on the Topography of the Christian Kingdom, Journal of Egyptian. Archaeology, Vol; XXI, p 59-62.
Lane-Poole, Stauley, لين بول	The First Mohammedan Treaties with Christians, Royal Inst. Academy Proceedings Vol. XXIV Part 5 — 1904.
Madigan, C.T., مادجان	A description of some towers in the Red Sea North of Port Sudan, S.N. & R., Vol , V. p 78—82.
Mathew, J.G., ماثيو	Land Customs and tenure in the Singa District, S.N. & R., Vol.IV p 1—19.
Nadler, L.F., نادلر	Tales from the Fung Province, S.N. & R. Vol. XIV,p 61—86.
Nadler, L.F., نادلر	Fung Origins, S. N. & R., Vol. XIV.p 61—66.
Neubauer, A., نيوباور	Anecdota Oxoniensia, Semitic Series, Vol.I parts 4—6 1895

Periodicals (contd.)

Owen, T.R.H , اون — The Hadendowa, S.N. & R. Vol.XX. pp 183-200 (185)

Paul, A., بول — Ancient Tombs in Kassala Province, S.N. & R., Vol. XXXIII,p 54—59.

Penn, A.E.D., بن — Traditional Stories of the Abdullah Tribe, S.N. & R., Vol. XVII,p 59—82.

Pumphrey, M.E.C , بمفرى — Shilluk "Royal Language Convention" S.N. & R. Vol. XX. p 319.

Pumphrey, M.E.C., بمفرى — The Shilluk Tribe, S.N. & R. Vol XXIV,pp 1—45(12)

Robertson, J. W., روبرتسن — Fung Origins, S.N. & R., Vol.XVII,p 260—265.

Robinson, A.E., روبنسن — The Mamlukes in the Sudan, S.N. & R. Vol.V. p 88—94.

Robinson, A.E., روبنسن — Abu El Kaylik, the King—maker of the Fung of Sennar, American Anthropologist, Vol. XXXI.

Robinson, A.E.. روبنسن — The Conquest of the Sudan by the Wali of Egypt, Journal of African Society, October and January 1926.

Robinson, A.E., روبنسن — The Fung Drum or Nehas, S.N. & R., Vol;IV. p 211—212.

Robinson, A.E., روبنسن — Nimr the last king of Shendi, S.N. & R., Vol VIII,p 105—118.

Rossini, C.C., روسيني — Documents per l'Archaeologie iritrei nella bassa Valle de Barca, R. R. A L., Vol. XII serie V. Rome, 1903 pp 139—150.

Sandars, G.E.R, andOwen, T.R.H. ساندرز — Note on Ancient village note in Khor Nubt and Khor Omek with note by Shinnie,P.L., S.N. & R. Vol.XXXII,p 326-332

ستيوارت ورتلى

Stuart-Worthley, Montague, E.J. Major-General, The Hon. — My Reminiscenes of Egypt and the Sudan, S.N. & R. Vol. XXXIV pages 17-46 and 172—188.

طوسون — Tousson, Prince Omar, La Fin des Mamloukes, Bullet. Inst. d'Egypte, Vol.15, pp 193 ff.

وطسن — Watson, C.M., Maor, Trad Prospects with the Sudan, Journal of Manchester Geographical Society, Vol. 3 7/12, 1887.

وطسن — Watson, C. M., Lt. Col., Suakin Berber Route to the Sudan, Journal of Manchester Geographical Society, Vol.I., 1894.

ونجت — Wingate, F. R., Beseige and Fall of Khartoum, S.N. & E. Vol. XIII.

ويلد — Wylde, A. D., The Red Sea Trade, Journal of Manchester Geographical Society, Vol. 3,1887.

زكى — Zaki, Dr. Abdel Rahman, Diary of Abbas Bey in Egyptian Society for Historical Studies (Arabic).

مجموع الدراسات التاريخية السودانية

للمؤلف

بالعربيــة

البحث الأول : على اطلال مدينة سناء . القاهرة ١٩٣٥

« الثانى : الدويلات الاسلامية فى سودان وادى النيل . الخرطوم ١٩٤٦

« الثالث : تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل . القاهرة ١٩٥٠

« الرابع : تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل جزء ثان (للطبع)

« الخامس : السلطان رابح . ترجمة عن الألمانية للكتاب اوبنهايم ترجمه الى الانجليزية (دكتور سلزاك) عربه وعلق عليه . (للطبع)

« السادس : رحلة اوليا شلبي فى السودان والحبشه بالاشتراك مع الاستاذ محمود نفص

« السابع : معالم تاريخ سودان وادى النيل

« الثامن : جغرافية السودان مترجمة عن التركية بالاشتراك مع الأستاذ محمود نفص

Note No.

1. The Greek Influence in the Valley of the Blue Nile Khartoum, 1945.

2. The Flight of Sudanese Tribes to a Lebensraum in the Niger Valley. For Press

3. The Origin of the Sennar Sultanate. For Press

4. Geographical Dictionary of the Valley of the Blue Nile. For Press

The Mahdi's movement was a natural outcome of the local institutions under the prevailing conditions with Europeans holding key posts in the Sudan Administration and consequent British Occupation in Egypt, the latter event had paved the road for further developments, and rapid changes in the nature of the rise.

This Mahdi's move is discussed in relation with foreign influencing elements, which had over-ridden the divine proclamation of the Mahdi. The foreign activities and their surroundings were responsible in one way or the other for the bloodshed and anarchy that prevailed in the country for about twenty years.

The survey presented in the third book, as outlined above, ends with the discussion of the broad lines of events up to the years of the nineteenth century with particular reference to the imperialistic struggle with its theatres in Ethiopia, East Africa, Uganda, Kenya and Congo State and French West Africa.

With the ending of the survey as such, it is not claimed that the very detailed account of events from within were fully treated but treatment is made on the turning key points in relation to agents from without.

It is hoped that the numberless problems, that are still awaiting study, would interest research workers to proceed with for the advancement of knowledge and to throw light on events which will, no doubt, be of great help in building up a sound and long term policy deeply rooted on facts, whatever these may be, for the promotion in gradual and steady stages and to fit in with the Sudan's share of responsibility in World affairs in general and African problems in particular.

C.B.A.

Cairo, December 1954.

in the maritime and colonial interests that decided this attitude, which had taken the human colour, secreting behind it economic aspects, with the power placed behind the interventionary zeal. The suppression of slavery, as a politically effective force, had undergone successive modifications during the late eighteenth and the whole nineteenth and early twentieth centuries. It was begun with human characteristics in the early eighteenth century, changing to a force of political pressure and ending with its final shape in the economic field. The fundamental basis of slave labour has never been changed, and it worked in parallel lines with the progress of industrialization. It is, therefore, rather difficult while approaching this question, to isolate it, as an historical event, from the successive modifications and from the contemporary events of each decade, which influenced the attitude and nature of the slavery question. An epitome is given, on attached Arabic table, illustrates the developments and the role it played in the international politics and imperialistic expansion.

We are mainly concerned in this study, which is confined to the Nile Valley regions, so our interest in discussing slavery comes within this field with due reference to forces from outside. A survey of Britain's use of this influencial weapon, which ended with the Slave Convention of 1877, is given in the text. Contrary to the provisions of this Convention, which was intended to regulate the abolishment of this trade, within a specified period, Gordon and his assistants, who were of inconsistant European origins, have taken drastic measures in fighting this trade with the wide powers conferred upon them, which included Summary Trials with capital punishment and confiscation of property. This attitude had resulted the destruction of the substantial economics and social advantages offered by the new Egyptian administration, which was extended to the Sudan, during the period from 1821 to 1871. The European Lieutenants appointed by Gordon, as being of his own calibre and social standing, were his subordinates, and they followed the policy initiated by him for combating this trade, as it were in its disgraceful, inhumane and painful character, as experienced in the West; Gordon in one way or the other, was wrong in his hypothesis to fight domestic slavery to end the hunting of slaves, ignoring the place of domestic slaves in the social structure of the country; its abolishment needed time for assimilation and reorganisation of labour problems. This attitude had resulted dissatisfaction and serious relapse of the developments achieved; this state of affairs, for which the policy adapted by Gordon is responsible, had given way to the accumulated forces of the ages to revive with ultimate outcome of the emergence of a Saviour who was found in the Mahdi. It is necessary to mention that the policy for combating slavery, was originally framed by the British Government.

authority had ceased to function in its own means; this state was an opportune for the remnants of the Memlukes, who were in the country some years before the extension of Egyptian Administration, to take advantage of this dissatisfaction by agitating and stirring up the factions. This had resulted in the catastrophic end of Ismail, son of Mohd. Ali, and his party at Shendi. This catastrophe is treated in the light of local traditions, tribal rituals, prevailing conditions and other factors with the conclusion that the intrigue was coined by the Memlukes and that Mek Nimr was the scape-goat and victim. The case of Ismail's death at Shendi with his party, was interpretted in different ways to serve purposes other than the truth.

The Administrative system was, however, reframed as a result of experience gained in the first thirty years, when Mohammed Said visited the country and promulgated his four decrees which laid the sound foundation of the new administration with the local chiefs and inhabitants having the full opportunity both in sharing and in handling their affairs. Unfortunately, these decrees were too late to function as planned, owing to the appearance in an effective weight of the imperialistic beliefs and desires which brought the Nile Valley within its orbit. The Great Imperialistic Powers have exercised their respective ways and means for supremacy in the Nile Valley. These powers stood aloof and appeared behind the screen pulling the wires for the requisite chance fit for interference. Britain, one of the great powers struggling with its opponent France, used its pressure on Egypt and on the Porte, for the abolishment of slavery, which was brought before the European and American public opinion in the very inhumane state known to those people, whereas, the treatment of slaves in the orient was in a quite different way than that experienced in the west. The humane treatment in the Moslem country is given in the Islamic teachings. Britain had also used other means to achieve its plans for supremacy, such as the financial crisis of Egypt, to interfere in the affairs of the country landing its troops to crush the Nationalist movement under the pretext of safeguarding the Khedivial throne and many other reasons to meet the problems brought out to end the occupation of Egypt. The state of affairs in Egypt has reflected on the Sudan which had already been, more or less, in an administration of terror for the suppression of slavery instantly.

It is place and duty to take a pause to review the question of slavery and its developments in the international field as an imperialistic and economic weapon. Britain, after having been the leading power that profitted from this trade and had maintained slavery in the vast colonies over seas, had adapted a reverse policy towards slavery and its trade. An explanation of this change is found, among other reasons,

Republic» principles which did not allow for advancement and developments in other phases of activities. No wonder, then, that the Sultanate had caused the country to be torn by the ideological and social conflicts with the decaying chieftainships and restless populace. This state of affairs was a direct result of the reliance on trade and trade only, which was restricted mainly to transit transactions, hence the country failed to produce items for exchange on a reasonable scale. This system received a fatal blow with the appearance in the Red Sea of the Portuguese and Turkish struggle for mastery of this trade route, also with the establishment of trade stations of the African coast by the European powers, who used these centres for the expansion into the interior of the Black Continent; there were also further causes emerging from within with the failure in building up a central authority and modifications of the land tenure and the machinery of oriental feudalism.

In the early years of the nineteenth century, new trends and traits have endangered the country, consequent upon the flight of the remnants of the Memlukes from Egypt in face of the new regime which had brought the Memlukes to an end. The coming of the Memlukes into the Sudan was a serious threat to the interests and welfare of both countries. So a combined effort was made to throw them out of the country and the Egyptian Administration was extended to the Sudan to restore normal conditions, on a progressive scale.

In Book Three, a survey is made of the new Egyptian Administration in which an equilibrium was vested to the Local Chiefs; this administration was the first experiment of its kind embarked upon by Modern Egypt. Actually it was in no way an expansion of exploitation as given by a number of writers. It was an organization to promote local conditions by putting an end to the tribal wars and anarchy, and to prevent foreign influence from gaining foot hold therein. It is admitted that there were mistakes which were normally expected in such an experiment. The new administration, when compared with any other European organisation in Africa, demonstrates great differences, the simplest of which is the local inhabitants of the country of the Sudan were not rejected under colour bar institutions of the Europeans, furthermore they were allowed full participation in the affairs of the country. This was because Egypt had no beliefs and desires in the sister land. The Administrative mistakes were due to the fact that they did not take into consideration, in the first stage, of the institutions and the structure of society and its interrelations, which were inherited with the accumulated forces of all ages and the country was at the time torn by feudal wars. This ignorance had caused dissatisfaction to leap out in the regions where the tribal jealousies found that the chief's

customs which allowed sons of the sisters of the ruler to ascend the throne, and that tradition had allowed the sons of local wives and daughters of the new-comers to seize power hence the Arabs were able to effect gradual modifications in the social organisation with the time going on; taking into consideration the fact that the Arabs were full of zeal for the new faith of Islam and their penetration was continious for some length of time when the country was in a state of deterioration with social strains in morals and aberration. It was, therefore, possible for the new-comers to take over the chieftainships and throw the ancient dynasties off; it must not be forgotten that the modification caused by the Arabs did not go deep into the social structures of the local societies, but coated the old traditions for a while. The provinces of Dongola or Makura had disappeared in the early years of the fourteenth century, and Alwa followed the same fate two centuries later.

Turning to the study, under review, it discusses in the first book the developments of events and their consequences as a result of culture contacts and reflections on the social structure with conflicts with old traditions and inherited rituals, which were able to revive and retain their vitality and influence conditions. This is very interesting point showing the part played by local wives and the calibre of the character of the new-comers. These points, with others, are of great value with the Sudan now emerging into a wider horizon in the international field. This emergence is throwing more responsibilities on the country, because of the serious position, it occupies in the world strategy.

It is attempted in this study, which is not pretended to be a complete one, to present the broad lines of the turning key points in the history before the rise of the Sennar Sultanate, with a survey of affairs in Ethiopia and Egypt, which have contributed to the transplantation and restoration of a central federated power with its seat at Sennar, on the Blue Nile. A discussion of the arguments relating to the vexed question of the origin of Sennar Dynasty, brings the first book to an end with the conclusion that this Dynasty was originally functioning, in one way or the other, in the region of the south-west corner of Eritrea, through which the thorough-fare linking the Red Sea ports and up country was operating.

The Second book deals with the Sennar Sultanate in its new capital, after flight from the region of Lamul; its relations with the confederated sheikhdoms on the Nile Basin are also dealt with together with the causes that contributed to the Sultanate's progress and decline. The seeds of the decline were sown with the rise of Dynasty because of its organisation and functions which were confined within the «Commercial

had set on march northwards and north-westwards; this point is left for systematic archeological work in that part of the country.

The relations between Egypt and the Sudan, as illustrated by Churchill, in his work «The River war», as resembling a palm-tree, at the top the green and fertile area of the Delta region, spreads the greenful leaves and foliage-the stem with the root of the tree begin to stretch deeply in the Sudan, need be implemented by the fact that although the circuit begins with the flowing of the Nile waters which carries life and fertility to both the Sudan and Egypt, as illustrated in the palm-tree, it does not cease its activity with the discharge of its blessings; but it changes to another energy of inspiring influence which runs back in the form of a multi-pronged torch, diffusing culture and civilisation into the upper regions of the Nile Basin. It, therefore, resembles a magnetic field flowing in one direction with its waters and coming up with the torch of culture. It is no wonder that one finds that events in one country-the Sudan or Egypt-reflects on the other, as proved by historical evidences of various decades.

It is out of the province of the study, now presented, to enter into details of the past historical events of remote ages; and it was found necessary to limit the research to begin with the destruction of the Meroitic kingdom in the middle of the fourth century of our era, when the central power had fallen in decay and the inhabitants set on flight, as a result of the invasion, which was engineered by foreign elements not originating from Aksum, of King «Aezana». The Country of Meroe was deserted and left for the adventurers and new-comers. In this central zone of the Sudan which formed the provinces directly ruled by Meroe, rival chieftainships arose and entered into conflicts with other tribes. The other provinces lying on the southern and northern borders of the Meroitic Kingdom proper i.e. Alwa and Dongola respectively, have, more or less, been attending to their daily life and the inhabitants, who were agriculturists, were not affected by the differences which stormed the chiefs.

The State of internal wars continued in the central zone for almost ten centuries during which decade, Egypt was under the mastery of foreign powers. At the end of this epoch, the Arabs, who conquered Egypt in the seventh century, began, on the rise of the Memluke to power in Egypt, to pour into the country in mass immigrations; because the Memlukes were rivals to the Arab elements. The infiltration was carried in a peaceful and steady manner without serious violance; and through intermarriage of the new-comers with the local inhabitants, the power was transfered to the sons of the Arabs by virtue of the local

INTRODUCTION

The Sudan of the Nile Valley, a vast tract of country of about one million square miles, extends from (approximately) latitude 3° to latitude 22° North i.e. between the Equator and the Tropic of Cancer, through which the river Nile stretches for about 1400 miles; the country, therefore, runs from a lacustrine area to semi-arid regions and this setting exhibits a wide variety in climate and vegetation. These geographical features of the different zones have moulded the variant sizes of economic and social institutions of the relative habitats. The story of tribal struggle and immigrations lies secreted behind this physical setting.

One finds the primitive life in the far south and gradual stages of settled conditions, north thereof, in the open country on the banks of the Nile and its tributaries; and nomadic in the regions lying on both sides of the river and in the highlands of the Red Sea littoral and in Darfur. In the highlands, there are massifs ranging from about 4000 feet to 10000 feet (above sea level).

Taking into consideration, the anomalous place of the Sudan on the Nile Basin, which forms the main artery linking the Meditterranean and the Red Sea with the heart of Africa, the country holds a strategical position, which has given access to impulses from the bordering regions of Africa horn, lake plateau, the Sahara and Egypt; and the country, with such a situation, had rendered a transformation theatre of the impetus of varied stages of civilisations and cultures, the remnants of which are traced in the transition and cradle zones of the Blue Nile Basin and on the banks of the river Nile north of Khartoum, and in refuge pockets and isolated areas which are lying at the remote and inaccessable parts amongst which are the salient lines of Dar Fung and in Tegali Hills, Dar Fertit and Mahas regions; these pockets are worthy of an exhaustive field team research.

The history of the country, particularly the northern part, is tied mainly with that of Egypt since very remote decades of history, and the history of each of the two countries forms an indispensable part of the other for various reasons which include the favourable climatic conditions prevailing in both countries, the waterways of the river Nile, their serious position in the strategy of trade between the main sea routes and the fact that the earlier inhabitants who spread over the banks of the river were, more or less, from one origin interrelated with their economical interest. One theory says that the Blue Nile Basin was the kernel/cradle zone from which or in which the inhabitants of the Valley

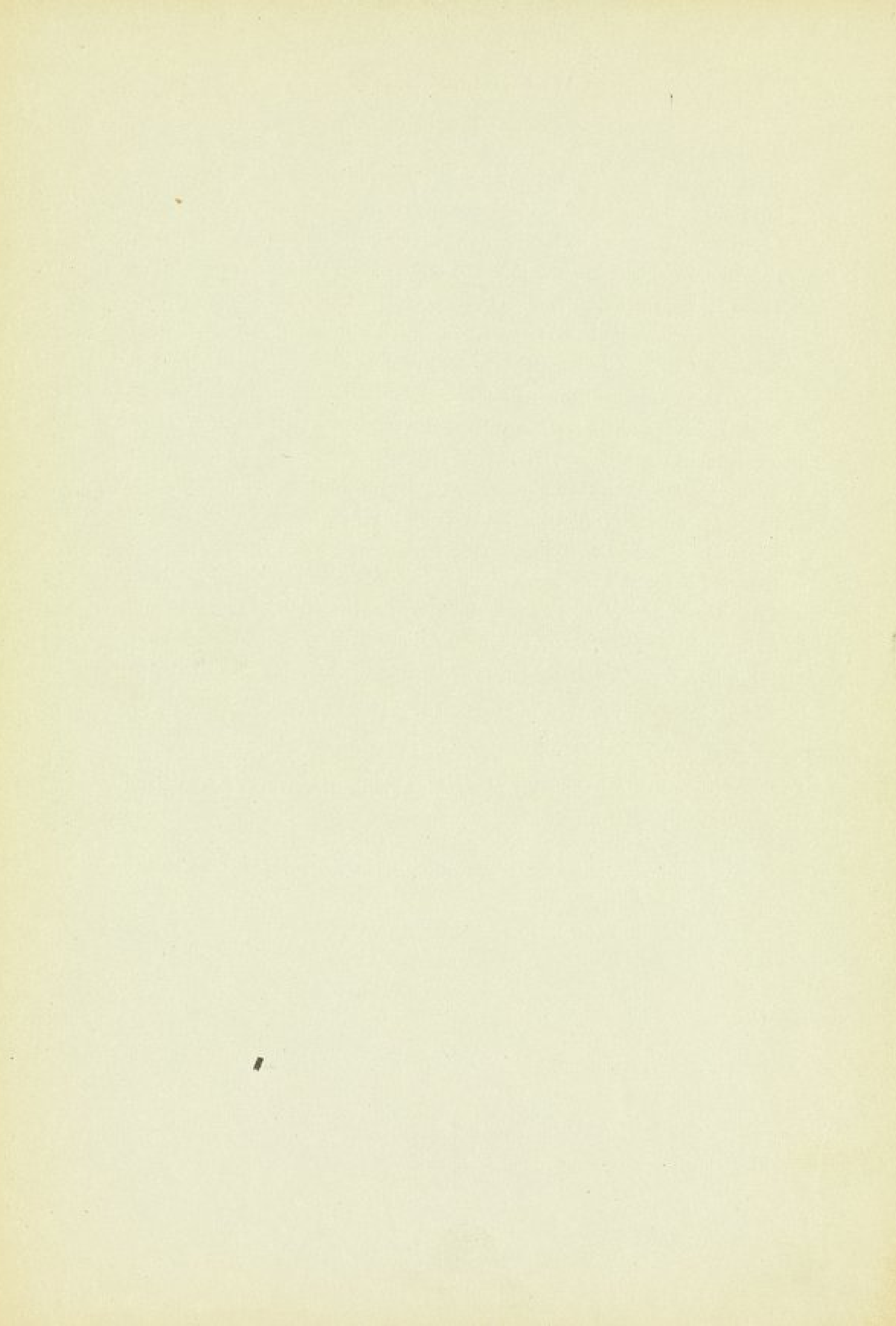
ACKNOWLEDGMENTS

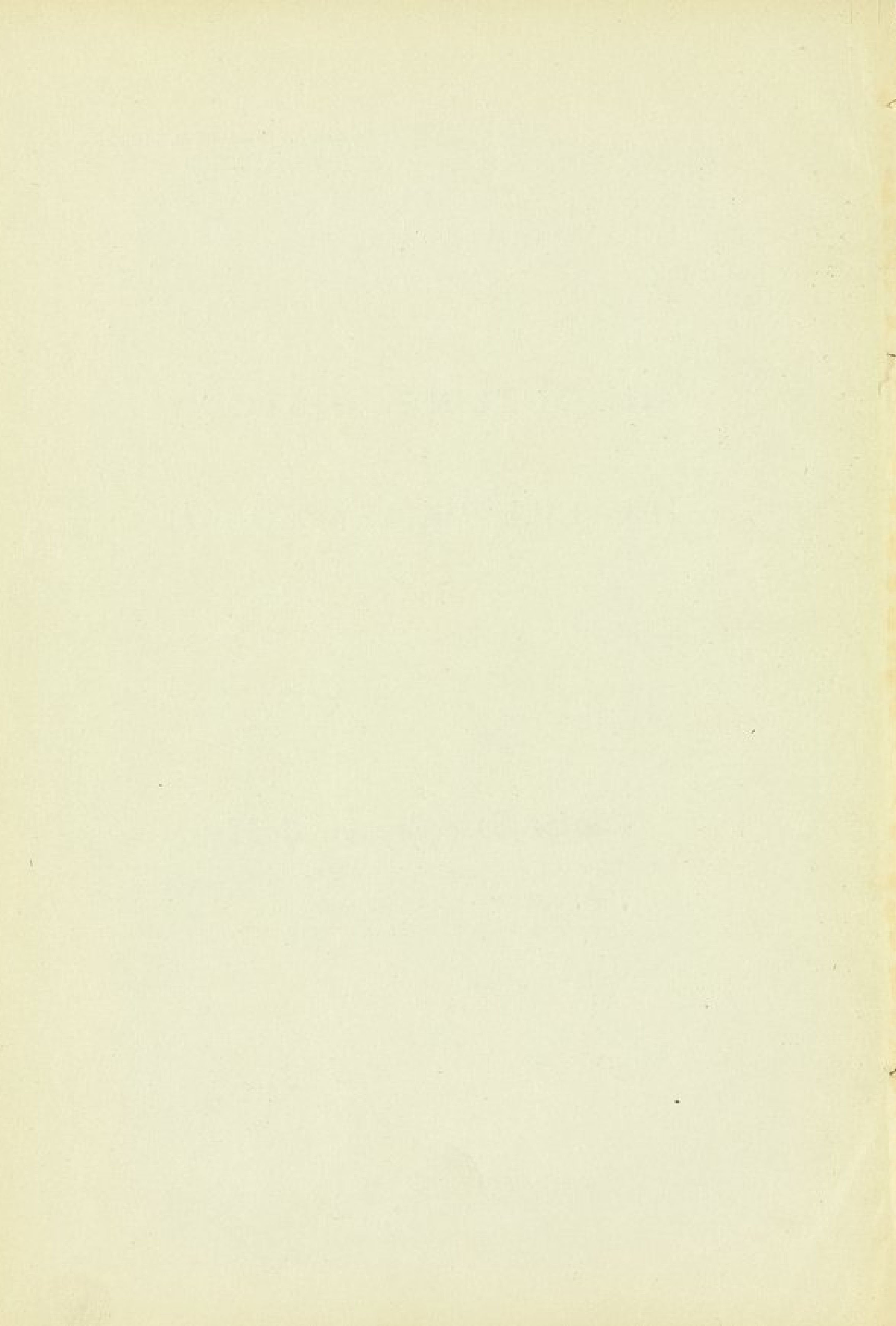
In recognition of the many obligations which were extended to me in various ways and means, I have to place on record my indebtedness to Professor Mohammed Shafik Ghorbal, Dr Mohamed Awad Mohamed, Dr. Selim Hassan, Dr. Sulliman Huzzayin, Dr. Mohammed Mitwali, Fathers Simons and Bombachi, A. J. Arkell Esq., Dr Mohammed Mahmoud Es Sayad, Sayed Salih Khalil, R.L. Hill Esq., Dr. Georgi Sobhy, Sayeds Abdul Fattah Hassan, Abdul Fattah Ibrahim, Ahmed Abdul Salam Kafafi, Dr Mohamed Ahmed Anis, Dr Abdul Magid Abdeen, Abdul Aziz Ismail, Ahmed Eisa and Badr El Deeb for patronage, Dr. Mohammed Foad Shukri for suggestions and criticism which were of great value, Dr. Hassan Osman for encouragement and promoting the work, Sheikh Yousif Ibrahim Baqoy, Sayeds Mohammed Kamil, Dr. Fred. Slezak, Mohammed Abdul Rahim, Sayed Medani Yehya, Hag El Sheikh Omar Daf'allah, Ahmed Mohammed Salih Ez Zahid, Mohammed Ahmed El Gabri, Marion Laburda, Abdul Ghani Sa'oudi, Salah Esh Shamy, Omar Mohd. Ali, Ahmed Mohammed Salama, Abdul Rahman El Faysal Chater, Yousif El Amin Eheimer, late Engineer Taha Salih, late Prof. C. C. Rossini, late Mohammed Salah Ed Din El Baghir and all those who have contributed in one way or the other towards the production of the research.

I also wish to thank Mr. Anis Abu Fadil, proprietor of Abu Fadil Press and his staff for their support in many ways.

It is admitted that there are mistakes in the print, for which my apology is submitted.

C.B.A.





SUDAN HISTORICAL STUDIES

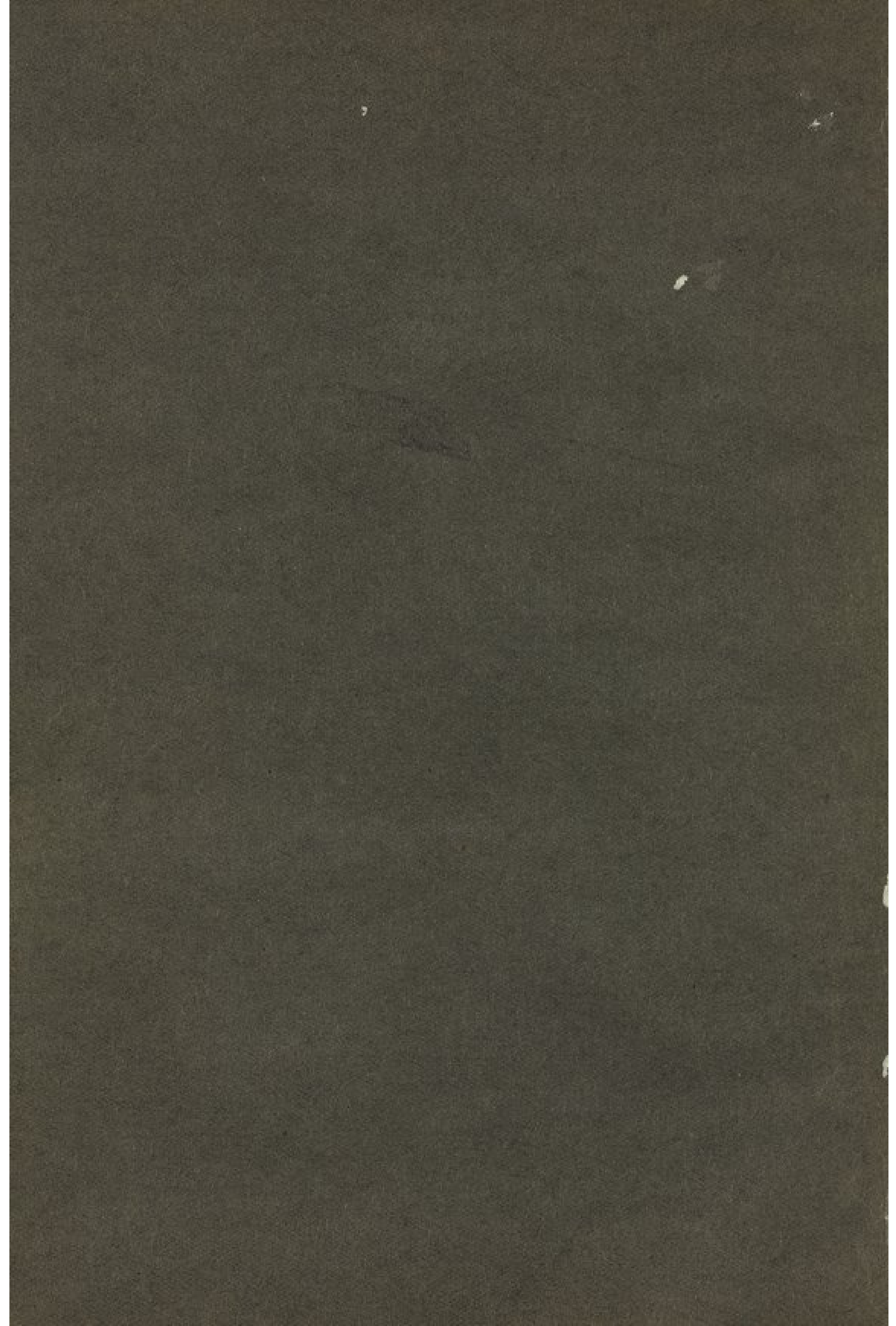
AN OUTLINE HISTORY OF THE NILE VALLEY SUDAN

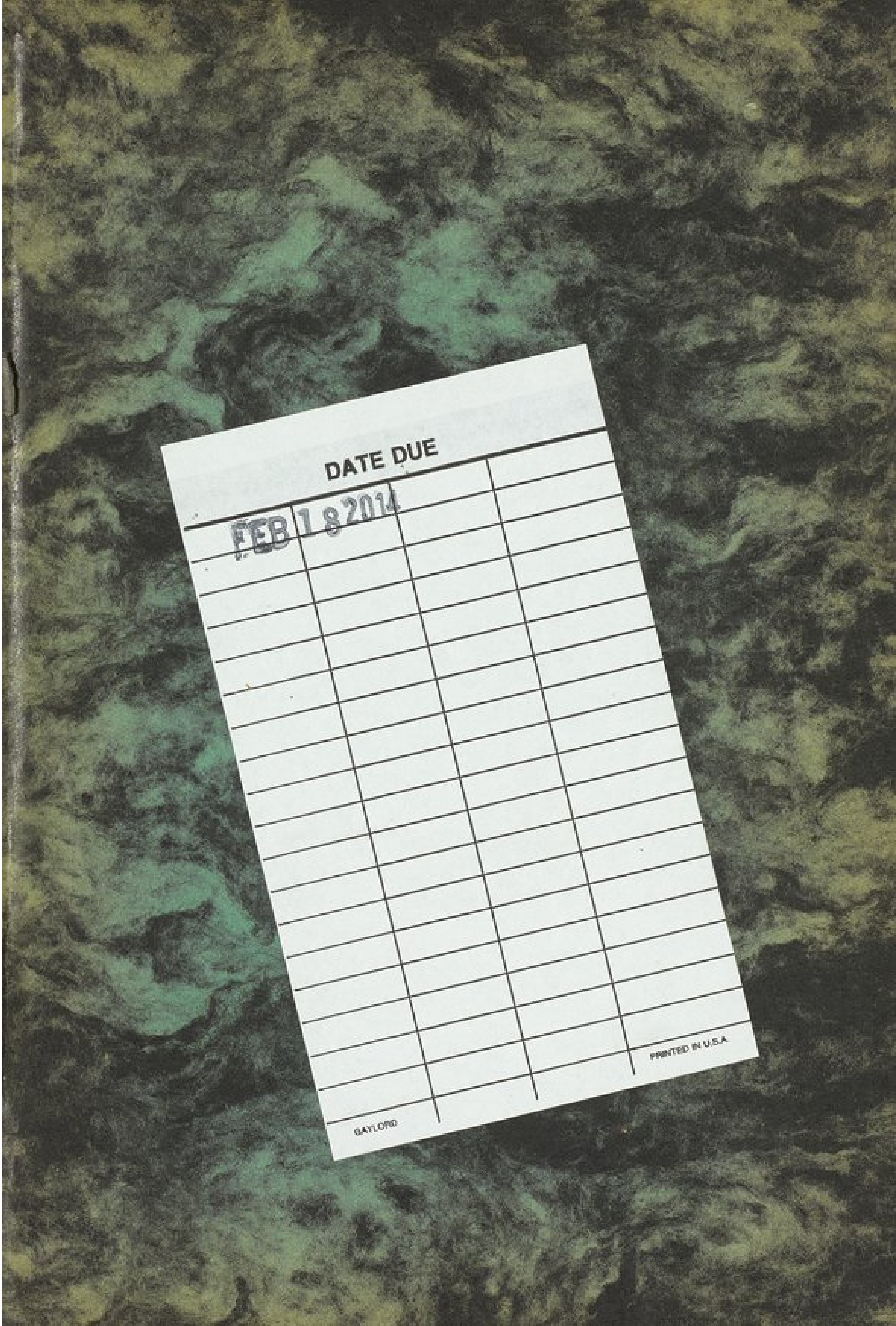
BY

Chater Bosayley A. Galil

LIBRARIAN, INSTITUTE OF SUDANESE STUDIES,
FACULTY OF ARTS, CAIRO UNIVERSITY
(Formerly of Sudan Civil Service, 1919/1951)

ABU FADIL PRESS
CAIRO 1955




DATE DUE
FEB 18 2014
GAYLORD
PRINTED IN U.S.A.



962.4
B96

ON FILM: [illegible] 33330985

OCT 3 1958

